المنظمة العربية للترجمة

آدم فيرغسون

مقالة في تاريخ المجتمع المدني

ترجمة

حيدر حاج اسماعيل

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

المنظمة العربية للترجمة

آدم فيرغسون

مقالة في تاريخ المجتمع المدني

ترجمة

حيدر حاج اسماعيل

مراجعة

هيثم غالب الناهي

الفهرسة أثناء النشر - إعداد المنظمة العربية للترجمة
فيرغسون، آدم
مقالة في تاريخ المجتمع المدني/ آدم فيرغسون؛ ترجمة حيدر حاج اسماعيل؛ مراجعة هيثم غالب الناهي.
432 ص. - (علوم إنسانية واجتماعية)
يشتمل على فهرس.
ISBN 978-614-434-054-7
1. التاريخ. 2. المجتمع. أ. العنوان. ب. حاج اسماعيل، حيدر (مترجم). ج. الناهي، هيثم غالب (مراجع). د. السلسلة.
909

Ferguson, Adam
An Essay on the History of Civil Society, Eighth Edition

المنظمة العربية للترجمة

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 5996-113
الحمراء - بيروت 2090 1103 - لبنان
هاتف: 753031 - 753024 (9611) / فاكس: 753032 (9611)
e-mail: info@aot.org.lb - Web Site: http://www.aot.org.lb

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 6001 - 113
الحمراء - بيروت 2407 2034 - لبنان
تلفون: 750084 - 750085 - 750086 (9611)
برقياً: «مرعربي» - بيروت / فاكس: 750088 (9611)
e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، آب (أغسطس) 2014

المحتويات

مقدمة المترجم 9

القسم الأول
الخصائص العامة للطبيعة الإنسانية

الجزء الأول: المسألة المتعلّقة بحالة الطبيعة.................... 15

الجزء الثاني: مبادئ حفظ النفس 27

الجزء الثالث: مبادئ الاتحاد بين البشر 35

الجزء الرابع: مبادئ الحرب والنزاع 41

الجزء الخامس: حول القوى العقليّة 51

الجزء السادس: المشاعر الأخلاقيّة 59

الجزء السابع: السعادة.................... 71

الجزء الثامن: متابعة الموضوع ذاته (السعادة) 83

الجزء التاسع: السعادة القوميّة 95

الجزء العاشر: متابعة الموضوع ذاته (السعادة القوميّة)............ 103

القسم الثاني
تاريخ الأمم البدائيّة

الجزء الأول: المعلومات عن الموضوع
مستمدّة من العصور القديمة 121
الجزء الثاني: الأمم البدائيّة السابقة
لتشريع الملكيّة 131
الجزء الثالث: الأمم البدائيّة تحت
تأثير الملكيّة والمصلحة.. 153

القسم الثالث
تاريخ السياسة والفنون

الجزء الأول: حول تأثير المناخ والموقع 171

الجزء الثاني: تاريخ المؤسسات السياسيّة 189

الجزء الثالث: الأهداف القومية عموماً والمؤسسات
وأساليب الحياة ذات الصلة بها 209

الجزء الرابع: السكان والثروة 213

الجزء الخامس: الهدر القومي 225

الجزء السادس: الحرية المدنيّة 231

الجزء السابع: تاريخ الفنون 251

الجزء الثامن: تاريخ الأدب 255

القسم الرابع
النتائج الناجمة عن تقدّم الفنون المدنيّة والتجاريّة

الجزء الأوّل: الفصل بين الفنون والمهن 269

الجزء الثاني: التبعيّة الناجمة عن
فصل الفنون والمهن 275

الجزء الثالث: أساليب حياة الأمم الثقافيّة
المصقولة والتجاريّة........................ 281

الجزء الرابع: متابعة الموضوع ذاته 289

القسم الخامس
أفول الأمم

الجزء الأول: البروز القومي المفترض، وتقلّبات
الشؤون الإنسانية 307

الجزء الثاني: الجهود الوقتيّة وظواهر
تراخي الروح القوميّة 315

الجزء الثالث: ظواهر تراخي الروح القوميّة
التابعة للأمم الثقافيّة المصقولة 321

الجزء الرابع: متابعة الموضوع ذاته 335

الجزء الخامس: الهدر القومي 345

القسم السادس
الفساد والعبودية السياسية

الجزء الأول: حول الفساد بصورة عامة........................ 353

الجزء الثاني: الرفاهية.. 363

الجزء الثالث: ظواهر فساد الروح القوميّة 371

الجزء الرابع: متابعة الموضوع ذاته (ظواهر
فساد الروح القوميّة)... 381

الجزء الخامس: الفساد وهو يجنح
نحو العبوديّة السياسيّة.. 389

الجزء السادس: التقدّم ونهاية الاستبداد 405

ثبت المصطلحات 417

الفهرس 429

مقدمة المترجم

يتناول مؤلِّف الكتاب آدم فيرغسون (Adam Ferguson) تاريخَ المجتمع المدني، ويبلي في هذا المضمار بلاءً حسناً ومشكوراً. وهو يفترض أن فكرة المجتمع المدني، بمعناها التقني، مألوفة لدى القرّاء، والمقصود القرّاء في الأقطار الأوروبية والأميركية عموماً، لا الأقطار العربية. فكلمات مثل الشعب، المجتمع (من دون تحديد) والجمهور هي أكثر شيوعاً عندنا. لذلك، لا بدّ لنا من البدء بتعريف المجتمع المدني المقصود.

أما بدايتنا النظرية فستكون من الفيلسوف الألماني هيغل (Hegel) (1770–1831). فهو كان أول من وظَّف هذا التعبير بمعنى تقني ديالكتيكي محدَّد يمكننا الوقوع عليه في كتاب منطق هيغل، وتجدر الإشارة إلى أن منطق هيغل قُصد منه وصف التغيّر في الأحداث وفي التاريخ وعرف باسم **المنطق الديالكتيكي**. وصورته المشهورة تتألف من: فكرة يتبعها نقيضها، ويتبع الفكرة ونقيضها الحلّ لهما أو المخرج. (وباللغة الإنجليزية نقول: Thesis ← Ant-thesis ← Synthesis).

وعندما طبّق هيغل منطقة الديالكتيكي المذكور على المجتمع وتاريخه ذكر الآتي: هناك أسرة ← مجتمع مدني ← دولة فالأسرة (أو الأسر) هي الأطروحة وأهم خصائصها يتمثّل في أن أفرادها يعملون لمصلحة الأسر العامة. وعندما يكبر صغار الأسر ويغادرونها ويدخلون في الساحة العامة للوطن أو للبيئة (أو ما صار يعرف بالسوق)، حالتئذٍ يكوّنون بمجموعهم المتنافر المتنابذ المتنافس ما يسمّى **المجتمع المدني**.

وبعد المجتمع المدني تكوّن الدولة لفرض النظام والعمل للمصلحة العامة الشاملة. ذلكم كان في كتب الفلسفة النظرية، وتحديداً في كتابات الفيلسوف الألماني هيغل، أما على الصعيد العملي والواقع التاريخي، فقد كانت الانفجارات الشعبية والتظاهرات التي قامت بها الجماهير في أواسط القرن الماضي في أوروبا الوسطى والشرقية تحديداً، ضدّ أنظمة الحكم الشيوعية والاشتراكية آنذاك، فهي التي أدّت إلى صياغة هذه العمْلة الفكرية - السياسية الجديدة وروّجت تداولها وصارت منذئذٍ تعرف **بالمجتمع المدني**. وما جرى في الأقطار العربية، منذ نحو الثلاث سنوات وصار يسمى «بالربيع العربي»، من تظاهرات أدّت إلى تغيّرات في الأنظمة السياسية، ما هو إلّا مشاهد خاصة بالمجتمعات العربية المدنية.

بعد هذه المقدِّمة النظرية القصيرة والسريعة والضرورية نتقدّم إلى كتاب فيرغسون حصراً لنقول: إنه كتاب جامع مانع لجهة **تاريخ المجتمع القومي**، من دون إغفال المراحل الاجتماعية - التاريخية بينهما، مثل أزمنة الغزوات والفتوحات والإمبراطورية.

ولكونه جامعاً مانعاً نقول إننا لا نستطيع أن نضيف إليه شيئاً على المستوى الفكري والمستوى العملي سوى دعوتنا لقرائنا أن يجمعوا بين قراءتهم لهذا الكتاب ومشاهدتهم ما يجري في عالمنا العربي في هذه الأيام التحوّلية العصيبة.

حيدر حاج إسماعيل

القسم الأول

الخصائص العامة للطبيعة الإنسانية

الجزء الأول

المسألة المتعلّقة بحالة الطبيعة

تتشكّل المنتوجات الطبيعية بصورة عامة على درجات. فالخضروات تنشأ من براعم طريّة، والحيوانات من حالات طفولة، ولأن هذا النوع الثاني نشيط، فإن أفراده يوسّعون عملياتهم وقواهم، ويتقدّمون في ما يقومون به وبالكفاءات التي يكتسبونها أيضاً. وعند الإنسان يستمرّ هذا التقدّم بمقدار أكبر مما هو في أي حيوان آخر. ولا يقتصر الأمر على تقدّم الفرد من الطفولة إلى الرجولة، بل إن النوع الإنساني نفسه يتقدّم من الحالة الطبيعية البدائية إلى المدنية، ومن هنا القول بخروج البشر المفترض من حالتهم الطبيعة، ومن هنا حدسنا وآراؤنا المختلفة حول ما كان عليه الإنسان في الزمن الأول لوجوده. وغالباً ما يشير الشاعر والمؤرخ والأخلاقي إلى ذلك الزمن القديم، وبرموز الذهب أو الحديد يمثّلون حالةً، أو أسلوب حياة منه انحلَّ البشر، أو تحسّنوا عليه كثيراً. واستناداً إلى أي افتراض نقول، إن حالة طبيعتنا الأولى لا تشبه ما عرضه البشر في أي حقبة زمنية لاحقة. فالآثار التاريخية الباقية، حتى تلك التي تعود إلى الزمن الأول تعتبر أشياءَ جديدةً، ولا بدّ من اعتبار المؤسسات العامة للمجتمع الإنساني في عِداد الانتهاكات التي أوقعها الخداع،

والاضطهاد، أو الابتداع الشاغل لحكم الطبيعة الذي أبقى أكبر مظالمنا ونعمنا سواء بسواء.

من بين الكتّاب الذين حاولوا أن يميّزوا الطابع الإنساني وصفاته الأصلية وإبراز الحدود بين الطبيعة والفن، وُجِد بعض منهم مثَّل البشرية في حالتها الأولى بالقول، إن الحساسية الحيوانية كانت مستحوذة عليها، من دون ممارسة القوى التي تجعلهم أعلى من الوحوش، ومن دون اتحاد سياسي، ومن دون أي وسائل لتوضيح مشاعرهم، وأيضاً من دون الحيازة على أي إدراك وعاطفة من النوع الذي يقدّر الصوت والإيماءة على التعبير عنهما. وآخرون جعلوا حالة الطبيعة ماثلةً في حروب دائمة تشعلها المنافسة على السيطرة والمصلحة، حيث يكون لكل فرد شجار منفصل مع نوعه، وحيث وجود مخلوق قرين معناه علامة معركة.

وإن الرغبة في وضع الأساس لنظام محبَّب، أو التوقّع المغرم بأنه يمكننا أن نكون قادرين على اختراق الطبيعة والوصول إلى أسرارها، إلى منبع الوجود ذاته، كل ذلك الذي دار حول هذا الموضوع أدّى إلى بحوث عقيمة وولّد عند كثيرين فرضيات غريبة. ومن بين الصفات المختلفة التي للبشر، نختار واحدةً أو عدداً قليلاً نبني عليه نظريةً، وبصياغة شرحنا عن ما كان عليه الإنسان في حالة طبيعية خيالية، نتغاضى عن ما بدا دائماً كأنه في متناول ملاحظتنا، وفي سجلاّت التاريخ.

وفي أية حالة أخرى، يعتقد المؤرخ الطبيعي أنه ملزم بجمع الوقائع، لا بتقديم الحدس. فعندما ينظر في أي نوعٍ من الحيوانات، يفترض أن نزعاتها وغرائزها هي ذاتها التي كانت لها أصلاً، وأن

أسلوب حياتها الحالي هو استمرار لهدفها الأول. فهو يسلِّم بأن تلك المعرفة بالنظام المادي للعالم تَمْثُلُ في مجموعة من الوقائع، أو على الأغلب في معتقدات عامة مستمدّة من ملاحظات وتجارب معينة، لا بما يتعلق بنفسه، وبأهم الأمور التي من السهل معرفتها، إذ يضع فرضيةً محلّ الواقع، ويخلط مناطق الخيال والعقل، والشعر والعلم.

ومن دون الدخول والتوغّل في مسائل تتعلّق بمواضيع أخلاقية أو فيزيائية، ولها علاقة بطريقة معرفتنا أو بأصلها، ومن دون انتقاص الدقة التي بها يُحلَّل كلّ شعور، ويُتابع كل نمط من الوجود حتى مصدره، قد يمكن التأكيد من دون زلل أن ميزة الإنسان، كما هو الآن، تتمثَّل في أن قوانين نظامه الحيواني والعقلي، التي تعتمد عليها سعادته الآن تستحق درسنا الرئيسي، وأن المبادئ العامة ذات العلاقة بذلك أو بأي موضوع آخر، لا تكون مفيدةً إلّا إذا كانت مبنيةً على ملاحظة صائبة، وكانت تؤدّي إلى معرفة نتائج مهمة، أو تمكننا من العمل بنجاح عندما نطبّق قوى الطبيعة العقلية أو الفيزيائية على أهداف الحياة الإنسانية.

وإذا كانت الشروح الأولى والأخيرة المجمَّعة من كل جهة من جهات الأرض تمثِّل البشر مجمعين في مجموعات وجماعات، والفرد يلتحق وبشكل دائم بفريق عبر العاطفة قد يكون في ذات الوقت مضاداً لفريق آخر، ويكون ممارساً التذكّر والتبصّر، ويميل إلى نقل مشاعره والتعرّف على مشاعر الآخرين، فإن هذه الحقائق يجب التسليم بها كأساس لتفكيرنا في الإنسان، تفكيرنا كله. مخيله الخليط نحو الصداقة أو العداوة هو عقله، واستعماله للغة

وللأصوات المصاغة الملفوظة، وهي مثل شكل جسمه وانتصابه التي لا بدَّ من درسها بوصفها صفات كثيرة لطبيعته، نعني: يجب أن تُستبقى في وصفه كما للجناح والمخلب عند النسر والأسد، وكدرجات مختلفة من العنف، والاحتراس، والجبن، أو السرعة ووظائفها في التاريخ الطبيعي للحيوانات المختلفة.

إذا كان السؤال المطروح هو: ماذا يستطيع عقل الإنسان أن يؤدّي وحده، من دون عونٍ من جهة خارجية؟ علينا أن نبحث عن أحد الأجوبة، في تاريخ الإنسانية. فالتجارب التي وُجد بأنها نافعة في إنشاء مبادئ العلوم الأخرى، قد لا تعلمنا شيئاً ذا أهمية أو جديداً حول هذا الموضوع، ونعني: علينا أن نستمد تاريخ كل كائن نشيط من سلوكه في الوضع الذي شُكِّل له، لا من ظهوره في أي حالة مفروضة أو غير مشتركة. فالإنسان المتوحّش الموجود في الغابات حيث عاش دائماً بعيداً عن نوعه، هو مثَل مفرد لا عيِّنة لأي صفة عامة. فكما أن تشريح العين التي لم تتلقَّ أبداً انطباعات الضوء، أو الأذن التي لم تشعر أبداً بوقع الأصوات، قد يكشفان عن عيوب في بنية الأعضاء نفسها، ناشئة من عدم تطبيقها على وظائفها المعينة لها. لذا، فإن أي مسألة من هذا النوع لا تبيّن إلّا الدرجة التي يمكن لقوى الإدراك والشعور أن توجد فيها إذا لم تستعمل، وما تكون عليه عيوب القلب وبلاهته عندما لا يشعر بالعواطف التي تظهر في المجتمع.

لا بدَّ من تناول البشر على شكل مجموعات، كما وجدوا دائماً. وليس تاريخ الفرد إلّا تفصيلاً من المشاعر والأفكار التي مارسها في نوعه: فلكل تجربةٍ علاقة بهذا الموضوع يجب أن تُجرى مع المجتمعات كلها، لا مع أفراد. ولدينا كل الأسباب

للاعتقاد أنه، في حال القيام بمثل هذه التجربة، فإننا سوف نفترض أنه مع مجموعة من الأطفال نُقلت من بيت الحضانة وتُركت لتشكّل مجتمعاً منفصلاً غير متعلّم وغير مهذب بنظام، سوف نحصل على الأشياء ذاتها متكررةً، وقد سبق أن حصلت في أجزاء كثيرة مختلفة من العالم. أعضاء مجتمعنا الصغير يأكلون وينامون، يجتمعون ويلعبون، ولهم لغة خاصة بهم، ويتشاجرون وينقسمون، وكل واحد منهم يبدو للآخر أهم ما يوجد في مشهده، وفي حماسة صداقاتهم ومنافساتهم يتغاضون عن الخطر الشخصي ولا يهتمون بالعناية بحفظ ذواتهم. ألم يوجد النوع البشري مثل تلك المجموعة من الأطفال التي جئنا على ذكرها؟ فمن الذي كان الموجِّه لمسيرتهم؟ ولأوامر من أصغوا؟ وأي مثل احتذوا به؟

لذلك، سوف نفترض أن الطبيعة أعطت لكل حيوان نمط وجوده، وميوله وأسلوب حياته، وقد فعلت مثل ذلك مع النوع الإنساني. والمؤرخ الطبيعي الذي يرغب في جمع صفات هذا النوع يمكنه أن يملأ كلّ مقالة الآن كما كان يمكنه أن يفعل ذلك في أي عصر سابق. فإحرازات الوالد لا تنزل في دم أطفاله، ولا يعتبر تقدّم الإنسان تغيّراً فيزيائياً في النوع الإنساني. فالفرد في كل زمان عليه أن يقوم بالسباق ذاته، فيركض من الطفولة إلى الرجولة، وكل طفل أو شخص جاهل الآن هو نموذج لما كان عليه الإنسان في الحالة الأصلية البدئية. فهو يدخل أسلوب حياته بالمزايا الخاصة بعمره، لكن موهبته الطبيعية هي ذاتها. وإن استعمال هذه الموهبة وتطبيقها في حالٍ ما تغيّر، والناس يستمرون في أعمالهم معاً متقدمين في عصور كثيرة: فهم يبنون على أُسس وضعها أجدادهم، ومع تعاقب السنين، يميلون إلى تحسين تطبيقهم لقدراتهم، الذي يتطلب

عوناً من الخبرة الطويلة، والذي جمعت له أجيال كثيرة جهودها. ونحن نلاحظ التقدّم الذي أحرزوه، ونميّزه عند قيامنا بتعداد الكثير من خطواته، ويمكننا العودة بها إلى أزمنة قديمة بعيدة، لم يبقَ سجل عنها، ولا حُفظ أي أثر تذكاري منها، لنعلم الذي كانت عليه افتتاحيات ذلك المشهد الرائع. وكانت النتيجة أنه عوضاً عن الانتباه إلى ميزة نوعنا، حيث حصل تأكيد الجزئيات بقوة مقنعة، رحنا نحاول تتبعها عبر العصور والمشاهد غير المعروفة، وبدلاً من الافتراض أن بداية قصتنا كانت تقريباً عبارة عن قطعة من سلسلة، اعتبرنا أنفسنا مجازين لرفض كل ظرف من ظروف حالتنا الحاضرة وإطارنا بوصفه عَرَضياً وغريباً عن طبيعتنا. إن تقدّم الإنسانية، بدءاً من حساسية حيوانية مفترضة، إلى الحصول على العقل، واستعمال اللغة، وعادة الاجتماع، قد رُسم بقوة الخيال وتميّزت خطواته بجسارة الإبداع، مما يغرينا لقبول مواد تاريخية كأفكار الخيال والاحتفاء، كنموذج لطبيعتنا في حالتها الأصلية، كبعض الحيوانات التي يشبه شكلها شبهاً كبيراً شكلنا[1].

فمن السخرية بالتأكيد، وكاكتشافٍ، أن نوع الحصان لم يكن مثل نوع الأسد، ومع ذلك نقول، معتمدين على ما وصلنا من أقلام الكتّاب البارزين، إننا ملزمون بالملاحظة أن البشر ظهروا بين الحيوانات، كنوع متميّز وأعلى، وأن الحيازة على أعضاء شبيهة، لا هذه ولا قرب الشكل ولا ما هو في متناول اليد[2]، ولا التواصل

---

(1) Jean Jacques Rousseau, *Discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes*.

(2) Louis de La Forge, *Traité de l'esprit de l'homme, de ses facultés et fonctions, et de son union avec le corps suivant les principes de René Descartes*.

المستمر مع هذا الفنان السيّد، مكّن أي أنواعٍ أخرى من مزج طبيعتها أو مبتدعاتها بمبتدعاته، وقد وُجِد أنه يفوقها في حالته الطبيعية، وأنه في أدنى حالات انحطاطه، لم ينحدر إلى مستواها. وباختصار نقول إنه إنسان في كل حالة، ولا نستطيع أن نتعلم شيئاً عن طبيعته من تشبيهه بالحيوانات الأخرى. فإذا رغبنا في معرفته، علينا أن ننتبه إليه، وإلى مجرى حياته، واتجاه سلوكه. فيه بدا المجتمع قديماً قدم الفرد، واستعمال اللسان بدا شاملاً وعاماً مثل استعمال اليد أو القدم. وإذا كان هناك زمنٌ تعرَّف فيه على نوعه، وفيه اكتسب قدراته، فهو زمن لا نملك سجلات عنه، وبالنسبة إليه نقول، إن آراءنا لا تنفع أي هدف، وهي غير مدعومة بدليل.

ونحن غالباً ما يغرينا الدخول في هذه المناطق غير المحدودة من الجهل أو الحدس بولعٍ يبتهج بخلق أشكال لا مجرّد استبقاء الأشكال التي تعرض أمامنا، نعني: نحن ضحايا حدّة الذهن التي تعد بتعويض كل نقص وغيب في معرفتنا، وبملئها فراغات قليلة في قصة الطبيعة وتتظاهر بتقريب إدراكنا من مصدر الوجود. وباعتمادنا على ملاحظات قليلة، نحن ميّالون إلى الافتراض أن السرّ سوف ينكشف سريعاً، وأن ما يُدعى **حكمة** (Wisdom) في الطبيعة يمكن إرجاعه (Referred) إلى عمليات القوى الفيزيائية التي تعمل متعاقبةً أو معاً، ويوحّدها هدف مفيد، وتؤلّف براهين تلك البراهين ذاتها، براهين التصميم التي منها نستدلّ على وجود الله وأنه بعد القبول بهذه الحقيقة، لا يعود علينا أن نبحث عن مصدر الوجود، فيمكننا أن نجمع القوانين التي وضعها خالق الطبيعة فحسب وفي آخر اكتشافاتنا وكذلك في أوائلها لا ندرك حسياً سوى نمطٍ من الخلق أو التدبير الإلهي الذي لم يعرف من قبل.

نحن نتكلمّ عن الفن بوصفه متميّزاً عن الطبيعة، لكن الفن في ذاته طبيعي بالنسبة إلى الإنسان. فهو، بمقدار ما، صانع لبنيته، ولثروته أيضاً وهو مُعيَّن منذ أول وجوده للاختراع والاستنباط. وهو يطبّق المواهب ذاتها على أهداف متنوّعة، ويقوم بالدور ذاته تقريباً في مشاهد مختلفة جداً. وهو، دائماً يقوم بالتحسين في هذا الموضوع، وهو يحمل هذا القصد حيثما يذهب في شوارع مدينة مليئة بالسكان، أو في الأماكن الوحشية في الغابات. ومع أنه يبدو ملائماً لكل حالة، لكن اعتمادنا على هذا الشرح، عاجز عن البقاء في أي حالة. فهو في ذات الوقت عنيد ومتقلّب، ويتذمّر من الإبداعات الجديدة ولا يشبع بالتجديد، ودائم الانشغال بالإصلاحات، ودائم الارتباط بأخطائه. فإذا سكن في كهف، فسيقوم بتحسينه وتحويله إلى كوخ، وإذا بنى فإنه سيظلّ يبني بمقدار أكبر. غير أنه يقوم بانتقالات سريعة، ولا يقترحها، وخطواته تكون تقدميةً وبطيئةً، وقوته مثل قوة الينبوع، تضغط بهدوء على كل مقاومة. وأحياناً تحصل النتيجة قبل إدراك السبب، وبموهبته في المشاريع غالباً ما يُنجز عمله قبل وضع الخطة. وتبدو إعاقته أو زيادة سرعته سيره صعبةً. وإذا تشكّى واضع الخطة من كونه معوقاً، فإن الأخلاقي يراه غير مستقر. وسواء أكانت حركاته سريعة أم بطيئة، فإن مشاهد الشؤون الإنسانية تتغيّر بشكل دائم في إدارته، ونعني: شعاره سيل عابر، لا بركة من الماء راكدة. قد نرغب في توجيه حبه للتحسين إلى هدفه الملائم، وقد نرغب في استقرار سلوكه، لكننا نخطّئ الطبيعة الإنسانية، إذا رغبنا في إنهاء العمل، أو في مشهد استرخاء أو سكون.

أشغال البشر، في كل حالة، تنطق بحرية اختيارهم، وبآرائهم المختلفة، وتعدّدية الحاجات التي تدفعهم: لكنهم يتمتعون، أو يتحمّلون بحساسية، أو بلامبالاة هي ذاتها في كل وضع مشابهٍ

تقريباً. فهم يملكون شواطئ بحر قزوين (Caspian) أو الأطلسي بسلطات مختلفة، لكن بسهولة متساوية، وعلى أحدها استقروا في الأرض، وبدوا مكوّنين لكي يستقروا فيها ويشكّلوا المدن: وكانت الأسماء التي أطلقوها على أمةٍ وعلى أرضها هي ذاتها. وبالأحرى، كانوا مجرّد حيوانات عابرة مهيّأة للتجوّل على وجه البسيطة مع قطعانهم، بحثاً عن مراعٍ جديدة وفصول طبيعية ملائمة، ولإراحة الأرض في عملهم السنوي.

ووجد الإنسان مأواه في الكهف والكوخ والقصر، ومورد رزقه في الغابات، في الأبقار أو في المزرعة. ووضع تمييز الألقاب، والحاشية، واللباس، وابتدع أنظمة حكم منتظمة ومجموعة معقّدة من القوانين، أو وجد نفسه عارياً في أحراج الغابات من دون علامة تدلّ على سموّه، سوى قوة أطرافه وحصافة عقله، ومن دون قاعدة سلوك لكنه حرّ الاختيار، ولا رابطة له بزملائه من المخلوقات سوى المحبة، محبة الرفقة والرغبة في السلامة. ومع أنه قادر على فنون متنوعة كثيرة، إلا أنه لم يعتمد أي واحدٍ منها بشكل خاص للحفاظ على وجوده. ومهما توسّع في مهنته فإنه كان يتمتّع بما يلائم طبيعته، بعد أن وجد الحالة التي مثّلت مصيره. فالشجرة التي اختارها الأميركي، على ضفاف «أورونوكو»[3](*) (Oroonoko)،

---

(3) Joseph François Lafitau, *Moeurs des sauvages américains: Comparées aux moeurs des premiers temps.*

(*) رؤية مستوحاة من قصة خيالية للكاتبة أفرا بين (Aphra Behn) (1640-1689) نُشرت عام 1688م وتتعلق هذه القصة بحب بطلٍ مستعبد من أفريقيا لمدينة سورينام (Suirnam) عام 1660م إلى الولايات المتحدة الأميركية. القاصة لم تكن محترفة بل استلهمت كتابة القصة بعد أن عادت إلى إنجلترا عقب انتهاء الحرب الهولندية الثانية عام 1670م تاركةً عملها كجاسوسة إلى تشارلز الثاني (Charles II) واستوحت قصصها من الحالات التي مرّت بها (المراجع).

اختارها للتسلق بغية التراجع والالتجاء، واستودع أسرته في مسكن ملائم. فالصوفا، والقبّة ذات القناطر والطريق ذو الأعمدة لم تكن لترضيَ سكانها الأصليين.

إذا سُئلنا أين تكون حالة الطبيعة؟ يمكننا الإجابة، بأنها هنا، ولا يهمّ، بعد ذلك، إن كنا نتكلّم في جزيرة بريطانيا العظمى، أو في رأس الرجاء الصالح أو في مضائق ماجلّان. فما دام هذا الكائن النشيط جارياً في توظيف مواهبه، وفي الاشتغال بالمواضيع التي حوله، فإن جميع الأوضاع طبيعية سواء بسواء. وإذا قيل لنا، إن الرذيلة ضد الطبيعة، يمكننا الإجابة بالقول، إنها أسوأ، وإنها حماقة وتعاسة. غير أن السؤال هو: إذا كانت الطبيعة ليست مضادةً إلّا للفن، فأي وضعٍ للنوع الإنساني تكون فيه خطوات الفن غير معروفة؟ ففي حالة المتوحش وكذلك في حالة المواطن، توجد براهين كثيرة على الإبداع الإنساني، وفي أي واحد منهما، لا توجد محطة باقية، وإنما مجرّد مرحلة قُدِّر لهذا الكائن الرحّال أن يمرّ بها. فإذا كان القصر غير طبيعي، فكذلك الكوخ، وإن أعلى حالات الإدراك السياسي والأخلاقي ليست اصطناعيةً في نوعها أكثر من عمليات الشعور والعقل الأولى.

إذا سلمنا بأن الإنسان قابل للتحسّن، ويملك في ذاته مبدأ التقدّم والرغبة في الكمال، فإنه يبدو من غير الملائم القول إنه تخلّى عن حالة الطبيعة عندما بدأ في المتابعة، أو أنه وجد محطةً لم يقصدها، في حين أنه مثل الحيوانات الأخرى، لا يتبع سوى النزعة ولا يستخدم إلّا القوّتين اللتين أعطتهما له الطبيعة.

لم تكن الجهود الأولى للإبداع الإنساني سوى استمرار لوسائل معينة استعملت في عصور سابقة للعالم وفي أكثر حالات الإنسان

بدائيةً. فما رسمه المتوحّش أو لاحظه في الغابة هي الخطوات التي أدّت بالأمم الأكثر تقدماً من هندسة الكوخ إلى هندسة القصر، وقادت العقل الإنساني من الإدراكات الحسّية إلى النتائج العلمية العامة.

كانت العيوب والنواقص المعترف بها، بالنسبة إلى الإنسان في كل حالة مكروهةً. فالجهل والبلاهة كانا موضع احتقار. والقدرة على التمييز والسلوك يضفيان الشهرة ويسبّبان التقدير. فإلى أين تؤدّي به مشاعره ومداركه حول هذه المواضيع؟ إلى التقدّم بلا شك، التقدّم الذي ينخرط فيه المتوحش والفيلسوف، الذي حقّق فيه أنواعاً مختلفة من التقدّم لكن الغايات ذاتها كانت فيها. فإعجاب شيشرون (Cicero) بالأدب، والبلاغة والإنجازات المدنية لم يكن حقيقياً أكثر من إنسان من سكيثيا(*) (Scythia) الذي له مقدار من المنح المماثلة المتناسبة مع فهمه. قال أمير تتاري: «إذا كان لا بدَّ لي من أن أفتخر[4]، فسيكون افتخاري بتلك الحكمة التي تلقيتها من الله. ذلك، من ناحيةٍ، كما أني لا أخضع لأحد في إدارة الحرب، وفي توزيع الجيوش، سواء من الخيّالة أم المشاة، وفي إدارة حركات المجموعات الكبيرة أو الصغيرة، كذلك من ناحية أخرى، أملك موهبةً في الكتابة، قد تكون أقلّ من مواهب الذين في مدن بلاد فارس الكبرى أو الهند. وعن الأمم الأخرى التي لا أعرفها، لا أتكلم».

قد يخطئ الإنسان أهداف سعيه، وقد يخطئ في تطبيق جهده، ويضع تحسيناته في غير مواضعها: وإذا وجد في مثل هذه الأخطاء

(*) استعمل اليونانيون القدامى هذا الاسم لوصف جميع الأراضي الواقعة شمال شرق أوروبا الغربية والساحل الشمالي للبحر الأسود (المراجع).

(4) Bahadur Chan Abulgaze, *Genealogical History of the Tartars*.

الممكنة معياراً يقيس به أعماله ويصل إلى أفضل حالة من حالات طبيعته، فإنه لا يجدها في ممارسة أي فرد، أو في أي أمة مهما تكن، ولا في حسّ الأكثرية، أو في الرأي السائد عند نومه. فعليه أن يبحث عنها في أفضل تصوّرات فهمه، وفي أفضل حركات قلبه، وعندئذٍ، لا بدّ له من أن يكتشف الكمال والسعادة اللذين يقدر عليهما. وسوف يجد، بعد الفحص والتدقيق، أنه يقدر عليهما، وأن حالة طبيعته الصحيحة، بهذا المعنى، ليست بالحالة التي انتقل منها البشر إلى الأبد، ولكنها تلك التي قد يحصلون عليها الآن ولكن ليس قبل ممارستهم القدرات، وإنما يحصلون عليها عبر تطبيقهم الصحيح.

من بين جميع المفردات التي نستخدمها في معالجتنا الشؤون الإنسانية، نجد أن التعبيرين: طبيعي (Natural) وغير طبيعي (Unnatural) هما أقلها تحديداً من حيث المعنى. فعلى نقيض التصنّع، والتمرّد، أو أي عيب آخر من عيوب الطبع أو الخَلق، فإن الطبيعي صفة من صفات المديح، لكنه يوظَّف لوصف السلوك الذي ينطلق من طبيعة الإنسان، ولا ينفع في تمييز شيء، لأن أفعال البشر جميعها هي نتيجة طبيعتهم. وفي أفضل الحالات، لا تستطيع هذه اللغة أن تشير إلّا إلى المعنى العام الشائع أو ممارسة البشر العامة الشائعة. ويفيد توضيح الهدف من كل بحث مهم يدور حول هذا الموضوع استعمال لغةٍ مألوفة ودقيقة. ما العادل أو الظالم؟ ما السعيد أو البائس التعيس، في أساليب البشر وعاداتهم؟ وفي أوضاعهم المختلفة، ما هو المحبَّب لديهم وما هو المعادي أو غير الملائم لصفاتهم المحبوبة؟ هذه أسئلة قد نتوقّع أن يكون لها أجوبة مقنعة ومُرْضية، ومهما تكن الحالة الأصلية لنوعنا، فإن المهم هو معرفة الحالة التي يجب علينا أن نطمح إليها، لا الحالة التي يفترض بأن أجدادنا قد غادروها.

الجزء الثاني

مبادئ حفظ النفس

إذا كانت هناك في الطبيعة الإنسانية صفات تتميّز عن كل جزء آخر من المخلوقات الحيوانية، فإن هذه الطبيعة ذاتها تتنوّع بمقدار كبير، في مناخات مختلفة وفي عصور مختلفة. هذه التنوّعات تستحق انتباهنا، كما يستحقّ مجرى كل جدول يتفرّع إليه ذلك التيّار القوي تَتبّع مصدره. ويبدو من الضروري أن ننتبه إلى الصفات العامة لطبيعتنا قبل النظر في تنوّعاتها، أو أن نحاول شرح الفروق الماثلة في الحيازة غير المتساوية للميول والقوى المشتركة بين البشر أو في تطبيقها.

الإنسان، مثل الحيوانات الأخرى له ميول غريزية معيّنة، تقودهُ، قبل إدراك اللذّة أو الألم، وقبل ما هو ضار وما هو نافع، إلى القيام بوظائف كثيرة هدفها ذاته، أو لها علاقة بأقرانه من المخلوقات. فهو يحوز مجموعةً من الميول هدفها الحفاظ عليه وعلى بقائه الحيواني وعلى استمرار نوعه، ومجموعة أخرى هدفها المجتمع. وبوصفه إلى جانب قبيلة أو مجتمع، فإنه كان باستمرار ينخرط في حرب ونزاع مع بقية البشر. فقواه المدركة، أو قدراته العقلية، التي

تدعى العقل (Reason) وتُمَيِّزهُ عن ما أعطيَ للحيوانات، وتشير إلى الأشياء حوله إما كموضوعات للمعرفة أو موضوعات استحسان أو استهجان. فهو ليس مكوّناً ليعرف فحسب، بل لكي يبدي إعجابه وازدراءه، ولإعمال عقله وهذا أكله يُعد إشارة رئيسية لشخصيته ولشخصية أقرانه من المخلوقات، كونها المواضيع التي جعلته مهتماً بالتمييز بين ما هو صواب وما هو خطأ. كما أنه يتمتع بسعادته استناداً إلى أحوال ثابتة ومحدَّدة. وكفرد منفصل أو كعضو في مجتمع مدني، لا بدَّ من أن يكون له مسار معيّن لكي يحصد الفوائد الخاصة بطبيعته. وهو أيضاً قابل لاكتساب عادات، وبإمكانه بالصبر أو بالتمرين أن يوهن، ويقوّي أو ينوِّع مواهبه ونزعاته حتى ليبدو بمقدار كبير الصانع الحاسم لمرتبته في الطبيعة، والمؤلّف لجميع التنوّعات التي تُعرض في التاريخ الفعلي لنوعه. والخصائص العامة في نفس الوقت التي أشرنا إليها الآن، يجب علينا عندما نتناول أي جزء من هذا التاريخ أن تؤلّف موضوع انتباهنا الأول، وهي لا تتطلَّب عدّاً فحسب بل لا بدَّ من درسها بشكل بارز.

الميول أو النزعات التي تحفظ الفرد، في ذات الوقت الذي تستمر فيه بالعمل بأسلوب الرغبات الغريزية، هي ذاتها في الإنسان وفي الحيوانات الأخرى، لكنها في الإنسان تجتمع عاجلاً أو آجلاً مع التفكير والبصيرة، فهي تنشئ فهمه لموضوع الملكية، وتجعله على بيّنةٍ بموضوع العناية الذي يدعوه مصلحته، فمن دون الغرائز التي تعلِّم القُنْدس والسنجاب، والنملة والنحلة أن تجمع مؤونتها للشتاء، يكون في البداية قصير النظر، وحيث لا يوجد موضوع عاطفي مباشر، يصير مدمناً على الكسل، لكنه يصبح مع مرور الزمن أعظم خازنٍ بين الحيوانات. فهو يجد في توفير الثروة، التي

لن يستخدمها، موضوع قلق عظيم ومعبوداً رئيسياً لعقله. ويفهم العلاقة بين الشخص وما يملكه التي تكون بأسلوبٍ ما جزءاً من نفسه، ومكوِّناً من مكوّنات مرتبته، وحالته وشخصيته، والتي بها قد يكون سعيداً أو غير سعيد، وباستقلال عن أي متعة حقيقية، وبمعزلٍ عن أي جدارة شخصية، قد يكون محلّ اعتبار أو إهمال، العلاقة التي قد يُجرح ويُؤذي فيها بينما يظل شخصه سالماً، وتكون كل حاجة من حاجات طبيعته مموَّنةً تموينا كاملاً.

في هذه الإدراكات عندما لا تعمل العواطف الأخرى إلّا عَرَضيّاً، يجد المهتمون أن هدف اهتماماتهم العادية هي دوافع ممارستهم للفنون الميكانيكية والتجارية. وما يغريهم على تجاوز قوانين العدالة عندما يكونون في حضيض فسادهم، هو دفعهم ثمناً لظواهر بغائهم، ومعيار آرائهم حول موضوع الخير والشرّ. وتحت هذا التأثير يدخلون، إن لم يكبحوا بقوانين المجتمع المدني، في مشهد العنف أو الوضاعة، مما يُظهر نوعنا في مظهر أكثر إرهاباً وقباحةً، أو أكثر خساسةً وحقارةً من أي حيوانٍ ورث الأرض.

ومع أن التفكير في المصلحة مبني على اختبار الحيوان لحاجاته ولرغباته، فإن هدفه ليس إشباع أي شهيّة خاصة، وإنما تأمين وسائل إشباعها كلها. وهو يفرض دائماً قيداً على الرغبات ذاتها التي نشأ منها، ويكون أقوى وأقسى من قيود الدين أو الواجب. وهو ينشأ من مبادئ حفظ الذات في الإطار الإنساني، لكنه إفساد أو نتيجة جزئية، على الأقل لتلك المبادئ، واستناداً لشروح كثيرة دُعي هذا التفكير وبشكل غير صحيح، حبّ النفس (Self-love).

الحبّ عاطفة تحوِّل انتباه العقل إلى ما وراء ذاته، وهو الشعور

بعلاقةٍ مع زميل من البشر بوصفه هدفاً. وكونه إرضاءً ذاتياً وإشباعاً مستمراً في هذا الهدف فإن له، وباستقلال عن أي حادث خارجي في غمرة الخيبات والأسى مباهجه وانتصاراته التي لا يعرفها الذين يقودهم التفكير بالمصلحة وحدها. وفي كل تغيير للأحوال، يبقى متميّزاً تميّزاً كلياً عن المشاعر التي نشعر بها إزاء موضوع النجاح الشخصي أو الحظّ العاثر. غير أنه، كما العناية التي يبديها الإنسان بمصلحته، والانتباه الذي تجعله عاطفته يدفعه لآخر، قد يكون لهما نتائج متشابهة، بعضها على حظّه والبعض الآخر على حظّ صديقه، فإننا نمزج المبادئ التي يفعل انطلاقاً منها. فنفترض أنها من نوع واحد، لكنها تشير إلى أهداف مختلفة. ونحن لا نكتفي بإساءة تطبيق اسم الحب في علاقته بالنفس، بل نحدِّد، بطريقة تميل إلى الحطّ من طبيعتنا، والهدف الخاص بهذه العاطفة الأنانية في تأمين أو تراكم مكوِّنات المصلحة، أو وسائل الحياة الحيوانية البحتة.

اللافت هو، أنه بالرغم من أن الناس يقدّرون أنفسهم كثيراً لصفات العقل، والأجزاء، والتعلّم، والذكاء، والشجاعة، والكرم والشرف، فإن هؤلاء الناس ما زالوا في أعلى درجات الأنانية والعناية بنفوسهم، وهم الأكثر عنايةً بالحياة الحيوانية، والأقل اهتماماً بجعل هذه الحياة هدفاً يستحق العناية. وعلى كل حال، نقول إنه يصعب القول لماذا الفهم الجيّد، والعقل المصمّم والكريم لا يكونان محسوبين من قِبَل كل إنسان ويشكّلون في حواسه جزءاً من ذاته، مثل معدته أو حَنَكه، أكثر من مقاطعته أو لباسه. فالإبيقوري(*) (Epicure) الذي يستشير طبيبه عن كيفية إحياء ميله

(*) أحد أتباع الفيلسوف اليوناني إبيقور (Epicurus) الذي عاش ما بين 341-270 قبل الميلاد. أما فلسفته فتتخلص في ما يأتي: هدف الحياة السعادة المتمثلة في الحياة المادئة =

للطعام، ويتمكّن عبر خلق شهيّته من أن يحدِّد استمتاعاً يمكنه على الأقل باعتبارٍ مساوٍ لنفسه، أن يستشر عن كيفية تقوية عاطفته لوالده أو الطفلة، أو لبلاده أو للبشرية، ومن المحتمل أن تحسِّن شهيّة من هذا النوع مصدر استمتاع لا يقل عن المصدر الأول.

ومع ذلك نقول، إنه، بواسطة قواعد سلوكنا الأنانية، نحن بشكل عام نستبعد أن ندخل في اهتماماتنا الشخصية، الكثير من الصفات السعيدة والمحترمة الخاصة بالطبيعة الإنسانية.

نحن نحسب العاطفة المحبّة والشجاعة نوعاً من الحماقة وتؤديان بنا إلى إهمال نفوسنا أو تعريضها، ونعتبر الحكمة ماثلةً في الاهتمام بمصلحتنا، ومن دون شرح ما تعنيه المصلحة، نرغب في أن تُفهم بأنها الدافع المعقول والوحيد للعمل مع البشر. والحالة وصلت إلى حدّ وجود نظام فلسفي مُقام على معتقدات من هذا القبيل، وهذا هو رأينا بما يمكن أن يفعله البشر اعتماداً على مبادئ أنانية نحن نرى أن لها ميلًا خطراً جداً على الفضيلة. غير أن أخطاء هذا النظام لا تَمْثُلُ في المبادئ العامة بقدر ما تَمْثُلُ في تطبيقاتها الجزيئية الخاصة، وليست ماثلةً في تعليم الناس باعتبار نفوسهم، بقدر ما هي ماثلة في جعلهم ينسون أن أسعد عواطفهم، وسلوكهم، واستقلال عقولهم هي في الواقع أجزاء منهم. أما خصوم هذه الفلسفة الأنانية، التي تجعل حبَّ النفس العاطفة المسيطرة في البشر، فلديهم مسوّغ ليجدوا خطأً، لا في أفكارها العامة المتعلقة بطبيعة البشر، وإنما في إبرازها وإقحامها بمجرد إبداع لغوي لاكتشافٍ في العلم.

= وغياب الألم. وقد علَّم أن اللذّة والألم هما المقياس لما هو خير وما هو شرّ (المترجم).

عندما يتكلّم العاديون من البشر عن دوافعهم المختلفة، يكتفون بالأسماء العادية، التي تشير إلى التمييزات المعروفة والواضحة. ومن هذا النوع نذكر المفردتين: عمل الخير (Benevolence) والأنانية (Selfishness)، وبالمفردة الأولى يعبّرون عن عواطفهم الودّية، ويعبّرون بالمفردة الثانية عن مصلحتهم. أما المفكّرون التأمليون فلم يكونوا، دائماً راضين عن هذه العملية، فهم أرادوا تحليل مبادئ الطبيعة وتعدادها. وما يحصل هو أن مجرد الحصول على ظهور شيء جديد من دون أي أمل في فائدة حقيقية، يجعلهم يحاولون العمل على تغيير تطبيق الكلمات. وفي الحالة التي أمامنا، وجدوا أن عمل الخير لا يزيد عن أن يكون نوعاً من حبّ النفس، وكانوا سيلزموننا لو أمكنهم، على البحث عن مجموعة جديدة من الأسماء يمكننا بها تمييز أنانيّة الوالد عندما يعتني بطفله عن أنانيته عندما لا يهتم إلّا بنفسه. لأنه طبقاً لهذه الفلسفة كما في الحالتين، هو لا يقصد إلّا إشباع رغبته، فهو في الحالتين أناني، سواء بسواء. ومفردة فاعل الخير في الوقت ذاته، لم توظَّف لوصف الأشخاص الذين ليس لهم رغبات خاصة بهم، وإنما الأشخاص الذين تدفعهم رغباتهم إلى إحداث مصلحة الآخرين. والواقع هو أننا لا نحتاج إلّا إلى مؤونة لغوية جديدة فحسب، بدلاً من تلك التي لا بدَّ من أن نفقدها بذلك الاكتشاف الظاهر بغية جعل عمليات تفكيرنا تستمر، كما كانت في السابق. غير أننا نقول، إنه يستحيل العيش مع الناس والعمل معهم، من دون توظيف أسماء مختلفة لتمييز ما هو إنساني عن ما هو وحشي، وتمييز فاعل الخير عن الأناني.

هذه المفردات لها ما يعادلها في كل لسان، فقد ابتدعها بشر

غير مصقولين، قصدوا أن يعبّروا عن ما أدركوه حسّياً، على نحوٍ مميّز، أو عن ما شعروا به شعوراً قوياً. وإذا حاول إنسان مفكّر أن يبرهن على أننا أنانيون بمعنى خاص به، فهذا لا ينتج منه أننا كذلك بالمعنى الموجود عند الإنسان العادي، أو كما يرغب العاديون من البشر أن يفهموا نتيجته أننا مضطرون في كل حالة للعمل طبقاً لدوافع المصلحة، والاشتهاء، والجبن، لأن هذا ما يُتصوَّر بأنه المعنى العادي للأنانية في خُلُق الإنسان.

قيل إن المحبة أو العاطفة من أي نوع تعطينا أحياناً اهتماماً بموضوعها، والإنسانية نفسها تهتم بمصلحة البشر. وهذه الكلمة «مصلحة» (Interest) التي تتضمن معنى يزيد قليلاً على معنى الملكية، تستعمل أحياناً، بصورة عامة، وعلى أنها السعادة. وإلى الآن، وفي ظلّ تلك الأمور الغامضة، ليس من المفاجئ القول، إننا ما زلنا عاجزين عن تحديد إذا ما كانت المصلحة هي الدافع الوحيد للعمل الإنساني، والمعيار الذي نميّز به ما بين خيرنا وشرّنا.

ذلكم ما قلناه في هذا الموضع، ولم يكن منطلقاً من رغبة في المشاركة في الجدل، وإنما لتحديد معنى كلمة مصلحة وحصره في أكثر معانيه قبولاً، وللإشارة إلى تعميمه لتوظيفه في التعبير عن موضوعات الاهتمام التي تشير إلى حالة خارجية، والحفاظ على طبيعتنا الحيوانية. فعندما نفهمه بهذا المعنى، لن يُعتبر بأنه يشمل، دفعةً واحدةً، دوافع السلوك الإنساني جميعها. فإذا لم يسمح للبشر بأن يكون لهم عمل خير مجرّد من المصلحة، فلن يُمنعوا من أن يكون لهم عواطف مجردة من المصلحة، ومن نوعٍ آخر. فالكراهية (Hatred) والسخط (Indignation)، والغضب (Rage) تدفعهم

بصورة كبيرة إلى العمل المضادّ لمصلحتهم المعروفة، ولتعريض حياتهم للخطر أيضاً، من دون أي أمل بالتعويض في أي عائدات في المستقبل، من أي نوع من أنواع الترقية أو الربح.

الجزء الثالث

مبادئ الاتحاد بين البشر

دائماً كان البشر يتجوّلون أو يستقرّون، يتفقون أو يتشاجرون، في مجموعات وفرق. وسبب تجمّعهم، مهما كان هذا المجتمع، هو في مبدأ تحالفهم أو اتحادهم.

وفي جمعنا مواد التاريخ، نادراً ما نكون راغبين في التخلّي عن موضوعنا عندما نجده. ونحن نكره أن يزعجنا ويحرجنا عدد كثير من التفاصيل الجزئية والتناقضات الواضحة. وفي المجال النظري، نقوم بإعلان عن بحث المبادئ العامة، وبغية إدخال مسألة أبحاثنا في مجال فهمنا، نكون جاهزين لتبنّي أي نظام. لذا، في نظرنا في الأمور الإنسانية، نرغب في استخلاص كل نتيجة من مبدأ الاتحاد، أو مبدأ الشقاق. فحالة الطبيعة هي حالة حربٍ، أو حالة محبّة، والناس يتّحدون انطلاقاً من مبدأ المحبة، أو من مبدأ الخوف، كما يلائم أنظمة الكتّاب المختلفين. وتاريخ نوعنا يظهر بمقدار كبير أنهم كانوا في ما بينهم موضوعَ خوف ومحبة. والذين رغبوا في البرهان على أنهم كانوا، أصلاً في حالة تحالف أو حرب، لديهم حجج لإثبات أقوالهم. وإن محبتنا لقسمٍ أو لفرقة أخرى مضادّة: وهذه العداوة بدورها، غالباً ما تنشأ منَ حماسٍ لصالح الجانب الذي تؤيده، ومن رغبةٍ في إثبات حقوق فريقنا.

قال مونتسكيو (Montesquieu) «وُلِدَ الإنسان في مجتمعٍ» وأضاف: «وفيه يبقى». أما المفاتن التي تبقيه حيث هو فمتعدِّدة. ومع عاطفة الوالدين، التي، بدلاً من التخلّي عن الراشدين، مثل ما يحصل عند البهائم، تعانق عن قرب عندما تصبح ممتزجة بالتقدير وذكريات آثارها الأولى، يمكننا أن نذكر دافعاً مشتركاً بين البشر والحيوانات الأخرى، وهو الاختلاط بالقطيع، ومن دون تفكير اللحاق بجمهور نوعه. ونحن لا نعرف ما كان عليه ذلك الدافع في بداية عمله، لكن يمكن مع الناس الذين اعتادوا الرفقة، أن يكون الاستمتاع به وخيباته يحسبان في عداد المتع أو الآلام الرئيسية للحياة الإنسانية. فالحزن والانقباض مرتبطان بالعزلة، أما الفرح والبهجة فيرتبطان بالتقاء البشر. وإن أثر لابلاندر(*) (Laplander) في الشاطئ الثلجي يفرح البحّار المنعزل، والعلامات الخرساء من المودّة واللطف التي رآها، توقظ ذكريات المباهج التي شعر بها في المجتمع. وفي النهاية، قال الذي كتب الرحلة إلى الشمال، بعد وصف منظرٍ صامت من ذلك النوع: «لقد كانت سعادتنا لا توصف عندما تحادثنا مع بشر، لأننا منذ ثلاثة عشر شهراً لم نرَ مخلوقاً إنسانياً»[1].

غير أننا لا نحتاج لملاحظة بعيدة لإثبات صحة هذا الموقف: فهناك عويل الأطفال ووهن الراشدين عندما يكونون وحيدين، فالمباهج الحيّة لأحدهم وفرح الآخر عند العودة إلى الاجتماع، يمثّلان برهاناً كافياً على أساسه الذي لا يتزعزع في بيئة طبيعتنا.

في شرحنا للأعمال غالباً ما ننسى أننا نحن الذين قمنا بها، وبدلاً من المشاعر التي تثير العقل في وجود هدفه نقوم بتعيين

(*) منطقة ذات ثقافة متميزة في فلندا والسويد، إذ تقع هذه المنطقة ما بين تلك الدولتين (المراجع).

(1) *Collection of Dutch voyages.*

دوافع السلوك مع الناس، وتلك الاعتبارات التي تحصل في ساعات التقاعد والتفكير الضعيف. وفي هذه الحالة النفسية غالباً ما لا نجد شيئاً ذا أهمية، باستثناء توقعات المصلحة المدروسة، والعمل الكبير مثل تشكيل مجتمع يجب بحسب فهمنا، أن ينشأ من تفكير عميق، ويُنفَّذ انطلاقاً من الفوائد التي تحصل عليها الإنسانية من التجارة والدعم المتبادل. ومع ذلك نقول، لا الميل إلى الاختلاط مع السرب، ولا الشعور بالفوائد التي يمكن التمتع بها في تلك الحالة، يشملان جميع المبادئ التي بها يتوحَّد البشر. فبنية تلك الزُّمر ذات مادة ضعيفة، عندما تُقارن بالحماسة المصممة التي تربط الإنسان بصديقه، أو بقبيلته، بعد أن اشترك أفرادها في حياة الحظوظ معاً. فالاكتشاف التعاوني للكرم والتجارب المشتركة للثبات تزيد من قوة الصداقة، وتشعل لهيباً في قلب الإنسان لا يمكن لأفكار المصلحة الشخصية واعتباراتها أو للسلامة الشخصية أن تخمده. وتُرى أقوى نشوات الفرح، وتسمع أعلى صرخات اليأس عندما تشاهد في حالة الانتصار أو حالة المعاناة. فالهندي الذي استعاد صديقه بشكل غير متوقع في جزيرة خوان فرنانديز (Juan Fernández)، سجد على الأرض عند قدميه. وقال دامبيير (Dampier): «وقفنا نحملق بصمت، في ذلك المشهد». فإذا أردنا أن نعرف ما هو دين الأميركي البرّي، وما يوجد في قلبه يكون أشبه ما يكون بالإخلاص، فإننا نقول، إنه ليس خوفه من الساحر، ولا أمله بالحماية من الأرواح في الهواء أو في الغابة: إنه في العاطفة المحبّة القوية التي خصّ بها صديقه وبها عانقه، والتي بها يظلّ إلى جانبه فلا يتخلّى عنه في كل مأزق، والتي بها يطلق روحه عن بعد، عندما تفاجئه الأخطار وحده[2].

(2) Pierre François Xavier de Charlevoix, *History of Canada.*

مهما كانت البراهين التي لدينا الخاصة بالميل الاجتماعي للإنسان في مشاهد عادية وقريبة، فمن الأهمية بمكان أن نحصل على ملاحظاتنا من أمثلة الناس الذين يعيشون في أبسط الحالات والذين لم يتعلموا أن يحبّوا ما لا يشعرون به.

مجرّد التعارف والاعتياد يغذيان العاطفة المحبة، واختبار المجتمع يجلب كل عاطفة للعقل الإنساني إلى جانبه. فانتصاراته ونجاحاته، وكوارثه وأحزانه، تولّد أنواعاً مختلفة من العاطفة وقوة لا مكان لها إلّا في الرفقة مع المخلوقات من زملائنا. فهنا ينسى الإنسان ضعفه، واهتماماته بالسلامة، ووجوده، والعمل انطلاقاً من تلك العواطف التي تجعله يكتشف قوته. وهنا يكتشف أن سهامه أسرع من النسر، وأسلحته تجرح بشكل أعمق من مخلب الأسد، أو سنّ الخنزير. فليس الشعور بالدعم القريب، ولا حسّه بالامتياز في رأي قبيلته وحدها يوحيان بشجاعته، أو يملآن قلبه بالثقة التي تزيد على ما تمنحه إيّاه القوة الطبيعية. فعواطف العداء العنيفة أو الصداقة القوية هما أول ممارسة للقوة في قلبه. فبتأثيرهما في كل شيء، باستثناء هدفه، يُنسى. ولا تعمل المخاطر والصعوبات إلا على زيادة إثارته.

لا ريب في أن تلك الحالة ملائمة لطبيعة أي كائنٍ، ففيها تزداد قوته. وإذا كانت الشجاعة هي عطية المجتمع للإنسان، فسيكون لدينا مسوّغ لاعتبار اتحاده مع نوعه الجزء الأنبل لحظّه. فمن هذا المصدر، لا تستمد قوة عواطفه الأسعد فقط، وإنما وجودها ذاته، أيضاً، ولا الجزء الأفضل من صفته العقلية فقط، وإنما صفته العقلية كلها. أرسله إلى الصحراء وحده، تجده قد تحول إلى ما يشبه النبتة

المقتلعة من جذورها: قد يبقى الشكل، لكن كل قدرة تنهار وتذوي ولا يعود هناك وجود للشخصية الإنسانية ولا للخُلُق الإنساني.

الناس أبعد ما يكونون عن تقدير المجتمع استناداً إلى فوائده الخارجية، وهم يكونون متلاقين حيث تكون تلك الفوائد غير متكرّرة، ويكونون مخلصين عندما تُدفع ضريبة ولائهم بالدم. فالعاطفة المحبة تكون في أوج قوتها عندما تلتقي بصعوبات كبرى: ففي قلب الوالد/ الوالدة تكون المخاطر والمحن التي تحيق بالطفل في حالة وسط. ويزداد لهيبها في قلب الإنسان، عندما تتطلّب مظالم ومعاناة صديقه أو بلاده عونه، وباختصار نقول، إنه بهذا المبدأ وحده يمكننا أن نشرح التمسّك العنيد عند المتوحش بقبيلته غير المستقرة والضعيفة، عندما تحاول مغريات الراحة والسلامة أن تدفعه إلى الهرب من المجاعة والخطر إلى مكان أغنى وأوفر وأكثر أمناً. ومن هنا كانت العاطفة المحبة والواثقة التي حملها كل يوناني لبلاده، وبعد ذلك، الوطنية المكرَّسة عند الروماني الأول. لنقارب هذه الأمثلة بالروح التي تحكم الحالة التجارية، حيث اختبر الناس على نحوٍ كامل مصلحة الأفراد في الحفاظ على بلادهم. فهنا يوجد الإنسان منفصلاً ومنعزلاً: فقد وجد هدفاً يجعله يتنافس مع زملائه من المخلوقات، وهو يتعامل معهم كما يفعل مع قطيعه وتربته، بهدف الأرباح التي تتيحها. فالماكنة القوية التي افترضنا أنها شكّلت المجتمع لا تفعل إلّا الميل لوضع أعضائه في حالة اختلاف، أو الاستمرار في تفاعلهم بعد تحطّم روابط العاطفة المحبّة.

الجزء الرابع

مبادئ الحرب والنزاع

قال سقراط: «ثمَّة بعض الأمور عند عددٍ كبير من الناس تظهرهم ملزمين بالصداقة والتفاهم: وهذه الأمور هي: حاجتهم المتبادلة، أحدهم للآخر، وعاطفتهم المتبادلة، وشعورهم بالمنفعة المتبادلة، والمتع التي تنشأ من الرفقة. وهناك ظروف أخرى تدفعهم إلى الحرب والنزاع، والإعجاب والرغبة اللذين يضمرونهما للمواضيع ذاتها، ومزاعمهم المتضادّة، والإثارات التي يقدمونها تبادلياً في مجرى منافساتهم».

عندما نحاول تطبيق قواعد العدالة الطبيعية لحلّ المسائل الصعبة، نجد أن بعض الحالات يمكن افتراضها، وتقع فعلياً حيث تحصل معارضات، وتكون قانونيةً، قبل أي حثٍّ، أو فعل ظلم. وأنه حيثما تكون السلامة والحفاظ على الأعداد غير متسقين تبادلياً، فقد يستعمل أحد الأطراف حقه في الدفاع قبل أن يبدأ الطرف الآخر بالهجوم. وعندما نربط بمثل هذه الأمثلة، أمثلة الخطأ وسوء الفهم، المعرّض لهما الإنسان، فقد نقنع بالقول، إن الحرب لا تبدأ دائماً من النيّة بالأذى، وأن أفضل صفات البشر حتى هذه، وإخلاصهم أيضاً وتصميمهم قد تعمل كلها في وسط نزاعاتهم وشجارهم.

لا يزال هناك المزيد مما يمكن ملاحظته حول هذا الموضوع. فالبشر لا يجدون في حالتهم مصادر الاختلاف والنزاع فحسب، إذ يبدو أنهم يحملون في عقولهم بذور الحقد، والتمسّك بفرص المعارضة المتبادلة بنشاطٍ مبتهج ومتعة. وفي أكثر الأوضاع سلميةً لا يوجد سوى قلة ليس لهم أعداء، وأصدقاء أيضاً، والذين لا تسعدهم معارضتهم لأعمال بعضهم ولا تفضيلهم تصاميم البعض الآخر. فأفراد القبائل الصغيرة والبسيطة، الذين يتمتعون في مجتمعهم الأهلي المحلّي بأمتن أشكال الاتحاد، يكونون في حالة تعارضهم مثل أمم منفصلة، غالباً ما تكون مشحونةً بأشدّ أنواع الكراهية العنيدة. فعند مواطني روما في العصور الأولى لجمهوريتهم، صار اسم الأجنبي واسم العدو متطابقان. وعند اليونانيين كان اسم البربري الذي كان يُفهم منه كل أمة مؤلّفة من عنصر مختلف وتتكلم لغةً مختلفة، موضع ازدراء ومقت شديد، من دون تمييز. وحيث لا يوجد زعم معيّن بالتفوّق، حتى في هذه الحالة، نقول إن مقتَ الاتحاد، والحروب المستمرة، أو العدوات التي لا تتوقّف التي تحصل بين الأمم البدائية والعشائر المنفصلة، تكشف عن مقدار ما يمكن لنوعنا أن يتعرّض له، وبالاتفاق أيضاً.

لقد عرَّفتنا المكتشفات الأخيرة على كل وضع وُجد فيه البشر. لقد وجدناهم منتشرين في قارات كبيرة وواسعة، حيث الاتصالات مفتوحة وحيث يمكن تشكيل اتحادات قومية بسهولة. وجدناهم في مناطق ضيّقة محاطة بجبال، وبأنهار كبيرة وخلجان بحرية. ووجدوا في جزر صغيرة، حيث يمكن للسكان أن يجتمعوا بسهولة، ويستفيدوا من اتحادهم. غير أنهم في تلك الأوضاع جميعها، كانوا موزّعين على «كانتونات» (تجمّعات)، ولهم أسماء مختلفة ومجتمع

مختلف. فلقب المواطن الزميل (Fellow Citizen) ولقب مواطني البلاد (Countrymen) غير المتعارضين مع لقب غريب (Alien) وأجنبي (Foreigner) اللذين يشيران إليهما، سوف يُساء استعمالهما أو يفقدان المعنى. فنحن نحبّ الأفراد لصفاتهم الشخصية، لكننا نحب بلادنا، باعتبارها جزءاً في أقسام البشرية، وحماستنا لمصلحتها هي ميلٌ لصالح الجانب الذي نصونه ونساعد على استمراره.

في اللقاء المختلط وغير المميّز للناس، يكفي أن تكون لنا فرصة لانتقاء صحبنا. فنبتعد عن الذين لا يختلطون بنا، ونثبّت هدفنا حيث يكون المجتمع أقرب إلى عقلنا. ونحن مغرمون بالتمييزات، ونحن نضع أنفسنا في المعارضة، ونتشاجر تحت أسماء الفرق والحزب، من دون أي موضوع مادي للنزاع والجدل. فالكراهية مثل المحبة تتعزَّز بتوجيهها المستمرّ نحو هدفها. والفصل والإقصاء، وكذلك التعارض، ظواهر توسّع صدعاً لم ينشأ من أي إساءة. ويبدو أن نحوّل البشرية إلى حالة الأسرة، أو جد بعض الأفكار الخارجية التي تحفظ رابطتها بأعداد كبيرة، فإنها سوف تظلّ، وإلى الأبد، موزَّعةً إلى فرق، وتشكّل مجموعة من الدول.

الشعور بوجود خطر مشترك، وغارات من عدوّ، كانا مفيدين للأمم في أغلب الأحيان، عبر توحيد أعضائها بقوة، ومنع الانشقاقات والانفصالات الفعلية التي قد ينتهي إليها خلافهم المدني. وهذا الدافع إلى الاتحاد، الذي يأتي من الخارج، قد يكون ضرورياً في حالة المجتمع الصغير في الدول الصغيرة، لا في حالة الأمم الكبيرة الواسعة فحسب، حيث تضعف التحالفات بداعي المسافة، والتمييز في أسماء المناطق. فروما نفسها أسّسها فريق صغير نزل من جبال الألب، وكان مواطنوها يعايشون خطر

الانفصال غالباً، ولو أن قرى وكانتونات الفولسكي(*) (Volsci) أبعدت عن مشهد نزاعها، لكان المونتي سكرو(**) (Mons Sacer) حصلوا على مستعمرة جديدة، قبل أن يكتمل نضج البلد الأم لمثل ذلك التحرير. واستمرت، ولمدة طويلة، بالشعور بالنزاعات بين نبلائها وشعبها، وأبقت بوابات يانوس (Janus) مفتوحة، لتذكير تلك الأطراف بواجباتهم نحو بلادهم.

لأن المجتمعات، وكذلك الأفراد، تتحمل ويتحملون مسؤولية الحفاظ على نفسها والحفاظ على نفوسهم، ولأن لها ولهم مصالح مختلفة تؤدّي إلى نشوء ظواهر الحسد والمنافسة، فإننا لا نُفاجأ بنشوء عداوات من ذلك المصدر. غير أنه، حيث لا توجد عواطف حانقة، من نوع مختلف، فإن العداوات والأحقاد التي ترافق معارضةً مصلحية، لا بدَّ لها من أن تتناسب مع القيمة المفترضة للموضوع. فكولبنْ (Kolben) قال: «أمم الهوتنتوت(***)

(*) ويطلق عليها اسم Vulci وهي مدينة لاتينية في مقاطعة فيتربو شمال روما - إيطاليا. وكان يقطنها قبيلة أو شعب يعتبر واحداً من الشعوب الأسطوريون الاثني عشر للحضارة الأترورية (المراجع).

(**) تلفظ باللاتينية مونتي سكرو (Monte Sacro) وهي تلّة في روما-إيطاليا على ضفاف نهر آنيين (Aniene)، استمدت اسمها من كونها موقعاً للطقوس الدينية. وقد اشتهرت هذه المدينة عام 494 قبل الميلاد خلال فترة الصراع الطبقي في روما القديمة، حيث تمّ فيها فصل النبلاء عن العوام من الناس وعادت الأمور لتسير بعد تسوية بمنح عوام الناس حقّ انتخاب القضاة، وكانت هذه التلّة تستخدم كمنبر لتعبير العوام من الناس عن هواجسهم (المراجع).

(***) رُعاة من مواطني جنوب غرب أفريقيا عاشوا فيها منذ القرن الخامس قبل الميلاد وحين غزت أوروبا أفريقيا واستعمرتها نقلت بعضهم إلى أوروبا عام 1652 لممارسة الزراعة الواسعة في منطقة الكاب (Cape Region) مع قطعان كبيرة من الماشية، عندها وصفوا هوتينيتو المرادف صوتياً لكوكيكو (Khoekhoe)، وهذا المصطلح يعتبر مهنياً لأنه يرمز إلى العبودية (المراجع).

(Hottentot) تعتدي إحداها على الأخرى من طريق سرقة المواشي والنساء، لكن نادراً ما يرتكب مثل هذا الأذى، إلّا بقصد إثارة سخط الجيران، ودفعهم إلى حرب». مثل ظواهر النهب هذه لا تؤلّف أساساً لحربٍ، فهي نتائج قصد معادٍ معروف. وأمم أميركا الشمالية التي لا تملك قطعاناً للحفاظ عليها، ولا مستعمرات للدفاع عنها، هي، مع ذلك، انخرطت في حروب دائمة، بلا سبب سوى مسألة الشرف، والرغبة في متابعة الصراع الذي حافظ عليه الآباء. فهي لا تعتبر سلب عدو، والمحارب الذي حصل على غنيمة، يتوزّعها مع أول شخص يصادفه في طريقه[1].

غير أننا لا نحتاج لقطع المحيط الأطلسي بغية إيجاد براهين على الحقد والعداء، وملاحظة تأثير العواطف الحانقة التي لا تنشأ من تعارض المصالح في تصادم المجتمعات المنفصلة. فلا يوجد في الطبيعة الإنسانية جزء من طابعَها يشكّل أمثلة أثيمة عنه في ذلك الجزء من الكرة الأرضية. فما الذي يتحرّك في قلوب العاديين من البشر عندما تُسمّى أعداء بلادهم؟ ومن أين تصدر الأضرار التي تحصل بين مناطق، وكانتونات وقرى مختلفة في الإمبراطورية نفسها والمقاطعة ذاتها. وما الذي يثير نصف أمم أوروبا ضدّ النصف الآخر؟ قد يوضح رجل الدولة سلوكه استناداً إلى دوافع الغيرة والحذر القوميين، غير أن أفراد الشعب لهم ما يمقتون وما لا يحبّون، وهذا ما لا يستطيعون شرحه.

فسخطهم على الخيانة والظلم، مثل نهب الهوتنتوت، وعلامة العداوة، ولغة سلوكٍ معادٍ سبق تصوّره. وتهمة الخوف والجبن، وهما

(1) Pierre François Xavier de Charlevoix, *History of Canada*.

الصفتان اللتان يرغب العدوّ المهتم والحذر، من بين كل الآخرين أن يجدهما في منافسه، يُحَثّ على مقتها، وجعلت أساساً للكراهية. اسمع الفلاحين على جانبي جبال الألب، والبيرينيس (Pyrenees)، ونهر الراين (Rhine)، أو القنال البريطاني، وهم يطلقون انحيازاتهم، وعواطفهم القومية. ففي وسطهم نجد مواد الحرب والنزاع من دون توجيه من الحكومات، وهذه المواد تتحوّل إلى لهيب غالباً ما يكون رجل الدولة مضطراً لإطفائه. ولا تصل النار دائماً إلى حيث توجهها تعليلات الدولة، ولا تتوقف حيث ينتج تلاقي المصالح تحالفاً. قال أحد الفلاحين الإسبان: «سيخرج والدي من قبره، لو رأى حرباً مع فرنسا». فما هي المصلحة عنده، أو مصلحة عظام والده في شجارات الأمراء؟

تبدو هذه الملاحظات متهمةً لنوعنا، وأنها تقدِّم صورة غير محبَّبة عن البشر، ومع ذلك نقول، إن الجزئيات التي ذكرناها تتَّسق مع الصفات المحبَّبة لطبيعتنا، وغالباً ما تقدِّم مشهد سكان أميركا الشمالية الذين لا يملكون قطعاناً للحفاظ عليها، ولا مستعمرات للدفاع عنها، ومع ذلك انخرطوا في حروب دائمة، لا يستطيعون أن يقدِّموا لها سبباً، سوى مسألة الشرف، والرغبة في متابعة الصراع الذي بدأه أجدادهم. فهم لا يعتبرون المنهوبات من العدو سرقةً، والمحارب الذي ألقى القبض على أي من الغنائم لن يتخلّى عنها لأول شخص يصادفه[2].

تبدو هذه الملاحظات متهمةً نوعنا، ومعطيةً صورة غير محبّبة عن البشر، ومع ذلك، فإن الجزئيات التي ذكرناها متّسقة مع الصفات الأحب في طبيعتنا، وغالباً ما تجهّز مشهداً لممارسة أعظم قدراتنا. فمشاعر الكرم، ونكران الذات هما اللذان ينفخان في المحارب

(2) Charlevoix, *History of Canada.*

روح الدفاع عن وطنه وهناك التصرفات التي يفضلها الناس على كل ما عداها، صارت مبادئ عداوة واضحة بين الناس. فكل حيوان خُلق لكي يبتهج في ممارسة مواهبه وقواه الطبيعية. فالأسد والنمر يلعبان بالمخلب، والحصان يفرح بإطلاق شعر عنقه للريح وينسى عشبه ليجرب سرعته في الميدان، والثور قبل أن يُسلَّح جبينه، والحَمَل وهو ما يزال شعاراً للبراءة لهما نزعة للنطاح بالجبهة، ويتوقعان في اللعب والنزاعات التي عليهما أن يخوضاها. وكذلك الإنسان جاهز للمعارضة، ولاستخدام قوى طبيعته ضد منازعٍ مساوٍ، وهو يجب أن يبرهن على كفاءة عقله، وبلاغته، وشجاعته، وأيضاً قوته الجسدية. وألعابه الرياضية غالباً ما تكون على صورة حرب، والعرق والدم يهزمان في اللعب، وغالباً ما تنهى الكسور أو الموت، وقد يحصل بالتالي الكسل والابتهاج. فهو لم يُخلق ليعيش إلى الأبد وحبّه للتسلية، حتى هذا يفتح طريقاً إلى القبر.

فمن دون تنافس الأمم، وممارسة الحرب ما كان المجتمع المدني ليستطيع أن يجد له هدفاً، أو شكلاً. فكان يمكن للبشر أن يتبادلوا التجارة من دون مواثيق رسمية، لكنهم لا يكونون في أمان اتفاق وانسجام قوميين. أثارت ضرورة الدفاع العام أهميةَ إنشاء دوائر كثيرة للدولة وأوجدت المواهب الفكرية للناس مشهداً شغلها لاستخدام قواها القومية. فالإرهاب أو التخويف، أو المقاومة بثبات وجَلَد، عندما نعجز عن الإقناع بالعقل، كانت المشاغل التي مارسها العقل القوي بحيوية وحقّقت أعظم انتصاراته. ومن لم يتصارع مع زملائه من البشر، هو غريب لا يعرف نصف مشاعر البشر.

الواقع أن شجارات الأفراد غالباً ما تكون نتيجة عمليات عواطف

غير سعيدة وممقوتة، وماكرة، وكارهة وحَانَقة. وإذا استحوذت مثل هذه العواطف على القلب، يصير مشهد الشقاق هدفاً للإرهاب، لكن معارضة عامة تقوم بها أعداد تُهدّأ، وبشكل دائم، بعواطف من نوع آخر. فمشاعر المحبّة والصداقة تمتزج مع الحقد والعداء، ويصير النشطاء والمتحمّسون حراساً لمجتمعهم، ويصير العنف ذاته، في حالتهم، ممارسةً للكرم كما للشجاعة. فنحن نستحسن، ما يصدر عن الروح القومية أو الحزبية، وما لا نطيقه نتيجةً لكره خاص. وفي غمرة ظواهر التنافس بين الأمم المتنافسة، نعتقد أننا وجدنا للإنسان الوطني وللمحارب في ممارسة العنف والاستراتيجية أفضل سيرة للفضيلة الإنسانية. وهنا حتى المعارضة الشخصية تتفق مع حكمنا على جدارات الرجال. والأسماء المتنافسة، أسماء أجيسيلوس (Agesilaus)، إبامينونداس (Epaminondas)، سكيبيو (Scipio) وهنيبعل (Hannibal)، تتكرَّر في مديح متساوٍ، والحرب ذاتها، التي تبدو مميتةً، في إحدى النظرات، تبدو في نظرةٍ أخرى ممارسةً لروحٍ ليبرالية. وفي النتائج ذاتها التي نأسف عليها، توجد واحدة أخرى تفسد النظام بها حدّد خالق الطبيعة خروجنا من الحياة الإنسانية.

قد تفتح هذه التأمّلات وتدخل وجهة نظرنا في الحالة الإنسانية، لكنها تميل إلى تسويتنا مع سلوك القضاء والقدر، لا جعلنا نغيّر موقفنا، وذلك حيث نحاول انطلاقاً من احترامٍ لمصلحة زملائنا من البشر أن نهدّئ من عاداتهم، ونوحّدهم بروابط المحبة. وفي هذا المسعى الخاص بالقصد المحبّ، قد نأمل، في بعض الحالات، أن ننزع العواطف الحانقة، عواطف الغيرة والحسد، وقد نأمل أن ندخل في قلوب الأشخاص الأفراد مشاعر الإخلاص مع زملائهم من البشر وميلاً إلى الإنسانية والعدالة. غير أنه يبدو من العبث أن

نتوقّع أننا نستطيع أن نوفِّر لجمهور الناس حسّاً بالاتحاد في ما بينهم، من دون القبول بعداوة من يعترضهم. فإذا استطعنا، حالاً، وفي حالة أي أمة، أن نطفئ نار المنافسة المُشعلة من الخارج، فقد يكون علينا أن نحطم أو نخلخل روابط المجتمع في الوطن، ونختتم أكثر مشاهد الانشغالات والفضائل القومية انشغالًا

الجزء الخامس

حول القوى العقليّة

جرت محاولات كثيرة رمت إلى تحليل النزعات التي عدّدناها الآن. غير أن أحد أهداف العلم الذي قد يكون أهمها، لربما يُخدم، عندما يحصل إنشاء لوجود نزعة. ونحن يهمّنا وجوده الواقعي، وتهمنا نتائجه، لا منشأه، أو بطريقة تشكّله.

يمكن تطبيق الملاحظة ذاتها على قوى وقدرات طبيعتنا. فوجودها وتوظيفها هما الهدفان الرئيسيان لبحثنا. ونحن نقول، إن التفكير والتعقّل هما عمليتان لقدرة ما، لكن بأي شكل تظل قدرات التفكير أو التعقّل عندما لا تمارس، أو بأي فرق في البنية تكون غير متساوية عند أشخاص مختلفين، هذه أسئلة نحن عاجزون عن حلِّها. فليس إلّا عملياتها تكشف عنها، وعندما لا تطبق تلك القدرات، تظلّ خافيةً حتى عن الشخص الذي تخصّه. وفعلها هو جزء من طبيعتها، حتى إن القدرة ذاتها، وفي حالات كثيرة، نادراً ما تُميَّز عن عادةٍ مكتسبة من طريق ممارستها المتكررة.

الأشخاص المنشغلون بمواضيع مختلفة والذين يكونون في مشاهد مختلفة، يبدون حائزين على مواهب مختلفة، بصورة عامة، أو على الأقل يكونون حائزين على القدرات نفسها المشكّلة على

نحوٍ متنوّع، وملائمة لأهداف مختلفة. والعبقرية الخاصة بالأمم، وكذلك بالأفراد، يمكن بهذا الشكل أن تنشأ من حالة حظوظها وحظوظهم. ومن المناسب أن نحاول إيجاد قاعدةٍ ما، بها نحكم على ما هو مدهش في قدرات البشر، أو محظوظ في مجال تطبيق قدراتهم قبل أن نغامر بإطلاق حكمٍ على هذا الجانب من جداراتهم، أو ندّعي قياس درجة الاحترام التّي قد يطالبون بها عبر إنجازاتهم المختلفة.

إن تلقّي المعلومات الحسية، قد يكون أول وظيفة لحيوان له طبيعة فكرية. وإن أحد الإنجازات الكبرى للكائن الحيّ تَمْثُلُ في قوة أعضائه الحيوانية وحساسيتها. وإن اللذات أو الآلام التي يتعرَّض لها من هذا الجانب، تؤلّفان بالنسبة إليه فرقاً مهماً بين الأشياء التي عرفها. ويهمه أن يميّز جيداً، قبل أن يلزم نفسه بتوجيه يخصّ شهيّته. عليه أن يفحص موضوعات حسّ من الحواس بواسطة إدراكاته للآخر، ويفحص بالعين قبل أن يحاول اللمس، ويستخدم كل وسيلة من وسائل الملاحظة قبل أن يقوم بإشباع شهيّات العطش والجوع. فالإدراك المميّز المكتسب من طريق الخبرة يصير قدرةً من قدرات عقله. ويجب أن لا تُميَّز استدلالات الفكر أحياناً عن الإدراكات الحسية.

نقول إن الأشياء التي حوّلنا بالرغم من مظاهرها المنفصلة لها علاقات. فهي توحي، عندما تُقارن، بما لن يحدث عندما تُدرس منفصلةً. فهي لها نتائجها، وتأثيراتها المتبادلة. وهي تعرض، في الظروف المتشابهة عمليات متشابهة ونتائج منتظمة. وعندما نجد ونعبّر عن النقاط التي يَمْثُلُ فيها انتظام عملياتها نكون قد أكّدنا

وجود قانون فيزيائي. والكثير من مثل هذه القوانين حتى أهمها يعرفها العاديون من البشر، وندركها بأقل درجة من درجات التفكير. غير أن سواها يكون مخبوءاً في ما يبدو اختلاطاً، تعجز المواهب العادية عن إزالته، لذا تكون مواضيع درسٍ، وملاحظات طويلة، وقدرة عليا. وقدرات النفوذ الإدراكي والحكم يوظّفها رجال الأعمال، والعلماء أيضاً لفكّ ألغاز من ذلك النوع. ودرجة الحصافة أو الذكاء الممنوحة لكل منهما، يجب قياسها بالنجاح الذي به كانوا قادرين على إيجاد قواعد عامة، ويمكن تطبيقها على أنواع متعدّدة من الحالات التي يبدو أنها لا تشترك بشيء، ولاكتشاف تمييزات مهمة بين مواضيع يستطيع الإنسان العادي خلطها.

فهدف العلم يتمثَّل في جمع عددٍ من الأمثلة الجزئية تحت عناوين عامّة، وإرجاع عددٍ من العمليات المختلفة إلى مبدئها العام. وفعل الشيء ذاته، على الأقل، مطلوب من إنسان اللذة أو إنسان العمل ويبدو أن المُجِدّين والنشيطين يوظِّفون في المهمة ذاتها، بدءاً من الملاحظة والخبرة إلى إيجاد النظرات العامة التي في ضوئها يمكن درس مواضيعهم، والقواعد التي يمكن تطبيقها تطبيقاً مجدياً على تفاصيل سلوكهم. وهم لا يطبّقون دائماً مواهبهم على مواضيع مختلفة، ويبدو أنهم مميَّزون بشكل رئيسي بما وصلوا إليه مما هو غير متساوٍ، وبتنوّع ملاحظاتهم، أو بمقاصدهم المتعددة في جمعها.

في حين يستمر الناس في العمل انطلاقاً من الشهوات والعواطف المؤدية إلى الحصول على غايات خارجية، فإنهم قلمّا يتخلّون عن النظر لأشيائهم بالتفصيل، والتوغّل في طريق البحوث

العامة. فهم يقيسون مقدار قدراتهم باليقظة التي يدركون بها ما هو مهم في كل موضوع، وبالسهولة التي بها يخلّصون أنفسهم في كل مناسبة تجريبية. ولا بدَّ من الاعتراف، أن هذه بالنسبة إلى من يكون مصيره متمثِّلاً في العمل في غمرة الصعوبات، هي الاختبار المناسب للقدرة وللقوة. وعرض الكلمات وأشكال التفكير العامّة التي تحمل أحياناً مظهر مقدار كبير من العلم والمعرفة، لا قيمة له في إدارة الحياة. فإن المواهب التي منها تصدر تنتهي بتباهٍ لا أكثر ولا أقلّ، وهي نادراً ما ترتبط بذلك الإدراك العالي الذي يطبّقه النشيطون في أوقات الحيرة والارتباك، وبجسارة وقوة العقل المطلوبين في المشاهد الصعبة لاجتيازها.

وعلى أي حال نقول، إن قدرات النشيطين لها نوع مماثل للمواضيع المشتغلة فيها. فالذكاء المطبَّق على الطبيعة الخارجية وغير الحية يشكّل نوعاً من القدرة، والتي تحوَّل إلى المجتمع والشؤون الإنسانية تشكّل نوعاً آخر. فشهرة الأجزاء في أي مشهد تظلّ ملتبسة المعنى، إلى أن نعرف نوع البذل الذي اكتسبت به تلك الشهرة. ولا شيء يمكن أن يُضاف في مدحنا البشر ذوي القدرات العظمى أكثر من القول، إنهم فهموا فهماً جيداً المواضيع التي طبقوها. وكل دائرة من دوائر المعرفة، وكل مهنة، لها رجالها العظام، إذا لم يكن هناك اختيار لموضوعات الفهم ولمواهب العقل، وأيضاً، لمشاعر القلب، وعادات خاصة بالشخصية النشيطة.

إن المهن الوضيعة تنسى أحياناً نفسها، أو بقية الناس، وإنها تنتحل وهي في سبيل امتداح ما تمتاز به كل صفة من حقّ المطالبة بوصفها حقّ القدرات العليا. وكل ميكانيكي هو رجل عظيم مع

المتعلّم، والمعجب المتواضع، في مهنته الخاصة، ونحن يمكننا بتأكيد أكبر، أن نقول ما يجعل الإنسان سعيداً ومحبوباً أكثر، ما يجعل قدراته محترمة وعبقريته موضع إعجاب. وهذا، استناداً إلى النظرة الموهوبة لأنفسهم قد يكون مستحيلاً. ومهما يكن من أمر، فإن الأثر سيُبرز قاعدةَ حكمنا ومعياره. فأن ينال الإنسان إعجاباً واحتراماً معناهما أن يكون له سيادة بين الناس، أما المواهب التي تسبب تلك السيادة، فهي تلك التي تؤثر في البشر، وتخترق وجهات نظرهم، وتمنع رغباتهم، أو تحبط خططهم. فالقدرة الأعلى تقود بطاقة أعلى إلى حيث يجب أن يذهب الفرد، وتبيّن للمتردّدين والمحتارين طريقاً واضحاً يؤدّي إلى الحصول على غاياتهم.

هذا الوصف لا يخصّ حرفة أو مهنة بحدّ ذاتها، وقد تتضمن نوعاً من القدرة تجعل التطبيقات المنفصلة للبشر على مهن خاصة تميل إلى كبحها أو إضعافها. فأين نجد المواهب الملائمة للعمل مع الناس في جسمٍ جمعي، إذا فتّتنا هذا الجسم إلى أجزاء، وحصرنا رصدّ كل جزء بمسارٍ منفصل؟

المهنة أو الوظيفة الرئيسية للإنسان لطبيعته بوصفه عضواً في مجتمع، وبوصفه صديقاً أو عدواً تتمثّل في أن يعمل وهو ناظر لزملائه من البشر، ويكون مفكّراً بالشعب، وقدم له كل شعوره وفكره كعضو في مجتمع كصديق أو كعدو. فإذا كان عليه أن يعمل لكي يبقى، فإنه لن يبقى لهدف أفضل من خير البشر، ولا يكون له مواهب أفضل من التي تؤهّله للعمل مع الناس. والواقع هو أنه هنا يبدو الفهم مقتبساً كثيراً من العواطف. وهناك سعادة في السلوك في الأمور الإنسانية، يصعب التمييز فيها بين يقظة العقل عن حماسة

القلب وحساسيته. وعندما يتحدان يؤلفان سيادة العقل، التي لا بد أن يحدد استمرارها بين الناس في عصور وأمم من التقدّم الذي أحرزاه في التأمل أو في ممارسة الفنون الميكانيكية والليبرالية، ومعدّل عبقريتهم، ويعيّن رمز انتصار الامتياز والشرف.

عندما تتعاقب الأمم في مجرى الاكتشافات والبحوث، تكون الأمة الأخيرة هي الأكثر معرفة. وتدريجياً تتشكّل فروع علمية، وتعبر الكرة الأرضية ذاتها بدرجات، وتاريخ كل عصر، وعندما يمضي يكون حائزاً على معرفة أكثر من معرفة الذي قبله. فالرومان كانوا ذوي معرفة أوسع من معرفة اليونانيين. وكل باحثٍ في أوروبا الحديثة بذلك المعنى، هو أكثر علماً من أكثر الأشخاص معرفةً والذين حملوا تلك الأسماء المشهورة. غير أن السؤال هو: هل يفوقهم لذلك السبب؟

يجب عدم تقدير الناس بحسب معرفتهم، وإنما بقدرتهم على العمل والإنجاز، وبمهارتهم في ملائمة المواد لأهداف الحياة المختلفة، وبقوتهم وسلوكهم في متابعة أهداف الخطط، وفي إيجاد وسائل الحرب والدفاع القومي. وفي مجال الأدب، وحتى في هذا المجال، يجب تقديرهم عبر أعمال عبقريتهم، لا عبر مقدار معرفتهم. فمشهد الملاحظة وحده كان محدَّداً تحديداً متطرّفاً في الجمهورية اليونانية، وشدّة الحياة الناشطة بدت متناقضة مع البحث: ومع ذلك، جمع العقل الإنساني، هناك أعظم القدرات، وحصل على أفضل معلوماته في غمرة العرق والغبار.

الأمر الفريد الخاص بأوروبا الحديثة، هو وضعها الكثير من الطابع الإنساني على ما يمكن تعلّمه في العزلة، ومن معلومات

الكتب. وإن الإعجاب بالأدب القديم، والرأي المفيد أن الشعور الإنساني، والعقل الإنساني، من دون ذلك العون، كان زائلاً من مجتمعات البشر، كل ذلك أدخلنا في الظُلمة، حيث نحاول أن نستمد من الخيال والدرس ما يعتبر في الواقع مسائل خبرةٍ وشعور، ونحاول عبر قواعد اللغات الميتة، ومجرى المفسّرين أن نتوصّل إلى جمالات الفكرة والخطابة، التي نشأت من الروح الحيّة للمجتمع، وتمَّ الحصول عليها من الانطباعات الحيّة للحياة الناشطة. وغالباً ما تكون تحصيلاتنا محدودةً بعناصر كل علم، ونادراً ما تبلغ حدّ توسيع القدرة والقوة اللتين لا بدَّ من أن توفرهما المعرفة النافعة. ومثل المختصين بالرياضيات، الذين يدرسون مبادئ إقليدس (Euclids) لكنهم لا يفكرون بنفس القياس؛ نحن نقرأ عن المجتمعات، لكننا لا نقترح العمل مع الناس. ونحن نكرِّر لغة السياسة، لكننا لا نشعر بروح الأمم، ونحن نعتني بالأشكال الرسمية للنظام العسكري، لكننا لا نعرف كيف نشغِّل أعداداً من البشر لتحقيق أي هدف عبر استراتيجية أو قوة.

غير أنه قد يُقال لأي غاية يتم إبراز شرّ لا يمكن معالجته؟ فإذا طلبت الأمور القومية بذل جهد، فإن عباقرة الناس يستيقظون، لكن في حالة تراجع التوظيف الأفضل، فإن الوقت المخصَّص للدرس، حتى لو لم يكن له أي نفع آخر يفيد في ملء ساعات الفراغ، وببراءة، وضع حدود للسعي وراء تسليات مدمِّرة وتافهة. ولا يوجد سبب أفضل من هذا، وهو أننا نوظِّف الكثير من سنواتنا الأولى تحت السلطة، لكي نكتسب ما ليس متوقعاً وجوب أن نستبقيه بعد عتبة المدرسة. وفي حين ترانا نحمل الصفة التافهة في دراساتنا والتي نحملها في تسلياتنا، فإن العقل الإنساني لا يعاني

من احتقار الحروف أكثر مما يعاني من الأهمية الزائفة التي تُضفى على الأدب، بوصفه يعمل للحياة، لا كمساعدٍ لسلوكها، ووسائل تشكيل الشخصية التي تكون سعيدة في ذاتها، ومفيدة للبشرية.

وإذا كان ذلك الوقت الذي يمرّ في تخفيف قوى العقل والامتناع عن أي شيء سوى ما يضعف ويفسد، وظِّف في تقوية تلك القوى، وفي تعليم العقل على إدراك أهدافه، وقوته، فعلينا في سنوات النضج أن لا نكون في حالة ضياع. لعدم وجود ما يشغلنا، وأن لا نسيء استخدام مواهبنا في الاهتمام بحظوظنا في طاولة لعب، أو إطفاء النار التي تظل في القلب. وعلى الأقل نقول، إن الذين لهم مشاركة في حكم بلادهم بداعي وظائفهم، قد يعتقدون أنهم قادرون على العمل. وقد تجد الدولة وجيوشها ومجالسها أهدافاً كافية لتسليتها من دون تعريض أي حظّ شخصي للتهكلة، لمجرد شفاء رغبات الحياة غير المحدودة وغير المهمة. يستحيل الحفاظ الى الأبد على نبرة التفكير، ويستحيل أحياناً الشعور بأننا نعيش بين الناس.

الجزء السادس

المشاعر الأخلاقيّة

بملاحظة بسيطة لما يجري في الحياة الإنسانية، لا بدَّ لنا من أن نستنتج أن الاهتمام بموارد الرزق بغيةَ البقاء هو المصدر الرئيسي لأعمال الإنسانية. وقد أدّى هذا الاعتبار إلى خلق الفنون اليدوية وممارستها. كما أفاد في التمييز بين التسلية والشغل، ونادراً ما يدخل كثيرون في المنافسة بأي موضوع آخر يمكن اتّباعه أو الاهتمام به. فالفوائد الرائعة للملكية وللحظ، عندما تجرّد من ما تستمده من توافه، أو نقول إن الاحترام الكبير والجدّي للاستقلال والسلطة، لا يعني إلّا توفير ما يؤدّي إلى المتعة الحيوانية، وإذا أبعدت عنايتنا بهذا الموضوع، فسوف تتوقف دراسات العلماء لا أعمال الحرفيين اليدويين فحسب وكل دائرة من دوائر العمل العام لا تعود لازمة، وسيقفل كل مجلس شيوخ أبوابه، ويُهجر كل قصر.

هل الإنسان بالنظر إلى هدفه يقتضي أن يُصنَّف مع الوحوش، ولا يُميَّز إلا بالقدرات التي تؤهلّه لزيادة المبتدعات من الوسائل لدعم الحياة الحيوانية وملاءمتها، وبمقدار الخيال الذي يجعل العناية بالبقاء الحيواني له أثقل مما هو للقطيع الذي يشاركه في

سخاء الطبيعة؟ فإذا كانت تلكم هي الحالة، سيؤلف الفرح الذي يحصل عند النجاح، أو الأحزان التي تنشأ من خيبات الأمل، مجموع عواطفه. فإذا افترضنا، جدلاً هذه الحالة، فإن الفرح الذي يرافق نجاحه، أو الأحزان التي تنشأ من خيبة الأمل أو الفضل، سيؤلّفان مجموع عواطفه. فالسيل الذي يجرف ممتلكاته، أو الغمر الذي يغنيها سيعطيانه كلّ العاطفة التي تغمره في حالة حدوث شيء سيىء يضعف حظوظه، أو حصول منفعةٍ تحفظها وتوسّعها. ولا يكون هناك اعتبار لاقترانه من المخلوقات إلا بمقدار ما يؤثّرون في مصلحته. فالربح والخسارة يفيدان في إضفاء علامة على كل تعاقد، والصفتان نافع (Useful) ومضرّ (Determinantal) يفيدان للتمييز بين زملائه في المجتمع، مثل تمييز الشجرة التي تحمل الكثير من الفاكهة عن الشجرة التي تثقل التربة، أو تعترض نظرته.

على كل حال إن هذا ليس تاريخ نوعنا. فما يصدر عن مخلوق قرين يُتلقّى بعاطفةٍ خاصة، وإن كل لغة تزدخر بمفردات تعبّر في تعاقدات الناس عن شيء مختلف عن النجاح والفشل. فالقلب يتوهّج في الجمع، لكن المصلحة ليس لديها ما تشعله. والأمر التافه في حدّ ذاته يصير مهماً، عندما يعمل على إضاءة نوايا الناس وطباعهم. والغريب الذي يعتقد أن عطيل [أوثيلو] (Othello)، على المسرح، غضِب لفقدانه منديله لم يكن مخطئاً أكثر من المفكّر الذي يعزو أي واحدة من عواطف الناس العنيفة إلى مجرد الربح أو الخسارة.

يجتمع الناس للبحث في شؤون الأعمال، ويبتعدون عن ظواهر الغيرة والحسد الخاصة بالمصلحة. غير أنهم، وهم منغمرون

في صداماتهم المتعدّدة سواء أكانوا أصدقاء أم بوصفهم أعداء، تظهر نار، لا تقدر أن تحصرها اعتبارات المصلحة والسلامة. فقيمة المصلحة لا تُقاس عندما تُدرك مشاعر اللطف، كما أن كلمة الحظ السيىء (Misfortune) ليس لها إلّا أوهى المعاني، عندما تُقارن بكلمة ازدراء (Insult) وخطأ (Wrong).

وبوصفنا فاعلين أو متفرّجين، فنحن مخلوقون لكي نشعر بالفرق في السلوك الإنساني، ومن مجرد تلاوة التعاقدات التي حصلت في عصور وفي أقطار بعيدة عن بلادنا، نحن يحرّكنا الإعجاب والشفقة، أو ينقلنا الحنق والغضب. وإن حساسيتنا المتعلّقة بهذا الموضوع تضفي جمالها في حالة التقاعد أو الانعزال، على علاقات التاريخ وعلى الروايات الشعرية، وترسل دموعَ التعاطف، وتمنح الدم أقوى حركاته، والعين أقوى لمحات الترح أو الفرح. فهي تحوِّل الحياة الإنسانية إلى مشهدٍ لافت، وبشكل دائم تحثّ كأصدقاء، على المشاهد التي تُمثَّل أمامهم. وبارتباطها بقوى التأمّل والتفكير، تؤلّف الأساس الخاص بالطبيعة الأخلاقية. وفي حين تفرض لغة المديح واللوم، نراها تخدم في تصنيف زملائنا المخلوقين بواسطة أفضل التسميات التي تثير الإعجاب والافتنان أو بأبشع التسميات وأحقرها.

إنه لأمر مفرح أن يوجد رجال ينكرون في تأمّلاتهم واقع التمييزات الأخلاقية، وينسون تفصيلياً الأوضاع العامة التي يحتفظون بها، ويطلقون السخرية، والحنق والازدراء، كما لو أن أيّاً من هذه المشاعر يمكن أن يكون لها موضع، حيث تكون أفعال الناس غير مبالية، أو يتظاهرون أنهم بالقسوة يمكنهم أن يكشفوا

الاحتيال الذي به فُرضت القيود الأخلاقية، كما لو أن انتقاد الاحتيال لم يكن جزءاً مشاركاً في الأخلاق(1).

هل نستطيع أن نشرح المبادئ التي بها يفضل البشر بين الشخصيات، والتي بالاعتماد عليها ينغمرون في عواطف عنيفة من الإعجاب أو الازدراء؟ وإذا سلّمنا بأننا لا نستطيع، هل تكون الوقائع أقل صدقاً؟ أو، هل علينا أن نعلّق حركات القلب إلى أن يكتشف العاملون في تكوين أنظمة العلم المبدأ الذي منه تصدر تلك الحركات؟ فإذا احترق إصبع، فنحن لا نهتم بمعلومات خاصة بصفات النار، وإذا تمزّق القلب، أو اهتاج العقل فرحاً، فليس لدينا وقت فراغ لتأملات تختصّ بمواضيع الحساسية الأخلاقية.

والحظ في هذا، كما في مواد أخرى ينطبق عليها التأمل والنظرية، هو أن تسير الطبيعة في مجراها، بينما يكون محبّو الاستطلاع مشغولين في البحث عن مبادئها. فالفلاح، أو الطفل، يمكنه التفكير، والحكم والتكلّم بلغته بدقة، واتّساق، واعتبار للتشبيه، مما يحيّر المنطقي، والأخلاقي، والعالم بقواعد اللغة، عندما يجدون المبدأ الذي قامت عليه الأحداث، أو عندما يجمعون المألوف في قاعدة عامة، وبذلك يدعم في الحالات الجزئية. فالسعادة في سلوكنا مردّها الموهبة التي نملكها الخاصة بالتفاصيل، وإلى ما توحي به المناسبات الجزئية، لا لأي توجيه يمكننا أن نجده في النظرية والتأملات العامة.

وتحمُّل هذا العار سيوفر علينا دائماً مقداراً كبيراً من المشاكل

(1) Mandeville.

التي لا جدوى منها. ومع الشعور بوجودنا، علينا أن نقبل بالكثير من الظروف التي نعرفها في ذات الوقت، وبنفس الأسلوب، التي تؤلف واقعياً نمط وجودنا. فكل فلاّح سيخبرنا أن للإنسان حقوقه، وأن انتهاك هذه الحقوق ظلم، وإذا سألناه سؤالاً إضافياً عن ما تعني كلمة حق (Right)؟ فمن المحتمل أن نخبره عن وضع بديل محله ذي معنى أقل وتكون ملاءمته أقل، أو نطلب منه التعبير عن النمط الأصلي لفكره، وعن الشعور الذي يشير إليه في المطاف الأخير عندما يوضح نفسه، عند أي تطبيق جزئي للغته.

قد ترتبط حقوق الفرد بعددٍ من المواضيع، ويمكن فهمها تحت عناوين مختلفة. فقبل إنشاء المُلْكية، والتمييز بين المراتب، كان للبشر حقّ بالدفاع عن أشخاصهم، والعمل بحرية. كان لهم الحق بالحفاظ على مدركات العقل ومشاعر القلب، ولم يكونوا يستطيعون أن يترابطا معاً للحظةٍ من دون الشعور بأن المعاملة التي يبدونها أو يتلقّونها قد تكون منصفةً أو غير منصفة. وعلى كل حال ليس يهمنا تطبيق فكرة الحق، وإنما النظر في الشعور بالاستحسان الذي تتمتّع به تلك الفكرة في العقل. فإذا صحَّ أن البشر توحِّدهم الغريزة، وأنهم يسلكون في المجتمع انطلاقاً من عواطف اللطف والصداقة، وإذا صحَّ أنه قبل تعارف البشر واعتيادهم كانوا يشاركون في الأشياء التي ينتبهون إليها وبدرجة ما من الاحترام، وأنه عندما كان يُنظر إلى ما يملكون بعدم اهتمام، فإن أحزانهم كانت تعالج بالمواساة. وإذا قيست الكوارث بالأعداد وصفات البشر فيها، وإذا كانت كل معاناة لمخلوق تجتذب جمهوراً من المشاهدين المهتمين، وفي حالة الذين لا نتمنى لهم عادةً أي خير إيجابي، وإذا بقينا كارهين أن نكون أدوات أذى، فسوف يبدو أنه في تلك المظاهر

المختلفة الخاصة بالسلوك السلمي يتأسّس الإدراك الأخلاقي تأسيساً كافياً، وأن الشعور بالحق الذي يظل حقنا يمتدّ عبر حركة إنسانية وبإخلاص يشمل زملاءنا من المخلوقات.

ما الذي يدفع اللسان، عندما نستهجن وننتقد عملاً وحشياً أو ظلماً؟ ما الذي يؤلف امتناعنا عن الإساءات التي تُحزن زملاءنا؟ قد يكون السبب في الحالتين ماثلاً في تطبيق خاص لذلك المبدأ، الذي يفيد أنه في وجود الأحزان أذرفُ دموع الحنوّ والشفقة، وفي مجموعة من المشاعر التي تؤلف سلوكاً خيرياً. وإذا لم يكن ثمّة قرار يقضي بعمل الخير، فهناك على الأقل نفور من صيرورة أداة الأذى[2].

قد يصعب تعداد الدوافع وراء جميع حالات اللوم والمديح التي تنطبق على أفعال البشر. وحتى عند ممارستنا للأخلاق فإن كلّ تصرف العقل البشري قد يكون هو نصيب تشكيل الحكم والرأي وحثّ اللسان. غالباً ما تكون الغيرة الحارس المراقب للعفّة، وكذلك

---

(2) يُقال لنا، إن البشر مكرَّسون للمصلحة، وهذا ينطبق ويصحّ في جميع الأمم التجارية. غير أنه لا يتبع ذلك، أنهم برغبتهم الطبيعية ينفرون من المجتمع والمحبة المتبادلة، والبراهين المضادّة موجودة حتى حيث يكون النصر للمصلحة. فكيف يجب أن نفكر بقوة تلك النزعة للحنوّ والشفقة، وللإخلاص، وإرادة الخير، التي بالرغم من الرأي الشائع والمفيد أن سعادة الإنسان تَمْثُلُ في امتلاكه أكبر نصيب ممكن من الثروة، والألقاب ودرجات الشرف ما تزال تبقي الأطراف المتنافسة على تلك الأشياء على مستوى من المحبة المقبولة، وتقودهم للامتناع حتى عن خيرهم المفترض، عندما يكون الحصول عليه، مضرّاً بالآخرين؟ وماذا يمكن أن نتوقّع من القلب الإنساني في ظروف تمنع هذا الفهم لموضوع الحظ، أو بتأثير رأي ثابت وعام كالسابق، يفيد بأن السعادة الإنسانية لا تَمْثُلُ في الانغماس في الشهوة الحيوانية، وإنما في ما يخصّ القلب المحسن، لا في الثروة والمصلحة، وإنما في احتقارهما، وفي الشجاعة والحرية اللتين تصدران عن ذلك الاحتقار، والموصولين باختيار حاسم لسلوك موجَّه لخير الإنسانية، أو لخير ذلك المجتمع الذي ينتمي إليه ذلك الطرف؟

فإن الحقد هو غالباً ما يكون أسرع جاسوس يبحث عن زلّات جارنا. فالتظاهر والخيلاء قد يمليان القرارات التي نصدرها، وأسوأ مبادئ طبيعتنا قد تكون في أساس حماستنا المزعومة للأخلاق. غير أننا إذا لم نقصد إلّا أن نسأل عن السبب الذي وراء الذين يميلون للبشرية، في كل حالة، فإن حقوقاً معينةً تخص زملاءهم من المخلوقات، وسبب استحسانهم الذي يُضفى على تلك الحقوق، لا يستطيع أن يحدِّد سبباً أفضل أكثر من القول إن الشخص الذي استُحسن، ميّال لمصلحة الأطراف التي تشير إليها استحساناته. وعلى كل حال إن الاستحسان معناه التعبير عن شعور خاص، وهو تعبير عن التقدير ونقيضه الاحتقار، وهدفه الكمال الذي هو نقيض القصف أو العيب. وهذا الشعور ليس حب الإنسانية، بيد أنه الشعور الذي به نقدِّر صفات البشر، وأهداف سعينا، هو الذي يضاعف من قوة كل رغبة أو نفور، عندما نعتبر هدفه يميل إلى الارتقاء بطبيعتنا أو الانحدار بها.

عندما نفكّر أن واقع أي نزعة حبيّة سلمية في العقل الإنساني قد نوقشت تكراراً، وعندما نتذكّر شيوع المنافسات اللافتة مع عواطفها المصاحبة وعواطف الغيرة، والحسد والحقد، فقد يبدو أمراً غريباً الزعم بأن الحبّ والحنوّ أو الشفقة كانا بعد الرغبة في السموّ يمثلان أقوى الدوافع في القلب الإنساني نعني: أنهما كانا يحثّان في مناسبات كثيرة، وبعنفٍ لا يُقاوم. وإذا كانت الرغبة في الحفاظ على النفس ثابتةً ومنتظمة، فإنهما سيكونان مصدراً ثريّاً للحماسة والرضا والفرح. وبقوة لا تقل عن قوة الحنق والغضب، اللذين يدفعان العقل لكل تضحية بالمصلحة، ويجعلانه غير خائفٍ عند كل صعوبة وخطر.

النزعة التي قامت عليها الصداقة تتوهَّج بالرضا في ساعات الهدوء أو السكون، وهي سارّة، لا في انتصاراتها فحسب بل في أحزانها أيضاً. فهي تنفخ عظمةً في الهواء الخارجي، وبتعبيرها على الملامح، وتعوِّض عن الحاجة إلى الجمال، وتضفي فتنةً لا يضاهيها أي مظهر أو ملامح. من هذا المصدر تستمدّ مشاهد الحياة الإنسانية سعادتها الرئيسية، ومحاكاتها في الشعر هي زينته الرئيسية. فأوصاف الطبيعة، وحتى أشكال تمثيل السلوك القويّ، والشجاعة الرجولية، لا تحرّك القلب وتشغله، إذا كانت ممتزجةً بعرضٍ لمشاعر كريمة، والمحزن المثير للشفقة الذي ينشأ في الصراعات، والانتصارات، أو محن العاطفة الرقيقة. فموت بوليتس (Polites)، في الإنياده (*Aeneid*) ليس مؤثراً ومحركاً للمشاعر أكثر من هلاك آخرين في خرائب طروادة، غير أن بريام (Priam) المعمَّر العجوز كان حاضراً، عندما ذُبح هذا الابن الذي كان آخر أبنائه. وآلام الحزن والأسى أجبرت الأب على الخروج من انزوائه، ليقع في اليد التي سفكت دم ولده. وحزن هوميروس (Homer) تمثَّل في عرض قوة العواطف، لا في إثارة مجرّد الرعب والشفقة، نعني، العواطف التي لم يحاول، في أي حالةٍ، إثارتها.

مع هذا الميل للاستعمال والتحول إلى حماسة، ومع هذه السيطرة على القلب، ومع اللذة التي ترافق عواطفه، ومع جميع النتائج التي تستحق الثقة وتسبِّب التقدير، نقول، إنه ليس من المفاجئ أن يضفي مبدأ الإنسانية نبرةً على مدائحنا وتقريعاتنا، وحتى، عندما يمنع من توجيه سلوكنا، فإنه يظل يقدِّم للعقل، عبر التفكير معرفته بما هو مرغوب في الشخصية الإنسانية. ماذا فعلت بأخي قابيل (Abel)؟ قول مثّل أول اطراد تعنيفي لصالح الأخلاق،

وإذا كان الجواب الأول قد تكرّر، في أغلب الأحيان، فإن البشر مع ذلك وبمعنى من المعاني اعترفوا، كفايةً، بالتهمة الخاصة بطبيعتهم. فقد شعروا، وقد تكلّموا، وأيضاً فعلوا بوصفهم المحافظين على زملائهم من المخلوقات، نعني: لقد جعلوا ما يدّل على الإخلاص والمحبة المتبادلة محلّ ما يستحقّ ويكون محبوباً في شخصيات البشر. واعتبروا الوحشية والاضطهاد الأشياء الرئيسية التي تستحقّ السخط والغضب. وعندما يكون الرأس منشغلاً بمشاريع المصلحة، فإن القلب غالباً ما تغريه الصداقة، وحينما يقوم العمل على قواعد حفظ النفس، فإن الساعة غير المهتمة بذلك تستخدم للكرم واللطف.

ومن هنا نستخلص القاعدةَ التي بها، وبصورة عامة، يحكم الناس على الأفعال الخارجية؛ نعني المستفادة من التأثير المفترض لتلك الأفعال في الخير العام. فالامتناع عن الأذى، هو قانون العدالة الطبيعية الكبير، ونشر السعادة هو قانون الأخلاق. وعندما ننتقد العمل لمصلحة أحد أو قلّة على حساب الكثرة، فإننا نكون مشيرين، كمرجع، إلى المصلحة العامة، بوصفها الهدف العظيم الذي يجب أن تتوجه إليه أفعال البشر.

بعد كل ما ذكرنا، لا بدَّ من الاعتراف أنه، إذا كان مبدأ المحبّة للبشر هو الأساس لاستحساننا وعدم استحساننا الأخلاقيين، فإننا أحياناً نقوم باستحسان مزعج أو نقد غير مريح، من دون الانتباه إلى الدرجة التي تأذَّى بها أقراننا من المخلوقات، أو درجة اضطرارهم. وهذا، بالإضافة إلى فضائل الإخلاص، والصداقة، والكرم، والروح العامة التي تشير مباشرة إلى ذلك المبدأ. هناك أشياء أخرى تستمدّ

مديحها من مصدر مختلف، فالاعتدال، والتعقّل، والثبات أو الجَلَد صفات محبوبة أيضاً، انطلاقاً من مبدأ احترام زملائنا من المخلوقات. ولمَ لا، ما دامت تلك الصفات تجعل الناس سعداء في ذواتهم وتكون نافعةً للآخرين؟ فالمؤهَّل لتعزيز سعادة البشر ليس بسكّير، أحمق وليس بجبان. فهل يمكن التعبير بشكل أوضح بالقول، إن الاعتدال، والتعقّل والثبات أو الجَّلد فضائل لازمة للشخص الذي نحب ونعجب به؟ فأنا أعرف لماذا عليَّ أن أرغب في وجودها فيَّ، ولماذا أيضاً عليَّ أن أرغب في وجودها في شخص صديقي وفي كل شخص أحبّه. غير أن السؤال هو: لأي هدف أبحث عن تفسيرات الاستحسان عندما تكون الصفات لازمة لسعادتنا، وتؤلف جزءاً كبيراً في كمال طبيعتنا؟ فعلينا أن نتوقّف عن تقدير نفوسنا ونميّز الممتاز، عندما تكون مثل هذه المؤهلات تقتضي إهمالنا.

فالشخص ذو العقل المحبّ، والحائز على قاعدة سلوك، وهو نفسه، بوصفه فرداً، لا يتعدّى كونه جزءاً من كل ما يطلب احترامه، يجد في ذلك المبدأ أساساً كافياً لجميع الفضائل: لاحتقار الملذات الحيوانية الذي يستأهل متعته الرئيسية، واحتقاراً مساوياً للخطر أو الألم الذي يعرض لوقف مساعيه للخير العام. «فالمحبة القوية المتَّقدة والثابتة تكبِّر هدفها وتقلِّل من كل صعوبة أو خطر يقف في الطريق». قال إيبكتيتس(*) (Epictetus): «اسأل المحبين، فهم يعرفون أني أقول الصدق».

(*) هو فيلسوف يوناني من المدرسة الرواقية التي أسسها زينون الرواقي في القرن الرابع قبل المسيح ووضع مبدأها الأخلاقي المشهور: «كل البشر إخوة» الذي عبّر عنه بمفردة Cosmopolis: التي تعني المدينة الكونية، وعاش إيبكتيتس في روما (60–120 بعد الميلاد) وكان عبداً. وأشهر ما ترك لنا كتابه: **محادثات** (*Discourses*) (المترجم).

وقال أخلاقيّ بارز آخر: «أمامي فكرة عن العدالة، إذا تمكّنت من تطبيقها في كل حالة، فلا بدّ من أن أعتبر نفسي أسعد البشر»[3]. وإذا أمكن فصل هؤلاء - وأن على البشر أن تكوّن هذه الفكرة مشكلة عندهم على نحو صحيح - فذلك هو نتيجة لسعادتهم، ولسلوكهم أيضاً. وهناك اسم آخر لذلك الخير الإنساني الذي ينشغل الفضلاء بتعزيزه. إذا كانت الفضيلة هي الخير الأسمى، فإن أفضل آثارها وأبرزها يتمثَّل في إيصالها وانتشارها.

لتمييز البشر عبر الفرق بصفاتهم الأخلاقية، ومناصرة حزب انطلاقاً من شعور بالعدالة، ومعارضة آخر بحنق بغيةَ ظلمه، هي دلالات عامة على الاستقامة وهي أعمال تخصّ روحاً حيّةً، مستقيمة وكريمة. والاحتراس ضدّ الحالات الظالمة والكراهية ذات الأساس المَرَضي، والاحتفاظ بتماسك العقل الذي من دون إضعاف حساسيته أو حماسته يعمل في كل حالة بإدراك ونفوذ، فإن كل ذلك يؤلف علامات روح قوية ومصقولة. والقدرة على تطبيق إملاءات مثل تلك الروح في جميع تقلّبات الحياة الإنسانية، وبعقلٍ يكون سيداً لنفسه دائماً، في السرّاء أو الضراء، ويكون حائزاً على كل قدراته، وعندما تكون الموضوعات المعرضة للخطر هي الحياة، أو الحرية، وكذلك، في تناول مسائل المصلحة، كل ذلك يشكل انتصارات للشهامة، وارتقاءً عقلياً حقيقياً. «لقد انتهى حدث اليوم، اسحب هذا الرمح من جسدي الآن، ودعني أنزف دماً»، هذا ما قاله إبامينونداس.

في أي وضع، أو من طريق أي تعليم يتشكّل ذلك الخُلُق

(3) Montesquieu, *Persian letters*.

الرائع؟ فهل يوجد في البيوت التي تحتضن التصنّع والأناقة والتفاهة التي منها تنتشر الأزياء ويعلن عن الأناقة؟ وفي المدن الكبيرة والغنية حيث يتنافس الناس بما عندهم من حاشيات، وبما يلبسون من أثواب، وبسمعة وشهرة ثرواتهم؟ وهل نلقاه داخل قصر حيث نتعلم كيف نبتسم من دون سعادة، ونعانق بلا محبّة، ونجرح بالأسلحة الخفيّة؛ أسلحة الحسد والغيرة، ونقيم أهميتنا الشخصية على ظروف نعجز دائماً عن السيطرة عليها بشرف؟ لا: وإنما في الذي تستفيق فيه مشاعر القلب العظيمة، حيث طبائع البشر، لا أوضاعهم وثرواتهم، وهي التي تؤلف الامتياز الرئيسي، وحيث هموم المصلحة، أو الخيلاء، تتلاشى في لهب عواطف قويّة، وحيث لا تنحدر النفس الإنسانية، بعد أن شعرت بأهدافها وتكون مثل الحيوان الذي ذاق دم ضحيته، إلى مسالك لا توظِّف مواهبها وقوتها.

وحدها المناسبات الملائمة القائمة على تنظيم سعيد يمكن أن تنتج ذلك الأثر، في حين أن مجرّد التعليم قد يترك البشر دائماً في حالة ضياع، وغير قادرين على فهم معناه، أو غير شاعرين بما يمليه. على أي حال نقول، إن المسألة ليست من دون أمل، فإلى أن نشكّل نظامنا السياسي وعاداتنا الحميدة، والى أن نتوقّف عن بيعِ حريّتنا مقابل الحصول على ألقاب، وحاشيات وامتيازات، والى أنَ نعرف أنه ليست هناك جدارة سوى النجاح والازدهار والقوة، ولا يشكّل الخزي أو العار سوى الفقر والإهمال. فما هو سحر التعليم الذي يقدر على شفاء العقل الملوَّث بتلك الفوضى؟ وأي صوت لصفّارة إنذار يمكن أن يوقظ رغبةً في الحرية، التي تعتبر حقارةً، وحاجةً إلى الطموح؟ أو أي إقناعٍ يمكن أن يحوِّل إيماءة تهذيب في الوجه إلى مشاعر إنسانية وإخلاص؟

الجزء السابع

السعادة

بعد أن نظرنا في القوى الفاعلة والصفات الأخلاقية التي تميّز طبيعة الإنسان، هل يتوجَّب علينا أن ندرس سعادته على نحو منفصل؟ هذه الكلمة التي هي أكثر الكلمات تكراراً وأكثرها مألوفيةً في محادثاتنا قد تكون - إذا فكرنا بها - أقل الكلمات التي نفهمها. فهي تنفع في التعبير عن رضانا لجهة إشباع رغباتنا، وهي تُلفظ بتحسّر، عندما يكون هدفنا بعيدَ المنال: هي تعني ما نرغب في الحصول عليه، الذي نادراً ما نبقى نبحث فيه ونحن نقدِّر قيمة كل موضوع بنفعه للسعادة وبتأثيره فيها، لكننا نعتقد أن المنفعة ذاتها والسعادة لا يلزمهما شرح.

البشر يقدّرون، عادةً الإنسان الأسعد، الذي يوافق على رغباته دائماً. ولكن، واقعياً، إذا حدث أن حيازة ما يرغبون، والإثمار المستمر كانا لازمين للسعادة، فسيكون عند معظم البشر مسوّغ للتشكّي من حظوظهم. فما يدعونه متعهم هي بصورة عامة سريعة الانقضاء، وهدف التوقّع المتفائل، عندما يتحقق، لا يعود يشغل العقل، نعني: تتبع عاطفة جديدة، والخيال، كما من قبل، يستهدف سعادة بعيدة.

كم هي الأفكار، من هذا القبيل، التي أوحت بها الكآبة، أو آثار ذلك الوهن والكسل اللذين نغرق فيهما إرادياً بتأثير من فكرة التحرر من الاهتمام والمشاكل؟

عندما ندخل في حساب رسمي نعدِّد به المتع والآلام المعدَّة للبشر، فإننا سنصادف أن ذلك الألم بشدّته وديمومته أو تكراره، مسيطر بمقدار كبير. فالنشاط والتفوّق اللذين بهما ننطلق من مرحلة من مراحل الحياة إلى مرحلة أخرى، وعدم رغبتنا في العودة إلى الدروب التي طرقناها، ونفورنا مع العمر من تجديد مرح ومزاح شبابنا، أو أن نكرِّر في مرحلة الرجولة تسليات الأطفال، ذُكرت كبراهين على أن ذاكرتنا للماضي ومشاعرنا في الحاضر، هما مواضيع متساوية للكره وللاستياء[1].

على كل حال، إن هذه النتيجة، التي لا تختلف عن نتائج أخرى كثيرة، والمستمدة من معرفتنا المفترضة، ولا تتطابق مع التجربة في كل شارع، وفي كل قرية، وفي كل ميدان، ومع عددٍ كبير من الأشخاص الذين نقابلهم، تحمل مظهراً مبهجاً أو غير متفكِّرٍ فيه، ولا مبالياً، وهادئاً مشغولاً أو فيه حياة. فالعامل يطلق الصفّارة لفريقه، والميكانيكي مرتاح في حرفته، ولاعب المرح والخليع يشعران بسلسلة من الملذّات لا نعرف مصدرها. والذين يبرهنون على ظواهر التعاسة الإنسانية، حتى هؤلاء، نراهم عندما يناقشون يهربون من أحزانهم، ويجدون سلوى محتملة في البرهان على أن الناس ليسوا سعداء.

(1) Pierre Louis Moreau de Maupertuis, *Essai de morale.*

قد تكون المفردتان: لذّة (Enjoyment) وألم (Suffering) ملتبستي المعنى. غير أنه إذا حصر معناها، كما يبدو أنه موجود في الكثير من تفكيرنا، بالأحاسيس وحدها التي تشير إلى أشياء خارجية، إمّا في ذاكرة الماضي، أو مشاعر الحاضر، أو فهم المستقبل، فسيكون خطأً عظيماً الافتراض أنهما يشملان جميع مكوِّنات السعادة (Happiness) أو التعاسة (Misery)، أو أن العادة الجيّدة في الحياة العادية تبقيها تلك الملذّات التي لها أسماء منفصلة، وتُتذكَّر بشكل بارز. عند التفكير، والعقل، في القسم الأكبر من وجوده، يوظَّف في جهود فاعلة لا تقتصر على العناية بمشاعره المتعلّقة باللذة والألم، فقائمة قدراته، وفهمه، وذاكرته، ورؤيته، وشعوره، وإرادته، وعزمه لا تحتوي إلّا على أسماء عملياته المختلفة. وإذا كنا، في حالة غياب كل إحساس من الأحاسيس التي اعتدنا على وصفها متعةً (Pleasure) أو معاناةً (Pain)، اتصف وجودنا ذاته بإحدى الصفتين المتضادتين، صفة السعادة أو التعاسة، وإذا كان ما ندعوه لذةً أو ألماً لا يشغل سوى حيِّزٍ صغير من الحياة الإنسانية، بالمقارنة مع ما يجرى في حالة الاختراع والتنفيذ، وفي التوقّعات، وفي السلوك، والتفكير والتفاعلات الاجتماعية، حينذاك، لا بدّ من أن يبدو، أن مساعينا النشيطة تستحق، وعلى الأقل نسبةً لديمومتها، المقدار الأكبر من انتباهنا. وعندما تفشل مناسباتها، لا تكون اللذة هي المطلوب، وإنما شيء ليُفعل. والمؤكَّد هو أن تشكيات المعاني ليست علامة حزن، وإنما تحديق واهن.

على كل حال، إننا قليلاً ما نعتبر أي عمل، نكون ملزمين بالقيام به، في عداد نعم الحياة. فنحن، دائماً، نستهدف فترة متعة صافية، أو نهاية مشكلة مزعجة، ونتغاضى عن المصدر الذي منه نستمدّ

أكثر ارتياحاتنا ورضانا. فلتسأل المشغولين الذين لا يتوقّفون عن الحركة، أين تكون السعادة التي يطمحون إليها؟ فسوف يجيبون بالقول، إنها قد توجد في هدف يُسعى إليه في الوقت الحاضر. وإذا سألناهم: لماذا ليسوا تعساء في غياب تلك السعادة؟ فسوف يقولون، إنهم يأملون الحصولَ عليها. غير أننا نسأل: هل الأمل وحده هو الذي يدعم العقل في غمرة محفوفة بالمخاطر غير الأكيدة؟ وهل يملأ التأكيد على النجاح فترات التوقّع بعواطف سارة؟ أعطِ الصيّاد صيده وأعط المقامر الذهب الذي ربحه في اللعبة فلا يتعب أحدهما شخصه، ولا يحيِّر الآخر عقله، فإنك سترى أن كليهما سيضحكان من حماقتنا: فالأول سيراهن بماله من جديد لتحيُّره، والثاني سيحول مهره إلى الميدان ليسمع عُواء الكلاب، ويمضي في مدى الخطر والصعوبات. أبعدْ مشاغل الناس عنهم، وأنهِ رغباتهم، سترى أن الوجود يتحوّل إلى عبء، وما تكرّره الذاكرة إلى تعذيب.

قالت سيّدة، إن على رجال هذه البلاد، أن يتعلموا الخياطة والحبك بالصنّارة، فذلك سيحول دون تحوّل أوقاتهم إلى عبء عليهم، وعلى أناسٍ آخرين. ذلك صحيح، وقالت أخرى، فالبرغم من أني لم أنظر إلى الخارج أبداً، فإني أرتجف من توقّع طقسٍ رديء، إذ، عندئذٍ يأتي الرجال متسكعين بغية التسلية، ومنظر زوج مكروب إن هو إلّا مشهد كآبة.

صعوبات الحياة الإنسانية وعقباتها تُنقص من الخير الإلهي. ومع ذلك فإن الكثير من التسليات التي يبتدعها البشر محفوفة بالصعوبات والمخاطر. والمبدع الأعظم للحياة الإنسانية، عرف

جيداً كيف يجهِّز اللاعبين. والمصادفات أو الحظوظ موضع تذمّر، لكن إذا أزيلت لا تعود اللعبة ذاتها مسلّية للأفراد المشاركين فيها. وفي وضع خطة أو في تنفيذها، وبالانحراف في تيّار العاطفة والشعور، يكشف العقل عن وجوده ويتمتع. وحيث يكون معروفاً أن الغاية والهدف لا يمكن بلوغهما، فإن المواهب والخيال يطبّقان بقوة، في أغلب الأحيان، وقد تتسلّى المهنة أو اللعب، سواء بسواء. فنحن لا نرغب إلّا باستراحةٍ بغية تجهيز قوّتنا المحدودة والمهدورة، نعني: عندما يتعب العمل، لا تكون التسلية، في أغلب الأحيان، إلّا تغييراً في الانشغال. ونحن لسنا تعساء دائماً، حتى عندما نتذمَّر. فهناك نوع من الأسى يخلق حالةً عقلية ملائمة. والعويل أو التفجّع ذاته يكون أحياناً تعبيراً عن المسرّة. وقد أمسك الرسّام التشيكي والشاعر بهذه الفكرة فوجدا في وسائل التسلية احتفاءً محبوباً بالأعمال المؤلفة لإيقاظ أحزاننا. لذلك نقول، لليكنونة بهذا الوصف نعمةٌ لتلبية دوافع العمل، سواء في اشتهاء اللذّة، أم في النفور من الألم. فنشاطه أهم من اللذة التي يسعى إليها، وتراخيه شرّ أعظم من المعاناة أو الآلام التي يجتنبها.

عمليات إشباع الشهية الحيوانية قصيرة العمر، وما الحساسيّة سوى اضطراب عقلي يجب معالجته بالتذكّر، إن لم يُشعل دائماً بالأمل. فالسباق لا ينتهي بوقف اللعبة، أكثر من وقف الشهوات الحسية عبر الانعماس بالفسوق. وكحزمةٍ اجتماعية بوصفها أهدافاً نائية، تسهم مواضيع الحسّ إسهاماً مهماً في نظام الحياة الإنسانية. فهي تقودنا إلى تحقيق أهداف الطبيعة في حفظ الفرد، وفي استمرار النوع البشري، لكن الاعتماد على استعمالها كمكوّن رئيسي من مكوِّنات السعادة هو خطأ في التفكير التأملي، ويكون خطأً أكبر في

الممارسة. والسيّد في سراي السلطان، حتى هذا، الذي من أجله تغتصب جميع كنوز الإمبراطورية من مؤونات وذخائر السكان المرتاعين، والذين من أجله وحده يجلب أحلى الزمرّد والماس من المنجم، ومن أجله تُعبّأ كل نسمة بالعطور، وله يجمع الجمَال من كل حدب وصوب، وينشّط بالعواطف الناضجة تحت الشمس الرأسية، وكل ذلك مخصص لاستعماله، نقول إن ذلك السيّد يظلّ في حالة بؤس أكبر من جماعة البشر الذين يكرّسون أعمالهم وممتلكاتهم لتخليصه من القلق والتسبب بإمتاعه.

يمكن التغلّب على الحساسية بسهولة، بواسطة أي عادةٍ من عادات العمل التي تشغِّل عقلاً نشيطاً. فعندما يستيقظ حبّ الاستطلاع، أو عندما تُثار العاطفة، حتى في وسط المأدبة، وعندما يزداد غليان الحديث ويتطوّر ليصير مرحاً أو جدياً، فإن ملذّات المائدة تصير نسياً منسياً. والولد الصغير يحتقرهم للعبهم، والإنسان المعمّر يرفضهم في عمله. وعندما نفكّر بالظروف التي تماثل طبيعة أي حيوان، أو تطابق طبيعة الإنسان مثل السلامة، والمأوى، والطعام، ووسائل المتعة الأخرى، أو حفظ النفس، نظنُّ أننا وجدنا أساساً معقولاً وصلداً يمكن أن نقيم سعادتنا عليه. غير أن الذين ليسوا معدّين للبحث في الأخلاق، ويقولون إن السعادة لا علاقة لها بالثروة، بالرغم من أن الثروة تشتمل في ذات الوقت على جميع وسائل العيش ووسائل الانغماس الحسّي. والظروف التي تتطلّب تقشّفاً، وشجاعة، وإدارةً تعرّضنا للمخاطرة، وهي من النوع المؤلم، ومع ذلك نقول، إن المقتدرين، الشجعان والمتحمسين يمتعون أنفسهم أكثر من سواهم، ويبدون مستمتعين أكثر من سواهم عندما يوجدون في غمرة الصعوبات، ويُضطرون لاستخدام القوى التي يحوزونها.

بعد أن قيل لسبينولا (Spinola)، بعد أن قيل له إن السير فرانسيس فيري (Sir Francis Vere) مات لأنه لم يجد شيئاً يفعله، قال: «يكفيه قتل جنرال»[2]. فكم عدد الذين يحسبون الحرب نفسها تسلية من الذين اختاروا حياة الجندية وتعرّضوا لأخطاء ولمتاعب مستمرة، وحياة البحّار الذي يواجه كل صعوبة، والمحروم من كل وسيلة من وسائل الراحة، وحياة السياسي الذي تسليته إدارة الأحزاب والنزاعات الحزبية، والذي عوضاً عن أن يكون كسولاً يقوم بأعمال رجال وأمم ليس عنده أي مقدار من الاحترام؟ هؤلاء الرجال لم يختاروا الألم، مفضّلينه على اللذة، لكنهم كانوا مدفوعين بميلٍ لا يستقرّ لبذل جهود لا تتوقّف من القدرة والتصميم. فينتصرون في غمرة صراعاتهم، ويهنون ويضعفون عندما لا تعود فرصة عملهم موجودة.

أي متعة شعر بها ذلك الشاب، الذي أحبَّ الخطر نفسه، لا مكافآت الشجاعة بحسب قول تاسيتوس (Tacitus)؟ وأي مطمح في اللذة، عندما يوقظ صوت البوق، وعواء الكلاب أو صرخة الحرب والحماس الرياضي والجندي؟ فأكثر مناسبات الحياة الإنسانية إثارةً نلقاها في الدعوات للخطر والشدّة، لا في دعوات السلامة والراحة. فالإنسان نفسه، وبما يمتاز به ليس حيوان ملذات، ولا مخلوقاً للتمتّع بما تجلبه العناصر له ليقوم باستعماله، لكنه، مثل مرافقيه الكلب والحصان هو مصمَّم لممارسة طبيعته، مفضلاً إياها على ما يُدعى متعة، على الارتماء في حضن الراحة والغنى ويكون مبتهجاً في وسط الهجوم المباغت الذي يهدِّد وجوده، وكل ما يجعل ميله للعمل متلائماً مع القوى المتنوعة التي جُهِّز بها.

(2) Herbert of Cherbury, *Life of Lord Herbert.*

وإن أكثر صفات طبيعته احتراماً، نعني الشهامة، والجَلَد والحكمة، تحمل إشارة واضحة إلى الصعوبات التي قُدِّرت له لكي يصارعها.

إذا أصبحت اللذة الحيوانة تافهة عندما تُثار الروح من قِبَل شيء مختلف، فمن المعروف أن الشعور بالألم توقعه أي عاطفة روحية قوية. والجروح التي تحصل في حمى العاطفة، وفي العجلة عند حالة الانفعال أو الرعب في المعركة لا يحصل شعور بها حتى يخمد اهتياج العقل. والتعذيب، عندما يطبّق عن عمد وتطول مدته على نحو جدّي، يحتمل بثبات وبمظهر من عدم القلق، عندما يستحوذ على العقل شعور قوي، سواء أكان شعوراً دينياً حماسيّاً أم شعور محبة للبشرية. وإن إماتة الجسد عند المكرّسين نفوسهم الخرافيين في عصور الكنيسة المسيحية المتعددة، والكفّارات الوحشية التي ما يزال يُعمل بها خلال سنين عديدة من قِبَل متدّيني الشرق، والاحتقار والتعذيب اللذين تنظر إليهما معظم الأمم المتوحشة، وجندي الميدان الفرح أو صبره العنيد، والصعوبات التي يتحملها الرياضي في وقت فراغه، كل ذلك يبيّن كيف نخطئ في حساب التعاسات الناشئة من مقادير المشاكل والمعاناة التي يتعرضون لها. وإذا وُجِد تحسين عبر التأكيد بأن سعادتهم يجب أن لا تُقاس بالمتع المضادّة، فهو التحسين الذي أجراه سينسيناتوس (Cincinnatus) وريغولوس (Regulus) وقبل زمن الفلسفة، وقد عرفه فابريسيوس (Fabricius) بعد أن سمع حججاً للطرف المضادّ فحسب[3]. وهو تحسين يعرفه كل صبيّ في ألعابه، وكل متوحش يؤكده عندما ينظر، من غابته، إلى مدينة المحيط الهادئ، ويحتقر المستعمرة التي لا تهتم بمحاكاة صاحبها.

---

(3) Plutarch in: *Vit. Pyrrh.*

لا بدّ من الاعتراف بأن الإنسان، بالرغم من كل نشاطه العقلي هو حيوان بكل ما يعنيه هذا الوصف. فعندما يمرض الجسد يَهِنُ العقل، وعندما يتوقف الدم عن التدفّق ترحل الروح. وبمسؤوليته عن العناية بحفظ نفسه، وبحثٍّ من شعور باللذة أو الألم، وبإحساسه بشعور غريزي بالموت، لم تكتفِ الطبيعة بتأمين سلامته من طريق يقظة فهمه، ولا عبر حكم أفكاره اللايقينية فحسب.

يتبع التمييز بين العقل والجسد نتائج ذات أهمية عظمى، لكن الحقائق التي نشير إليها الآن ليست قائمة على أي معتقد مهما كان. فهي صادقة، وسواء أقبِلنا أم رفضنا التمييز المذكور، أو افترضنا أن هذا الكائن الحيّ هو مشكّل من طبيعة واحدة أو من مجموعة من الطبائع المنفصلة. والمادي التي يتعامل مع الإنسان كما لو أنه آلة، لا يستطيع أن يبدِّل شيئاً في حالة تاريخه. فهو كائن يقوم بواسطة عددٍ من الأعضاء المنظورة، وبعدد متنوّع من الوظائف. فهو يلوي مفاصله، ويقبض أو يرخي عضلاته تحت نظرنا. وهو يتابع خفقات قلبه في صدره، وتدفّق الدم إلى كل جزء من بنيته. ويؤدّي عمليات أخرى لا نستطيع أن نردّها إلى أي عضوٍ جسدي. وهو يدرك، ويتذكر، ويتنبّأ، وهو يرغب وينأى بنفسه، وهو يعجب ويزدري. وهو يتمتّع بملذّاته، أو يتحمل آلامه. جميع هذه الوظائف المختلفة، وبمقدار ما، تعمل معاً بشكل جيّد أو بشكل رديء. فعندما تكون حركة الدم ضعيفة، تتراخى العضلات ويصير الفهم بطيئاً والخيال متبلّداً، نعني: عندما يهاجمه الاختلال، على الطبيب أن لا تكون عنايته بما يفكّر أقل من عنايته بما يأكل، ويفحص مردود عاطفته مع دقّات شعوره.

مع كل ذكائه، وانتباهاته، وغرائزه التي وجدت لحفظ كيانه، فإنه يشارك بمصير الحيوانات الأخرى، ويبدو أنه كُوِّن ليموت ليس إلّا. وأعداد كبيرة تهلك قبل أن تبلغ كمال نوعها. والفرد الذي له الخيار يرجع طول مساره الوقتي إلى التصميم والسلوك، أو إلى الخوف المذّل، غالباً ما يختار الحالة الثانية، وعبر عادة الخوف ينغِّص الحياة التي هو عازم على حفظها.

على أية حال نقول إن الإنسان أحياناً مستثنى من نصيبه المميت، ويبدو عاملاً من دون أي اعتبار لطول مدته. فعندما يفكّر بقوة، أو يرغب في حماس فإن الملذات والآلات من أي مكان آخر، تهاجمه لكن عبثاً. وفي ساعة موته، حتى في هذه الساعة، تكتسب العضلات نبرةً من روحه، ويبدو العقل منحرف القوة، وفي وسط الصراع يحصل على الهدف الأخير لتعبه، فمولي مولك (Muley Moluck)، المحمول على حمّالة مع مرضه ظلّ يحارب حربه، التي انتهى فيها. وتمثَّل المجهود الأخير الذي قام به، وإصبعه على شفتيه، بإشارة لكي يخفي وفاته(4). وتلك الوقاية التي أمكنه اتخاذها، ربما كانت أكثر ما لزم لمنع هزيمته.

هل يساعدنا التفكير على اكتساب عادة الروح هذه، المفيدة في نقلنا عبر الكثير من المشاهد العادية للحياة؟ إذا كان جوابنا بالنفي، لا تكون حقيقة سعادتها الأقل وضوحاً. فقد اعتبر الرومان ازدراء اللذّة، وتحمّل الألم، وإهمال الحياة وعدم الاكتراث بها صفاتِ الإنسان البارزة، وموضوع التهذيب الرئيسي، وآمنوا أن الروح القوية تقدر أن تجد أهدافاً قيّمة من أجلها توظِّف قوتها، وأن

(4) René Aubert de Verlot, *Revolutions of Portugal.*

أول خطوةٍ لاختيار حاسم لمثل تلك الأهداف تتمثّل في التخلّي عن دناءة عقل قلق وجبان.

عموماً إن البشرية مرَّت في مناسبات لعرض شجاعتها، وغالباً في البحث عن الإعجاب قدّمت مشهداً لم يعد عند الذين توقّفوا عن اعتبار الجَلَد وتقديره في ذاته موضوع شرف. فسكيفولا (Scevola) وضع ذراعه في النار لكي يهزّ روح بورسينا (Porsenna). والمتوحش يعوِّد جسده على العذاب لكي يمكنه في ساعة الاختبار أن يتفوق على عدوه. وموسولمان (Mussulman) مزَّق لحمه ليكسب قلب خليلته، وسار فرحاً وهو ينزف دماً، لكي يبيّن أنه يستحق تقديرها[5].

بعض الأمم تمارس صبّ الألم أو اللعب بالألم إلى درجة وحشية أو غير معقولة، وبعضها الآخر يعتبر كل مشهد معاناة جسدية أعظم الشرور، وفي غمرة اضطراباته تزيد من مرارة ألمها، مع الرعب الذي يصيب الخبال الضعيف الكئيب. ونحن لسنا ملزمين للردّ على حماقات أي منهما، وفي تناولنا مسألة ذات صلة بطبيعة الإنسان، لسنا أيضاً ملزمين بوضع تقدير لقوته أو ضعفه، انطلاقاً من العادات أو المدركات الخاصة بأي أمة أو عصر.

(5) William Morris, *Letters from the Right Honourable Lady Mary Wortley Montagu*.

الجزء الثامن

متابعة الموضوع ذاته (السعادة)

كل من قارن أحوال البشر وأساليبهم المختلفة في ظروف مختلفة من التعليم والثروة، سوف يرضى بكون الوضع لا يؤسِّس لسعادتهم أو لتعاستهم، ولا أي تنوّع في الطقوس الخارجية الذي يتضمّن تعارضاً في المشاعر حول موضوع الأخلاق. فهم يعبّرون عن لطفهم وعدواتهم في أفعال مختلفة، لكن اللطف أو العداوة لا يزالان مادة الاعتبار الرئيسية في الحياة الإنسانية. فهم ينشغلون في مسارات مختلفة أو يذعنون في ظروف مختلفة، لكنهم يفعلون ذلك منطلقين من العواطف ذاتها تقريباً. فلا يوجد قياس دقيق مطلوب ليلائم راحتهم، ولا أي درجةٍ من درجات الخطر أو السلامة تلائم ما يفعلون، فالشجاعة والكرم، والخوف والحسد لا تخصّ أي وضع من أوضاع البشر أو نظامهم، كما لا توجد أية حالة لم يظهر فيها البشر، التي بإمكانهم من خلالها استخدام المواهب والفضائل من نوعهم بشكل ملائم.

إذن ما هو اللغز الذي يُدعى سعادة والذي قد يكون له مكان في مثل تلك المحطّات المتنوّعة، التي بالنسبة إليه تعتبر الظروف في عصر أو عند أمة، ضروريةً؟ وعند أمة أخرى يُعتقد بأنها مدمِّرة أو لا طائل وراءها؟ إنها لا تَمْثُلُ في تعاقب ملذات حيوانية فحسب

والتي لا تقدر أن تملأ سوى لحظات قليلة من الحياة الإنسانية بمعزل عن المهنة أو الشركة التي يعملون فيها. وفي تكرارها غير المعقول تتحول تلك الملذات إلى تخمة وغثيان، فهي تنتهك العرف أو القانون الذي تطبقه، بتطرّفها، ومثل البرق في الليل، لا تفيد إلّا في زيادة الغمّ الذي عبره تظهر أحياناً. فالسعادة ليست حالة من الاسترخاء، أو ذلك التحرّر الخيالي من العناية، الذي يكون عن بعدٍ هدفاً للرغبة، لكن بمقاربتها الضجر أو الوهن غير المدعوم وأكثر من ذلك الألم نفسه. وإذا صحَّت الملاحظات السابقة حول هذا الموضوع فلأنها نشأت من الممارسة، لا من الحصول على أي غاية مهما تكن. وفي كل وضع جديد نتوصل إليه في مجرى حياة ناجحة مزدهرة أيضاً، تعتمد السعادة على الدرجة التي نوظِّف فيها عقولنا أكثر مما تعتمد على الظروف التي قُدِّر لنا أن نعمل فيها بالمواد الموضوعة في أيدينا، أو الأدوات التي جُهِّزنا بها.

فإذا حصل الاعتراف بذلك، في ذلك الصنف من الممارسات الذي يتميّز بوصفه تسلية، ويشغل عند البشر، الذين هم الأسعد، أكبر جزء من الحياة الإنسانية، فقد نفهم أنه يجوز أكثر مما يُظن، في أمثلة كثيرة من الأعمال والمهن، حيث تكون الغاية التي تُنال لا المهنة هي التي يفترض أن يكون لها القيمة الرئيسية.

والبخيل نفسه، بحسب ما قيل لنا، قد يحسب أحياناً العناية بثروته تسليةً، ويدعو وريثه أن يسعد بالصرف، لا في تكديس ثروته. بهذه الدرجة من اللامبالاة من غير الممكن أن يكون سلوك الآخرين بهذا الحصر لعنايته بما اختار أن يكون عالمه، خاصة إذا كان قد تغلَّب، في نفسه على عواطف الغيرة والحسد، التي تمزّق العقل

المشتهي أملاك غيره. فلماذا لا يُفهم الإنسان الذي هدفه المال، بأنه يحيا حياة تسلية ومتعة، لا تزيد على حياة المبذّر فقط، وإنما مثل الفنّان، العالم، صاحب الذوق، أو أي واحدٍ من تلك الطبقة من الأشخاص الذين اكتشفوا طريقةً لقضاء أوقات فراغهم من دون إثارة، والذين يعتبرون المكتسبات التي يحصلون عليها أو الأعمال التي ينتجونها بطرقهم المتعدِّدة، قد تكون عديمة الجدوى مثل الحقيبة عند البخيل أو القائم بالعدّ بالنسبة إلى الذين يلعبون للتسلية، في أي لعبةٍ من ألعاب المهارة أو الحظ.

نحن سرعان ما يتعبنا الانحراف أو التسلية التي تُقارب طبيعة العمل أو المهنة، نعني تلك التي لا تثير عاطفةً أو توفِّر تمريناً متناسباً مع مواهبنا وقدراتنا. فلكلّ من الصيد وطاولة القمار مخاطر وصعوبات لإثارة العقل وتشغيله. وكل ألعاب النزاع تحي المنافسة وتوفِّر نوعاً من حماس الفريق. أما عالم الرياضيات فلا يسلّيه إلّا المسائل المعقّدة، والمحامي والمفتي في قضايا الضمير والسلوك فلا تسلّيهما إلا القضايا التي تمنحهما حدّة ذهنهما وتُشغل أحكامهما.

والرغبة في عمل فاعل مثله مثل كل شهية طبيعية يمكن التطرّف به، ويمكن للبشر أن ينغمسوا في التسليات حتى الفسوق كما يحصل في شرب النبيذ، أو أي شرابٍ كحوليّ مسكر. في البداية يكون رهان مخاطرة، وقد ينفع حصول عاطفة معتدلة في تسلية المقامر، ولكن عندما يحصل الاعتياد على المخدِّر فإنه يخفق في إحداث أثره. ويزداد اللعب عمقاً، وكذلك الاهتمام بإيقاظ انتباهه، فينجرف درجةً درجة، وفي النهاية يسعى للتسلية، فلا يلقاها إلا

في تلك المشاعر، مشاعر القلق، والأمل والقنوط التي أثارتها المخاطرة التي رمى فيها كل حظوظه.

هكذا نقول، إذا كان البشر قادرين على تحويل تسلياتهم إلى مشهد جدّي ولافتٍ أكثر من المهنة ذاتها، فسيكون من الصعب تحديد سبب لاختيار المهنة. والكثير من مشاغل الحياة الإنسانية، المستقلة عن أي نتائج نائية عن أحداث المستقبل، وتُتَبنّى، استناداً إلى التسلية التي تجلبها. قد يكون هذا هو الأساس الذي أقام عليه القانع والفرح المرح في طبعهما. وقد يكون أمنع أساس للجَلَد والثبات الذي يمكن اعتماد أي تفكير عليه. والسعادة ذاتها تتأمَّن عبر جعل نوع معين من سلوكها تسليةً لنا في حسبان الحياة، وفي التقييم العام لقيمتها، وفي أي مناسبة جزئية أيضاً مجرد مشهد لممارسة العقل وانخراط القلب. فقد قال بروتوس (Brutus): «سأحاول وأجرّب كل شيء، ولن أتوقّف عن إخراج بلادي من حالة الذلّ هذه. فإذا كانت الأحداث ملائمة فسيكون في ذلك فرح لجميعنا، وإن لم يحصل ذلك فسوف أظل، على الرغم من ذلك مبتهجاً». فلماذا الابتهاج بخيبة الأمل؟ ولماذا لا يكون هناك اكتئاب عندما تكون بلاده مقهورة؟ ربما كان ذلك لأن الحزن والاكتئاب لا يجديان. لا، لكن يجب تحملهما عندما يأتيان. ومتى يجب أن يأتيا إليّ؟ وهل يمكن للرومانيين أن يقولوا: لقد تبعت عقلي، ويمكنني أن أظلّ أتبعه. وقد تكون الأحداث قد غيّرت الوضع الذي قُدِّر لي أن أفعل فيه ما فعلت، لكن هل بمقدورها أن تمنعني من القيام بالجزء الذي يخصّ الإنسان؟ أذكروا لي وضعاً لا يقوم فيه الإنسان بعملٍ ولا يموت، وسأعترف بأنه بائس.

كل من يملك قوة العقل ويقدر بشكل دائم أن يرى الحياة الإنسانية من خلال تلك الناحية، ليس عليه إلّا أن يحسن اختيار مشاغله بغية السيطرة على تلك الحالة من المتعة، وحرية النفس اللتين تؤلّفان السعادة الخاصة التي كانت لها طبيعته الفعّالة.

تُصنّف ميول البشر حرفهم صنفين، بصورة عامة: الأنانية والاجتماعية. الأنانيون انعزاليون، وإن كان لهم علاقة بالبشر، فهي علاقة منافسة وعداوة. أما الاجتماعيون فيميلون إلى العيش مع زملائهم من البشر، والعمل لخيرهم، وهم يميلون إلى توحيد أعضاء المجتمع، وينتهون بمساهمة متبادلة بفي اهتماماتهم ومتعهم، ويجعلون حضور البشر مناسبة فرح. ويمكن أن نعدِّد في هذا الصنف عواطفَ الجنس، والوالدين والأبناء والإنسانية عموماً، أو الصداقات المنفردة. وبداية نذكر عادةَ النفس التي بحسبها نعتبر أنفسنا جزءاً من مجتمع محبوب ما، وأننا مجرّد أعداد من الأفراد من ذلك المجتمع الذي مصلحته العامة هي بالنسبة إلينا الهدف الأعلى لحماستنا، والقاعدة الكبرى لسلوكنا. وهذه العاطفة هي مبدأ إخلاص، وليس فيه أي تمييزات جزئية منحازة، وهو بلا حدود، فهو قد يوسّع آثاره لتتعدّى معرفتنا الشخصية، وقد يجعلنا نشعر في العقل والفكر على الأقل بعلاقة مع العالم، ومع جميع مخلوقات الله. فقد قال أنطونينيوس (Antoninus): «هل يحب أي إنسان مدينة سيكروبس (Cecrops)، وأنتم لا تحبّون مدينة الله؟».

لا وجود لعاطف قلبية غير مبالية. فهي تكون فعل مرح وفرح أو شعور حزن وكآبة، أو لذّةً أو اضطراباً وكرباً، وإن ممارسة ميولنا المختلفة، وكذلك إرضاءَها من المحتمل أن يكون لهما أهمية عظمى لسعادتنا أو تعاستنا.

الفرد مسؤول عن العناية بحفظ حياته. قد يكون في عزلةٍ، وبعيداً جداً عن المجتمع، ويقوم بوظائف كثيرة تخص الحسّ، والخيال والعقل. وهو يُعوِّض تأديته لتلك الوظائف بشكل مناسب وبالممارسات الطبيعية التي لها صلة به، ولها صلة أيضاً بزملائه من المخلوقات، والتي تكون ذات متع إيجابية، في معظم الحالات، ومالئةً ساعات الحياة بعمل ملائم ولكنه غير خالٍ من التعرّض للخطر.

مهما يكن الأمر، ثمَّة درجة عندها نفترض أن العناية بنفوسنا تصير مصدراً لقلقٍ مؤلم وعواطف قاسية، وعندها تنحطّ متحوّلة إلى جشع، وخيلاء، وكبرياء، وعنده عبر تعزيز عادات الغيرة والحسد والخوف والحقد تصير مدمِّرةً لمتعنا ومعاديةً لمصلحة البشرية. ولا يَمْثُلُ هذا الشرّ في تزايد العناية بنفوسنا، وإنما في خطئنا في اختيار أهدافنا ليس إلّا. فنحن ننظر إلى الخارج طلباً للسعادة التي لا وجود لها إلّا في صفات القلب، أي نجعل نفوسنا تعتمد على الطوارئ، لذا نظلّ في انتظارٍ وانعزال. ونظن أننا نعتمد على إرادة أناس آخرين، لذا نكون ذليلين وجبناء: نظن أن سعادتنا في مواضيع يتنازع عليها زملاؤنا من البشر ويتنافسون في السعي وراء السعادة ننخرط في مشاهد المنافسة، والحسد، والكراهية، والعداء والثأر التي تؤدي إلى أعلى درجات الألم والأسى. وباختصار نقول، نحن نتصرّف كما لو أننا نريد أن نحافظ على نفوسنا، في حين نستبقي ضعفنا ونُديم آلامنا. ونحمِّل أقراننا من المخلوقات المسؤولية عن خيالنا المعتلّ وقلبنا الفاسد، وإليهم ننسب الوخزات الناجمة عن خيباتنا أو حقدنا. ونفاجأ ونحن نزيد من بؤسنا أن اهتمامنا بنفوسنا لا يرافقه نتائج أفضل. غير أن من يتذكّر ذلك على أنه طبيعيٌّ كائن عاقل، وعضو في مجتمع، وأن حفاظه على نفسه معناه الحفاظ

على عقله، والحفاظ على أفضل مشاعر قلبه لن يقابل أيّاً من تلك الإزعاجات والعوائق، ولن يجد في عنايته واهتمامه بنفسه سوى مواضيع إرضاء وفوز.

قد يكون تصنيفنا ميولنا إلى غيرية وأنانية قد ساعد، بدرجة من الدرجات، على تضليل فهمنا لموضوع المتعة الشخصية والخير الخاص، وحماسنا للبرهان على أن الفضيلة غير المرغوب فيها لم تعزِّز القضية كثيراً. فقد اعتُقِدَ أن إشباع الرغبة الأنانية يجلب الفائدة أو اللذّة لنفوسنا، بينما عمل الخير للآخرين ينتهي بلذّة أو فائدة الآخرين، في حين أن الذي يحصل في الواقع، هو أن إشباع كل رغبة هو متعة شخصية، وقيمته متناسبة مع الصفة الخاصة بقوة الشعور، فقد يحصل الشخص ذاته على فائدة من الثروة التي سبَّبها لآخر، أكبر من الثروة التي كسبها لنفسه.

لذلك فإن الإرضاء الناجم عن عمل الخير يخصّنا بقدر ما تخصّنا أي رغبة أخرى، مهما كانت، وبمجرد ممارسة هذا الميل، فإنه لا بدَّ من حسبانها في حسابات عديدة، وبأنها المكوِّن الأول والرئيسي للسعادة الإنسانية. فكل عمل كريم، أو رعاية تصدر عن والد طفل، وكل عاطفة قلبية تتجلّى في صداقةٍ أو في حبّ، وفي حماسة شعبية أو في الإنسانية العامة، ما هي إلا أفعال كثيرة من المتعة والرضا. والشفقة ذاتها والحنوّ، وحتى الحزن والكآبة، عندما تشبع بعاطفة لطيفة، تشارك في طبيعة المخزون، وإذا لم تكن ملذات إيجابية على الأقل، فهي آلام من طبيعة خاصة، لا نرغب في مبادلتها مع متعة حقيقية تحصل في التلطيف من هدفنا. وميولنا المتطرّفة بوصفها معاكسة للكراهية، والحسد والحقد، ولا يُنظر

إليها بالقلق الشديد، والجسد، والخوف وكل ما يمزِّق العقل المهتم إذا نشأت في الواقع من أي عاطفة مريضة في علاقة ظاهرية مع أقراننا من المخلوقات، فإن تلك العلاقة تُدان من دون زلل، بوصفها غير حقيقية. وإذا كنا لا نثق في أحد، فإن عاطفتنا الظاهرية لا تتعدّى أن تكون رغبة في الانتباه والاعتبار الشخصي، ودافعاً يجعلنا نميل غالباً للارتباط بأقراننا من المخلوقات أيضاً وغالباً ما نكون بالنسبة إليه راغبين في التضحية بسعادتهم. فنحن نعتبرها أدوات لغرورنا، ومتعتنا أو مصلحتنا، لا كفريق نمنحه إرادتنا الخيّرة وحبّنا.

العقل المكرَّس لهذا الصنف من العواطف، والمنشغل بهدف يمكن أن يشغله، عادةً لا يحاول اكتساب تسليات أو ملذات يكون بها الأشخاص من ذوي الطبع المريض ملزمون بالتعويض عن غثيانهم: يصبح الاعتدال أو ضبط النفس عملاً ميسوراً عندما تستبدل إرضاءات الحسّ بتلك التي تخصّ القلب. والشجاعة يفترض أنها غير منفصلة عن حماسة العقل في المجتمع وعن الصداقة، وهي في العمل العام الذي يجعلنا ننسى موضوعات القلق الشخصي أو الخوف ننتبه رئيسياً إلى هدف حماسنا أو عاطفتنا، لا إلى العوائق التافهة، والأخطار التي قد نواجهها في صراعنا من أجل الحفاظ عليه.

لذلك لا بدَّ من أن تكون سعادة الإنسان في جعل ميوله الاجتماعية المنبع الرئيسي لأعماله، وباعتباره لنفسه عضواً في متَّحد اجتماعي لمصلحته العامة، يتوهَّج قلبه بحماس قويّ لطمس تلك الاهتمامات الشخصية التي هي أساس القلق المؤلّم، والخوف، والغيرة، والحسد، أو كمال قال السيد بوب (Mr. Pope) معبراً عن الشعور نفسه:

«الإنسان مثل الكرمة السخية، التي دعمت الحياة. والقوة التي يكتسبها نابعة من الحب الذي يقدّمه»[1].

عموماً، نحن نفهم أنه من واجبنا العمل بكرم وأن سعادتنا في التلقّي. غير أننا نقول، إذا حصل في الواقع أن الشجاعة والقلب المكرَّس لخير الإنسانية هما المكوِّنان للسعادة الإنسانية، فإن الكرم الذي حصل يدلّ على سعادة الشخص الذي صدر عنه، لا عن الشخص الذي تلقّاه. وإن أعظم خير يمكن أن يسبّبه البشر الحائزون على الجَلَد والكرم لزملائهم من المخلوقات البشرية، هو الإسهام في هذا الخُلُق السعيد.

إذا كان ذلك خير للفرد، فهو خير للإنسانية أيضاً، ولا تعود الفضيلة تفرض علينا مهمة تجبرنا على منح الآخرين ذلك الخير الذي نمتنع عنه، وإنما تفترض بدرجة أعلى، كما نحوزها، تلك الحالة من السعادة المطلوب منّا نشرها في العالم. «سوف تضفي أعظم فائدة لمدينتك، لا برفع السقوف، وإنما برفع نفوس إخوانك المواطنين، لأنه أفضل للنفوس العظيمة أن تعيش في مساكن صغيرة من العبيد الذليلين المقيمين في المنازل الكبيرة»[2].

إرضاء الآخرين عند إنسان الخير والإحسان هو أساس المتعة والوجود نفسه، وفي عالم تحكمه حكمة الله هو نعمة. والعقل المتحرّر من الهموم التي تاؤي الجبن والوضاعة يصير نشيطاً، شجاعاً وجسوراً وقادراً على القيام بكل مشروع، وقويّاً في ممارسة

---

(1) القاعدة السلوكية ذاتها تنطبق على كل جزء من الطبيعة. الحبّ معناه التمتع باللذة: الكره معناه التألّم.

(2) ترجمة السيدة كارترز (Mrs. Carter's) لأعمال إيبكتيتس.

كل موهبة تتزيَّن بها طبيعة الإنسان. على هذا الأساس أشيد الخُلُق الذي يبعث على الإعجاب، والذي خلال حقبة معينة من القصة، ميَّز الأمم المشهورة في الزمن القديم، ونادراً ما كان في الحكومات غير محبوبة من المشاعر العامة، أو صار موضوع إعجاب وإطراء مبالغ به عندما لم يمارس ولم يفهم أيضاً. وعليه قال كسينوفون (Xenophon): «هكذا توفّي تراسيبولوس (Thrasybulus) الذي كان رجلاً صالحاً». فما أعظم هذا المديح، وما كان أعظمه عند الذين عرفوا قصة ذلك الرجل الرائع! أعضاء تلك الدول الرائعة الشهيرة الذين انطلقوا من عادة اعتبارهم نفوسهم جزءاً من المجتمع، أو على الأقل مشتركين في نظام من البشر الموجودين في دولة كانوا، بغض النظر عن الاعتبارات الشخصية، حائزين على نظرة دائمة للأشياء التي تثير حماساً كبيراً في النفس، أدّت بهم إلى التصرّف دائماً بحسب نظرة زملائهم من المواطنين، وممارسة فنون التفكير، والخطابة، والسياسة والحرب، التي تعتمد عليها حظوظ الأمم، أو الرجال في مجموعهم. ولم تكن تلك الأمم مدينةً لقوة العقل المجمَّع في هذه الحياة ولتحسينات الذكاء التي تمَّت بممارسته، ولا لشهامتها، وسمّوها في السلوك الحربي والسياسي فحسب وإنما أيضاً لفنون الشعر والأدب التي كانت الأقل مركزاً وثانويةً على مستوى العبقرية ويُثارون بها ويتعلمونها ويحسنونها.

كان الفرد عند اليونانيين القدماء والرومانيين لا يساوي شيئاً والشعب يعتبر كل شيء. أما عند الحديثين، وفي أمم كثيرة جداً في أوروبا، الفرد كل شيء والشعب لا شيء. والدولة هي مجرد مجموعة دوائر، يتقدَّم فيها الاعتبار، والثروة، والشهرة أو السلطة بوصفها تعويضاً أو مكافأة للخبرة. ومن طبيعة الحكم الحديث،

حتى في نشوئه الأول، أن يمنح كلّ فرد مركزاً أو منزلةً ثابتة، عليه أن يحتفظ بها لنفسه. وقد قاتل أجدادنا في العصور البدائية وخلال تراجع الحروب من الخارج لمطالبهم الشخصية في الوطن وعبر منافساتهم وتوازن قواهم حافظوا على نوع من الحرية السياسية في الدولة، في حين كانت الأطراف الخاصة خاضعةً لإساءات واضطهادات مستمرة. أما ذرّيتهم فقد كبحوا في أزمنة أكثر ثقافةً، من قِبل الفوضى المدنية التي تتألف منها، وبشكل رئيسي في نشاط العصور السابقة. غير أنهم استخدموا الهدوء الذي حصلوا عليه، لا لتعزيز الحماس لتلك القوانين، وإنما ليمارسوا منفصلين، الفنونَ المتعدّدةَ المتعلقة بتقدّمهم الشخصي أو راحتهم وقد مكّنتهم مؤسساتهم السياسية من ممارستها بنجاح. واعتبرت التجارة، التي يفترض أنها تشمل كل فنّ مربح أعظم هذه الأمم، والدرس الرئيسي للبشرية.

وقد تعوَّدنا كثيراً على اعتبار الثروة الشخصية الهدف الأوحد الجدير بالاهتمام، حتى إن الناس في ظلّ المؤسسات الشعبية، وفي دول حيث تُدعى مراتب مختلفة من الرجال للمشاركة في حكم بلادهم، وحيث لا يمكن الاحتفاظ بالحريات التي يتمتعون بها لمدة طويلة من دون حَذَرٍ ونشاط من قبل الشخص، وقد ظلّوا وهم الذين لم ينشئوا قررات في الحالة العادية، وفي حالة خسران المهنة، وذهبوا إلى التسليات المنعزلة، أو ترعرعوا في ما سرَّهم دعوتهم ميلاً للعمل في الحدائق، بناءً، ورسماً، أو موسيقى. وبهذا العون، حاولوا أن يملؤوا فراغات الحياة الكسولة المتوانية، وتجنّب معالجة تراخيهم بأي خدمة إيجابية لبلادهم أو للبشرية.

الضعفاء أو الحاقدون الماكرون يستخدمون أفضل استخدام في أي شيء بريء، ويكونون محظوظين بإيجادهم أي مهنة تحول دون إثارة انفعال يؤذيهم، أو يؤذي أقرانهم من المخلوقات. غير أن المنعم عليهم بميلٍ سعيد، مع قدرة وقوة، يستهدفون ملذّات حسّية حقيقية عبر الحصول على أي تسلية تشغل قسماً غير ملائم من وقتهم، ويكونون مخدوعين بسعادتهم لاعتقادهم بأن أي مهنة أو تسلية هي أنسب ما يكون لتسليتهم، من تلك التي في نفس الوقت تنتج خيراً حقيقياً ما لزملائهم من البشر.

الحق يُقال، إن هذا النوع من التسلية لا يمكن أن يكون خياراً للمرتزقة، وللحسودين، أو للحاقدين. فقيمته لا يعرفها إلّا أشخاص من ذوي الميل المضاد، والى اختبارهم وحده، نلجأ. وبدليل من ميلهم ومن دون عونٍ من التفكير في العمل وفي الصداقة، وفي الحياة العامة، نراهم يبلون بلاءً حسناً. وهم محمولون برضا على مدّ عواطفهم ومشاعرهم، ونراهم يتمتعون بالساعة الحاضرة، من دون تذكّر للماضي، أو رجاء في المستقبل. ففي التفكّر، لا الممارسة، اكتشفوا أن الفضيلة هي مهمة تقتضي صرامةً وإنكاراً لما سواها.

الجزء التاسع

السعادة القوميّة

الإنسان طبيعياً هو عضو في المجتمع، وعندما يحسب بهذه الصفة لا يبدو الفرد مخلوقاً لنفسه. فعليه أن يمتنع عن طلب سعادته وحريته إذا تدخّلتا في مصلحة المجتمع. إن هو إلا جزء من كل، وما المديح الذي نرى أن فضيلته تستحقه ليس إلّا فرعاً من ذلك الإطراء العام الذي نضفيه على عضو في جسم، وعلى جزء من مبنى، أو آلة، لكونه ملائماً لمكانه ولإنتاج أثره.

وإذا كان هذا ينتج من علاقة الجزء بالكل، وإذا كان الخير العام هو الهدف الرئيسي للأفراد، فالذي يتبع ويكون صحيحاً، هو أن سعادة الأفراد هي الغاية الكبرى للمجتمع المدني، إذ بأي معنى يمكن لشعبٍ أن يتمتّع بأي خير، إن كان أعضاؤه، منفردين غير سعداء؟

على أية حال إن مصالح المجتمع ومصالح أعضائه يمكن التوفيق بينهما بسهولة. فإذا كان الفرد مديناً بكل درجة من الاعتبار للشعب، فإنه يتلقّى في تسديده ذلك الاعتبار ذاته أعظم سعادة تقدر طبيعته الحصول عليها وإن أعظم نعمةٍ يمكن أن يمنحها الشعب لأعضائه تتمثّل في إبقائهم مرتبطين به. وأسعد دولة هي التي

تكون محبوبة من رعاياها، والرعايا الذين قلوبهم متعلّقة ومشغولة بالمجتمع هم أسعد البشر، إذ فيه يجدون هدف كرمهم وحماسهم، والمدى الذي يمارسون فيه كل موهبة وكل نزعة فاضلة.

بعد أن وجدنا قواعد عامة، فإن القسم الأكبر من صعوبتنا يبقى، نعني تطبيقها على الحالات الجزئية. فالأمم تختلف بمقدارها، وأعداد البشر الموجودين فيها، وثرواتها، وكذلك بالنسبة إلى الفنون التي يمارسها هؤلاء البشر ووسائل التسلية والراحة التي أنتجوها. وهذه الظروف التي قد لا تؤثر في عادات الناس، لكنها بحسب تقديرنا قد تتنافس مع مادة العادات نفسها، تؤلّف سعادة قومية مستقلة عن الفضيلة، وتعطي حقاً نعتمده في إطلاق العنان للخيلاء مثل ما هو موجود في الأمم الأخرى، ومثلما نفعل على مستوى الأفراد الخصوصيين في حسبان ثرواتهم ورتب الشرف التي لديهم.

غير أننا نقول، إذا كانت هذه الطريقة في قياس السعادة المطبقة على الأفراد مدمِّرة وخاطئة، فإنها لا تقلّ عن ذلك عندما تُطبّق على الأمم. فالثروة، والتجارة، ومساحة الأرض التابعة للدولة، والمعرفة بالفنون هي المقياس، عندما تستخدم بشكل صحيح وسائل البقاء، وأسس القوة. فإذا أخفقت في العمل، جزئياً، فإن الأمة تضعف، وإذا لم تعد تعمل كلياً، فإن النوع البشري يهلك: فهدفها الإبقاء على أعداد من البشر لا إنشاء سعادة. لذا، ستحافظ على البائسين وعلى السعداء، سواء بسواء. وهي تحقّق هدفاً واحداً، لكنها لا تكفي لجميع الأهداف، ولا تكون لها أهمية عندما لا تُوظَّف إلّا لإبقاء الجبان، الموهن العزيمة والعبيد.

الدول العظيمة والقوية تكون قادرةً على التغلّب على الدول الضعيفة وإخضاعها. والأمم المثقَّفة والتجارية تملك ثروات أكبر، وتمارس أنواعاً عديدة من الفنون أكثر من الأمم البسيطة البدائية. غير أن سعادة البشر، في كل الحالات، تَمْثُلُ في تمجيد العقل الصريح، والنشيط والقوي. وإذا اعتبرنا حالة المجتمع مجرد تلك الحالة التي يُدخل فيها البشر بواسطة نزعاتهم، حالة تُقيَّم انطلاقاً من إرثها في الحفاظ على النوع البشري، وتطوير مواهبهم، وإثارة فضائلهم، فإننا لا نحتاج لتوسيع مجتمعاتنا بغية التمتع بتلك المزايا. فغالباً ما نحصل عليها بدرجة لافتة جداً في الأمم التي تظلّ مستقلة، وتكون صغيرة.

قد يكون القبول بأن زيادة أعداد البشر هدف مهم، لكن طريقة توسيع حدود أي دولة لا تكون كذلك: فرغبتنا في أن يتزايد عدد أقراننا من البشر لا تعني أن على الكل، إن أمكن، أن يتوحَّد تحت رأس واحد. فنحن قابلون لأن نعجب بإمبراطورية الرومان كنموذج للعظمة والروعة القوميتين، لكن العظمة التي تعجبنا في هذه الحالة دمَّرت فضيلة البشرية وسعادتها، فقد تبيّن أنها كانت متناقضة مع جميع الفوائد التي تمتع بها الشعب المحتل سابقاً في مواد الحكم والسلوك الحسن.

تنافس الأمم ينطلق من انقسامها. فمجموعة من الدول تجد، مثل الشركة، أن ممارسة عقولها واختبار فضائلها يكونان في الأمور التي يتعاقدون عليها، على قدم المساواة، وبمصلحة منفصلة. ومقاييس السلامة المتَّخذة بما في ذلك قسم كبير من السياسة القومية يتعلّق بكل دولة نسبةً لما يُفهم من الخارج. فمدينة أثينا

كانت ضرورية لمدينة إسبارطة في ممارسة فضيلتها كالصوّان لشحذ السكاكين في إنتاج النار. ولو اتحدت مدن اليونان تحت رأس واحد لما كنا سمعنا بـ إبامينونداس أو تراسيبولوس من ليكرغوس (Lycurgus) أو سولون (Solon).

لذلك عندما نفكر لمصلحة نوعنا بالرغم من أننا لن نندب المساوئ التي تنشأ أحياناً من الاستقلال وتضارب المصالح، مع ذلك لم تبق أي درجةٍ من درجات الفضيلة مع البشر، فإننا لا نرغب في أن نجمع تحت مجموعة واحدة من القوانين بشراً قد يؤلّفون مجموعات، أو وضع الشؤون بتصرّف مجلس شيوخ واحد، وسلطة تشريعية أو تنفيذية واحدة، يمكنها على أساس متميّز ومنفصل، أن تمارس القدرة وتجهّز مسرح عظمة لكثيرين.

قد يكون هذا موضوعاً لا يمكن استناداً إليه تحديد قاعدة، لكن الإعجاب بالسيادة التي لا حدود لها خطأ مدمِّر، ولا وجود لخطأ مثله يمكن أن يحصل للمصلحة الحقيقية للبشرية.

إن مقدار التوسّع المرغوب عند أي دولة غالباً ما يُستفاد من حالة الدول المجاورة. وحيث يكون عددٌ من الدول متجاوراً، فستكون هذه الدول أقرب إلى المساواة، لكي تكون محترمة احتراماً متبادلاً وموضع اعتبار تبادلي، ولكي تحوز على ذلك الاستقلال الذي تَمْثُلُ فيه الحياة السياسية للأمة. فعندما توحّدت مملكة إسبانيا، وعندما ربطت الإقطاعات الكبرى في فرنسا بالتاج، لم يعد ملائماً أن تبقى الأمم البريكانية منفصلة.

لقد وجدت الجمهوريات الصغيرة في بلاد اليونان بانقساماتها

وبتوازن قواها، في كل قرية تقريباً هدف الأمم. فكل منطقة كانت موطن تنشئة وتعزيز لرجال ممتازين، وما يعتبر الآن الناحية البائسة لإمبراطورية عظيمة، كانت الحقل الذي منه حصدوا درجات امتيازهم الرئيسية. غير أن الموجود في أوروبا الحديثة هو جمهوريات ذات حجوم متشابهة، تشبه الشجيرات في ظل شجرة أطول، وهي مخنوقة من دول أقوى. وفي حالتها نرى أن اختلالاً ما في القوة يحبط الأمل بمقدار كبير بالفائدة من الانفصال. فهي تشبه التاجر المحتقر والأقل أماناً في بولندا، فلا هو سيد ولا عبد.

والمجتمعات المستقلة في نفس الوقت، تكون على أية حال ضعيفة وتكره التحالف، وليس مردّ ذلك لكونها تحصل في جوٍّ من الفرض، أو عبر معاهدة غير متكافئة فحسب بل عندما لا يتضمن سوى قبول الأعضاء الجدد بمشاركة متساوية في الاعتبار مع الأعضاء القدامى. فالمواطن لا يهمه ربط الممالك، فهو يجد أهميته تتناقص عندما تتوسع الدولة. غير أن الرجال الطموحين يجدون في توسيع الأرض، التي تملكها الدولة محصولاً زاخراً من القوة والثروة، بينما يظلّ الحكم نفسه مهمة سهلة. ومن ذلك التقدّم المدمِّر للإمبراطورية ينتج أيضاً، أن الأمم الحرة تحت مظهر اكتساب السيطرة تعاني في النهاية من أن تقع تحت نير العبيد الذين استولت عليهم.

رغبتنا في زيادة قوة أمة هي الحجّة الوحيدة لتوسيع أرضها، لكن هذا المقياس قلّما يفشل في تحقيق ذاته، عندما يُتابع إلى أن يصبح متطرفاً. ومع فائدة الأعداد، والمصادر المتفوّقة في الحرب، فإن قوة الأمة تُستمد من شخصيتها لا من الثروة، ولا من عدد

شعبها. وإذا قدرت ثروة دولة على استئجار أعدادٍ من الرجال، وإنشاء متاريس وإعداد وسائل الحرب، فإن ممتلكات الخائف يسهل القبض عليها، والجمهور الخائف ينهزم هزيمةً نكراء بذاته ومن ذاته، والمتاريس تتشقّق إن لم يُدافع عنها ببسالة، ولا يكون للسلاح نفع إلّا في أيدي الشجعان. فالعصبة التي عيّنها أجيسيلوس عند سور المدينة دافعت عن بلادها دفاعاً أكثر ثباتاً وفاعليةً من الصخر والأسمنت اللذين بهما تُحسَّن مدنٌ أخرى.

علينا أن لا نعير كبير اهتمام لرجل الدولة الذي يتبدع دفاعاً يمكن أن يبطل الفوائد الخارجية للفضيلة. فقد خُصِّص نظام حكيم للإنسان، بوصفه كائناً عاقلاً، مؤداه أن استعمال العقل ضروري لحفظه وبقائه. ولحسن حظّه وهو يسعى إلى التفوّق والامتياز، أن يعتمد تفكيره الشخصي على شخصيته وطبعه، ولحسن حظ الأمم أن تكون ملزمةً على الحفاظ على الشجاعة، وممارسة فضائل شعوبها لكي تكون قويةً وسالمة. وباستعمالها مثل هذه الوسائل تحصل في وقت واحد على غاياتها الخارجية وتكون سعيدة.

يعتبر السلم والإجماع بصورة عامة الأساسان الرئيسيان للسعادة الشعبية العامة. ومع ذلك نقول، إن تنافس المجتمعات المنفصلة، واهتياجات الشعوب الحرّة يؤلفان مبدأي الحياة ومدرسة الرجال. فأنّى لنا أن نوفّق ما بين هذين المعتقدين المتضادين؟ قد لا يكون التوفيق بينهما لازماً. ففريق السلم قد يفعل ما يقدر عليه لتهدئة العداوات وإخمادها، وللتسوية بين آراء البشر وستكون هناك سعادة إذا نجحوا في كبح جرائمهم، وتهدئة أسوأ عواطفهم. ولا شيء في الوقت ذات سوى الفساد والعبودية يمكنهما أن يكبحا

النقاشات التي تبقى بين رجال الاستقامة والكمال، الذين يتحمّلون جزءاً مساوياً في إدارة الدولة.

لا يمكن الحصول على اتفاق كامل في أفضل جماعة مختارة، وإذا افترضنا حصول ذلك، فما الذي سيحلّ في المجتمع؟ قال بلوتارخ (Plutarch): «يبدو أن المشرِّع الإسبارطي قد بذر بذور الاختلاف والشقاق بين مواطنيه، وقد عُنيَ بوجوب أن يقاد المواطنون إلى النزاع، واعتبر المنافسة بمنزلة العلامة التي بها تضرم وتتوهّج فضائلهم، وبدا عارفاً بأن الرضا الذي يقدِّم البشر به آراءهم من دون فحص، هو مصدر رئيسي للفساد».

من المفترض أن تحدِّد أشكالُ الحكم أشكالَ سعادة البشر أو تعاستهم. غير أن أشكال الحكم يجب أن تكون مختلفة لكي تلائم مقدار الأمم المختلفة، وطريقة حصولها على موارد الرزق، وشخصيتها وعاداتها. وفي بعض الحالات قد يعاني أفراد الجمهور في حكم أنفسهم، وفي حالات أخرى يجب كبحهم بقساوة. فقد يكون سكان قريةٍ في عصر بدائي آمِنوا بسلوك العقل وبما تبديه آراؤهم البريئة، لكن قلّما يوثق بمعتقدات نيوغايت (Newgate)، والسلاسل مقفلة على أجسادهم، وقضبان الحديد مثبتة على أفخاذهم. لذا نسأل: كيف يمكن إيجاد أي شكل من أشكال الحكم يكون ملائماً للبشر، في كل حالة؟

سوف نتابع في القسم الآتي ونبرز التمييزات، ونشرح اللغة التي تكون في هذا الموضع على رأس نماذج مختلفة من الخضوع والحكم.

الجزء العاشر

متابعة الموضوع ذاته (السعادة القوميّة)

من المعروف أن البشر كانوا في الأصل متساوين. وطبيعياً لهم حق متساوٍ في وقاية نفوسهم واستعمال مواهبهم. غير أنهم يلائمون مراكز مختلفة، فإنهم لا يعانون ظلماً أو انتهاكاً لحقوقهم الطبيعية. والواضح هو أن نمطاً من الخضوع ضروري للبشر كمجتمع، وهذا ليس لتحقيق غايات الحكم فحسب وإنما للانسجام مع النظام الذي أنشأته الطبيعة.

قبل أي مؤسسة سياسية، مهما تكن، كان البشر يتمتعون بتنوٍّع كبير من المواهب، وبنبرات روحية مختلفة، وحماسة عواطف لكي يقوموا بأدوار مختلفة. اجمعهمْ تجد أن كل واحدٍ منهم يحتلّ موقعه. وهم يستهجنون أو يستحسنون كجسم واحد، ويتشاورون ويفكّرون على شكل فرق مختارة، وهم ينزعون السيطرة أو يمنحونها كأفراد، وبهذه الوسيلة تكون الأعداد ملائمة للعمل الجماعي، ومحافظة على اتحادها المجتمعي قبل أي توزيع رسمي للوظائف. فنحن مكوَّنون للعمل بذلك الأسلوب، وإذا كان لدينا أي شكوك تتعلق بحقوق الحكم عموماً، فحيرتنا تعود إلى دقائق التفكّر أكثر مما

تعود لمشاعر القلب. وعندما نشارك في قرارات جماعتنا نتحرّك مع الجمهور قبل أن نحدِّد القاعدة التي تمَّ بها جمع إرادته. ونتبع زعيماً قبل أن نضع الأساس لمزاعمه ومطالبه، أو شكل انتخابه، ولم نفكر في جعل الحكم نفسه خاضعاً لقواعد وقوانين إلّا بعد أن ارتكب البشر أخطاء كثيرة في ممارسة قدرات الحاكم والمحكوم.

لذلك إذا كان يسعد المفتي في قضايا الضمير والسلوك، وفي النظرة إلى أنواع الأشكال التي عاشت في ظلها المجتمعات، أن يستعلم عن حق إنسان أو أي عدد من الأفراد بمراقبة أفعاله والسيطرة عليها، فقد يُجاب بلا شيء شرط أن لا يكون لأفعاله أثر ضار بزملائه من المخلوقات، لكن إن كان لها آثار ضارة، فإن حقوق الدفاع وواجب كبح اقتراف الأضرار، تعود للمؤسسات الجمعية كما الأفراد أيضاً. الكثير من الأمم البدائية التي ليس لديها محاكم رسمية للحكم في الجرائم، تجتمع عندما ترى أي إساءة أثيمة، وتتخذ تدابير ضد المجرم كما تفعل مع عدو. غير أن السؤال هو: هل هذا التدبير الذي يؤكد حق السيادة الذي يمارسه المجتمع بقوته الجمعية، أو عبر الذين أنيطت بهم سلطات الكل يدعم أيضاً مطلب السيطرة حيث تكون، وحيث تكون بالقوة أيضاً؟

تمكن الإجابة على هذا السؤال إجابة كافية بالملاحظة المفيدة، أن حقّ ممارسة العدالة وعمل ما هو صالح يخصّ كل فرد ذي أهليّة، أو مجموعة منظمة من البشر، وأن ممارسة هذا الحق لا حدود لها، إلّا عند وجود خلَلٍ أو علّةٍ في السلطة. لذا فإن أي جهة تكون ذات سلطة يمكنها توظيفها إلى ذلك الحدّ، ولا يوجد عرفٌ يتطلَّب تسويغ سلوكها. غير أن الحقّ في الإساءة

أو الأذى، أو اقتراف الظلم هو استعمال باطل للغة، وتتناقض فيه المفردات. فهو لا يقدر عليه كيان جمعي من الناس، كما لا يجوز لأي مغتصبٍ للسلطة. وعندما نقبل بمثل هذا الامتياز لأي حاكم ذي سيادة، فإننا لا نعني إلا التعبير عن مقدار سلطته، وعن القوة التي يقدر أن يستخدمها لتنفيذ رغبته. ومثل هذا الامتياز نلقاه عند زعيم البانديتي(*) (Banditti) وهو على رأس عصابته، أو عند أمير دكتاتوري موجود على رأس فرقه. فعندما يُعرض السيف من أي واحدٍ منهما، فإن المسافر أو المقيم يخضع من شعور بالاضطرار أو الخوف، لكنه لا يخضع انطلاقاً من واجبٍ نشأ من دافع واجبٍ أو عدالة.

وفي الوقت ذاته فإن تعدّدية الأشكال التي تقدمها مجتمعات مختلفة لنظرتنا لا حصر لها. فالأصناف التي توزّع أعضاءَها فيها، وطريقة تأسيسها السلطات التشريعية والتنفيذية، والظروف غير المعروفة التي يتوصلون بها إلى عادات مختلفة، ومنح حكامها مقادير غير متساوية من السلطة والسيادة، كل ذلك يخلق تمييزات دائمة بين الدساتير المتشابهة، وينوِّع بالتفصيل الشؤون الإنسانية التي لا يستطيع أن يستوعبها بمقدارها الكامل أي إدراك، ولا أن تحفظها أي ذاكرة.

ولكي نحصل على معرفةٍ عامة وشاملة عن الجميع، علينا أن نقرّر كما في أي موضوع آخر، أن نتجاوز الكثير من الجزئيات والمفردات المميّزة لحكومات مختلفة، وأن نركِّز انتباهنا على نقاطٍ

(*) لصوص خارجون عن القانون ينتمون إلى عصابة تعمل عادة في مناطق معزولة أو ينعدم فيها القانون (المراجع).

معينة يتفق عليها كثيرون، ومن هناك نضع عناوين عامة، تحتها يمكن درس الموضوع بوضوح. فعندما نحدِّد الخصائص التي تشكّل نقاط التوافق العامة، وعندما نتتبعها إلى أن نصل إلى نتائجها في أنماطٍ متعدّدة من التشريع، والتنفيذ والقضاء في المؤسسات التي تخصّ الشرطة، والتجارة، والدين، أو الحياة الأهلية المحلية، نكون قد حصلنا على معرفةٍ، هي بالرغم من أنها لا تتجاوز ضرورة الخبرة يمكنها أن تنفع في توجيه بحوثنا، وفي غمرة الأمور تقدِّم نظاماً ومنهجاً لترتيب الجزئيات التي تعرض لملاحظتنا.

عندما أتذكَّر ما كتبه الرئيس مونتسكيو، أكون في حالة ضياع عند الإجابة على السؤال المفيد: لماذا عليَّ أن أتعامل مع الشؤون الإنسانية؟ غير أني أنا نفسي مُثارٌ بأفكاري وبمشاعري، وقد أعبّر عنها أكثر من سواي ليفهمها من لهم قدرات عادية، لأني أكثر وجوداً منهم موجود على مستوى العاديين من البشر. وإذا كان من الضروري تمهيد الطريق لما يستتبع في التاريخ العام للأمم، عبر تقديم شرحٍ للرؤساء الذين يمكن أن نضع تحت قياداتهم أشكالاً مختلفة من الحكم، حالتئذٍ، يجب إرجاع القارئ إلى ما سبق أن قيل حول الموضوع من قِبَل ذلك السياسي العميق التفكير والأخلاقي اللطيف. ففي كتاباته لن نجد، الأصل الذي عليَّ الآن وبحسب النظام أن أنقله عنه فحسب، وإنما نجد المصدر لملاحظات عديدة من الممكن أن أكون قد كررتها في مواضع مختلفة بعامل الاعتقاد بابتداعها من دون ذكر مؤلفها.

لقد درس الفلاسفة القدامى الحكم تحت عناوين ثلاثة هي: الديمقراطي، والأرستقراطي والدكتاتوري، وقد انشغلوا بشكل

رئيسي بأنواع الحكم الجمهوري، ولم يهتموا بتمييز مهم ذكره السيد مونتسكيو بين الطغيان والملكية. وهو أيضاً اعتبر الحكم ممكن الاختزال إلى أشكال عامة ثلاثة، و «لفهم طبيعة كل واحد منها» ذكر: «يكفي تذكّر أفكار ألفها أقل الرجال فكراً، الذين يقبلون بتعاريف ثلاثة، أو بثلاث حقائق، هي: أن الجمهورية هي الدولة التي يحوز الشعب فيها ككل، أو جزء من الشعب، سلطةَ السيادة، وأن الملكية هي الدولة التي يحكمها رجل واحد بحسب قوانين ثابتة ومحدَّدة، والدكتاتورية دولة يحكمها رجل واحد، من دون قوانين أو حكم إداري، وبحسب الإرادة أو النزوة، يقرِّر وينفِّذ كل ما يكون أمامه».

والجمهوريات تقبل بتمييز مادي جداً، تمَّ إبرازه في التعريف العام، ألا وهو الموجود بين الديمقراطية والأرستقراطية. ففي الديمقراطية تظلّ السلطة في أيدي مجموع الشعب. فكل مكتب من مكاتب الحاكمية، عند تسمية صاحب السيادة، يكون مفتوحاً لكل مواطن، والحاكم يصير في قيامه بواجبه خادم (وزير) الشعب ويكون مسؤولاً أمامهم في كل أمرٍ من أموره.

أما في الأرستقراطية، فإن السيادة مجمّعة في طبقة خاصة، أو صنف من البشر، لأنهم تلقّوا اسماً في مرة من المرات، واستمروا كذلك مدى الحياة، أو عبر تمييزات وراثية تتعلّق بالمولد والثروة وصلوا من خلالها إلى مرتبة سموّ ثابتة. والوظائف الحاكمية كلّها تُملأ من هذا الصنف، وعبر تسميته. وفي الاجتماعات المختلفة التي يعقدونها، تُقرَّر، وبشكل نهائي كل الأمور ذات الصلة بالتشريع، والتنفيذ أو القضاء.

وقد أبرز السيد مونتسكيو المشاعر أو القواعد التي وفقاً لها يُفترض أن يتعرّف البشر في ظلّ أشكال الحكم المختلفة تلك.

في الديمقراطية، على الناس أن يحبوا المساواة، عليهم أن يحترموا حقوق مواطنيهم، وعليهم أن يتحدّوا بروابط عامة مشتركة من محبة الدولة.

وفي صياغتهم لمطالبهم وادعاءاتهم الشخصية، عليهم أن يكونوا راضين وقانعين بالمقدار الذي يحصلون عليه بواسطة قدراتهم المتناسبة تناسباً منصفاً مع مطالب وادعاءات خصومهم. وعليهم أن يعملوا للمصلحة العامة من دون أمل في الربح، وعليهم أن يرفضوا كل محاولة لخلق تبعيّة شخصية. فالإخلاص بمعنى عدم التحيّز، والقوة، وسموّ العقل هي باختصار، دعائم الديمقراطية، والفضيلة هي مبدأ السلوك المطلوب لحفظها.

فما أجمل السموّ في الحكم الشعبي! وكم يجب على البشرية أن ترغب بحماس في ذلك الشكل، إذا عزمت على تأسيس المبدأ، أو كان هناك في كل حالة ما يدل على وجوده!

غير إنه علينا أن نكون قد حصلنا على المبدأ لكي نتلقّى الشكل، وبأمل الاستفادة منه، بالشرّ، هذا، إن كان أي شرّ إضافي يستحق الإقصاء حيث يكون البشر تعساء.

في القسطنطينية أو الجزائر، يبدو المشهد بائساً عندما يزعم الناس أنهم يعملون على قدم المساواة: فهم لا يعنون سوى خلخلة قيود الحكم، والحصول على ما يستطيعون من هذه الغنيمة، التي يحتكرها في الأزمنة العادية السيّد الذي يخدمونه.

وإحدى فوائد الديمقراطية تتمثَّل في أن الأساس الرئيسي للتمييز هو الصفات الشخصية، فالناس يُصنَّفون وفقاً لقدراتهم، ولجدارة أو استحقاقات أعمالهم. ولجميعهم مطالب متساوية في السلطة، ومع ذلك، فإن الدولة عملياً محكومة من قلّة. وأكثرية الشعب على الرغم من قدرتها على السيادة لا تتجرأ إلّا على استعمال مشاعرها، وأن تشعر عندما تضغط عليها الإزعاجات القومية، أو تهددها أخطار عامة، بالحماسة القابلة على الظهور في التجمعات الكبيرة التي تحث على المسالك المنخرطة فيها، أو صدّ الهجومات التي تهددها.

لا تستطيع أكثر مساواة الحقوق كمالاً أن تُقصي صعودَ عقول متفوّقة، ولا أن تمنع اجتماعات مجموعة وحكمها، من دون توجيه من المجالس المنتخبة. ووفقاً لهذا الحسبان، يمكن القول، إن الحكم الشعبي قد يختلط مع الأرستقراطية فلا يعود التمييز بينهما ممكناً. غير أن هذا وحده لا يشكّل طابع الحكم الأرستقراطي. فهنا يتوزّع أعضاء الدولة على الأقل في طبقتين، إحداهما تحكم والأخرى تطيع. ولا توجد جدارات أو عيوب يمكن أن ترفع أو تهبط شخصاً من طبقة إلى أخرى. فالأثر الوحيد للخُلُق الشخصي يتمثَّل في إعطاء الفرد درجةً مناسبة من درجات الاعتبار والتقدير مع بقائه في نظامه، وعدم تغيير مرتبته. فقد يُقال له في وضع من الأوضاع أن يحصل على السموّ، وفي وضع آخر أن يتنازل عنه. فهو قد يقوم بدور الراعي أو التابع، أو يكون الحاكم أو المحكوم في بلده. والمواطنون جميعهم قد يتّحدون لتنفيذ خطط الدولة، لكنهم لا ينظرون في مقاييسها، أو يسنّون قوانينها أبداً. فما يخصّ الشعب كله في الديمقراطية محصور هنا في جزء. وأعضاء المرتبة

العليا، يُصنَّفون في ما بينهم طبقاً لقدراتهم، لكنهم يظلّون في مرتبة أعلى ممن هم في موضع أدنى. فهم في ذات الوقت خدّام الدولة وأسيادها، ويدفعون مقابل التشريفات المدنية والعسكرية التي يتمتعون بها خدماتهم الشخصية ودمهم.

ولم تعد القاعدة الرئيسية عند العضو في مثل هذا المجتمع الحفاظ لنفسه والسماح لزملائه من المواطنين بمساواة كاملة في الامتياز والموقع. فحقوق الناس تعدَّلت بحالتهم. فأحد الأنظمة يطالب بأكثر مما يرغب في تقديمه، وآخر يجب أن يكون مستعداً لتقديم ما لا يطلبه لنفسه. لذا كان لدى السيد مونتسكيو سبب وجيه لتسمية مبدأ ذلك الحكم بالاعتدال (Moderation)، لا حكم الفضيلة (Virtue).

ارتقاء طبقة هو تكبّر معتدل، وهبوط أخرى هو إذعان محدود. وعلى الأولى أن تكون حذرة، عبر إخفاء الجانب المؤذي من جوانب امتيازها، وتلطيف ما يحزن ويخلّ بالترتيب العام، وأن تبدو مؤهلةً بتعليمها، وأخلاقها المصقولة، ومواهبها المتحسنة للمراكز التي تشغلها. أما الطبقة الأخرى فيجب أن يتمّ تعليمها أن التقدّم من منطلق الاحترام والصلة الشخصية، لا يمكن الحصول عليه إلا بالقوة. وعندما يخفق هذا الاعتدال في كل جانب، فإن الدستور يتداعى. وقد يطالب شعب، في حالة تمرّد، بحق المساواة، ويحصل عليه في الدول الديمقراطية، أو قد تختار طبقة نبلاء اعتادت السيطرة، أو تجد حاكماً مستعداً عبر ثروته وشعبيته أو قدراته للقبض على تلك السلطة، موضع الحسد لأسرته، تلك السلطة التي تعّت بنظامه حدود الاعتدال، وأصابت رجالاً معينين بطموح لا حدّ

له. ووفقاً لذلك، وُجدت الأنظمة الملكية حاملةً العلامات الحديثة الخاصة بالأرستقراطية. ففيها لا يتعدّى الملك أن يكون مجرّد الأول بين النبلاء، وعليه أن يرضى بسلطة محدودة، وأن يكون رعاياه منظمين في طبقات، وهو يجد في كل مكان ذريعة إدارته في حدود معينة من الإنصاف والقوانين المحدودة. وفي ظلّ هذا الحكم، يكون حبّ المساواة منافياً للعقل، ويكون الاعتدال نفسه غير ضروري. وهدف كل طبقة يتمثَّل في التصدّر، ويمكن لكل نظام أن يعرض فوائده بأعظم مقاديرها. والحاكم ذو السيادة نفسه مدين بسلطته، بمقدار عظيم، للألقاب الطنّانة والحاشية الرائعة اللتين يعرضهما في المناسبات العامة. وكذلك فإن المراتب الثانوية تظهر أهميتها بعرض مماثل، ولهذا الهدف تحمل في كل لحظة، شارات أو علامات مولدها، أو زينة ثروتها. فأي شيء آخر يمكن أن يبرز للفرد العلاقة التي تقوم بينه وبين زملائه من المواطنين، أو تميّز المراتب التي لا حصر لها التي تملأ الفسحة الفاصلة بين حالة صاحب السيادة وحالة الفلّاح؟ أو أي شيء آخر يمكن في دولٍ كبيرة، أن يحفظ أي مظهر من مظاهر النظام بين أعضاء يفرّقهم الطموح والمنفعة، ويكون مصيرهم تشكيل مجتمع من دون شعور بأي اهتمام عمومي؟

إن الأنظمة الملكية بصورة عامة تُوجد حيث تتوسّع الدولة سكاناً وأرضاً، وتتعدّى الأعداد والأبعاد التي توافق الحكم الجمهوري. فمع هذه الظروف، تنشأ مظالم كبيرة في توزيع الملكية، وتصير الرغبة في تفوّق العاطفة سائدة. وكل صفّ من الناس يرغب في ممارسة تفوّقه، والحاكم يغريه أن يضخّم ما يخصه على الدوام. وإذا طالب الرعايا بالمساواة بعد يأسهم من التصدّر، فإن الحاكم

يكون راغباً في تلبية مطالبهم، ومساعدتهم في التقليل من الخيلاء، التي هو نفسه في مناسبات عديدة كان مضطراً لتأكيدها. وفي مثل هذه السياسة، يمكن إلغاء الكثير من الامتيازات المؤذية والمظالم الخاصة بالحكم الملكي، ولو في المظاهر الخارجية. غير أن حالة المساواة التي يقاربها الرعايا هي حالة العبيد المعتمدين على إرادة السيّد لإحالة الأحرار، وهم في حالة الحفاظ على ما يخصهم.

رأى مونتسكيو أن مبدأ الملكية يتمثَّل في السمعة الحسنة أو الإجلال. فقد يحوز الرجال صفات جيّدة، وسموّاً في العقل وثباتاً، لكن الشعور بالمساواة، الذي لا ينتهك الحقوق الشخصية لأقل المواطنين شأناً، والروح الساخطة الحانقة التي لا ترعى حماية ولا تُقبل كمنّةٍ ما استُحقّ كحق، والعاطفة العامة القائمة على إهمال الاعتبارات الشخصية، كل ذلك غير متّسق مع المحافظة على الدستور، ولا يتفق مع العادات المطلوبة في أي موقف محدَّد لأعضائه.

لكل حالة كرامةٌ خاصة بها، وتشير إلى ملائمة السلوك الذي على رجال الوظائف أن يحافظوا عليه. وفي الصلات الاجتماعية للكبار وللصغار، يكون هدف الطموح والخيلاء تحسين فوائد الرتبة، في حين أن تسهيل تفاعل المجتمع المهذَّب سيكون هدفه الجيّد هو إخفاؤه أو رفضه.

ومع أن أهداف الاعتبار هي في كرامة الموقع لا في الصفات الشخصية، ومع أن الصداقة لا تتشكَّل بمجرد الميل، ولا التحالفات بمجرّد الاختيار القلبي، فإن الرجال الموحّدين على ذلك النحو، حتى من دون تغيير نظامهم، حسّاسون بدرجة عالية بالتفوّق

الأخلاقي، أو قابلون لدرجات كثيرة ومختلفة من الفساد. وقد يقومون بدور قوي فاعل كأعضاء في الدولة، ودور لطيف في التبادل الفكري الخاص بالمجتمع الخصوصي، أو يمكنهم أن يتخلّوا عن كرامتهم كمواطنين، حتى عندما يرفعون عجرفتهم ووقاحتهم كفرقاء خصوصيين.

في الملكية، تستمد مراتب الرجال جميعها درجات إجلالها من التاج (الملك)، ويستمرون في حملها كحقّ، كما يمارسون سلطة ثانوية تابعة في الدولة قائمة على المرتبة أو المنزلة التي يتمتّعون بها، وعلى ارتباط الذين عُيِّنوا لكي يقودوهم ويكونوا في حمايتهم. وبالرغم من أنهم لا يتدخّلون في المجالس القومية والاجتماعات العامة، ومع أن اسم مجلس الشيوخ ليس معروفاً، فإن المشاعر التي يتبنّونها لا بدَّ من أن يكون لها وزن عند صاحب السيادة. وكل فردٍ بحسب قدرته المنفصلة وبمقدار ما ينظر في شؤون بلاده. وفي كل أمرٍ لا ينقص من مرتبته، له يدٌ مستعدة لخدمة المجتمع. وتجاه كل ما يزعج شعوره بالإجلال، يكوّن ظواهر مقت وكراهية تكون سلبية على إرادة أميره.

وبتشابك رعايا النظام الملكي بروابط متبادلة من التبعية والحماية، وبالرغم من عدم ارتباطهم بشعور بمصلحة عامة، نراهم مثل الموجودين في الأنظمة الجمهورية، يجدون أنفسهم كأعضاء مجتمع نشيط، ومنخرطين لكي يتعاملوا مع أقرانهم من المخلوقات على أساس ليبرالي. فإذا أخفقت تلك المبادئ، ومبادئ الإجلال التي تحمي الفرد من الذلّ في شخصه، أو في آلة الظلم والاضطهاد في يد آخر، وإذا أفسحت المجال للقواعد التجارية للتفكّر الفلسفي

الدقيق أو لحماسات في غير محلّها لروحٍ جمهورية، وإذا تخلّى عنها جبن الرعايا، أو كبتها طموح أمراء، إن حصل كل ذلك، ماذا سيكون مصير أمم أوروبا؟

الطغيان هو ملكية فاسدة، تبقى فيه محكمة وأمير في الظاهر، غير أن كل رتبةٍ ثانوية فيه تدمَّر. وفيه، يُقال للمواطن إنه عديم الحقوق، ولا يستطيع أن يمتلك أي نوع من الملكية، ولا أن يشغل أي وظيفة مستقلة عن إرادة الأمير الخاطفة. وهذه العقائد تقوم على قواعد الاحتلال والغلبة، ويجب غرسها بالسوط وبالسيف، وأفضل سبيل لقبولها يكون عبر الترويع بالأغلال والسجون. فالخوف، إذن هو المبدأ الذي يخوِّل المواطن أن يشغل وظيفةً، والحاكم صاحب السيادة الذي يمسك برموز الرعب وإرعاب الآخرين كما يشاء، لديه سبب كافٍ ليضع هذه العاطفة في موضع رئيسي في نفسه. وتلك السلطة التي ابتدعها على حقوق الآخرين تنطبق على حقوقه. ورغبته الشديدة في تأمين سلطته أو توسيعها يجدها، مثل حظوظِ شعبه مجرّد خيال ونزوة طائشة.

هكذا نجد أننا في حين نستطيع بدقة أن نحدِّد الحدود المثالية التي تميِّز دساتير الحكومات، نجد أنها في الواقع ونسبةً للمبدأ وللشكل مختلطة، وبأشكال مختلفة. ففي أي مجتمع لا يُصنَّف الناس بتمييزات خارجية، وبصفات شخصية أيضاً؟ وفي أي دولة لا يعملون بمبادئ متنوّعة، مثل العدالة، والإجلال، والاعتدال والخوف؟ فهدف العلم أن لا يُخفي هذا الاختلاط في موضوعه، وأن يجد في تعدّدية جزئياته ومجموعها النقاطَ الرئيسية التي تستحق انتباهنا، والتي بعد فهمها الجيّد تخلّصنا من الارتباك الذي يمكن لأنواع من الحالات والأمثلة المفردة أن تخلقها. وبنفس

الدرجة التي تتطلَّب الحكومات من الرجال أن يتصرّفوا انطلاقاً من مبادئ الفضيلة، والإجلال، أو الخوف، فإنها تنضوي تحت قيادات جمهورية، وملكية أو دكتاتورية، والنظرية العامة تنطبّق بشكل أو بآخر على حالتها الخاصة.

الواقع هو أن أشكال الحكم تتقارب أو تتباعد بشكل تبادلي، وعلى درجات كثيرة، وغالباً ما تكون غير مدركة. فالديمقراطية، عندما تقبل بعدم مساواة في الرتب تقترب من الأرستقراطية. وفي أشكال الحكم الشعبي وفي الحكم الأرستقراطي، احتفظ بعض الرجال بداعي سلطتهم الشخصية، وأحياناً بداعي سمعة أُسرهم، بنوعٍ من السلطة الملكية.

الملك محدود بدرجات مختلفة، وحتى الأمير الطاغية ليس إلّا ذلك الملك الذي لا تطالب رعاياه إلّا بأقل الامتيازات، أو هو أفضل من هو مستعد لإخضاعهم بالقوة. هذه الأشكال المتنوعة جميعها ليست إلّا خطوات في تاريخ البشر، وتدلّ على الأوضاع الخاطفة والمتحوّلة التي مرّوا بها، وهم مدّعون بالفضيلة أو ضِعاف بالرذيلة.

الديمقراطية الكاملة والطغيان يبدوان الطرفين المتضادين، ويتباعد فيهما دستورا الحكم أحدهما عن الآخر. ففي الحكم الأول تكون الفضيلة الكاملة هي المطلوبة، وفي الحكم الثاني يكون الفساد الكامل. ومع ذلك فمن حيث الشكل، لا يوجد شيء ثابت في رتب الرجال وتمييزاتهم يتعدّى الحيازة العَرَضية والمؤقتة على السلطة، لذا، فإن المجتمعات تنتقل بسهولة من حالة يكون لكل فرد فيها حق متساوٍ في الحكم، إلى حالة يكون فيها مصير الجميع

متمثِّلاً في الخدمة. والصفات ذاتها في كليهما، نعني الشجاعة، والشعبية، والخطاب والسلوك العسكري ترفع الطموح إلى السموّ. وبهذه الصفات يمكن بسهولة، للمواطن أو العبد في مرتبته أن يصل إلى قيادة جيش من موقع مغمور إلى موقع بارز. وفي كليهما، يمكن لشخص واحد أن يحكم حكماً غير محدود. وفي كليهما، يمكن للشعب أن يحطّم كل حاجز من حواجز النظام، وكل تقييد قانوني.

وإذا افترضنا أن المساواة القائمة بين رعايا دولة دكتاتورية قد أوحت لأعضائها بالثقة، وبالجسارة، وحبّ العدالة، فعلى الأمير الدكتاتور، أن يكون قد توقّف عن كونه مصدر خوف، وأن يهبط إلى الجمهور. وعلى النقيض نقول، إذا قيمة الصفة الشخصية التي يتمتّع بها أعضاء دولة ديمقراطية بمجرّد ذريعة لكسب المال وجمعه وللطموح، يمكن عندها للملك أن يبدأ من جديد، وأن يكون مدعوماً ممن يقصدون المشاركة في أرباحه. وعندما يجتمع النهّابون والمرتزقة في فرق، لا يهمّ تحت أي قائدٍ سوف يكونون، أكان القيصر أم البومبيوس(*) (Pompey)، فإن الآمال بالنهب أو الدفع هي الدوافع الوحيدة التي تجعلهم يرتبطون بأي واحد منهما.

في فوضى المجتمعات الفاسدة، غالباً ما يتغيّر المشهد، من الديمقراطية إلى الطغيان، ومن الأخير، أيضاً، إلى الأول. ومن وسط ديمقراطية الفاسدين من الرجال، ومن مشهد فوضى لاقانونية، يصعد الطاغية إلى العرش بسلاحٍ تفوح منه رائحة الدم. غير أن مساوئه أو ضعفه، في المركز الذي كسبه، توقظ بدورها، روحَ التمرّد والانتقام، وتفسح المجال لهما. وصرخات الجريمة

(*) هو بومبيوس العظيم القائد العسكري والسياسي في أواخر الجمهورية الرومانية للفترة ما بين 106 إلى 48 قبل الميلاد. ويقال إنه انحدر من المقاطعات الإيطالية الخلفية التي كانت تابعة للدولة الرومانية (المراجع).

والأسى، التي كانت في الحالة العادية للحكم العسكري تخيف الإنسان في عزلته الخاصة، وتصير مسموعةً في الأقبية والسراديب، وتخترق الأبواب الحديدية لقصر السلطان. يبدو أن الديمقراطية تعود إلى الحياة وتنتعش في مشهد الفوضى والشغب، غير أن الحالتين المتطرّفتين ليستا إلّا نوبات عابرة لمرض شديد أو وهنٍ في دولة مختلّة النظام.

وإذا وصل الناس، في أي مكان إلى هذا الحدّ من الفساد، فلا وجود لأملٍ مباشر في الإصلاح. فلا صعود الجمهور، ولا صعود الطاغية، سيوفِّران إدارة العدالة. ولا إجازة الشغب أو هدوء الاكتئاب والعبودية سيعلّمان المواطن أنه وُلِدَ للإخلاص لأقرانه من المخلوقات ولمحبتهم. وإذا أراد رجال الفكر أن يجدوا حالةَ الحرب الاعتيادية تلك، التي يسعدهم، أحياناً أن يشرِّفوها باسم: حالة - الطبيعة (The State of Nature)، فإنهم سيجدونها في النزاع الذي يقوم بين الأمير الطاغية ورعاياه، لا في تقدم قبيلة بدائية وبسيطة إلى حالة الأمم وترتيباتها المحلية.

القسم الثاني

تاريخ الأمم البدائيّة

الجزء الأول

المعلومات عن الموضوع مستمدّة من العصور القديمة

تاريخ البشر محصور في حقبة زمنية محدودة، ومن كل مكان هناك تلميح بأن الشؤون الإنسانية كان لها بداية. فالأمم التي تميّزت بحيازتها على فنون وهناء مؤسساتها السياسية، نشأت من أصل ضعيف، ولا تزال تحتفظ في قصتها على دلالات لتقدّم بطيء وتدريجي، حصلت به على ذلك الامتياز. وإن الأزمنة القديمة لكل شعب، مهما تنوَّعت ومهما خفيت وتنكَّرت، فهي تشمل المعلومة المتعلقة بهذه المسألة ذاتها.

في التاريخ المقدَّس، نجد أن آباء النوع البشري كانوا مؤلّفين من زوج (اثنين)، أُرسلا ليرثا الأرض وينتزعا مواردَ عيشهما من وسط الورود البريّة والأشواك التي كانت كثيرة على سطحها. وعنصرهم القليل العدد، كان عليه أن يواجه الأخطار التي انتظرت نوعاً ضعيفاً طفولياً من الكائنات. وبعد مرور عصور عديدة، نشأت أكثر الأمم احتراماً من أسرة واحدة أو من أسر قليلة كانت ترعى قطعانها في الصحراء.

وقد استمد اليونانيون أصلهم من قبائل رحّالة، وإن في هجراتها المستمرة برهان على الحالة البدائية والطفولية لمجتمعاتها. وقد امتُدحت مآثرها البطولية الحربية كثيراً في القصة، وقد عُرضت الصراعات التي تنازعوا فيها على ملكية بلاد، وجعلوها في ما بعد بفضل مواهبهم القصصية فناً وسياسةً لهم أدّيا إلى شهرتهم في تاريخ البشرية.

أما إيطاليا فقد قُسمّت إلى «كانتونات» (تجمّعات) بدائية وضعيفة، عندما وُجدت عصبة من النهّابين، كما تعلّمنا أن نعتبرهم، مقاماً آمناً على ضفاف نهر التيبر (Tiber)، وعندما حافظ شعب مؤلّف من جنسٍ (sex) واحد على شخصية أمة. وقد كانت روما ترى لعقود عديدة ومن أسوارها، وفي كل جهة أراضي أعدائها، ولم تجد إلّا القليل منهم لتقلّل من ضعف قوتها الطفولية، كما فعلت في ما بعد في وقت تقدّم إمبراطوريتها الشاسعة. ومثل التتار (Tartar) أو قبيلة السكيثيين (Scythian) من البدو الرحّل، التي استقرَّت في مكان، كان ذلك المجتمع الناشئ متساوياً، هذا إن لم يكن أعلى من كل قبيلة في جواره، وشجر البلّوط أو السنديان الذي كان يُغطّي الحقلَ بظلّه، كان قبلاً نباتاً ضعيفاً في المشتل الزراعي، ويجب عدم تمييزه عن الأعشاب الضارّة التي أعاقت نموّه المبكّر.

كذلك عرفنا الغول (Gauls) والألمان من طريق علامات حالة مماثلة. وسكان بريطانيا، في زمن الغزوات الرومانية شابهوا في أمور عديدة السكان الأصليين الحاليين في أميركا الشمالية، نعني: لم يكونوا يعرفون الزراعة وكانوا يرسمون على أجسداهم ويصبغونها، واستعملوا في لباسهم جلود الوحوش.

كانت بداية التاريخ مع الأمم جميعها متشابهةً، وفي مثل هذه الظروف علينا أن نبحث عن الطابع الأصلي للبشر. ويشير البحث إلى زمن بعيد يجب إقامة كل النتائج فيه على الوقائع التي بقيت لكي نستفيد منها. ومع ذلك، فإن منهجنا يجب أن يقيم دائماً الكلّ على الحدس، وأن ينسب كل ميزة من مزايا طبيعتنا إلى الفنون التي كانت في حوزتنا، وأن نتصوَّر أن مجرّد نفي فضائلنا جميعها هو وصف كافٍ للإنسان في حالته الأصلية. فنحن أنفسنا نشكّل المعايير المفترضة الخاصة بالتهذيب والمدنيّة. وحيث لا تظهر سِماتنا، نفهم أن لا شيء جدير بالمعرفة. غير أنه من المحتمل أن نكون هنا، كما في حالات أخرى كثيرة، غير مؤهّلين لمعرفتنا المفترضة بالأسباب كي نتكهّن بالنتائج، أو نعيّن ما كان يجب أن تكون الصفات والعمليات عليه، وحتى ما يخصّ طبيعتنا، في حالة غياب تلك الظروف التي رأيناها تنخرط فيه ومن سيفترض، من مجرّد الحدس، أن المتوحش العادي يمكن أن يكون أحمق مغروراً ومقامراً؟ وأنه سيكون متعجرفاً أو عبثياً من دون تمييزات الألقاب والثروة؟ وأن همّه الرئيسي تزيين شخصه وإيجاد تسلية؟ وحتى لو أمكن الافتراض أنه يشارك في رذائلنا، ويتنافس وسط غابته على الحماقات التي تُمارس في المدينة، فلا أحد يتجرّأ على التأكيد أنه في أي حالة سيتفوق علينا بالمواهب والفضائل، وأنه سيكون حائزاً على النفوذ فكري، وقوة الخيال والخطابة والحماسة العقلية، والعاطفة والشجاعة التي تقدر الفنون، والتهذيب، وسياسة أمم قليلة على تحسينها. ومع ذلك إن هذه الجزئيات تؤلّف جزءاً من الوصف الذي قدَّمه من توفّرت لهم الفرص لرؤية البشر في أكثر حالة من حالاتهم البدائية. ومن دون تعليم هذه الشهادة، لا نستطيع أن نتسلّم معلومات أو نقدّمها حول الموضوع بشكل سليم.

إذا لم يكن للحدوس والآراء التي تتشكل عن بعد سلطة كافية في تاريخ البشر، فيجب استقبال الأزمنة القديمة المحلية لكل أمة لذلك السبب بحذر. فهي بمعظمها مجرّد حدوس أو قصص خرافية عن العصور التي سبقت. وعندما تبدو في البداية مشتملة على ما يشبه الحقيقة، حتى عندئذٍ، فإنها تظلّ قابلة للتغيّر في خيال الذين ينقلونها، ويكون لها في كلّ جدلٍ شكلٌ مختلف. فكأنها مصنوعة لكي تحمل طابع الأزمنة التي مرَّت عبرها على شكل تقاليد، لا للعصور التي تنسب إليها أوصافها المزعومة. فالمعلومات التي تنقلها ليست مثل الضوء المنعكس على مرآة، الذي يرسم المصدر الذي منه صدر، وإنما مثل الأشعة التي تُردّ متكسِّرةً ومنتشرةً على سطح غير مصقول، فلا تقدّم سوى ألوان الجسم الذي انعكست عليه وسِماته.

عندما يحصل التدريب على القصص الخرافية من قِبَل الشعب العادي، فإنها تحمل علامات الشخصية القومية. وبالرغم من كونها مختلطة بأمور غير معقولة، فإنها غالباً ما ترتقي بالخيال، وتحرِّك القلب: عندما تعدّ مواد الشعر المزيَّن بمهارة عقلٍ راقٍ ومتحمس، وهي تُعلِّم الفهم وتثير العواطف ليس إلّا في استخدام الآثار، أو قطع من التزيينات التي منعتهم قوانين التاريخ من ارتدائها، حيث تكون غير ملائمة لتحريك الخيال أو لخدمة أي غرضٍ مهما يكن.

من غير المعقول الاستشهاد بالإلياذة (*Iliad*) والأدويسه (*Odyssey*)، وأساطير هرقل (Hercules)، وتيسيوس (Theseus) أو أوديب (Oedipus) كمراجع في أمور تختصّ بالحقائق والوقائع، وتتعلّق بتاريخ البشر، ولكن يمكن أن تُستشهد بحقٍ لتأكيد ما كان

موجوداً من تصوّرات ومشاعر في العصر الذي تألّفت فيه، أو لتوصيف عبقرية ذلك الشعب الذي اندمجت بأفراده، وبهم كان التدريب عليها والإعجاب بها.

وبهذا النحو يمكن قبول القصة الخرافية لتشهد وتبرهن على عبقرية الأمم، في حين لا يملك التاريخ أي شيء يقدِّمه ويمكن وصفه بأنه موثوق. فالقصة الخرافية اليونانية، وهي تنقل شخصية مؤلِّفيها، تلقي ضوءاً على بعض العصور التي لم يبقَ منها أي سجلّ. وأوضح ما يكون تفوّق هذا الشعب في الوَقار الذي يولِّده أدبهم القصصي وفي قصص أولئك الأبطال الخرافيين، والشعراء، والحماة، وهي قصص مُبدعة ومُزخرفة بخيالٍ مملوء بالموضوع الذي من أجله احتفيَ بالبطل، وعُرضت لإشعال ذلك الحماس المتوهج، والذي به استمرّت جمهوريات مختلفة كثيرة في ممارستها وفي سعيها وراء أي هدفٍ قومي.

ولا شك في أنه كانت هناك فائدة عظيمة لتلك الأمم، في أن يكون نظام خرافاتها أصلياً، ومقبولاً في التقاليد الشعبية، ومفيداً في نشر تقدّمات العقل والخيال والشعور، التي دخلت في الخرافة ذاتها أو انتقلت إلى أخلاقها من قِبَل رجال من ذوي أفضل المواهب. فعواطف الشاعر ومشاعره شاعت في عقول أفراد الشعب، وصارت مفاهيم العباقرة التي انتقلت إلى عامة الناس بمنزلة دوافع روح قومية.

فالأسطورة المأخوذة من الخارج، والأدب القائم على مراجع تخصّ بلاداً غريبة، والمملوء بإشارات أجنبية، يكون استعمالهما محصوراً: فهما موجَّهان للمتعلمين فحسب وبالرغم من أنهما

يقصدان تنشيط الإدراك، وإصلاح القلب، فقد يكون لهما أثرٌ مضادّ بحصرهما في نخبة. فقد يعزِّزان الوهم القائم على الشعور العام، وتحويل ما كان يعتبر رذيلةً، وما كان يُغنّى ببراءةٍ من قِبَل البحّار الأثيني عند مجاذفه وما ردَّده الراعي وهو يرعى قطيعه، إلى أساس كبرياء للمتحذلقين والمدرسيين(*).

قد يُضعف علمنا ذاته، إذا امتدّ تأثيره، بمقدارٍ ما روحنا القومية، فأدبنا استُمدَّ من أممٍ وعناصر مختلفة، كانت قد ازدهرت في زمنٍ كان أجدادنا فيه في حالة من البربرية، وبالنتيجة اتَّضعوا عندما احتُقروا من قِبَل الذين حصلوا على الفنون الأدبية، فكنا نحن أنفسنا ذرّية أممٍ محتقرة، لا تأثير للخيال وللشعور الإنسانيين فيها إلّا أن أتى الوحي للعباقرة من طريق أمثلة ودروس من الخارج. فالرومان الذين تُستَمدّ منهم شروحنا، بشكل رئيسي، سلَّموا ببدائية ووحشية أجدادهم، ونظام فضائلهم الذي تحوزه الأمم البسيطة جميعها سواء بسواء، والمؤلّف من ازدراء للغنى وحبّ لبلادهم وصبر في الشدائد وعند الخطر والتعب الشديد. ومع ذلك، حطّوا من قدر أجدادنا لأنهم شابهوا أجدادهم، على الأقل، من حيث عيوب فنونهم ونواقصها، وفي إهمال وسائل الراحة التي يسبّبها استخدام تلك الفنون.

إننا لم نحصل من اليونانيين والرومان على أصدق وأنفع

(*) المدرسي هو أحد أتباع الفلسفة المدرسية (Scholasticism). وهي الفلسفة النصرانية التي سادت في القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة، وقد بنيت على منطق أرسطو ومفهومه لما وراء الطبيعة. ومن أبرز فلاسفتها توما الأكويني، فيلسوف الكنيسة الكاثوليكية، والذي تعرَّف على الفلسفة الأرسطية عبر شروح الفيلسوف العربي الأندلسي ابن رشد (المترجم).

صور جذّابة عن القبائل التي منها تحدّرنا فحسب. فهؤلاء الكتّاب المصقولون والأذكياء فهموا الطبيعة البشرية، واستطاعوا أن يُلِمّوا بسِماتها وعرض صفاتها، في كل موقف. وقد أخفق في هذه المهمة المؤرّخون الأولون لأوروبا الحديثة، الذين أُعِدّوا بصورة عامة لمهنة رهبان، وعاشوا حياة رهبانية ونسك، وسجّلوا ما أعجبهم من الحقائق، في حين أهملوا منتوجات العباقرة وتركوها تبلى، ولم يكونوا قادرين بداعي المادة التي انتقوها أو بداعي أسلوب تأليفاتهم، أن يقدّموا صوراً عن الروح النشيطة للبشر في أي حالة من حالاتهم. وعندهم يفترض في القصة أن تؤلّف تاريخاً، لكنها لا تنقل أي معرفةٍ بالرجال، وأُريدَ للتاريخ نفسه أن يكون كاملاً، لكن وسط الأحداث وتعاقب الأمراء المسجّلين وفقاً للنظام الزمني نُترك للنظر عبثاً عن خصائص الفهم ومزايا القلب، التي وحدها في كل تعامل إنساني تجعل القصة جذّابةً أو مفيدة.

لذلك، سوف نتخلّى، إرادياً، عن تاريخ أجدادنا الأولين، من حيث أسقطهم القيصر (Caesar) وتاسيتوس. ولن يكون لنا سبب لتوقُّعٍ يُهمُّ العقل أو ينفخ فيه الحياة إلى أن نصل إلى ما يتّصل بالشؤون الحاضرة، ويشكل جزءاً من النظام الذي منه ننطلق الآن. وعلى كل حال، ليس لدينا مسوّغ للاستنتاج، من هناك، أن الأمر نفسه كان عقيماً، أو كان مشهد الشؤون الإنسانية أقل لفتاً في أوروبا الحديثة مما كان عليه في كل مرحلة كان البشر فيها مشغولين بعرض حركات جهود الكرم، والشهامة والشجاعة.

والنظر في ما تحتويه تلك العصور لم يكن منصفاً، عندما يجمع رجالاً عباقرة وقدرات متميّزة بمساعدة إنجازات زمنٍ فيه علم وثقافة، والمواد التي وجدوها وبنجاح ما بعده نجاح يربطون

قصة عصور جهالة وأميّة مع التعاملات والصفقات في تاريخ لاحق. إذ يصعب عليهم، حتى بالأسماء المطبقة في حالة جديدة للمجتمع، أن ينقلوا فهماً منصفاً لما كان عليه البشر في أوضاع مختلفة جداً وفي أزمنة بعيدة كثيراً عن زمانهم.

في استخلاصنا، من المؤرّخين من ذلك الصنف، والتعليم الذي تقدّمه كتاباتهم علينا دائماً أن ننسى المفردات العامة المستخدمة، لكي نجمع الأساليب الحقيقية الخاصة بأي عصر من الظروف الدقيقة التي تُعرض بصورة عَرَضية. فاللقبان: ملكي (Royal) ونبيل (Nable) طُبِّقا على أسر تاركينيوس (Tarquin)، كولاتينوس (Collatinus) وسينسيناتوس، لكن لوكريشا (Lucretia) استخدمت في المهنة المنزلية مع خادماتها وسينسيناتوس لحقّ المحراث. فالألقاب الرفيعة والوظائف أيضاً، في المجتمع المدني، كانتا معروفتين في عصور قديمة كثيرة، وفي أوروبا وبتسمياتها الحالية. غير أننا نجد، في تاريخ إنجلترا، أن الملك وحاشيته يجتمعان للاحتفال بعيداً وأن إنساناً خارجاً على القانون عاش على السلب والنهب، يأتي ليشارك في العيد. وعندما ينهض الملك نفسه ليطرد ذلك الضيف الذي لا يستحق الحضور، من وسط الحاضرين، ينشأ شجار بينهما يؤدّي إلى مقتل الملك[1]. ورئيس الوزراء الذي كان أثاثه الفخم والغالي موضع إعجاب وحَسَد كان يطلب أن تُغطّى غرفه في كل يوم من أيام الشتاء بقشّ وتبنٍ، وفي الصيف برشّات خضراء أو بفروع أغصان. والملك نفسه، في تلك الأزمنة، كان يموَّن بعلف الماشية لسريره[2].

(1) *Hume's History*, chap. 8, p. 278.

(2) المصدر نفسه، الفصل 8، ص 73.

وتنقلنا تلك السِّمات الأخّاذة، والدفعات المتميّزة للأزمنة، والخيال من الامتياز المفترض الخاص بالملك وبالمواطن إلى الحالة العادية المألوفة التي عاش فيها أجدادنا، وفي ظلّها عملوا طبقاً لمبادئ سلوك قلّما نفهمها، عندما نكون مشغولين بتسجيل تعاقداتهم، وبدرس طبائعهم.

وبغضّ النظر عن انحياز بلاد ثوسيديدس (Thucydides) ضد اسم البرابرة (Barbarian)، فقد فهموا أن عليهم أن يدرسوا أساليب الحياة القديمة في بلاد اليونان ويبحثوا عنها في تقاليد وأعراف الأمم البربرية.

وبما يكون الرومان قد وجدوا صورةً عن أجدادهم في الصور التي قدَّموها عنا. وإذا اتفق أن صارت عشيرة عربية أمة متمرّنة، أو نجت أي قبيلة أميركية من السمّ الذي يديره تجّارنا الأوروبيون، فإن ذلك سيحصل انطلاقاً من علاقات الأزمنة الحاضرة، والأوصاف التي يقدَّمها المسافرون الآن، والمفيدة أنه بعد عصور يمكنهم جمع الشروح الخاصة بأصلهم وعلينا في الحالة الحاضرة، أن ننظر، كما لو كنا ننظر في مرآة لنرى سِمات أجدادنا، ومن هنا علينا أن نستخلص نتائجنا بالنسبة إلى تأثير الأوضاع، التي لدينا مسوّغ للاعتقاد بأن آباءَنا قد وُجِدوا فيها.

ما الذي يُميِّز الألماني أو البريطاني، في عاداته العقلية أو الجسدية، وفي أساليبه أو فهمه، عن الأميركي الذي تُرك بقوسه وسهامه ليذرع الغابة، واضطر في مناخ قاسٍ ومتحوِّل إلى العيش من المطاردات؟

وفي الأعوام القادمة، إن رغبنا في تكوين فكرة منصفة عن تقدّمنا انطلاقاً من المهد، علينا أن نعود إلى بيت الحضانة، وإلى أمثلة الذين ما زالوا على قيد الحياة، وأن نصوِّر الأساليب الماضية للحياة، التي لا يمكن استذكارها أو استرجاعها، بأي طريقة أخرى.

الجزء الثاني

الأمم البدائيّة السابقة لتشريع المِلكيّة

من أقصى طرف لآخر في أميركا ومن كامتشاتكا (Kamtschatka) غرباً إلى نهر أوبي (Oby)، ومن بحر الشمال، وعلى طول البلاد، إلى حدود الصين، والهند وفارس، ومن بحر قزوين إلى البحر الأحمر، مع قليل من الاستثناءات، ومن هناك إلى القارة الداخلية والشواطئ الغربية لأفريقيا، نجد أمماً نطلق عليها اسم بربرية أو متوحّشة. فلا بدّ لتلك الأرض الشاسعة، التي تحوي تنوّعاً كبيراً في الموقع، والمناخ، والطريقة وفي أساليب حياة سكانها، وتستطيع عرضَ الظواهر المتنوّعة التي تنشأ من التأثير غير المتساوي للشمس مع التغذية المختلفة وأساليب الحياة المختلفة. فكل سؤال حول الموضوع هو سابق لأوانه إلى أن نحاول أولاً، تشكيلَ تصوّرٍ عام عن نوعنا في حالته البدائية، ونتعلّم أن نميِّز الجهالة عن البلادة، والحاجة إلى الفنون عن الحاجة إلى القدرة.

بعض الأمم التي تعتمد على تلك الأمور، أو على سواها من أجزاء الأرض غير المزروعة، اعتمد في موارد عيشه بشكل رئيسي على الصيد البرّي، وصيد السمك، أو على الإنتاج الطبيعي للتربة،

ولم يهتم بالمِلْكية، وبأي بدايات للحكم أو التبعية. وبعضها الآخر الذي امتلك أعشاباً، واعتمد في تموينه الأعشاب، عرف معنى أن يكون الإنسان فقيراً وغنيّاً. فهم عرفوا علاقة المحامي بالزبون، والخادم بالسيّد، وبمقياس الثروة كانوا يحدّدون موقعهم. ولا بدَّ من أن يكون هذا التمييز قد خلق اختلافاً مادياً ظاهراً في الخُلُق أو الطبع، ويمكن أن يكون قد قدَّم عنوانين منفصلةً، يجب النظر تحتهما إلى تاريخ البشر في حالتهم البدائية، وحالة ذلك المتوحِّش الذي لم يتعرَّف بعد على الملْكيّة، وحالة البربري الذي إليه يكون الهدف الرئيسي للعناية وللرغبة، بالرغم من أن ذلك غير مؤكَّد من القوانين.

لا بدَّ من أن يكون واضحاً وضوحاً لا لبس فيه، أن الملْكيّة تخصّ التقدّم. فهي تتطلَّب من بين أشياء أخرى من نتائج الزمن، منهجاً لتعريف الحيازة. والرغبة فيها ذاتها تنطلق من التجربة، والجهد الذي به تكسب، أو تُتَحسَّن، ويتطلَّب عادةً العمل مع نظرة إلى أهداف بعيدة قد تتغلّب على الميل الحالي، إمّا للكسل أو للمتعة. وتكتسب هذه العادة ببطء في الواقع ما يُميِّز الأمم في حالة متقدِّمة للفنون الميكانيكية والتجارية.

في قبيلةٍ تعيش على الصيد البرّي وصيد السمك، وتشكّل الأواني والفرو اللذين يحملهما الفرد، ملكيته الوحيدة. طعام الغد الذي لا يزال في الغابة أو في البحيرة، لا يمكن امتلاكه قبل الإمساك به، وحتى عندئذٍ، ولأنه يخصّ أعداداً تشترك بصيد السمك أو بالصيد كجماعة، فهو يستعمل مباشرة أو يودع في مخازن الشعب.

وحيث جَمَعت الأمم المتوحشة، كما كان في معظم أجزاء

أميركا، بين ممارسة الصيد ونوع من الزراعة البدائية، فإنها تظلّ تتبع نسبةً إلى التربة وثمار الأرض، ما يماثل هدفها الرئيسي. فعندما يعمل الرجال في الصيد، تعمل النساء، معاً، وبعد أن يشاركن في جهود بذر البذور في وقتها، يشاركن بالتمتّع بثمار المحصول. فالحقل الذي قاموا بزرعه، مثل المنطقة التي اعتادوا الصيد فيها، تعتبرها الأمة من أملاكها، لكنها لا توزّع أجزاءها على أعضائها. فهم يمضون فرقاً لإعداد الأرض للزرع وللحصاد. ويُجمع المحصول في المخزن العام للحبوب، ومنه يُقسم إلى حصص لإعالة وصيانة الأسر المنفردة[1] في أوقات معينة. وعائدات السوق، التي تُجلب عندما يتاجرون مع غرباء، تُعاد إلى الوطن لتودع في مخزن الأمة[2].

كما أن الفرو والقوس يخصّان الفرد، فإن الكوخ والأدوات المنزلية تلائم الأسرة. كما أن العناية المنزلية من واجبات النساء كذلك يبدو أن ملكية المنزل في أيديهن. ويعتبر الأطفال تابعين للأم، من دون اعتبار لأصل الطرف الأبوي. وقبل الزواج يبقى الذكور في الكوخ الذي وُلِدوا فيه، لكن بعد أن يشكّلوا رابطةً جديدة مع الجنس الآخر، يُغيِّرون مكان إقامتهم، وتصير علاقتهم مع الأسرة التي وجدوا فيها زواجاتهم. ويعتبر أعداد الصيادين والمحاربين جزءاً من كنوز المرأة المتزوجة ذات النفوذ، فهم يبقون

(1) History of the Caribbees.

(2) شارلوفوا (Charlevoix). هذا الشرح الواصف للأمم البدائية، هو، في معظم نقاطه المهمة، التي تتصل بالأميركيين الشماليين الأصليين ليس مؤسساً على شهادة هذا الكاتب أو الكاتب الآخر، وإنما على الصور المتفقة لشهود أحياء، الذين كان لديهم فرصة واسعة في التجارة، والحرب، والمعاهدات، لكي يلاحظوا أساليب حياة ذلك الشعب. وعلى أي حال لا بدَّ للذين لم يجروا حديثاً مع الشهود الأحياء، أن يشيروا إلى المراجع المطبوعة.

لأيام الكريهة ومناسبات الاختبار، وفي حالة الخطر، وفي حالة عدم انعقاد المجالس العامة، في وقت الصيد أو في زمن الحرب، يبقون في رعاية تلك المرأة، ويتسكّعون وهم في حالة تسلية أو كسل[3].

وفي حين كان جنسٌ واحدٌ مستمراً في تقدير نفسه بشكل رئيسي على أساس شجاعته، ومواهبه التخطيطية والسياسية، ومنجزاته الحربية، فإن ذلك النوع من الملْكية الممنوح للآخرين هو في الواقع علامة خضوع، لا كزعم بعض الكتّاب علامة كسبهم سيطرة[4]. هي عناية الإنسان وجهده، التي لم يختر المحارب أن يكون منزعجاً منها. هو عبودية، وعمل مرهق مستمر لا يكسب رتب شرف، وهؤلاء أيّاً كانت منطقتهم، هم في الواقع العبيد والأقنان في بلادهم. وإذا كان هذا هو مصير الجنسين، حيث يستمر الرجال في احتقار الفنون الخسيسة الوسخة وفنون المرتزقة، فإن مؤسسة العبودية الوحشية، سوف تؤجّل لبعض العصور. وإذا منعت عواطف القلب في هذا العرض - وبالرغم من التحالف غير المتساوي - الظواهرَ الوحشية التي مورست على العبيد، فإننا سنجد في العادة نفسها، كما في مناسبات أخرى كثيرة، سبباً لتفضيل أول مسحات الطبيعة على تحسيناتها اللاحقة.

إذا استمر البشر في أي حالة في العمل على أساس مادة الملكية التي عرضناها، يمكننا عندئذٍ بسهولة أن نعتمد على ما نقله المسافرون، وهو أنهم يرفضون تمييزات الرتبة أو الحالة، وأنهم ليس لديهم أي درجة من التبعية والخضوع غير توزيع الوظيفة الذي

---

(3) Lafitau.

(4) المصدر نفسه.

تتبع الفروق في السن، والمواهب، والميول. فالخصال الشخصية توفّر صعوداً في وسط المناسبات التي تتطلّب جهداً، لكنها لا تترك في أوقات الراحة أثراً لسلطة أو لتفوّق. فالمحارب الذي قاد شبّان أمته إلى ذبح الأعداء، أو الذي كان الأول في الصيد، يعود وهو على مستوى مع بقية قبيلته. وعندما يكون العمل هو النوم، أو الأكل، فإنه لا يتمتع بأي تفوّق، لأنه ينام ويأكل مثلهم، وليس ثمّة من أفضلية.

وعندما لا ترافق السيطرة منفعة، فإن الفريق الواحد يكون كارهاً لمتاعب السيطرة الدائمة، كما يكون الفريق الآخر بالنسبة إلى القضاء على الخضوع الدائم. قال مونتسكيو: «أحب الانتصار، وأحب الأعمال العظيمة» في شخصية سيلّا (Sylla)، «لكني لا أستمتع بالتفاصيل الضعيفة لحكم مسالم، أو بمواكب ومهرجانات ذات مراكز رفيعة». فقد لمس وتراً حسّاساً في الشعور السائد في أبسط حالات المجتمع إذ تسبّب المنفعة ضعف الدافع، وتجاهل أي ارتقاء غير قائم على الجدارة يوفّر مكاناً للاحتقار.

على أية حال إن طابع العقل في تلك الحالة ليس قائماً على الجهالة وحدها. فالبشر الذين يتبعون قائداً إلى الميدان، نجدهم لا يطيقون ذرائع السلطة الرسمية: فهم لا يصغون لأوامر، ولا يتقيّدون بأي ارتباط أو تعهّد عسكري، سوى ما يتّصل بالإخلاص المتبادل، والحماسة المتساوية للمشروع[5].

قد نعتقد أن هذا الوصف ينطبق بصورة غير متساوية على أمم مختلفة تقدّمت تقدّماً غير متساوٍ في تأسيس الملْكيّة. فعند جماعة

---

(5) Charlevoix.

كاريبيس (Caribbees)، وجماعات أخرى أصلية تقيم في المناخ الدافئ في أميركا، يكون منصب شيخ القبيلة وراثياً، أو يكون من طريق الانتخاب ويستمر طوال الحياة، أما التوزيع غير المتساوي للملكية فيخلق تبعيّة منظورة[6]. غير أن الألقاب عند الإيروكواس (Iroquois) وأمم أخرى في المنطقة المعتدلة، مثل لقب حاكم (Magistrate) وتابع (Subject)، ونبيل (Noble) وحقير (Mean)، فهي غير معروفة، مثل غني (Rich) وفقير (Poor). فالمتقدّمون في السن يمكنهم، ومن دون أن يكون لهم أي سلطة قمعية، أن يستخدموا سلطتهم الطبيعية في النصح، أو في الحثّ على إصدار قرارات قبيلتهم. والقائد العسكري يكون بتفوّقه في الرجولة والشجاعة، والسياسي لا يمتاز إلّا بسماع مشورته، والمحارب عبر الثقة التي تجعل الشبّان في أمته يتبعونه إلى الميدان. وإذا كان لا بدَّ من الافتراض أن اتفاقاتهم تؤلّف نوعاً من الحكم السياسي، فإنه سيكون مما لا تنطبق عليه لغتنا. فالسلطة هي أكثر من أن تكون للعقل طبيعياً، والقيام بالوظيفة هو أكثر من ممارسة طبيعية للخُلُق الشخصي. وحيث إن المجتمع يعمل بنظام، فلن يكون هناك شعور بالتباين في قلب أي واحد من أعضائه[7].

في هذه الممارسات غير الرسمية التي فيها يكون للعمر وحده مكانٌ في المجلس، ويمنح الشباب الحماسة والشجاعة في الميدان لقباً لمركز القائد، وحيث يجتمع أفراد المجتمع جميعهم في كل مناسبة إنذاراً بخطر مفاجئ، يمكننا أن نجازف ونقول، إننا وجدنا أصل مجلس الشيوخ، والسلطة التنفيذية، ومجلس الشعب

---

(6) وصف Isthmus of Darien.

(7) Colden Cadwallader, *History of the Five Nations*.

والمؤسسات التي اشتهر بها المشرِّعون القدامى. ويبدو أن مجلس الشيوخ عند اليونانيين، وأيضاً، عند اللاتين، وفي ضوء المصدر الاشتقاقي لاسمه (Etymology)، أنه كان مؤلفاً في الأصل من كبار السن. والقائد العسكري في روما يعلن عن جنوده بأسلوب لا يختلف عن أسلوب المحارب الأميركي، ليغدو استعداد المواطن للميدان نتيجةً عملية اختيارية. والاعتبارات الطبيعية، التي أرشدت سياسة الأمم وخططها في أدغال أميركا، اتُّبعت قبل ذلك على ضفاف نهر يوروتاس* (Eurotas) وتيبر، ووجد ليكرغوس ورومولوس (Romulus) نموذج مؤسساتهما، حيث وجد أعضاء كل أمة بدائية النمط الأول الذي وحَّد مواهبهم وجمع قواهم.

عند الأمم الأميركية الشمالية، يعتبر كل فردٍ مستقلاً، لكنه منخرط بعواطفه وعاداته في العناية بأسرة. والأسر مثل القبائل الكثيرة المنفصلة لا تخضع لتفتيش أو حكم من الخارج، فكل ما يجري في الداخل، ولو كان سفك دم وجريمة فهو يخصّهم. وهم في الوقت ذاته أجزاء من كانتون (إقليم)؛ فالنسوة يتجمّعن لزرع الذرة، وكبار السن من الرجال يذهبون إلى المجلس، أما الصيّاد والمحارب فيلتحقان بشبّان القرية في الحقل. والكثير من هذه الكانتونات تجمع لتأليف مجلس قومي، أو لتنفيذ مشروع قومي. وعندما أنشأ الأوروبيون مستعمراتهم الأولى في أميركا، شكّلت ست أمم حلفاً، وجعلت دولها عامة، وبفضل قوة وثبات اتحادهم وقدرة مجالسهم تمكنوا من الحصول على امتداد من منبع سانت

(*) هو النهر الرئيسي للاكونيا (Laconia) وواحد من الأنهار الرئيسية في منطقة البيلوبونيز اليونانية (Peloponnese)، إذ ينبع من الشمال الغربي من الجبال والينابيع (المراجع).

لورانس (St. Lawrence) إلى نهر المسيسيبي[9] (Mississippi).

فقد بدا أنهم فهموا أهداف الاتحاد، وأيضاً، أهداف الأمم المنفصلة، ودرسوا ميزان السلطة، فرجل الدولة في البلاد كان يراقب تصاميم وخطط وأعمال دولة أخرى، وبين وقت وآخر كان يُلقي بوزن قبيلته في كفّة ميزان مختلفة. وكان لهم تحالفاتهم ومعاهداتهم، وكانوا مثل الأمم الأوروبية يحفظونها أو يفكّونها لأسباب تتعلّق بالدولة، وظلّوا في حالة سلام من شعورٍ بالضرورة أو الملائمة، ودخلوا في حرب بداعي الإثارة أو الغيرة.

هكذا، نرى أنهم من دون وجود أي حكم مستقرّ، أو أي عقد اتحاد، سوى ما يشبه ما تمليه الغريزة، لا العقل، سيّروا أحوالهم بمثل اتفاق الأمم وقوّتها. والأجانب يمكنهم دائماً، ولو كانوا غير قادرين على أن يعرفوا من هو الحاكم أو القاضي وبأي طريقة تألّف مجلس الشيوخ، أن يجدوا مجلساً يمكنهم أن يتعاملوا معه، أو زمرة من المحاربين يمكن أن يتقاتلوا معها. ومن دون شرطة أو قوانين ملزمة، يُدار مجتمعهم المحلّي بنظام، وإن عدم وجود نزعات شرّيرة يشكل أمناً أفضل من أي مؤسسة مختصة بقمع الجرائم.

ومع ذلك، فإن ظواهر الفوضى تحصل أحياناً، خاصة في أزمنة الفسوق والانغماس في اللذات الحسيّة، عندما يستعمل غير المعتدلين المشروبات المسكرة التي أدمنوا عليها ويتوقفون عن الحذر المألوف الذي اتصف به سلوكهم، ويحركون عواطفهم العنفية، ويدخلون في مشاجرات وسفك دماء. وعندما يُذبح شخص

(9) Lafitau, Charlevoix, Colden, &c.

قلّما يُدعى قاتله إلى محاسبة فورية، لكن يكون له شجار مع الأسرة والأصدقاء، وإن كان غريباً مع مواطني المقتول، وأحياناً مع أمته في الوطن إذا كان الأذى من النوع الذي ينذر المجتمع ويهدِّده. فعلى الأمة، «الكانتون» أو الأسرة أن تحاول عبر تقدّمات أن تتلاءم مع إساءة أي واحدٍ من أفرادها. وعبر تهدئة الأطراف المصابة الحزينة، أن تحاول أن تمنع ما ينذر المجتمع بخطر أكثر من الفوضى الأولى نتيجةَ الثأر والعداوة[10]. وعلى كل حال نقول إن سفك الدم نادراً ما يجعل المذنب من دون عقاب وإن بقي حيث اقترف الجريمة. فأصدقاء القتيل يعرفون كيف يتنكّرون، وإن لم يطمسوا حقه. وحتى بعد سنين عديدة سوف يدفع ثمن الأذى الذي سبَّبه لأقربائه أو لأسرته.

هذه الأفكار تجعلهم حذرين ومحترسين، وتجعلهم ضابطين لعواطفهم، وأن يضفوا على سلوكهم العادي جوّاً من رباطة الجأش والهدوء، يفوق ما هو موجود عند الأمم المصقولة ثقافياً. وفي ذات الوقت نراهم عاطفيين في شجاعتهم، وفي محادثاتهم يؤدّون انتباهاً متبادلاً واحتراماً متبادلاً، كما قال شارلوفوا (Charlevoix)، فهي أكثر عطاءً وأكثر جاذبية مما نعرفه في احتفالات المجتمعات المصقولة الثقافية.

لقد لاحظ هذا الكاتب أن الأمم التي تجوّل فيها، في أميركا الشمالية لم تذكر أبداً أفعال الكرم أو اللطف في عداد الواجب. فهي تنطلق في تصرّفها من المحبّة، كما يتصرفون انطلاقاً من الشهيّة، من دون اعتبار لنتائجها. وعندما يقومون بعمل فيه لطف وكرم يكونون

---

(10) Lafitau.

ممتلئين رغبة، وعند هذا الحدّ يكون العمل قد انتهى وهو يمرّ في الذاكرة. وعندما يتلقّون تأييداً أو استحساناً، فقد يبرهن ذلك وقد لا يبرهن على مناسبة صداقة: فإذا لم يبرهن عندئذٍ يبدو أن الأطراف لا تفهم الإقرار بالفضل كواجبٍ يفرض على طرف أن يردّ الجميل، أو يكون الطرف الآخر مخوّلاً لتأنيب الشخص الذي أخفق في واجبه. هذه الروح التي بها يعطون أو يتلقون هدايا هي ذاتها التي لاحظها تاسيتوس عند الألمان القدماء. فقد كانت تُبهجهم، لكنهم لم يحسبوها واجباً[11]. مثل هذه الهدايا لا أثر لها، إلّا عندما تُستخدم كختمٍ لصفقةٍ أو معاهدة.

كانت قاعدة سلوكهم المفضَّلة في الإفادة أن لا إنسان مدين لآخر طبيعياً. لذلك، هو ليس ملزماً بأن يتحمّل أي فرضٍ أو معاملة غير متساوية[12]. وهكذا، اكتشفوا، بمبدأ محزن وقاسٍ أساس العدالة، ولاحظوا قواعدها بثبات وشهامة لم تضطر أن تحسّنها أي ثقافة. والحرية التي أعطوها بما يتعلق بالواجبات المفترضة الخاصة بالفضل والصداقة، لم تنفع إلّا في انخراط القلب الذي كانت العاطفة مستحوذة عليه. فنحن نحب أن نختار هدفنا من دون تقييد، ونعتبر الفضل نفسه كعمل، عندما تنفَّذ واجبات الصداقة بواسطة قاعدة. لذلك نحن بطلبنا الانتباه نفسد ولا نحسّن نظام الأخلاق، وبانتزاعنا العرفان بالجميل واقتراحاتنا المتكرّرة المطالبة بفرض تنفيذه والإشراف عليه، لا نظهر سوى أننا أخطأنا طبيعته. فنحن لا نقدّم سوى علامات عن تلك الحساسية بالمنفعة، المتنامية، التي بها نقيس ملاءمة الصداقة والكرم ذاتها، وبها نُدخل روح المقايضة في

(11) Muneribus gaudent, sed nec data imputant, nec acceptis obligantur.
(12) Charlevoix.

تجارة العاطفة. وكنتيجة لهذه الأحداث، نضطر، في أغلب الأحيان لرفض خدمةٍ أو منّةٍ، بنفس الروح التي نطرح بها ارتباطاً عبوديّاً، أو نرفض رشوة. أما بالنسبة إلى المتوحّش غير المصقول، فكل منّةٍ مرحَّبٌ بها، وكل هديّة تُتلقّى من دون تحفّظ أو تفكير.

حب المساواة وحب العدالة كانا يمثّلان الشيء ذاته في الأصل، وبالرغم من أن امتيازات غير متكافئة كانت تُمنح لأفراد مجتمعات مختلفة عبر دساتيرها، وبالرغم من أن العدالة نفسها تتطلّب احتراماً ملائماً لمثل تلك الامتيازات، فإن من ينسى أن البشر كانوا متساوين أصلاً ينحدر إلى مستوى عبد، أو لا تكون له حقوق مماثلة لحقوق أقرانه من المخلوقات بقدرة سيّد من الأسياد. هذا المبدأ السعيد يضفي على العقل شعوره بالاستقلال، وتجعله لا يبالي بأفضال القادرين من الرجال الآخرين، وتمنعه من اقتراف الأعمال المؤذية، وتُبقي القلب مفتوحاً لعاطفتي الكرم والحنان. وهو يمنح الأميركي غير المتعلِّم ذلك الشعور بالإخلاص، وباحترام خير الآخرين وسعادتهم، وهو بدرجة من الدرجات يلطِّف الكبرياء المتعجرفة، ويجعل طريق الغرباء وتجارتهم آمنة، من دون مساعدة الحكومة أو القانون.

عند هذا الشعب تَمْثُلُ أُسس الإجلال في القدرات البارزة، وفي الجَلَد العظيم، لا في امتيازات المتاع والثروة، نعني: المواهب التي تُقدَّر هي التي يقودهم وضعهم إلى توظيفها، والمعرفة المضبوطة بالبلاد والاستراتيجية في الحرب. وحول هذه المؤهلات، أجرى قائد عسكري بارز من كاريبيس امتحاناً. وفي الوقت الذي لا بدَّ فيه من اختيار قائد أو زعيم، يُرسل كشّافاً لكي يجتاز الغابات التي تؤدّي

إلى بلاد العدوّ، وبعد عودته يُطلب من المرشَّح أن يجد الطريق الذي سار فيه. فيُسمّى له جدول أو ينبوع على الحدود، ويُطلب منه أن يجد أقرب ممرّ إلى محطة معينة، وأن يزرع وتداً في المكان[13]. وطبقاً لذلك، يمكنهم أن يتّبعوا آثار وحش برّي، أو أقدام إنسان، على طول فراسخ في غابةٍ لا دروب فيها، وأن يجدوا طريقهم عبر قارّة حرجيّةٍ وغير مسكونة من طريق ملاحظات صافية لم يلحظها المسافر الذي اعتاد على مساعدات مختلفة. وهم يقودون قوارب طويلة خفيفة في بحارٍ عاصفة ببراعةٍ تضاهي براعة الملّاح الذي تفوق خبرته كل خبرة[14]. ولهم عيون نفّاذة تتناسب مع أفكار ونوايا الذين عليهم أن يتعاملوا معهم. وعندما يقصدون الخداع يغطّون أنفسهم بفنون يندر أن يتملّص منها أكثر الناس مهارة. وهم يخطبون في مجالسهم العامة خطباً بلغةٍ عصبية ومجازية، ويسلكون في إدارة معاهداتهم بإدراك كامل لمصالحهم القومية.

هكذا كان الأسياد مقتدرين في تفصيلات أمورهم، وكانوا مؤهّلين ليبلوا بلاءً حسناً في المناسبات الجزئية، مع أنهم لم يدرسوا علماً، ولم يسعوا وراء مبادئ عامة، وبدوا غير قادرين على الوصول إلى نتائج بعيدة، تتعدّى تلك التي خبروها في الصيد وفي الحرب. وكانوا يتموّنون من كل فصل على حدة، فيستهلكون ثمار الأرض في الصيف، وفي الشتاء يذهبون لصيد طرائدهم عبر الغابات، فوق الصحارى المغطاة بالثلوج. وهم لا يشكّلون في تلك ساعة القواعد السلوكية التي تحول دون الخطأ بعدها. وقد أخفقوا في تلك الإدراكات التي تولّد في الفترات العاطفية عاراً كبيراً، وشفقةً،

---

(13) Lafitau.

(14) Charlevoix.

وندماً، أو سيطرة على الشهوات. وهم قلّما يندمون أو يأسفون على أي عنف، كما لا يحاسب شخص وقور عن ما يفعله في أوج عاطفة، أو عند انغماسه في اللذات الحسية.

فمعتقداتهم الخرافية مذلّة وخسيسة، وحدوث ذلك عند الأمم البدائية وحدها، يجلعنا غير معجبين كفايةً بآثار التهذيب، لكنه يظلّ موضوعاً يحقّ لأمم قليلة أن تنتقده وتستهجنه عند جيرانها، وعندما تنظر في المعتقدات الخرافية لشعب فإننا لا نجد اختلافاً بينها وبين المعتقدات الخرافية عند شعب آخر. فهي ليست سوى تكرار للضعف نفسه، وظواهر اللامعقول ذاتها المستمدة من مصدر مشترك، هي فهم مرتبك ومعقّد للكائنات غير المنظورة التي يُظن أنها تقود الأحداث المحفوفة بالمخاطر التي لا تصل إلى معرفتها بصيرة البشر.

على ماذا يعتمد مسار الطبيعة المعروف أو المنتظم، وما الذي يثق فيه العقل إلّا على أوضاع غريبة وغير مألوفة، وذلك نسخة مطابقة لارتباكه وحيرته، فعوضاً عن حكمته وشجاعته نراه لجأ إلى العرافة والرجم بالغيب وأنواع من العادات والطقوس، كانت محترمة دائماً، لأنها لم تكن عقلانية. ولأن المعتقدات الخرافية ناشئة من الشكوك والقلق، فإنها تكون معزَّزة بالجهل والألغاز، فقاعدتها في ذات الوقت ليست مختلطة دائماً بما هو موجود في الحياة العامة، كما لا يمنع ضعفها أو حماقتها دائماً رقابة النفوذ العقلي، وشجاعة الرجال الذين اعتادوا توظيفها في إدارة الشؤون العامة. فالروماني الذي يريد أن يستشر المستقبل عبر نقرات الطيور، أو ملك إسبارطة الذي يفتش في آثار وحش وميتريداتيس (Mithridates) يأخذ رأي

نسائه في تفسير أحلامه، وهي أمثلة كافية للبرهان على أن الحماقة أو البلاهة الطفولية المتعلقة بهذا الموضوع متَّسقة مع السلوكين العظيمين؛ العسكري والسياسي.

الثقة في أثر التعاويذ لا تخصّ عصراً من العصور أو أمة من الأمم. فقليل من اليونانيين والرومان المصقولين هم من استطاعوا أن يتخلّصوا من هذا الضعف. وفي حالتهم لم تحصل إزاحته بالمقاييس العالية للحضارة. ولم يزله إلّا نور الدين الصحيح أو دراسة الطبيعة، التي بها توصلنا إلى استبدال العناية الإلهية بالأسباب الفيزيائية، وأن نضعها محلّ الأشباح التي تروِّع أو تسلّي الجهلة.

الإجلال الرئيسي عند الأمم البدائية في أميركا، في كل حالة لا تكون فيها البشرية فاسدة، يتمثَّل في الثبات. ومع ذلك، فإن طريقتهم في المحافظة على هذا الإجلال، مختلفة جداً عن طريقة الأمم الأوروبية. فطريقتهم العادية في الحرب تَمْثُلُ في الاعتماد على كمين، والقتال من طريق خداع العدو، لكي يقترفوا أكبر مجزرة، أو يمسكوا بأكبر عدد من الأسرى، بأقل ما يكون من المخاطرة بأنفسهم. ويحسبون كشف وتعريض أشخاص عند مهاجمتهم العدو نوعاً من الحماقة، ولا يفرحون بانتصارات ملطّخة بدماء شعبهم. ولا يقدِّرون نفوسهم كما في أوروبا لتحدّيهم العدو استناداً إلى شروط متساوية. ويتباهون بأنهم يتقدّمون مثل الثعالب، أو يطيرون مثل الطيور، ويفترسون مثل الأسود. وفي حين يُعتبر السقوط في المعركة شرفاً، فإنه يحسب خزياً عند السكان الأصليين

في أميركا[15]. ويحتفظون بجَلَدهم أو صبرهم للمحاكمات التي ستقام لهم عندما يهاجمون على حين غرّة، أو عندما يسقطون في أيدي أعدائهم، وعندما يضطرون للحفاظ على شرفهم، وشرف أمتهم في غمرة التعذيب الذي يتطلَّب صبراً أكثر مما يتطلّب شجاعة.

وفي مناسبات أخرى، هم أبعد ما يكونون عن الافتراض بأنهم يرغبون في عدم الكفاح. فقد جرى الاعتقاد بأنه من العار تجنّب ذلك، ولو عبرَ موت اختياري. وأكبر إهانة تتمثَّل في رفض منحه ما يشرِّف الإنسان، وذلك في طريقة إعدامه. فيقول الرجل العجوز في وسط التعذيب: «أوقفوا طعنات سكينكم، ودعوني أموت حرقاً في النار، حتى يتعلّم أولئك الكلاب، وحلفاؤهم، والموجودون وراء البحار كيف يعانون ويتحملون كالرجال»[16]. وبمفردات التحدّي عادةً ما تثير الضحية في تلك المحاكمات الجليلة، حقدَ معذبيها. لذا، نقول، إنه في ذات الوقت الذي نعاني من أجل الطبيعة الإنسانية نتيجة للأخطاء، علينا أن نعجب بقوتها.

عادة ما يكون أفراد الشعب، الذي تنتشر فيه تلك الممارسة، راغبين في تعويض خساراتهم من طريق تبنّي أسرى حرب في أُسرهم، وفي المرحلة الأخيرة غالباً ما تتبنّى اليد التي عذَّبت الأسير، كطفل أو كأخ لعدوّه، ويصير مشاركاً في امتيازات المواطن. وفي معاملتهم لمن عانوا وتألّموا يبدو أنهم لم يعملوا بمبادئ الكراهية أو الانتقام. فقد حافظوا على مسألة الشرف والاحترام في تطبيقهم عذاباتهم وفي تحمّلها. وبنوع غريب من العاطفة والرقّة، يكونون

---

(15) Charlevoix.
(16) Colden.

في أكثر حالاتهم قسوةً، حيث يقصدون أقصى احترام. الجبان يقتل فوراً بأيدي النساء أما الشجاع فيستحق كل المحاكمات التي تتطلَّب جَلَداً، والتي يمكن للبشر أن يبتدعوها أو يوظِّفوها. قال الرجل العجوز لآسره: «يفرحني أن يكون شاب شجاع قد وضع في مكاني. رأيت أن أضعه على أريكة ابن أخي، الذي ذبحه مواطنوكم، وأن أنقل كل لطفي إليكم، وأن أعزّي عمري في رفقتكم، لكن، وأنت مشوَّه ومجذوع كما تبدو الآن، فإن الموت يكون أفضل من الحياة. إذن، لتستعدْ للموت كرجل»[17].

وقد يعود تصليب الأميركيين لأعصابهم في أعوامهم الأولى عائداً إلى تلك العروض، أو الإعجاب بالصبر أو الجلد، والمبدأ الذي منه انطلقت[18]. وقد تعلّم الصغار أن يتنافسوا في ما بينهم على تحمّل أقسى أشكال التعذيب. ويُقبَل الشباب في صنف الرجال، بعد براهين عنيفة تثبت جَلَدهم، كما يُمتحن القادة بالمجاعة، والحرق، والاختناق[19].

يمكننا أن نفهم، أنه، عند الأمم البدائية حيث يحصل على وسائل العيش بصعوبة، يكون العقل غير قادر على الارتقاء بنفسه فوق اعتبار هذا الموضوع، وأن الإنسان في تلك الحالة يقدِّم أمثلةً عن خسّ حالات الروح الخسيسة وأكثرها جشعاً ونقيض ذلك صحيح. وعندما يكون البشر موجّهين على ذلك النحو الخاص من

---

(17) Charlevoix.

(18) المصدر نفسه. وقال هذا الكاتب إنه رأى صبياً وفتاةً، عملا، بعد أن تعانقا وربطا أذرعهما معاً، على وضع فحم محترق بينهما، لكي يجرّبا ويعرفا من الأقدر على التحمّل لمدة أطول.

(19) Lafitau.

قِبَل الرغبات الطبيعية في أبسط حالاتهم فإنهم يهتمون بمواضيع الشهيّة اهتماماً لا يزيد على ما تتطلبه الشهية، ولا تتجاوز رغباتهم في الثورة أكثر من وجبة الطعام التي تشبع جوعهم، نعني: هم لا يفهمون التفوّق في المرتبة عبر حيازة الثروة كالذي يمكن أن يوحي بمبدأ عادي، ومبدأ اشتهاء ما عند الآخرين، والخيلاء، أو الطموح. فهم لا يمارسون أي عمل ليس فيه عاطفة مباشرة، ولا يبتهجون بأي عمل أو مهمة ليس فيها خطر لا يقتضي إجلالاً ليكسب.

لم تكن الفنون التجارية، أو العقل الخسيس، وحجهما، محتقرين عند الرومان القدماء وحدهم. فمثل هذه الروح شاعت في كل مجتمع بدائي ومستقل. «أنا محارب، ولست تاجراً»، قال أميركي لحاكم كندا، الذي اقترح أن يقدّم له سلعاً مقابل بعض الأسرى عنده. وأضاف قائلاً: «ثيابك وأوانيك لا يغريانني، لكن أسراي الآن تحت سلطتك، ويمكنك أن تقبض عليهم، وإذا فعلت، فعليّ أن أتقدّم وأحصل على مزيد من الأسرى، أو أقضي في المحاولة، وإن كان ذلك حظي، فسوف أموت كرجلٍ، لكن عليك أن تتذكّر أن أمتنا ستتهمك بأنك سبب موتي»[20]. بهذه المفاهيم، كان لهم ارتقاء وإجلال للشجاعة، ولا يمنحهما إلا نادراً كبرياء النبالة الذي يُحترم أكثر ما يحترم عند الأمم الثقافية المصقولة. فهم كانوا يعنون بأشخاصهم، ويصرفون الكثير من الوقت، ويتحملون الألم العظيم في الطرق التي يستعملونها لتزيين أجسادهم، وتقديم الصبغات الدائمة التي يلوّنونها بها، أو يحافظون على الطلاء الذي يجدِّدونه دائماً، لكي يبدو لافتاً.

(20) Charlevoix.

وكرههم لكل نوع من العمل الذي رأوه حقيراً، جعلهم يمضون جزءاً كبيراً من وقتهم في الكسل أو النوم. والرجل لكي يطارد وحشاً برّياً، أو ليفاجئ عدواً ويقطع مئة فرسخٍ على الثلج، لا يقبل أي نوع من العمل العادي لكي يحصل على طعامه. وقد قال تاسيتوس: «غريب أن يكون الشخص نفسه الذي يكره الكسل مدمناً على التراخي»[21]. الألعاب ذات المخاطرة ليست من مبتدعات العصور الثقافية المصقولة. ومحبّو الاستطلاع من الرجال بحثوا عن أصلهم عبثاً في الآثار المتبقية لعصر قديم غامض، ومن المحتمل أنهم يعودون إلى أزمنة نائية جداً وبدائية جداً حتى ليصعب على تخيّلات علماء الآثار أن تبلغها. فالمتوحش ذاته كان يجلب أثوابه المفرّاة، وأدواته وخرزاته إلى طاولة المخاطرة: وهنا يجد العواطف والإثارات التي لا تثيرها تطبيقات الصناعة المملّة. وفي انتطار الرمية، نراه ينتّف شعره ويضرب صدره بغضبٍ، غضبٍ تعلّم المقامر المقتدر أن يكبحه أحياناً، وغالباً ما يترك الفريق عارياً ومن دون ممتلكاته، وإن كانت العبودية هي الموظَّفة، فإن العبد يخاطر بحريته لكي يكون له حظّ أخير لاستعادة خسارته السابقة[22].

بهذه العيوب، والرذائل، أو الصفات المحترمة التي تخص النوع الإنساني في حالته البدائية كلّها، يبدو حب الاجتماع، والصداقة، والمحبة العامة، والعقل النفاذ، والفصاحة، والشجاعة، صفات أصلية له، لا آثاراً لاحقة خاصة بالاختراع والإبداع. فإذا كان البشر مؤهلين لتحسين عاداتهم وأساليب حياتهم، فإنه يجب

(21) Mira diversitas naturae, ut idem homines sic ament intertiam et oderint quietem.

(22) Tacitus, Lafitau, Charlevoix.

تحسين جهوزية المواد الطبيعة. ولا تكون نتيجة هذا التحسين تحريك مشاعر اللطف والكرم، ولا إضفاء المكوِّنات الرئيسية لخُلُقٍ محترم، وإنما تجنّب إشارات الاستعمال العَرَضية للعاطفة، والحؤول دون العقل الذي يشعر بأفضل حسمٍ في قوتها العظمى، والكينونة تكون أحياناً رياضيةً لشهية وحشيةً، ولعنف لا يمكن السيطرة عليه.

إن أراد ليكرغوس أن يجد خطةً لحكم الشعب الذي وصفه، فإنه سيجدهم مستعدين، طبيعياً، وبتفاصيل مهمة عديدة للترحيب بمؤسساته. فبعد إقامة المساواة في مسائل الملكية، فإنه لن يجد زمرةً تفهمها من منظور المصالح المتضادّة للفقراء وللأغنياء. ومجلس شيوخه «مجلس الشعب» يكون مؤسَّساً، ويكون نظامه بمقدار ما قد تم تبنّيه، ومجلس الأقنان والعبيد يزوّد بالعمل الذي سيكون من نصيب أحد الجنسين. وبالإضافة إلى هذه الفوائد، يظلّ أمامه درس مهم جداً على المجتمع المدني أن يعلِّم به القلةّ أن تحكم، والكثرة أن تطيع. وسيحتاط ضد إدخال فنون المرتزقة في المستقبل، والإعجاب بالترف والعاطفة المنفعية. كما ستظلّ أمامه مهمة أصعب من كل ما سبق، وتتمثَّل في تعليمه مواطنيه السيطرةَ على الشهوة، وعدم المبالاة باللذّة، وازدراء الألم، وتعليمهم أن يحافظوا في الميدان على الحذر المنظم وتجنّب التعرّض لمفاجئة، عندما يحاولون مباغتة العدوّ.

لحاجة الأمم البدائية لتلك الفوائد، بشكل عام، وبالرغم من أنها تتحمّل الصعوبات والتعب الشديد، وبالرغم من أنها أدمنت على الحرب، وكانت مؤهلةً باستراتيجيتها وشجاعتها أن تلقي

الرعب على جيوش عدوّ أكثر تنظيماً، فإنها في مجرى الصراع المستمر كانت تخضع للفنون المتفوِّقة ولنظام الأمم الأكثر مدنية. لذا، تمكَّن الرومان من احتلال مناطق الغول، ألمانيا وبريطانيا، وتمكن الأوروبيون من التفوق المتنامي على أمم أفريقيا وأميركا.

على أساس التفوّق الذي حازته أمم معينة، فقد ظنَّت أنها لها الحق في المطالبة بالسيطرة. والقيصر، حتى هذا نفسه، نسيَ عواطف البشر وحقوقهم، عندما تذمَّر من البريطانيين بعد أن أرسلوا إليه رسالة إذعانية للغول لمنع الغزو، وظلَّ يدّعي بأنه يقاتل لحرياتهم، وأنه يعارض نزوله في جزيرتهم(23).

قد لا يوجد، في وصف البشرية كله، ظرفٌ أكثر لفتاً وروعةً من الازدراء والكراهية المتبادلين اللذين تظهرهما الأمم إحداها ضدّ الأخرى في أحوال مختلفة من الفنون التجارية. وبإدمانها على مساعيها، وتقديرها لأحوالها كمعيار للسعادة الإنسانية، تطالب الأمم جميعها بالأفضلية أو الأولوية، وفي ممارساتها تقدّم برهاناً كافياً على الإخلاص. والمتوحّش، حتى هذا المتوحش، مع أنه أقلّ من المواطن، ويمكن جعله يتخلّى عن ذلك الأسلوب من الحياة الذي دُرِّب عليه: يصير محباً لحرية العقل التي لا يحدِّدها أي عمل، وليس لها شيء فوقها، وهو مهما أُغريّ للامتزاج بالأمم المصقولة ثقافياً وتحسين حظّه، فإن أول لحظة من لحظات الحرية تعيده إلى الأحراج، من جديد. فهو يهن ويهزل في شوارع المدينة المليئة بالسكان. وهو يتجوّل سعيداً فوق الحقل المفتوح والمحروث.

---

(23) Caesar questus, quod quum ultro in continentem legatis missis pacem a se petissent, bellum sine causa intulissent. Lib. 4.

ويبحث عن الحدّ والغابة، حيث يتمتّع ببنيةٍ معدَّةٍ لتحمّل الصعاب ومشتقات الوضع، كما يتمتع بحريةٍ شهيّةٍ لا همَّ فيها، ومتحررة من مجتمعٍ مضلٍّ، وحيث لا وجود لقواعد سلوك موصوفة، وإنما إملاءات القلب البسيطة وحدها.

الجزء الثالث

الأمم البدائيّة تحت تأثير الملكيّة والمصلحة

كانت هناك لعنة مشهورة تستعملها الأمم الصيّادة المقيمة على حدود سيبيريا (Siberia)، مفادها أن إجبار عدوّهم على العيش مثل التتار، يكون من الحماقة في إشغال نفسه بالاهتمام بقطيع[1]. وبدا أن الطبيعة، بحسب فهمهم، تكون بملء الغابات والصحراء بالألعاب، واعتبار عمل راعي القطيع عملاً غير ضروري، وألاّ يُترك للإنسان إلّا مشقة انتقاء طريدته والقبض عليها.

إن كسل البشر أو كراهيتهم لأي تطبيق عملي لا يكونان منخرطين فيه بغريزة وعاطفة مباشرة يعوق تقدّم الصناعة وحصول الخطأ. فقد وُجِدَ، حتى عندما تكون وسائل العيش مشتركة ولا يكون مخزون الشعب مقسّماً أن الملْكية فُهِمتْ في مواضيع مختلفة، وأن الفرو والقوس يخصّان الفرد، وأن الكوخ وأثاثه للأسرة.

وعندما بدأ الوالد يرغب في التموين لصغاره أفضل ما وُجِد تحت الإدارة المشوَّشة لشركاء متعاونين كثيرين، وعندما طبّق عمله

(1) Bahadur Chan Abulgaze, *Genealogical History of the Tartars*.

ومهارته بشكل منفصل، فقد استهدف حيازة استثنائية، وسعى إلى ملكية الأرض، واستعمال ثمارها أيضاً.

وعندما لم يعد الفرد يجد عند شركائه الميل ذاته لجعل كل موضوع ميسوراً للاستعمال العام، فإنه صار مهتماً بثروته الشخصية، وأزعجته اهتمامات كل شخص بنفسه. وحثّته المنافسة والغيرة، والحسّ بالضرورة، وعانى من جعل المصلحة شاغلةً لتفكيره، عندما تشبع كفايةً بكل شهية موجودة. وصار يمكنه أن يعمل وفق نظرة إلى المستقبل، أو يجد موضوعاً للخيلاء لجمعه ما صار موضوع منافسة، ومسألة تقدير عام شامل. استناداً إلى هذا الدافع، حيث يكبح العنف، صار بإمكانه أن يُعمل يده بالفنون المربحة، ويحصر نفسه بعمل مملّ، وينتظر، بصبر، عائدات عمله البعيدة.

هكذا اكتسب البشر الصناعة بدرجات عديدة وبطيئة. فتعلّموا أن يقدّروا مصلحتهم، ومنعوا من النهب والسلب، وصاروا آمنين في حيازة ما حصلوا عليه بعدل. وبهذه الطرق تشكّلت تدريجياً عادات العامل، والميكانيكي، والتاجر. وحدَّدت المؤونة المجمعة من المنتوجات الطبيعية البسيطة، أو من قطيع الماشية، نوع الثروة الأول. وكانت ظروف التربة، والمناخ تحدِّد إذا ما كان على المقيم أن يعمل مزارعاً، أو في رعاية المواشي، وأن يقيم أو ينتقل باستمرار مع ممتلكاته.

في غرب أوروبا وفي أميركا، من الجنوب إلى الشمال باستثناء عددٍ قليل، وفي المنطقة الحارة، وفي كل مكان ذي مناخٍ دافئ، مارس البشر نوعاً من الزراعة، ومالوا إلى الإقامة. وفي المنطقة الشمالية والوسطى من آسيا امتدوا كلياً بقطعانهم، وكانوا باستمرار يتنقلون بحثاً عن مراعٍ جديدة. وبدأت ممارسة فنون القرية الصغيرة،

وصُقِلت بأشكال مختلفة من سكان أوروبا، الذين ظلّوا في حالة هجرة دائمة، منذ بداية التاريخ المسجَّل، كما هم، مع السكيثيين والتتار. فكانت الخيمة توضع على مركبةٍ متحرّكة، وكان الحصان يستعمل في كل عمل، في الحرب، وفي مزرعة الألبان، وفي مربط إسطبل تاجر اللحوم، ومنذ البداية إلى الشروح الأخير، شكّل كل ذلك ثروة وعدّة ذلك الشعب المتجوّل.

غير أنه مهما كانت طريقة عيش الأمم البدائية، فإن هناك نقاطاً معينة نتفق عليها، في أول صور الملْكية. فهوميروس، إما أن يكون قد عاش في شعب في تلك المرحلة من التقدّم، أو وجد نفسه مشغولًا في عرض شخصيتهم. أما تاسيتوس فقد شكّلوا عنده موضوع بحث خاص. وإذا كان ذلك مظهراً يستحق أن يشاهده البشر، فلا بدَّ من الاعتراف بأننا نحوز فوائد رائعة بجمع صورهم. لقد تمَّ رسم الصورة بأيدٍ مقتدرة، وقُدِّم بنظرة واحدة في كتابات هؤلاء المؤلّفين الشهيرين، كل ما كان منثوراً ومبعثراً في علاقات المؤرخين، وكل ما تيسَّر لنا ملاحظته في عادات البشر وأساليب حياتهم، الذين ما زالوا في حالة شبيهة.

وبالانتقال من الحالة التي وصفناها إلى الحالة التي ننظر فيها الآن، نجد أن البشر ما زالوا يحتفظون بعلامات كثيرة من شخصيتهم الأولى. فما زالوا يكرهون العمل، ويدمنون الحروب، ويعجبون بالجَلَد، وبلغة تاسيتوس وهم أسخياء بدمائهم أكثر من عَرَقهم(2)، وهم مغرمون بالتزيينات الرائعة على ثيابهم، ويحاولون ملء فترات الحياة الزمنية غير المحصورة في قائمةٍ، بالإدمان على

(2) Pigrum quin immo et iners videtur, sudore acquirere quod possis sanguine parare.

العنف، بأنواع الرياضة المحفوفة بالمخاطر، وفي ألعاب الحظ. وكل عمل يشبه عمل العبيد يلزمون به النساء أو العبيد. غير أننا قد نفهم أن الفرد بعد أن وجد مصلحة منفصلة، فإن زمر المجتمع لا بدَّ من أن تصير أقل تماسكاً، وأن الفوضى الأهلية المحلية ستكرر. وبصيرورة أعضاء المجتمع متميّزين ومعروفين في ما بينهم بممتلكات غير متساوية، وُضِعَ الأساس للتبعية الدائمة والواضحة.

تلكم الجزئيات حصلت عند البشر، وعند انتقالهم من الحالة المتوحّشة إلى ما يُدعى الحالة البربرية. فصار أعضاء المجتمع ذاته يدخلون في شجارات للمنافسة أو للانتقام. وهم يتوحَّدون في اللحاق بقادتهم، المتميّزين بثرواتهم، وشهرة أو بريق مولدهم. وتجمعهم الرغبة في السلب والنهب مع حبّ المجد والشهرة. وانطلاقاً من الرأي المفيد أن ما يُكتسب بالقوة هو من حقّ المنتصر، وصاروا صيادين للبشر، وأنهوا كل نزاعٍ بحدّ السيف.

كل أمة عبارة عن عصبة من النهّابين، الذين يتصيّدون ويصطادون جيرانهم من دون رادع، أو ندامة. وقد قال أخيل (Achilles)، يمكن الاستيلاء على قطيع الحيوان، في كل حقل وميدان، لذا فإن سواحل بحر إيجه (Aegean) سُلبت ونُهبت من قِبَل أبطال هوميروس لا لسبب سوى اختيار أولئك الأبطال للحصول على النحاس الأصفر والحديد، والقطعان، والعبيد، والنساء عند الأمم المجاورة لهم.

التتاري الممتطي حصاناً، إن هو إلّا حيوان يبحث عن فريسة، فهو لا يسأل إلّا عن مكان وجود القطيع من الحيوانات، وكم عليه أن يمضي في سيره ليحصل عليه. والراهب الذي تعرَّض لاستياء

مانغو شان (Mangu Chan)، يهدّئه بوعده أن البابا والأمراء المسيحيين سوف يسلمونه جميع قطعانهم[3]. تلك الروح ذاتها سادت من دون استثناء في جميع الأمم البربرية الموجودة في أوروبا، وآسيا، وأفريقيا. وتحتوي الآثار القديمة في بلاد اليونان وإيطاليا والقصص الخرافية عند كل شاعر قديم، أمثلةً عن قوتها.

هي تلك الروح التي جلبت أجدادنا، أولاً إلى مناطق الإمبراطورية الرومانية. وجعلتهم يحترمون الصليب وأكثر من ذلك، قادتهم إلى الشرق، ليشاركوا التتار بأسلوب إمبراطورية ساراكينوس (Saracen).

قد نميل إلى الاعتقاد، انطلاقاً من الأوصاف التي احتواها القسم الأخير، أن البشر، وهم في أبسط حالاتهم، كانوا على وشك انتخاب جمهوريات. فحبهم للمساواة، وعادتهم المتمثِّلة في التجمّع في مجالس عامة، وحماستهم للقبيلة التي ينتمون إليها، هي مؤهّلات تلائمهم للعمل في ذلك النوع من الحكم، ويبدو أنهم كانوا على بعد خطوات قليلة للوصول إلى تأسيسها. وما كان عليهم إلّا أن يحدِّدوا الأعداد التي ستتألف منها مجالسهم، ويضعوا أشكال اجتماعهم. وما كان عليهم إلّا أن يمنحوا سلطة تبقى لقمع ظواهر الفوضى، ولتسنّ قوانين قليلة لصالح العدالة التي أقرّوا بها، من منطق الميل إلى تطبيقها بحزم.

غير أن تلك الخطوات ليست بتلك السهولة كما قد تبدو عند نظرة طفيفة أو عابرة. فقرار اختيار الحاكم من بين متساوين، الذي سيمنحونه، من ذلك الوقت فصاعداً، حقاً بالإشراف والسيطرة على

(3) Rubruquis.

أعمالهم، هو أبعد ما يكون عن ما يمكن أن يجول في عقول البسطاء من الرجال. ولا يوجد إقناع يمكن أن يجعلهم يتبنّون ذلك التدبير، أو يعطيهم أي معنى لفائدته.

وبعد أن تختار الأمم قائداً عسكرياً، حتى عندئذٍ، فإنهم لا يأتمنونه ويعهدون إليه أي نوع من السلطة المدنية. فالكابتن (Captain)، عند الكاريبيين لا يدّعي أنه يقرِّر في النزاعات المحلية الأهلية. والمفردات قضاء (Jurisdiction) وحكومة (Government) لم تكونا معروفتين في لغتهم[4].

قبل القبول بذلك التغيير المهم، كان على البشر أن يعتادوا التمييز بالرتب. وقبل أن يدركوا أن التبعّية مطلوبة، لا بدَّ من أن يكونوا قد وصلوا إلى أحوال غير متساوية، عبر الصدفة. وفي رغبتهم في الملْكية، لم يعنوا إلّا بتأمين موارد رزقهم وعيشهم. إلّا أن الشجاع الذي يقود في الحرب، له أكبر حصة من المسلوبات. والبارزون مغرمون بتوريث ألقاب إجلال متوارثة، والجمهور، المعجب بالوالد، مستعد لتوسيع تقديره ليشمل ذرّيته.

الممتلكات تصير خاصة، ويزداد بريق شهرة الأسرة، مع الزمن. فهرقل الذي كان محارباً بارزاً، صار إلهاً عند الجيل الذي أعقب، وشعبه فصل عن الملكية وسلطة السيادة. وعندما تجتمع امتيازات الثروة والولادة، فإن الرئيس يتمتّع ببروز، في الأعياد والمهرجانات كما في الميدان. ويتّخذ أتباعه أمكنتهم في مراكز اجتماعية تابعة. وعوضاً عن اعتبار أنفسهم أجزاءً من مجتمع، فإنهم يرتفعون ليكونوا أتباع الرئيس، ويأخذون تسمياتهم أو ألقابهم المميّزة

(4) History of the Caribbees.

من اسم الرئيس. ويجدون هدفاً للمحبة الشعبية في الدفاع عن شخصه، وفي دعم مركزه. وهم يقرضون موادهم لتشكيل مقاطعته، ويسترشدون بابتساماته وتجهّماته، ويحسبون أن أعلى امتياز يكون متمثّلاً في المشاركة بالمأدبة التي جهّزوها بإسهاماتهم الخاصة.

وكما بدا أن الحالة السابقة للبشر أشارت إلى الديمقراطية، فإن هذا يعرض بقايا الحكم الملكي. غير أنه بعيد عن تلك المؤسسة التي عُرفت، في العصور اللاحقة، باسم الملكية (Monarchy). فالتمييز بين الرئيس والتابع، والأمير والمواطن، ما زالت علامته غير كاملة، نعني: مهنهم وحرفهم لم تكن مختلفة، ولم تكن عقولهم مصقولة صقلاً غير متساوٍ. فكانوا يأكلون ويتغذون من الطبق ذاته، وكانوا ينامون معاً على الأرض. وكان أولاد الملك وأولاد المواطن يعملون في رعاية القطيع، الذي كان يحافظ على الخنازير مستشاراً في بلاط عوليس (Ulysses).

وشيخ القبيلة، الذي تميّز، كفايةً عن القبيلة، والذي - لإثارة إعجابهم ودغدغة خيلائهم عبر قرابةٍ من أصله النبيل - كان هدفاً لتبجيلهم لا حسدهم، نعني: كان يحسب العقد المشترك لرابطتهم، لا سيّدهم المشترك. وهو أول من يتعرّض للخطر، ويشارك مشاركة رئيسية في اضطراباتهم، وعظمته في أيدي عددٍ من أتباعه، في شهامته المتفوّقة وشجاعته، حتى إن أتباعه مستعدون لبذل دمائهم في خدمته[5].

الممارسة المتكررة للحرب تقوّي الزمر الاجتماعية، وممارسة السلب والنهب ذاتها تدخل الناس في تجارب الارتباط المتبادل

---

(5) Tacitus de moribus Germanorum.

والشجاعة. وما يهدِّد بالخراب ويقلق كل ميل صالح في القلب الإنساني، وما ينفي العدالة من مجتمعات البشر، ذلك كله يميل إلى توحيد النوع الإنساني في عشائر وأخويّات أو جمعيات، منيعة ومتعادية لكنها في المجتمع الأهلي لكل واحد منها تكون مخلصةً، ونزيهة وكريمة. والأخطار المتكررة، وخبرة الإخلاص والشجاعة، يوقظان حبّ تلك الفضائل، ويجعلانها موضع إعجاب، ويحبِّبان حائزيها.

البربري الذي تحركه عواطف كبرى، وحبّ العظمة، والرغبة في النصر، والمثار بتهديد من العدوّ، أو الملسوع بلسعة الانتقام، يصرّف كل لحظة ارتخاء في كسل بين مطامح التدمير أو الغزو. فهو لا يستطيع أن ينزل إلى مستوى ممارسة الصناعة أو العمل الميكانيكي، نعني: وحش صيد طريدة كسول. الصياد وهو المحارب ينام، في حين تعمل النساء والعبيد بمشقّةٍ، للحصول على خبزه. غير أنك إذا أظهرت له فريسةً على مسافةٍ، ستراه جسوراً، وعنيفاً حتى التهوّر، فنياً وجشعاً. فلا يوجد حاجز أو عائق يمكنه أن يقاوم عنفه، ولا تعب يمكنه أن يخفّف من نشاطه.

بذلك الوصف نجد البشر كرماء ومضيافين للغرباء، كما أنهم لطيفون، ومحبّون ورقيقون، في مجمعهم المحلّي[6]. فهم يعتبرون الصداقة والعداوة مفردتين لهما أهمية عظمى: فهما لا تلخصان وظائفهم، وهما تحدِّدان عدوّهم، وتختاران صديقهم. وفي حالة النهب والسلب، حتى في هذه الحالة، يكون الهدف الرئيسي ممثّلاً في المجد، ويُعتبر النهب والسلب علامة نصر. الأمم والقبائل هي فريسة الأمم والقبائل وغنيمتها: والمسافر المنفرد الذي قد يكسبهم

---

(6) Jean du Plan Carpen. Rubruquis, Caesar, Tacit.

الشهرة بالكرم فحسب، يمرّ من دون أذى، أو يُعامل بسخاء رائع.

وبالرغم من أنهم موزّعون في أقاليم (كانتونات) برئاسة رؤسائهم المتعدّدين، وتفصلهم، في معظم الأحيان الغيرة والحقد، فإنهم عندما يتعرضون لحروب ولأعداء أقوياء فإنهم يتوحّدون في أشكال كبيرة. مثل اليونانيين في حملتهم ضد مدينة طروادة، نراهم يتبعون قائداً بارزاً ويؤلّفون مملكة من قبائل منفصلة كثيرة. غير أن مثل هذه التحالفات معرَّضةٌ عند استمرارها لأن تكون أشبه بجمهورية لا بملكية. ويظلّ لرؤساء القبائل أهميتهم، ويدخلون عنوةً بمظهر المساواة مجالس قادتهم، مثلما تدخل عليهم عشائرهم المختلفة[7].

من جهتنا نسأل: استناداً إلى أي دافعٍ يمكننا الافتراض والقول، إن البشر الذين يعيشون معاً وألفوا هذا العيش المشترك بمقدار كبير، والذين لا توجد عندهم تمييزات في الرتبة، سوف يتخلّون عن مشاريعهم وميولهم الشخصية، أو يخضعون ضمنياً لرئيس عاجز عن الإرهاب والإفساد؟

لا بدَّ من استخدام القوة العسكرية للاغتصاب، أو استعمال الرشوة لشراء العمل الذي قام به التتار بقيادة أميرهم، عندما وعد «أنه سيمضي إلى حيث يؤمر، ويعود عندما يُدعى، وسيقتل الذي سيشار إليه بقتله، وفي المستقبل سوف يعتبر صوت الملك بمنزلة سيف»[8].

ثمَّة نهايات أخضع لها قلب البربري ذاته نتيجة لطغيان أقامه

(7) كولبنْ (Kolbn): وصف منطقة رأس الرجاء الصالح (Description of the Cape of Good Hope).

(8) Simon de St. Quintin.

هو نفسه. وقد ذاق البشر في حالة الفنون التجارية المنخفضة تلك، في أوروبا وفي آسيا عبودية سياسية. فعندما تسود المصلحة في كل قلب، لا يستطيع الحاكم السيّد وحزبه أن يهربا من العدوى. فيعمل على استخدام القوة التي عهدت إليه لتحويل شعبه إلى ملكية له، والسيطرة على ممتلكاتهم لمنفعته أو لمتعته. فإذا كانت الثروة، برأي شعب هي معيار الخير أو الشرّ، فليتنبهوا للسلطات التي يعهدونها ويأتمنون عليها أميرهم. وقد قال تاسيتوس: «للثروة تقدير عالٍ عند سويونيس (Suiones)، لذا، فإن الناس جُرِّدوا من السلاح وحُوِّلوا إلى عبيد»[9].

في مثل هذه الحالة المحزنة التي تحوَّل فيها البشر إلى خانعين، ومهتمين، وماكرين وغادرين، ومخادعين ودمويين، حملوا علامات، إن لم تكن من أقل الأنواع شقاءً، فإنها من أكثر أنواع الفساد المحزنة[10]. فعندهم، كانت الحرب مجرد ممارسة سلب ونهب لإغناء الفرد، كما تحوّلت التجارة إلى نظام من الأفخاخ والحيل، والحكم صار قمعياً أو ضعيفاً، فهو يكون مسعداً للبشر، عندما توجههم المنفعة لا عندما يكون الحكم للقوانين، أو يكونوا موزّعين إلى أمم مقاديرها معتدلة، ويكون في كل مقاطعة حاجز طبيعي يمنع توسّعها، وتواجه بأعمال كافية للحفاظ على استقلالها، من دون زيادة سيطرتها.

لم يوجد تفاوت بين البشر في العصور البدائية يكفي لإضفاء شكل المَلَكية الشرعية على مجتمعاتهم، وعندما تتّحد في مقاطعة أو إقليم ذي مساحة كبيرة تحت حاكم واحد، فإن الروح الحربية

---

(9) De moribus Germanorum.

(10) Chardin's Travels.

والعنيفة للسكان تتطلّب لجاماً من الدكتاتورية والقوة العسكرية. وحيث وجدت حرية، مهما كانت درجتها، فإن سلطات الأمير تكون كما كانت في معظم الأنظمة الملكية البدائية الأوروبية متقلقلةً ومحفوفة بالمخاطر وتعتمد اعتماداً رئيسياً على أسلوبه وخُلُقه. والنقيض يحصل عندما تكون سلطات الأمير أعلى من متناول الشعب، فإنها في تلك الحالة تكون أعلى من قيود العدالة، وتصير النزعة إلى السلب أو الجشع هي محرِّك السلوك والمشكّل لأسلوب الفريقين الوحيدين اللذين سينقسم إليهما البشر: فريق المضطَّهِدين (Oppressor) وفريق المضطَّهَدين (Oppressed).

مثل هذه الكارثة هدَّدت أوروبا لعصور في ظل غزوات وإقامات لسكانها الجدد(11). ولم تبق هناك حاجة لتلك الأسرة لإقامة حكم دكتاتوري كامل، سوى استبقاء فرق قليلة من العسكر تحت إمرة التاج. وقد حدث هذا، فعلياً في آسيا حيث تمَّت غزوات شبيهة، وحتى من دون المخدّر العادي الخاص بالتخنّث، أو الضعف العبيدي القائم على الترف والرفاهية الذي أذهل التتاري في عربته، في مؤخرة جماعته. وقد نشأ في ذلك الشعب في قلب القارة الكبرى محاربون جسورون ومغامرون، أُخضعوا بالمباغتة أو بالقدرات المتفوّقة للجماعات المجاورة، فربحوا في تقدّمهم، وتكاثر أعدادهم وقوتهم. ومثل السيل الذي يزداد وهو بينهم صاروا أقوى من أي حاجز أو عائق يمكن أن يعترض مرورهم. وخلال تعاقب العصور، وفَّرت القبيلة المظفَّرة للأمير حراسة، وفي ذات الوقت كانوا هم أنفسهم يشاركون في السلب، وكانوا أدوات للاضطهاد، والطوعية. وبتلك الطريقة وجد الطغيان والفساد

(11) Hume's History of the Turdors.

طريقهما إلى المناطق المشهورة بحرية الطبيعة، والوحشية، نعني: القوة التي كانت ترعب كل منطقة متخنثة جُرِّدت من السلاح، وكل ما كان يعزِّز الأمم تلاشى[12]. أما الأمم التي تمكّنت من الإفلات من ذلك البؤس، فقد اضطرت إلى ممارسة الحروب الخارجية للحفاظ على السلم المحلّي. وعندما لا يظهر لهم عدو خارجي، يكون لديهم متسع من الوقت للتناحرات والعداوات الخاصة، فيستخدمون شجاعتهم في خلافاتهم الداخلية، وهي الشجاعة التي يستخدمونها في الدفاع عن بلادهم في زمن الحرب.

قال القيصر: «يوجد عند الغول انقسامات، وهي ليست محصورة في كل أمة، وفي كل منطقة وقرية فحسب وإنما نجدها في كل بيت أو أسرة، لذا على كل واحد أن يلجأ إلى راعٍ له، للحماية»[13]. وفي ذلك التوزّع للأطراف، يكون حسم الشجارات بالقوة غير مقتصرٍ على خلافات العشائر، وإنما يشمل الشجارات بين الأسر أيضاً، والخلافات والمنافسات بين الأفراد. وعندما لا يكون الحاكم السيد مدعوماً من الخرافات، فإنه يحاول استخدام القضاء، أو إحداث خضوعٍ لقرارات القانون. والناس الذين ألفوا أن يرجعوا ممتلكاتهم بالعنف، والذين يزدرون الثروة نفسها من دون أن تكون مترافقةً مع الشجاعة، فلا حكم عندهم سوى السيف. سكيبيو أصدر حكماً لإنهاء نزاع بين إسبانيين، حول خلافة متنازع عليها، قالوا: «لقد رفضنا علاقاتنا، ونحن لا نُخضع خلافنا لحكم البشر، ولا للآلهة، فنحن لا نلجأ إلّا مارس (Mars) وحده»[14].

---

(12) The History of the Huns.

(13) De Bello Gallico, lib. 6.

(14) Livy.

من المعروف أن أمم أوروبا جعلت هذا النمط من العمل على مستوى من الرسميّة لم يسمع به في أجزاء أخرى من العالم، نعني: لم يكن بإمكان قاضي الشؤون المدنية والجنائية في معظم الحالات، سوى وضع القوائم، ويترك للفرقاء أن يحسموا قضيتهم بالقتال. وكانوا يعتبرون أن القرار لصالح المنتصر هو قرار الآلهة لصالحه، وعندما يتخلّون في أي حالة عن ذلك الشكل غير العادي من العملية، فإنهم يستبدلونها باعتماد متقلِّب على الحظ، وهنا أيضاً كانوا يعتقدون أن الحكم للآلهة.

كانت الأمم الأوروبية مغرمةً بالقتال، بوصفه تمريناً وبوصفه رياضة. ففي حال غياب القتال الحقيقي، يتحدى الرفاق واحدهم الآخر في اختبار مهارة غالباً ما كان يُقتل أحدهم فيه. فعندما أقام سكيبيو حفلاً تمجيدياً لوالده وعمّه، حضر الإسبان أزواجاً للقتال ولزيادة الإجلال أقاموا عرضاً لمنازلاتهم[15].

وفي الجهالة المتوحشة التي لا يحكمها قانون، وحيث تكون آثار الدين مرغوباً فيها ومفيدة، غالباً ما تقاوم الخرافة السائدة المسيطرة، حتى مع الإعجاب بالشجاعة. وفي نظام للبشر، مثل درويدس (Druids) بين الغاليين والبريطانيين[16]، أو مدّعي العرافة في رأس الرجاء الصالح (Cape of Good Hope) نجد إيماناً بالدفع للشعوذة باعتبارها سبيلاً لحيازة السلطة: فالعصا السحرية تنافس السيف، وبحسب أسلوب درويدس تقدِّم الشعوذة بدايات حكم مدني للبعض، مثل الهابط المفترض من الشمس عند ناتشيز (Natchez) واللاما (Lama) عند التتار، وفي ذلك يكون أول مذاقٍ للطغيان والعبودية المطلقة.

---

(15) Livy, lib. 3

(16) Caesar

نحن، وبشكل عام نضيع عندما نتصوَّر كيف استطاع البشر أن يبقوا في ظلّ تقاليد وأساليب مختلفة جداً عن تقاليدنا وأساليبنا. ونحن ميّالون إلى المبالغة بوصف تعاسة الأزمنة البربرية، عبر تخيّل ما يمكن أن نعاني نحن أنفسنا في وضعٍ لم نألفه. غير أن لكل عصر ظواهر مواساة ومعاناة خاصة به[17]. وفي فترات الهيجانات الطارئة، يكون الحديث الودّي بين الرجال محبّاً ومسعداً، حتى في حالة البدائية[18]. وفي العصور البدائية كان الأشخاص وممتلكات الأفراد في أمان، لأن الواحد منهم كان له صديق، وعدو أيضاً. فإذا تعرّض الواحد لإزعاج، فإن الآخر مستعد لحمايته. والإعجاب ذاته بالشجاعة، التي تميل إلى تقديس العنف أحياناً، توحي أيضاً بقاعدتي الكرم والشرف، اللذين يحولان دون ارتكاب المساوئ.

يتحمّل البشر عيوب خططهم وسياساتهم كتحمّلهم الصعوبات والظروف غير الملائمة في أساليب حياتهم. والإنذارات بخطر الحرب ومتاعبها صارتا بمنزلة وسيلة استجمام عند الذين اعتادوهما، وتكون نبرة عواطفهما أعلى من المناسبات غير المحببة

---

(17) عندما عُيِّنَ بريسوس (Priscus) خلال عمله في سفارة في أتيلا، بادره شخص بالكلام باللغة اليونانية، وكان يرتدي ثوباً سكيثياً، وبعد تعبيره عن المفاجأة وكونه راغباً في معرفة سبب بقائه في جماعة متوحشة، قيل له إن ذلك اليوناني كان أسيراً، وعبداً لبعض الوقت، إلى أن حصل على حريته مقابل عمل استثنائي لافت. قال: «عشت سعيداً هنا أكثر مما عشت تحت الحكم الروماني: لأن الذين يعيشون مع السكيثيين، إن كانوا يتحملون متاعب الحرب، لا يزعجهم شيء، فهم يتمتعون بممتلكاتهم براحة ومن دون ازعاج، بينما أنتم ضحية لأعداء خارجيين أو لحكم سيئ باستمرار، وتمنعون من حمل السلاح دفاعاً عن النفس، وتفنون من إهمال الذين عُيِّنوا لحمايتكم وسلوكهم السيئ، وإن شرور السلام أسوأ من شرور الحرب. ولا يعاقب عندكم القوي أو الغني، ولا رحمة للفقراء، بالرغم من أن مؤسساتكم وضعت بحكمة، ومع ذلك، كانت نتائجها بإدارة الفاسدين ضارّة ووحشية» *Excerpta de legationibus*.

(18) Laurent D'Arvieux, *History of the Wild Arabs*.

أو غير المثيرة. وكان المتقدمون في السن في حاشية أتيلا (Attila) يبكون عندما يسمعون أخبار أفعال بطولية، وصاروا هم أنفسهم عاجزين عن القيام بها[19]. وفي الأمم السلتية (Cetlic)، عند تقدّم العمر الذي يجعل من المحارب غير ملائم للقيام بالأعباء السابقة، جرت العادة بطلب الموت على أيدي الأصدقاء، بغية اختصار ضنى حياةٍ كسولة وغير ناشطة[20].

وبالرغم من وحشيّة الروح تلك وشدّتها، فإن الأمم البدائية في الغرب أُخضعت بالخطط الحربية والمنظَّمة للرومان. ومسألة الشرف التي تبنّاها البرابرة الأوروبيون، كأفراد، كشفت عن ضررٍ، تمثَّل في جعلهم كارهين - حتى في حروبهم القومية - للهجوم على عدوّهم مباغتةً، أو الاستفادة من الاستراتيجية. ومع أنهم كانوا جسورين وباسلين انفرادياً، إلّا أنهم كانوا مثل الأمم البدائية الأخرى التي عندما تجتمع في كيانات كبيرة، تدمن الخرافات وتخضع لظواهر الرعب.

فهم انطلاقاً من وعيهم لشجاعتهم الذاتية وقوتهم يكونون متعطّشين للدماء في الفترة التي تسبق المعركة، ويتجاوزون حدود الاعتدال، ويكونون أيضاً معجبين بأنفسهم، وتائهين، أما الخطّ العاثر فيغمّهم ويردّون كل حادث إلى حكم الآلهة، وهم لم يكونوا مؤهّلين بممارسة منتظمة أو بحكمةٍ للاستفادة القصوى من قواهم، لترميم حظوظهم السيئة أو لتحسين فوائدهم.

---

(19) المصدر نفسه.

(20) Ubi transcendit florentes viribus annos, Impatiens aevi spernit novisse senectam. Silius, lib. i. 225.

ويكونون، وهم خاضعون لحكم العاطفة والانفغال، كرماء ومخلصين لعلاقتهم، ويكونون عنيدين حقودين لا يعرفون الصفح، وشرسين وقاسين على من يكرهون، ومدمنين على الفسوق والاستعمال المتطرِّف للكحول المخدِّرة، وينظرون في شؤون الدولة في ذروة تظاهراتهم، وفي اللحظات الخطرة ذاتها يتصورون خطط المشروع العسكري، أو ينهون نزاعاتهم بالخنجر أو بالسيف.

وفي الحرب يفضِّلون الموت على الأسر. وعندما كانت جيوش الرومان المنتصرة تدخل مدينةً عبر الهجوم عليها أو تفرض عسكرها، كانت الأم تقوم بقتل صغارها خوفاً من أسرهم، وخنجر الأب الأحمر من دماء أسرته، جاهز لكي يطعن به قلبه[21].

في تلك الأمثلة الجزئية جميعها، ندرك أن قوة الروح التي تجعل الفوضى نفسها محترمةً، وتؤهِّل الرجال إن كانوا محظوظين، أن يضعوا أساس الحرية المحلية، وأن يحتفظوا باستقلالهم القومي وبحريتهم ضد الأعداء الخارجيين.

---

(21) Liv. Lib. xli. 11. Dio Cass.

القسم الثالث

تاريخ السياسة والفنون

الجزء الأول

حول تأثير المناخ والموقع

ما لاحظناه عن حالة الأمم وأساليب حياتها يمكن تطبيقه بمقدار ما على حالة البشر البدائية في كل جزء من الأرض وإن يكن ما لاحظناه استُمدّ مما حصل في الأقاليم ذات المناخ المعتدل. غير أننا إذا عزمنا على تتبّع تاريخ نوعنا في مكتسباته الإضافية فسرعان ما ندخل في مواضيع ستحصر ملاحظتنا في حدود ضيّقة. ويبدو أن عبقرية حكمته السياسية، وفنونه المدنية، قد اختارت إقاماته في بقع من الأرض، واختارت ما يحبّه من أنواع البشر. فالإنسان في طاقته الحيوانية مؤهَّل لأن يعيش ويبقى في كل مناخ. فهو يسود مع الأسد والنمر تحت حرارة الشمس، وفي الأجواء الاستوائية، أو يشارك الدبّ والرّنة النظام القطبي. وميوله المتقلّبة تناسبه في اتخاذ العادات في كل حالة، وموهبته الفنية تمكّنه من التعويض عن ما ينقصه. ويبدو أن أنواع المناخ المتوسّط تلائم طبيعته. وبأي شكل وصفنا الواقع، فإنه مما لا شك فيه أن هذا الحيوان كان يحصل دائماً على درجات الشرف الرئيسية الخاصة بنوعه في المناطق المعتدلة. فالفنون التي كانت عنده، التي ابتدعت تكراراً مقدار عقله وتفكيره،

وخصوبة خياله، وقوة عبقريته في الأدب، والتجارة، والسياسة والحرب تكشف، بما فيه الكفاية، عن وضع مفيد مميَّز، أو عن تفوّق طبيعي عقلي.

لا ريب في أن أكثر الأعراق الرائعة من البشر كان بدائياً قبل أن يُصقل بالثقافة. وفي بعض الحالات عاد البشر إلى الحالة البدائية من جديد. لذا، لا نعلن من تحصيلهم الفنون، والعلم، أو السياسة الفعلية عن عبقريتهم.

ثمَّة قوة، وقدرة وحساسية عقلية تميِّز المتوحِّش والمواطن، والعبد والسيّد، ويمكن تحويل قوى العقل ذاتها لأنواعٍ مختلفة من الأهداف. فقد يكون اليوناني الحديث مزعجاً، وحقيراً وماكراً وهو كالمزاج المفعم بالحيوية الذي جعل جدّه متحمساً، وعبقرياً وجسوراً، في المعسكر أو في مجلس الأمة. والإيطالي الحديث يتميّز بالحساسية، والسرعة، والفن، في حين يستخدم قدرة الروماني القديم في التوافه، والآن يعرض بمشهد تسلية وبحث عن الاستحسان التافه، تلك النار وتلك العواطف، التي تفجرت من جراكوس (Gracchus) على المنبر، وهزَّت اجتماعات الشعب الأشدّ قساوة.

لقد ظلَّت الفنون التجارية والمربحة في بعض المناخات هدفاً رئيسياً للبشر، واستمرت في كل نكبة. وفي مناخات أخرى مع تذبذبات الحظ ظلّت مهملة، في حين كان لها في المناخات المعتدلة في أوروبا وآسيا عصور من الإعجاب، ومن الازدراء أيضاً.

في إحدى حالات المجتمع تخفّ الفنون، وتهبطُ من حماسة

العقل ومبدأ النشاط، اللذين بهما تمارس بأعظم ما يكون من النجاح. وحينما يكون البشر غارقين في عواطفهم، ويغلون ويثارون بصراعات ومخاطر بلادهم، وحينما يكون البوق يصوِّت أو يقرع جرس الإنذار الخاص بالاشتباك أو بالمعركة الاجتماعية، وترتفع ضربات القلب، حينئذٍ تكون علامة كسل أو علامة روح خسيسة في إيجاد وقت فراغ يُصرف على الراحة أو في السعي لتحسينات لا تلائم أو تريح غرضهم.

فتقلّبات الحظ المتعاقبة وحوادثه المتناقضة وقد خبرتهما الأمم على الأرض ذاتها التي ازدهرت عليها الفنون قد تكون نتائج روح نشيطة، ومبدعة متقلّبة أو متعدِّدة الجوانب بها حمل البشر كل تغيّر قومي إلى أقصاه. فقد رفعت مبنى إمبراطورية الطغيان إلى أعلى علوّ، حيث فهموا خير فهمٍ أسس الحرية، وهلكوا في اللهيب الذي أشعلوه، وقد كانوا قادرين على أن يعرضوا بالدور التحسينات الكبرى، أو ظواهر الفساد الدنيا، التي يمكن للعقل الإنساني أن يُجلب إليها.

على المشهد صعد البشر مرتين في نطاق التاريخ من بدايات بدائية إلى درجات عالية جداً من التهذيب والتفكير الدقيق. وفي كل عصر، سواء أكان بفضل ميلهم المؤقت للبناء، أم للتدمير، تركوا آثار روحٍ نشيطة ومتَّقدة. فرصيف وخرائب روما دُفِنا في الغبار، وقد طحنتهما أقدام البرابرة، الذين داسوا بازدراء تحسينات الترف والرفاهية، ورفسوا بأقدامهم مزدرين تلك الفنون، التي بقي استعمالها محفوظاً لجيل الشعب الذي أعقب، بعد أن يكتشفها ويعجب بها. خيام العرب المتوحّشين منصوبة حتى الآن بين خرائب

المدن الرائعة، والحقول المقفرة على حدود فلسطين وسوريا قد تكون قد صارت من جديد بمنزلة بيت حضانةٍ للأمم التي لا تزال في مرحلة الطفولة. وقد يكون شيخ قبيلة عربية مثل مؤسّس روما قد ثبَّت جذور نبتةٍ لكي تزهر في فترة ما في المستقبل، أو وضع أُسس مبنى سيحصل على عظمته في عصر بعيد.

كان جزء كبير من أفريقيا بصورة دائمة مجهولاً. غير أن عدم السماع بثوراتها حجّة حيث لا توجد حجة أخرى على الضعف في عبقرية شعبها. فالمنطقة الحارّة في كل مكان في العالم، التي يعرفها عالم الجغرافيا قدَّمت مواد قليلة للتاريخ. وبالرغم من أنها في أمكنة كثيرة قدَّمت فنون الحياة بدرجة محترمة، فإنها لم تنضج مشاريع مهمة خاصة بالحكمة السياسية، كما لم توحِ بالفضائل ذات الصلة بالحرية، والمطلوبة في إدارة الشؤون المدنيَة.

وفعلياً وُجدت في المنطقة الحارّة فنون تقنيّة وصناعة فحسب في أوساط سكان العالم الجديد، وحققت أعظم تقدّم: ففي الهند، وفي مناطق نصف الكرة الأرضية هذه، التي تزورها الشمس العمودية كانت فنون الصناعة، وممارسة التجارة من الأزمنة القديمة العظمى، وأبقت بأقل ما يكون من النقص على خرائب الزمان وثورات الإمبراطورية.

يبدو أن الشمس، التي تُنضِّج الأناناس والتمر الهندي كانت تلطِّف قساوة حكم الطغيان، ومثل ذلك كان أثر النزعة اللطيفة والسلمية عند سكان المشرق، حتى إن الذي حصل هو أنه لم تحصل نهاية لغزو، واقتحام من قِبَل البرابرة عند سكان أوروبا العنيدين من طريق التدمير الكامل لكل ما أنتجه حب الراحة والمتعة.

وفي انتقال سكان الهند من دون صراع كبير من سيّد إلى آخر، كانوا مستعدين عند كل تغيير أن يستمروا في أعمالهم، ويقبلوا التمتّع بالحياة والرجاء في لذّة حيوانية: حروب الغزوات لم تطلْ إلى الحدّ الذي يثير سخط وغضب الأطراف المشاركة فيها، أو تهجر الأرض التي تنازعوا عليها، والغزاة البرابرة، حتى هؤلاء، أبقوا الأماكن التجارية على حالها عندما لم تكن تثير غضبهم. وحتى حاكم المدن الغنية، كان يخيِّم في الجوار ويترك لورثته خيار الدخول على درجات في عالم اللذائذ والرذائل، والمهرجانات التي تتمكن مكتسباته من إقامتها. فخلفاؤه ميّالون أكثر منه لرعاية القفير، بقدر ما يتذوقون حلاوته. ويتركون للمقيمين، بالإضافة إلى مساكنهم قطعانهم من الحيوانات ومرابط بعضها لتصبح ممتلكات لهم.

الوصف الحديث للهند تكرار لوصف القدماء، وحالة الصين الحالية مستمدة من أزمنة قديمة نائية، لا يوازيها شيء في تاريخ البشر. ومع أن تعاقب الملوك تغيّر، فإن الثورات لم تؤثر في الدولة. ولم يكن الأفريقيون والسامولييد(*) (Samoiede) متشابهين في جهلهم وبربريتهم أكثر من الصينيين والهنود، وإن صدَّقنا قصتهم، فقد كانوا يمارسون الصناعة، وإدارة الشرطة كانت مكلَّفة بتنظيم حركة المرور فحسب وحمايتهم في ممارستهم فنون رقٍّ أو فنوناً مربحة.

وإذا انتقلنا من هذه الأفكار العامة والخاصة بما فعل البشر، إلى وصف دقيق للحيوان نفسه، بعد أن حلَّ في مناخات مختلفة، وتنوّع طبعه، ومزاجه وشخصيته، سوف نقع على أنواع من العبقرية تطابق آثار سلوكه، ونتيجة قصته.

(*) أول استخدام لهذه الكلمة كان عام 1589م وهي كلمة مشتقة من اللغة الروسية القديمة وتعني سامي الوطن وتطورت لتعني أي عضو في أي مجموعة من الشعوب التي تقطن شمال روسيا الأوروبية وأجزاءً من شمال غرب سيبيريا (المراجع).

فالإنسان يعمل على كمال قدراته الطبيعية، وهو سريع ولطيف في حساسيته، وواسع ومتنوِّع في خيالاته وتأملاته، ومنتبه، وذكي وبارع، في علاقته مع زملائه من البشر، وحازم ومتحمّس لأهدافه، ومكرِّس للصداقة أو للعداوة، غيور على استقلاله وشرفه اللذين لا يتخلّى عنهما طلباً للسلامة أو المنفعة، وفي مفاسده أو محاسنه جميعها، يظلّ محافظاً على حساسيته الطبيعية، إن لم يكن على قوته. وتجارته نعمة أو لعنة طبقاً للجهة التي تلقّاها عقله.

غير أن مجال النفس الإنسانية الذي يعجّ فيه النشاط، حيث الحرارة أو البرودة متطرفة، يبدو محدوداً، وتقلّ أهمية البشر كأصدقاء أو كأعداء. ففي المناخ المتطرّف الواحد، يكونون بليدين وبطيئين، ومعتدلي الرغبات، ومنظَّمين ومسالمين في أسلوب حياتهم. وفي المناخ الثاني، يكونون شديدي الانفعال العاطفي، وضعيفين في أحكامهم، ومدمنين بحساسية بالغة على الملذات الحيوانية. وفي كليهما كان القلب مرتزقاً، وكان يقدِّم تنازلات مهمة من أجل رشوات طفولية، وفي كليهما كانت الروح مستعدةً للعبودية: في أحدهما تخضع خوفاً من المستقبل، وفي الآخر لا يثيرها حتى شعورها بالحاضر.

لم تجد الأمم الأوروبية التي رغبت في الإقامة أو الغزو في جنوب أو في شمال مناخاتهم المعتدلة، سوى مقاومة قليلة: لذلك وسعوا سيطرتهم كما شاؤوا، ولم يجدوا أمامهم حدّاً سوى المحيط والإفراط بالغزو. وبقليل من الوخرات والصراعات التي تسبق ضعف الأمم، رُبطت المناطق القومية على التوالي بأرض روسيا، وحاكمها الذي صار مسؤولاً في داخل منطقته عن قبائل كاملة،

لم يتحدَّث معها أيّ واحد من رسله من قبل، أرسل علماء هندسة لكي يوسِّعوا إمبراطوريته، وبالتالي تنفيذ مشروع اضطر الرومان أن يوظِّفوا فيه قناصلهم وفرقهم[1]. وكان هؤلاء الغزاة الفاتحون الحديثون يتذمّرون من الثورات التي كانوا يواجهونها بالمقت والاشمئزاز، وذهلوا لمعاملتهم كأعداء حيث أتوا لفرض جزيتهم.

وعلى أي حال، بدا على شواطئ البحر الشرقي، أنهم قابلوا أمماً[2] شككت في حقهم بالحكم، ونظرت في طلب ضريبة مقابل لا شيء. وهنا، نلعن عبقرية أوروبا القديمة وشدّتها، وروح الاستقلال القومي[3]. تلك الروح التي احتلت الأرض في الغرب مع جيوش روما المظفَّرة، وأعاقت محاولات ملوك بلاد فارس من ضمّ قرى اليونان وإدخالها في حدود سيطرتهم التوسعية.

التنوّعات الكبيرة واللافتة الموجودة عند المقيمين في مناخات متباعدة وتشبه تنوعات حيوانات أخرى في مناطق مختلفة، يمكن ملاحظتها بسهولة. فالحصان والرّنة علامتان بمنزلة شعارين، عند العرب ومنطقة لابلاندر: فالمقيم في جزيرة العَرَب، مثل الحيوان الذي اشتهرت به بلاده - سواء أكان متوحشاً في الغابات، أم حصلت تربيته بالفن - يكون نشيطاً ومتحمّساً في التمرين الذي اعتاده. هذا النوع من البشر، عندما كانوا في حالتهم البدائية، كانوا يهرعون إلى الصحراء طلباً للحرية، وبفرق متجوّلة يهددون حدود الإمبراطورية،

---

(1) انظر الأطلس الروسي (Russian Atlas).

(2) The Tchutzi.

(3) *Notes to the Genealogical History of the Tartars* الذي أكدّه سترالنبرج (Strahlenberg).

ويطلقون رعباً في المنطقة التي تتقدّم نحوها معسكراتهم[4]. وعندما يطمحون للغزو، أو يميلون إلى العمل وفقاً لخطة، نراهم يمدّون سيطرتهم، وخيالهم إلى بُقع قوية من بقاع الأرض، وعندما يسيطرون على أملاك ويقيمون في مستوطنات، يقدّمون مثلاً عن إبداع حيّ وعبقرية متفوِّقة في ممارسة الفنون وفي البحث العلمي. لابلاندر كان نقيض ذلك، فهو مثل المشاركة في مناخ قاسٍ لا يتعب ويصبر على المجاعة، وهو بليد وليس أليفاً، خدوم في بقعة معينة، وعاجزٌ عن التغيّر. وقد استمرت الأمم من عصر إلى عصر في الحالة نفسها، وبما يشبه اللامبلاة التي تُسبّب الكسل، خضعت للتسميات: دانماركي (Dane)، سويدي (Swede)، أو موسكوفي (Muscovite) بحسب البلاد التي نزل فيها وسكنها، وعانى من فصل بلاده بالحظ الذي حدَّدت به تلك الأمم حدود إمبراطوريتها.

ليس في الأطراف وحدها يمكن تمييز فروقات العبقرية بوضوح. فقد ظلَّ تغيّرها المستمر مترافقاً مع تغيّرات المناخ الذي نفترض أنه يربطها. وبالرغم من أن درجات معيّنة من القدرة، والذكاء والحماسة ليست من نصيب أمم بكاملها ولا الصفات العادية لأي شعب، فإن تكرارها غير المتساوي، ومقدارها المختلف في أقطار مختلفة تظهر بصورة كافية من أساليب الحياة، ونبرة الحديث، وموهبة العمل، والتسلية، والتأليف الأدبي الذي يسود في كل منها.

نحن مدينون للأمم الأوروبية الجنوبية قديمها وحديثها باختراع وزخرفة تلك الميثولوجيا، وتلك التقاليد المبكرة التي ما تزال تُجهّز مواد المخيَّلة، وميدان الإلماعات الشعرية. ولها نحن

---

(4) D'Arvieux.

مدينون بالقصص الرومانطيقية المتعلقة بالفروسية، وأيضاً بالنماذج اللاحقة ذات الأسلوب العقلي، الذي يُشعل القلب والخيال ويكوِّن الفهم.

غزارة الصناعة كانت في الشمال، ونالت دراسة العلم أقوى تحسّناتها. أما جهود الخيال والمشاعر فكانت أكثر ما يكون وأنجح ما يكون في الجنوب. وفي حين اشتهرت شواطئ البلطيق ببحوث كوبرنيكوس (Copernicus)، وتيخو براهي (Tycho Brahe)، وكبلر (Kepler)، اشتهرت بحوث البحر الأبيض المتوسط بعباقرة من كل نوع، وبغزارة الشعراء، والمؤرخين ورجال العلم.

من ناحية ينشأ العلم من القلب والمخيّلة، ومن ناحية أخرى، يظلّ محصوراً بالحكم وبالذاكرة. فتفصيل ملخص عن صفقات عامة مع معرفة قليلة بأهميته النسبية، واتفاقيات ومعاهدات ومطالب الأمم، وولادات الأمراء وأصولهم، كل ذلك حُفظ بشكل واسع في آداب أمم الشمال، بينما هلكت أنوار العقل ومشاعر القلب. وتاريخ الشخصية الإنسانية والمذكّرات الرائعة المبيّنة أحداث الحياة الخاصة غير المدروسة أكثر من قيامها على المعاملات الرسمية الخاصة بمركز عام، والمزاح العبقري، والسخرية النفّاذة، واللطف، والمحزن، أو الخطابة الراقية، ذلك كله انحصر في الزمن الحديث وفي الأزمنة الماضية، باستثناءات قليلة، في مناطق خطّ العرض حيث ينمو التين والكرمة.

هذه التنوّعات في العبقرية الطبيعية، إن كانت حقيقية، لا بدّ من أن يكون لها جزء كبير من أساسها، في الإطار الحيواني. وقد لوحظ أن الكرمة تزدهر حيث تسرِّع من اهتياجات الدم البشري، وهي قلّما

تُطلب، في حين أن المشروبات الروحية (الكحول) ممنوعة بداعي آثارها المدمِّرة، أو من منطلق حب أدب السلوك وسيطرة مزاجٍ دافئ وهي ليست مرغوبة كثيراً. فهي لها سحرها الخاص في الشمال، عندما توقظ العقل وتوفِّر مذاقاً للخيال الحيّ وحماسة لعاطفة غير موجودة في المناخ.

الرغبات المنصهرة، أو العواطف الناريّة التي تحدث بين الجنسين في مناخ ما تتغيّر في مناخ آخر إلى تفكير رصين،أو إلى صبرٍ على قرفٍ متبادل. ويُلاحظ هذا التغيّر عند عبور البحر الأبيض المتوسط في تتبّع مجرى نهر المسيسيبي، وفي صعود جبال القوقاز (Caucasus)، وفي المرور من جبال الألب (Alps) وجبال البيرينيس إلى شواطئ البلطيق (Baltic).

الجنس الأنثوي يستبدّ على حدود لويزيانا (Louisiana)، بواسطة الآلة الثنائية: الخرافة والعاطفة. فهنَّ عبيدات عند السكان الأصليين في كندا، وقيمتهن رئيسية للكدح الذي يتحمّلنه، وللخدمة المنزلية التي يقدمنها(5).

ظواهر الحماسة الملتهبة وظواهر الغيرة المعذِّبة في سراي السلطان والحريم التي سادت في آسيا وأفريقيا لمدة طويلة في الأجزاء الجنوبية من أوروبا لم تفسح المجال للفروق الدينية وفروق المؤسسات المدنية، ووُجِد أنها تتغيّر مع تخفيف حرارة المناخ بسهولة في خط عرض واحد لتصبح عاطفة مؤقتة تستحوذ على العقل، من دون إضعافه وتثيره لتحقيق إنجازات رومانطيقية،

(5) Charlevoix.

وبتقدم إضافي إلى الشمال، يتحول إلى روح شجاعة تستخدم الذكاء والخيال أكثر من القلب الذي يفضّل الخداع والمكيدة على المتعة، ويضع العاطفة والخيلاء حيث يفشل الشعور والرغبة. وعندما تبتعد عن الشمس، يزداد تحوّل العاطفة إلى عادة ارتباط أهلي أو تجمد، متحولةً إلى حالة من عدم الحساسية، نادراً ما يختار الجنسان توحيد مجتمعهما.

هذه التغيّرات في المزاج والخُلُق لا تتطابق مع عدد الدرجات التي تُقاس من خط الاستواء إلى القطب، كما أن حرارة الهواء نفسه لا تعتمد على خط العرض. فتنوّعات التربة والموضع، البعد أو القرب من البحر معروف أنها تؤثر في الغلاف الجوّي، وقد يكون لها آثار بارزة في تأليف المزاج الحيواني.

وقد لوحظ أن ظواهر المناخ في أميركا تختلف عن تلك الموجودة في أوروبا، بالرغم من كونها على خط العرض ذاته. فهناك، يُفترض بالمستنقعات الواسعة، والبحيرات الكبرى، والغابات المعمِّرة، المتآكلة والمكتظَّة، بالإضافة إلى ظروف أخرى تميّز البلاد غير المحروثة أو المعتنى بها، أن تزوِّد الهواء بأبخرة ثقيلة ومؤذية تضاعف من قسوة الشتاء. وخلال أشهر عديدة، تُدخل الظواهر المزعجة الخاصة بالمنطقة القاسية في المنطقة المعتدلة. وعلى أي حال نقول، إن الساموييد واللابلاندر لهما نظيرهما، وإنْ يكن على خط عرض منخفض، على شواطئ أميركا، نعني أن: الكنديين والإيروكواس يشبهان السكان القدماء المقيمين في المناخات المعتدلة في أوروبا. أما المكسيكيون فهم مثل آسيويي الهند غرقوا في التخنّث، لأنهم أدمنوا الملذّات. وبمجاورة

المكسيكي للبريّة المتوحشة وللحرية عانى من صعود خرافة مستبدة، وبنية دائمة من الحكم الاستبدادي على رأسه.

قسم كبير من مناطق التتار كان يشابه اليونان، وإيطاليا وإسبانيا، إلا أن أنواع المناخات كانت مختلفة. وفي حين كانت شواطئ المحيط الأطلسي، لا البحر الأبيض المتوسط وحده، تتمتع بتغيّر معتدل وتنوّع في الفصول. كانت الأجزاء الشرقية من أوروبا، والقارة الشمالية من آسيا مبتلية بكل أشكالها المتطرّفة. وقد نُقِلَ إلينا ما يفيد أنه في فصل واحد وصلت كوارث صيف حار جداً إلى البحر المتجمّد، وأن المقيم هناك اضطر أن يقي نفسه من الهوام والحشرات الطفيلية الضارة في الغيوم ذاتها، التي عليه أن يتوقّاها، في زمنٍ آخر مختلف، وفي قساوة البرد. وعندما يعود الشتاء يكون التحوّل سريعاً مع قساوة متساوية في كل خط عرض ينظّف سطح الأرض من الحدود الشمالية لسيبيريا إلى منخفضات جبل القوقاز وحدود الهند.

بذلك التوزّع غير المتساوي للمناخ، تكون الأرض مع الطابع القومي للآسيويين الشماليين أدنى مما هي عند الأوروبيين، الذين يقيمون على خطوط العرض ذاتها، كما لوحظت درجة شبيهة من المزاج والروح، في تتبّع خط الطول في كل صقع. وكان للتتار الجنوبيين التفوّق ذاته على الطنغوس (Tanguses) والساموييد، تفوق شبيه بذلك الذي كان لبعض الأمم الأوروبية على جيرانها الشماليين، في أوضاع كانت أكثر نفعاً لكليهما.

قلّما يقدِّم نصف الكرة الجنوبي موضوعاً يتصف بالملاحظات ذاتها. فالمنطقة المعتدلة هناك لم تكتشف بعد أنها معروفة في

نتوأين، هما: رأس الرجاء الصالح ورأس القرن (Cape Horn) اللذان يمتدان في خطي عرض معتدلين، على ذلك الجانب من الخط. غير أن المتوحش في أميركا الجنوبية، وبالرغم من أن التداخل بين أُمتي البيرو (Peru) والمكسيك، يشبه نظيره في الشمال، ويشبه الهوتنتوت، بأشياء كثيرة، البربري الأوروبي: فهو متمسك بالحرية، ولديه بدايات خطة، وقوة قومية، تفيد في تمييز جنسه عن القبائل الأفريقية الأخرى، التي تتعرَّض لأشعة الشمس العمودية.

ومع أننا لم نعرض في تلك الملاحظات سوى ما يكمن في نظرة سريعة لتاريخ البشر، أو ما يمكن افتراضه انطلاقاً من غموض بعض الأمم الذي يقيم في بقع شاسعة من الأرض، وأيضاً، من أمجاد أمم أخرى، فإننا ما زلنا غير قادرين على شرح الأسلوب الذي به يمكن للمناخ أن يؤثِّر في المزاج، أو يرعى ويعزِّز عبقرية سكانه.

القول إن مزاج القلب، وعمليات العقل الفكرية هي بمقدارٍ ما تعتمد على حالة الأعضاء الحيوانية، أمر معروف من الخبرة. فالبشر يختلفون بالمرض، وبالصحة عندما يتغيّر الغذاء، والهواء، والتمرين. غير أننا، في هذه الحالات المتشابهة لا نعرف كيف نربط السبب بنتيجته المفترضة. وبالرغم من أن المناخ، الذي يوفِّر أنواعاً مختلفة من الأسباب، قد يؤثِّر عبر تأثير منتظم ما في طبائع البشر، فإننا لا نأمل أبداً، في شرح أسلوب تلك التأثيرات، قبل أن نفهم ما لا يمكن فهمه، ونعني بنية تلك الأعضاء الدقيقة المرتبطة بها عمليات الروح.

عندما نبرز في وضع شعب من الشعوب الظروف التي بتحديدها حرفهم نظّمت عاداتهم، وأسلوب حياتهم، وعندما - عوضاً عن

الإشارة إلى المصدر الفيزيائي لميولهم المفترض وجوده - نعمل على تعيين دوافع سلوك معيّن، عندئذٍ نكون متكلّمين عن نتائج وأسباب روابطها المعروفة. فنحن نستطيع أن نفهم، مثلاً، لماذا أفراد شعب مثل الساموييد يكونون محصورين في معظم السنة، بالظلام، أو يتراجعون إلى الكهوف الكبيرة، ويختلفون بأساليب حياتهم ومفاهيمهم عن الذين يكونون متحرّرين في كل فصل، أو الذين يبحثون عن حماية الشمس المحرقة للتخلّص من البرد القارس. النار والتمرين هما العلاجان من البرد. والراحة والظل هما الأمان من الحرارة. والهولندي (Hollander) مجتهد ومكدّ في أوروبا، لكنه يصير كسولاً ومتراخياً في الهند[6].

الأحوال المتطرّفة للحرارة أو للبرودة يُفترض بأنها غير محتملة للعباقرة الناشطين من البشر، وبتقديمهما صعوبات لا يمكن الانقلاب عليها، أو دوافع وإغراءات للتراخي والكسل، تمنعان أول تطبيقات العبقرية، أو تحدِّدان تقدّمها. بعض درجات عدم الملائمة؛ نعني الدرجات المباشرة في الوضع تثير الروح حالاً وبأمل النجاح يشجِّع الجهود. وقد قال السيد روسّو (Rousseau): «في أقل الأوضاع الملائمة وجدنا الفنون تزدهر أكثر من سواها. وأنا أستطيع أن أبيّنها في مصر، وهي تنتشر مع تدفق نهر النيل وجريانه، وفي أفريقيا وهي تمتطي السحاب من تربة صخرية ورمالٍ قاحلة، بينما عجزت على ضفاف اليوروتاس الخصيبة عن تثبيت جذورها».

حيثما كان البشر، ومنذ الاعتماد الأول على التربة للبقاء،

---

(6) البحّارة الهولنديون الذين استخدموا في حصار ملاكو (Malaco) مزّقوا وحرقوا قماش الشراع الذي أُعطيَ لهم ليقيموا به خيماً فلا يزعجهم صنعها أو غرسها (Voy de Matelief).

ووسط الصعوبات، كان مصدر العون لوضعهم متمثِّلاً في الكدّ، وحيث تُركت الأيدي جافةً، مغريةً وصحيةً من دون صقل[7]، فإن المستنقع المهلك جُفِّف بعملٍ شاق، وأُبعد البحر بحواجز منيعة، وكانت المواد وتكلفاتها مما لا تستطيع التربة التي تمَّ كسبها أن تتحمله، أو أن تعوِّضه. وفُتحت المرافئ وإن ازدحمت فيها السفن الشاحنة، وعندما لا تكون مراكب النقل مصنوعة بما يتلاءم مع الوضع، فلن يكون لها ماء لتطفو عليه. وشيّدت مبانٍ رائعة على أسسٍ من الوحل والطين، وكل ما تحتاجه الحياة الإنسانية كان وفيراً، حيث الطبيعة لم تعدّ استقبالاً للبشر. وعبثاً التوقّع أن وجود الفنون والتجارة تحدِّده السيطرة على الامتيازات الطبيعية. فالبشر تكون أعمالهم أكثر عندما يواجهون صعوبات معيّنة يريدون التغلّب عليها، مما تكون عندما يكونون حائزين على نعمٍ للتمتّع بها: فظلّ شجر البلوط غير المثمر والصنوبر أحبّ وأنسب لعبقرية البشر من شجر النخيل والتمر الهندي.

يمكن أن نتوقّع من الفوائد التي مكَّنت الأمم من إدارة حياة سياسية، وأيضاً حياة فنية، وعلينا أن نذكر كل ظرفٍ مكَّنهم من الانقسام والبقاء في مجتمعات متميّزة ومستقلة. فالاجتماع والالتقاء بأشخاص آخرين ليسا لازمين لتشكيل الفرد، أكثر من كون المزاحمة والمنافسة بين الأمم لازمتين لتعزيز مبادئ الحياة السياسية في الدولة. فحروبها ومعاهداتها، وظواهر حسدها المتبادل، والمؤسسات التي ينشئونها انطلاقاً من نظرة كل واحدة منها إلى الأخرى، كل ذلك يؤلف أكثر من نصف مشاغل البشر، ويجهِّز مواد لجهودهم العظيمة والأكثر تحسّناً. ولهذا السبب نقول،

(7) قارن حالة هنغاريا مع حالة هولندا.

إن مجموعات من الجزر، وقارة مقسَّمة بحواجز طبيعية كثيرة، وأنهر كبيرة، وسلاسل جبال، وأذرع ممتدة في البحر، هي أنسب ما يكون لرعاية الأمم المستقلة والمحترمة. وظل التمييز بين الدول ظاهراً بوضوح، وتأسّس مبدأ حياة سياسي في كل مقاطعة، وكانت عاصمة كل منطقة، مثل قلب الجسم الحيواني الذي يخفّف حدّة الدم الحيوي والروح القومية لأعضائه.

ودائماً كانت الأمم الأكثر احتراماً تلك التي يكون أحد حدودها على البحر. وهذا الحدّ الذي قد يكون الأمنع من كل ما عداه في أوقات الأزمة، لا يبطل الاهتمامات المتعلقة بالدفاع القومي، وفي حالة التقدّم يوفّر مجالاً وسهولة للتجارة.

لذا، فإن الأمم المزدهرة والمستقلة كانت موزَّعة على شواطئ المحيطين الهادئ والأطلسي. وأحاطت أيضاً بالبحر الأحمر، والبحر الأبيض المتوسط والبلطيق، في حين بقيت قبائل قليلة في الجبال على حدود الهند وبلاد فارس، أو أقامت في مساكن بدائية بين الجداول وشواطئ بحر القزوين والبحر الأسود(*) (Euxine)، لذا، لم يوجد شعب في القارة الآسيوية الواسعة استحق اسم أمة. فكانت هناك قبائل رُحَّل كبيرة تجول في السهل الواسع في حركة لا تتوقَّف لأنها أزيحت بالعداوات المتبادلة. وبالرغم من أنها لم تمتزج في حالات الصيد، أو البحث عن المراعي لم تكن تتصف بما يميّز الأمم الذي يستمد من الأرض الممتلكة، والمطبوع عميقاً بمحبة الوطن.

وهي تتجوَّل فرقاً فرقاً، من دون الترتيب أو الاتساق الذي

(*) Euxine الاسم القديم للبحر الأسود وهو كناية عن بونتوس (Axeion) التي تعني البحر الوعر حيث كان هذا البحر تجتاحه قديماً عواصف خطرة (المراجع).

تتصف به الأمم. وتتخضع بسهولة لكل امبراطورية جديدة، أو للصينيين والموسكوفيين، ويتواصلون معهم لتأمين موارد الرزق، ومواد المتعة.

عندما يتشكّل نظام سعيد من الأمم، فإن هذه الأمم لا تعتمد على الحواجز الطبيعية للحفاظ على أسمائها المختلفة، وعلى استقلالها السياسي. فظواهر الغيرة والحسد المتبادلة تؤدّي إلى الحفاظ على ميزان القوة، وهذا المبدأ يعمل أكثر من نهر الراين والمحيط، وأكثر من جبال الألب والبيرينيس في أوروبا الحديثة، وأكثر من مضائق ترموبولاي (Thermopylae)، وجبال تراقيا (Thrace)، أو خلجان سالاميس (Salamis) وكورينث (Corinth) في بلاد اليونان القديمة، وتعمل على إطالة الانفصال، والسكّان مدينون له لتلك المناخات السعيدة بسعادتهم كأمم، وبريق شهرتهم وإنجازاتهم المدينة.

فإذا قصدنا أن نتتبَّع تاريخ المجتمع فعلينا أن نوجِّه انتباهنا بشكل رئيسي إلى مثل تلك الأمثلة، كما علينا أن نودِّع تلك المناطق من الكرة الأرضية التي كُبح وقيِّد نوعنا عليها، بتأثير من الموقع أو المناخ في مساعيه القومية، أو من ضعف في قواه العقلية.

الجزء الثاني

تاريخ المؤسسات السياسيّة

حتى الآن لاحظنا أن البشر متحَّدون على أساس المساواة، أو قابلون بتبعيّةٍ قائمةٍ على الاحترام الإرادي لقادتهم والارتباط بهم، وفي الحالتين من دون أي خطة لحكومة، أو لنظام من القوانين.

المتوحّش الذي تتألف ثروته من حجرته وفروته وسلاحه كان راضياً بموارد رزقه، وبدرجة من الأمن كان هو وراءها. فهو لم يكن يرى في تعامل مع من يساويه موضوعَ جدل يجب إرجاعه إلى قرار قاضٍ، كما لم يرَ على أي يدٍ شارات الحاكميّة أو علامات السلطة الدائمة.

والبربري بالرغم من إعجابه بالصفات الشخصية، وببريق الشعب البطولي، أو بتفوّق الحظ، والسير وراء بيارق القائد، والعمل كجزء تابع في قبيلته، لم يكن يعرف أن ما يقوم به اختيارياً سيكون واجباً. فهو يعمل منطلقاً من عواطف لا تتطابق مع الأشكال، وعندما يُصار أو عندما ينخرط في نزاعات وخصومات نراه يعود إلى السيف، بوصفه وسيلة الحسم الأخيرة في كل مسائل الحقوق.

وفي ذات الوقت، تستمر الشؤون الإنسانية في التقدّم. وما كان في أحد الأجيال للتجمّع مع النوع من المخلوقات، يصير في العصور التي تعقب مبدأ لوحدة طبيعية. وما كان أصلاً تحالفاً للدفاع المشترك، يصير خطةً متّسقة للقوة السياسية، والاهتمام بموارد الرزق يصير قلقاً يرمي إلى تراكم الثروة وتأسيس الفنون التجارية.

في اتّباع البشر الحسّ الحالي لعقولهم، وفي كفاحهم للتخلّص من المزعجات من الأمور، أو للحصول على فوائد واضحة وقريبة، وصلوا إلى نهايات لم يكن خيالهم يتوقّعها. ومضوا في طريق طبيعتهم مثل بقية الحيوانات، ومن دون إدراك نهايتها. والذي كان أول من قال: «سوف أمتلك هذا الحقل، وسأورثه لأبنائي»، لم يدرك أنه كان يضع الأساس للقوانين المدنية والمؤسسات السياسية. وأول من وضع نفسه تحت قيادة زعيم، لم يدرك أنه كان يستسلم لخضوع دائم، في ظلّه سيعمل السلّاب الجشع على انتزاع ممتلكاته، والمتعجرف سيطالب بأن يكون خادماً له.

وبصورة عامة إن البشر قابلون بما فيه الكفاية لإشغال نفوسهم في تشكيل مشاريع ومخططات، لكن الذي يخطط ويقيم مشروعاً لآخرين سيجد منافسه في أي شخص يخطّط لنفسه. ومثل الرياح التي تهبّ فإننا لا نعرف متى، وكيف تهب إلى حيث تشاء، فإن أشكال المجتمع مستمدة من أصل غامض وبعيد. فقد نشأت قبل تاريخ الفلسفة بزمان طويل من غرائز البشر، لا من تأمّلاتهم. وكانت الظروف التي وُجِدت فيها جماهير البشر هي التي توجههم، ونادراً ما تحوّلوا عن طريقهم، لاتّباع خطة مخطِّط مفرد.

كل خطوة وكل حركة للجمهور، حتى في العصور التي تُدعى

بالعصور المتنوِّرة، تحصلان من دون معرفة بالمستقبل. والأمم تدوس على المؤسسات التي هي نتيجة عمل الإنسان، وليست تنفيذاً لأي تصميم إنساني[1]. فإذا قال كروmويل (Cromwell)، إن الإنسان لا يرتقي إلى أعلى مما يعرف إلى أين هو ذاهب، فيمكن التأكيد بمسوّغ أكبر أن المجتمعات تقبل بأعظم الثورات، عندما لا يكون التغيير هو المقصود، وأن السياسيين الأكثر ثقافة لا يعرفون دائماً إذا ما كانوا يقودون الدولة بمشاريعهم.

وإذا أصغينا لشهادة التاريخ الحديث، ولشهادة أكثر أجزاء التاريخ القديم مصداقيةً، وإذا نظرنا في ممارسات الأمم، وفي كل مكان في العالم، وفي كل حالة، سواء أكانت بربريةً أم ثقافية، فإننا لن نجد سبباً للتراجع عن ذلك التوكيد. فلا دستور تشكّل بالاتفاق، ولا حكم طبّق خطّة. فأعضاء دولة صغيرة يتنازعون على المساواة، وأعضاء الدولة الكبيرة يجدون أنفسهم مصنَّفين بشكل معيّن يضع أساساً للنظام الملكي. فهم ينتقلون من شكل حكم إلى آخر عبر انتقالات سهلة، وغالباً ما يتبنّون دستوراً جديداً بأسماء قديمة. وبذور كل شك موجود في الطبيعة الإنسانية، وهي تتفتَّح وتنضج مع الفصول. وانتشار نوع معيّن غالباً ما يكون من عنصرٍ غير ملاحَظ ممتزج في التربة.

لذلك علينا أن نتلقّى بحذرٍ التواريخ التقليدية للمشرّعين القدماء ولمؤسسي الدول. فأسماؤهم كانت مشهورة لمدة طويلة، وحظيت خططهم بالإعجاب، وما كان يُعتبر نتيجة وضع سابق، كان في كل حالة أو مرحلة يُعتبر نتيجةً لتصميم. والمؤلف والعمل

---

(1) De Retz's Memoirs.

كالسبب والنتيجة يُضمّان معاً دائماً. وهذا هو أبسط الأشكال الذي في ظلّه يمكننا أن ننظر في تأسيس الأمم. ونحن ننسب إلى تصميم سابق ما صار يُعرف بالخبرة وما عجزت الحكمة الإنسانية عن التنبؤ به، وما لا تستطيع سلطة أن تمكِّن فرداً من الأفراد على تنفيذه، من دون اجتماع الفكاهة والنزعة الخاصتين بعصره.

وإذا ارتبط البشر بقوة بمؤسساتهم خلال عصور التفكير الطويل وانشغالهم في البحث عن التحسين، وفي ظل عوائق وعقبات معترف بها، ولم يتمكنوا من التخلّص من عقبات العادات وقيودها، فما الذي يمكننا أن نفترض أن يكون عليه شكل فكاهتهم في زمن رومولوس وليكرغوس؟ لا شك في أنهم لا يكونون قابلين للأخذ بمخططات المبدعين، أو التخلّص من آثار العادات. فهم لن يكونوا مطواعين وليِّني العريكة عندما تكون معرفتهم أقل، كما لن يكونوا أقدر على صقل عقولهم، عندما تكون مقيَّدة.

وقد نتخيل أن الأمم البدائية كان لها شعور قويّ بالعيوب والنواقص التي تعمل بها، وأنهم كانوا واعين أن التحسينات في أساليب حياتهم لازمة، وأن عليهم أن يكونوا جاهزين لأن يتبنّوا بفرحٍ كل خطة تحسين، وأن يتلقّوا كل اقتراحٍ معقول بقبول ضمني. وهكذا نكون ميالين إلى الاعتقاد بأن قيثارةَ أورفيوس (Orpheus) يمكنها أن تؤثر في عصر ما عجزت فصاحة أفلاطون فيه عن إنتاج عصر آخر. وعلى كل حال، فإننا إذا ذكرنا خصائص العصور البسيطة: زمانئذٍ، بدا لنا أن البشر كانوا يشعرون بأقل العيوب والنقائص، وأنهم كانوا لا يرغبون في الإصلاحات.

وفي الوقت ذاته فإن حقيقة بعض المؤسسات في روما وفي

إسبارطة لا يمكن الخلاف حولها، لكن يمكن القول إن الحكم في هاتين الدولتين نشأ من وضع الشعب وعبقريته، لا من مشاريع أو خطط رجال منفردين، وإن المحارب ورجل الدولة المشهورين، والمعتبرين المؤسسين لتلك الأمم، لم يقوما إلا بالقسم العالي بين أعضاء ميّالين للمؤسسات ذاتها وقد تركوا لمن أعقبهم شهرةً تبرزهم كمدعين لممارسات كثيرة استعملت من قبل وساعدت على تشكيل أساليب حياتهم وعبقريتهم، ومواطنيهم.

لقد لوحظ سابقاً أن تقاليد الأمم البسيطة في الكثير من الجزئيات تتطابق مع ما هو منسوب لإبداع رجال دولة سابقين، وأن نموذج الحكم الجمهوري، ومجلس الشيوخ، ومجلس الشعب، وحتى المساواة في الملكيّة، أو المشاركة في السلع، لم تكن محصورةً بإبداع واختراع أفراد.

فإذا نظرنا في مسألة رومولوس بوصفه المؤسس للدولة الرومانية، نعرف من دون شك أنه هو الذي قتل أخاه لكي يحكم وحده، وأنه لم يرغب في أن يكون مقيّداً من سلطة مجلس الشيوخ المشرفة والمسيطرة، ولا أن يرجع مجالس سيادته وحكمه إلى قرارات المؤسسة الجمعية. فحبّ السيطرة بطبيعته يمقت التقييد، وهذا الرئيس مثل أي زعيم في العصر البدائي، قد يكون قد وجد صنفاً من الرجال المستعدين للتطفّل على مجالسه، ومن دونهم لا يستطيع أن يستمر. فكان يجتمع في مناسبات يجتمع فيها الشعب بسرعة، كما لو على صوت بوقٍ، ويتخَّذ قرارات لا ينازعها أي فرد، أو يحاول ضبطها أو تغييرها. وروما التي قامت على خطة عامة، خاصة بكل مجتمع جاهل بسيط، وجدت التحسينات الدائمة في

السعي وراء وسائل مؤقتة، واستعملت مزاجها السياسي في تسوية ادعاءات وحجج الأحزاب، التي نشأت في الدولة.

قد تعلَّم البشر منذ عصور المجتمع الأولى، أن يشتهوا الثروة ويعجبوا بالامتيازات. فلديهم جشع وطموح، ومن وقت لآخر تقودهم تلك العواطف إلى التقليل من قيمة الأشياء والغزو، لكنهم في سلوكهم العادي المألوف كانوا يسترشدون أو يتقيّدون بدوافع مختلفة، بالكسل أو بالإفراط، بعلاقات شخصية أو بعداوات شخصية تُبعد عن الانتباه للمصلحة. وقد جعلت تلك الدوافع والعادات البشر أحياناً في حالة تراخٍ أو عنف غير مكبوح، وبرهنت على وجود مصدر للسلم الأهلي أو للفوضى الأهلية، لكنها تعلن عدم أهلية من تحرّكهم من خلال الاحتفاظ بأي اغتصاب ثابت. وأول ما يهدّد العبودية والنهب في كل مجتمع يكون من الخارج، والحرب الهجومية أو الدفاعية هو العمل الأكبر لكل قبيلة. فالعدوّ يشغل أفكارهم، فليس لديهم وقت للنزاعات الأهلية المحلية. فرغبة كل مجتمع منفصل هي في تأمين نفسه، وبمقدار ما يحقّق هذا الهدف عبر تقوية حدوده إضعاف عدوه، أو عبر التحالفات، فإن الفرد في الوطن يفكر بما يمكن أن يكسب أو يخسر لنفسه، والرئيس القائد يميل لزيادة الفوائد التي تخصّ مركزه، والتابع يغار على الحقوق التي تصير عرضةً للانتهاك، والأحزاب التي توحَّدت من قبل انطلاقاً من المحبة والعادة، أو من احترام وتقدير لبقائهم المشترك، تختلف في دعمها مطالبها المتعددة المتمثّلة في التصدّر أو الربح.

هكذا عندما تُوقظ الأحقاد والعداوات في الوطن، وتتعارض

مطالب الحرية مع مطالب السيادة، يجد كل مجتمع مسرحاً جديداً يعرض عليه نشاطه. فقد يحصل الشجار على مسائل تتعلّق بالمنفعة. وقد يقارنون بين زعماء مختلفين، لكنهم لم يتَّحدوا أبداً كمواطنين لكي يقاوموا انتهاكات وتعدّيات الحكم صاحب السيادة، أو للحفاظ على حقوقهم العامة المشتركة كشعب. وإذا وجد الأمير في هذا النزاع أعداداً تدعم وتعارض أيضاً مطالبه وادعاءاته فإن السيف الذي شُحذَ ضدّ الأعداء قد يوجّه إلى صدور الرعايا، وستملأ كل فترة من فترات السلام الخارجي بحربٍ أهلية محلية. والأسماء المقدّسة، وأسماء الحرية، والعدالة والنظام المدني تصير ذات ضجيج في الاجتماعات العامة، وفي حال عدم وجود إنذار بخطر آخر تملأ المجتمع بالاهتياج والعداوة.

إذا كان ما يخصّ الإمارات الصغيرة، في العصور القديمة، تشكَّل في اليونان، وفي إيطاليا، وفي كل أوروبا، يتفق مع الطابع الذي ذكرناه عن البشر، في ظلّ الصور الأولى عن الملكية، والمصلحة، والامتيازات الوراثية وكانت الفتن والحروب الأهلية التي أعقبت في تلك الدول ذاتها وطرد ملوكها، أو المسائل التي نشأت والمتعلّقة بامتيازات الحاكم، أو امتيازات المواطن، موافقة ولا تتعارض مع التمثيل الذي نضعه الآن للخطوة الأولى في اتجاه التأسيس السياسي والرغبة في دستور قانوني، فإن الشكل الأول لهذا الدستور اعتمد على ظروف متنوّعة لحالة الأمم: فهو يعتمد على حجم الإمارة في حالتها البدائية، وعلى درجة التباين التي خضع لها البشر وتحمّلوها قبل أن يبدؤوا بمقاومة مساوئ استعمال السلطة، كما يعتمد على ما ندعوه الحوادث (Accidents)، والطابَع الشخصي للفرد، أو على أحداث الحرب.

في الأصل، يكون المجتمع صغيراً. وفي البداية لا يكون الميل البشري للتوحّد متمثّلاً في مبدأ، انطلاقاً منه يعملون لاحقاً على توسيع حدود الإمبراطورية. والقبائل الصغيرة، إن لم تجمعها أهداف مشتركة تتعلق بالغزو أو السلامة، تكره التحالف. وإن اجتمعت أمم كثيرة سعياً وراء هدف، مثل اتخاذ اليونانيين الواقعي والرائع الذي استهدف تدمير طروادة، فإنها سرعان ما تنفصل وتعمل بحسب قواعد سلوك الدول المتنافسة.

قد يكون هناك مقدار قومي معين، تنتقل فيه عواطف الرجال بسهولة من واحدهم، أو من عدد قليل منهم، إلى الكلّ، وهناك أعداد من الرجال الذين يمكنهم أن يجتمعوا ويعملوا كجماعة. وعندما لا يتوسّع المجتمع ويتعدّى ذلك البعد، وعندما يجتمع أعضاؤه بسهولة، فإن النزاعات السياسية تنشأ، ويندر أن تخفق الدولة في العمل بقواعد جمهورية، وتأسيس ديمقراطية. وفي معظم الإمارات البدائية، يستمد الزعيم امتيازه من شهرة شعبه، ومن الصلة الإرادية لقبيلته: فالشعب الذي يقوده كان صديقاً له وأصبح رعيةً وفرقاً عسكرية له. وإن افترضنا عند حصول أي تغيير في أساليب سلوكهم، أنهم توقّفوا عن احترام كرامته ومنزلته، وأنهم طالبوا بالمساواة في ما بينهم، أو حسدوا حاله المتمثّلة في انتحاله أو اغتصابه الكثير الذي يتعدّى الحدود المعقولة، فإن أسس سلطته تُسحب. وعندما يصير الشخص الطوعي مشاكساً ومقاوماً، وعندما تختار أحزاب ذات اعتبار في المجتمع أن تعمل لصالحها، فإن المملكة الصغيرة، مثل أثينا، تتحول إلى جمهورية.

هناك أنواع من الرتب لمن طالبوا بالامتياز، بدرجة ثانوية.

وقد تولّد الخرافات أيضاً، نظاماً للرجال الذين ينخرطون، تحت لقب الرهبنة في السعي وراء مصلحة منفصلة، الذين باتحادهم وثباتهم كجسمٍ وبطموحهم المتواصل يستحقّون أن يحسبوا في قائمة المطالبينَ بالسلطة. هذه الأنظمة المختلفة من الرجال تؤلّف العناصر التي من مزيجها يُشكّل الكيان السياسي بصورة عامة، وكل واحد منها يجذب إلى جانبه قسماً من الشعب. والشعب نفسه يتحوّل إلى طرف في بعض المناسبات وكذلك يفعل أعداد من الرجال مهما كان تصنيفهم الطبقي وامتيازاتهم، بمطالباتهم الصارخة ونظراتهم المنفصلة، ومقاطعاتهم المتبادلة واعتراضاتهم، ويحصلون بإحضارهم إلى المجالس القومية قواعد وأفكار نظام معين، وبالحرص على مصلحة معيّنة، على نصيبٍ في تكييف أو حفظ شكل الدولة السياسي.

ودعاوى أي نظام، إن لم تضبط بسلطة إضافية موازية، فإنها ستنتهي بالطغيان، طغيان الأمير في حالة الدكتاتورية، وطغيان النبلاء ورجال الدين في حالة إساءة استعمال الأرستقراطية، والشعب في حالة الاختلاط الفوضوية. هذه النهايات، كما هي، لم يعلن عنها أبداً، لذا هي نادراً ما تكون الهدف المخفي للحزب، لكن التدابير التي يتخذها أي حزب، إن عمّت فسوف تؤدّي تدريجياً إلى كل حالة متطرفة.

وفي طريقهم إلى السيطرة يحاولون الربح، وفي غمرة المداخلات التي تعترض المصالح يحاولون العطاء، وقد يكون للحرية وجود ثابت أو متغيّر، وقد يكون للدستور شكل وطابع يختلفان بقدر ما تولّد التأليفات العَرَضية لمثل تلك الأجزاء المتكاثرة.

يكفي، لإضفاء درجة من الحرية السياسية على المجتمعات أن ينخرط أعضاؤها فرادياً، أو كما هم منخرطون في أنظمتهم المتعددة، وأن يصرّوا على حقوقهم. ففي الحكم الجمهوري على المواطن أن يحافظ على مساواته بقوة وبحزم، أو أن يكبح مطامح زملائه من المواطنين ضمن حدود معتدلة. وفي النظام الملكي على الرجال من الرتب جميعها أن يحافظوا على درجات الشرف والإجلال لمراكزهم الخاصة أو العامة، وأن لا يضحّوا بها عبر ما تفرضه المحاكم، أو عبر مطالبات من الشعب، وذلك، لأنها كانت بمقدار ما مستقلةً عن الثروة، وهدفها توفير استقرار للعرش، والتسبّب باحترام للمواطن.

في خضم نزاعات الحزب لا تعود تُذكر مصالح الشعب، ولا قواعد العدالة والإخلاص أحياناً، ومع ذلك فإن النتائج القاتلة التي ينذر بها مثل ذلك المقدار من الفساد تتبع لكن بشكل غير محتوم. أما المصلحة العامة فهي غالباً ما تكون في أمان، لأن كل فرد في موضعه مصمّم على الحفاظ على مصلحته، لا لأن الأفراد ميّالون لاعتبارها غاية سلوكهم. والحرية تبقى عبر الاختلافات والتضادات المستمرة بين الأفراد، لا لحماسهم المشترك لصالح حكم مساواة. لذلك نقول، إنه، في الدول الحرّة لا تُسنّ القوانين الحكيمة على أساس مصلحة أي مجموعة من الرجال وروحهم: فهي تُحرّك، وتُعارض، أو تعدَّل بأيدٍ مختلفة، وأخيراً تكون تعبيراً عن ذلك الوسط والتأليف الذي أجبرت الأطراف واحدها الآخر على تبنّيه.

عندما ننظر إلى تاريخ البشر على ذلك النحو، فإننا لن نُعدم الأسباب التي ترجِّح الميزان لجهة الديمقراطية في المجتمعات الصغيرة، والتي تعطي السيطرة في دولٍ أكبر من حيث أرضها

وعددها للنظام الملكي، وهي في أحوال متنوّعة وعصور مختلفة مكّنت البشر من فرج وتوحيد صفات الأشكال المختلفة، وبدلاً من عرض أيّ واحد من الدساتير البسيطة التي جئنا على ذكرها(2) عرضت مزيجاً من جميعها.

ولنشوئهم من حالة بدائية وبسيطة، يُتوقَّع أن يتصرف البشر بروح المساواة، أو التبعيّة المعتدلة التي اعتادوها. وعندما تجمّعوا في مدن أو في نطاق أرض صغيرة تفاعلوا بعواطف مُعدية، وشعر كل فرد بدرجة من الأهمية متناسبة مع صورته في الجمع، وصغر عدد أفراده. والمطالبون بالسلطة والسيادة يظهرون في ضوء عادي مفروضين على الجمهور، وليس لهم من يساعدهم في دعوتهم ويمكّنهم من لجم الفكاهات الشعبية المقاومة لمقاومي مطالبهم وادعاءاتهم. وقيل لنا إن تيسيوس، ملك أتيكا (Attica) جمع سكان مقاطعاتهم الاثنتي عشرة في مدينة واحدة. وبهذا العمل طبَّق طريقةً فاعلة ليجمع في ديمقراطية واحدة من كانوا أفراداً منفصلين في مملكته، وعجَّل في سقوط الملكية.

ولملك منطقة شاسعة فوائد كثيرة في الحفاظ على موقعه. فمن دون أي ضيم لرعاياه، يمكنه أن يدعم عظمة الملكي، ويبهر خيال شعبه بالثروة ذاتها التي منحوها لأنفسهم. ويمكنه أن يستخدم سكان منطقة ضد منطقة أخرى، وعندما يمكن للعواطف التي تؤدي إلى التمرّد والثورة أن لا تثير سوى قسم من رعاياه، يشعر أنه قوي في الإمساك بالسلطة العامة. وحتى بعدهُ عن كثيرين ممن يتلقّون أوامره يزيد من الروع والاحترام الملغزين لحكمه.

---

(2) Part I. Sec. 10

بتجمع تلك الميول، والطوارئ وظواهر الفساد المختلفة في ظروف متنوّعة قد يبعد بعض الدول عن انحيازها، وينتج استثناءات لكل قاعدة عامة. وقد حصل هذا فعلياً في بعض الإمارات اليونانية المتأخرة، وإيطاليا الحديثة، والسويد، وبولندا، والإمبراطورية الألمانية. غير أن الولايات المتحدة في الأراضي المنخفضة، والمقاطعات (الكانتونات) السويسرية كانت أوسع المجتمعات التي حافظت على وحدة الأمم، وقد قاومت لمدة كبيرة الميل إلى الحكم الملكي، وكانت السويد المثل الوحيد لجمهوريةٍ نشأت في مملكة عظيمة على خرائب نظام ملكي.

وعندما لا يكون حاكم منطقة صغيرة، أو مدينة مفردة مدعوماً كما في أوروبا الحديثة بأساليب الحياة الملكية، ويمسك بالسلطة في منصب متزعزع، ويكون مهدَّداً دائماً بروح التمرد والعصيان في شعبه، حينذاك يعتمد الحسد والغيرة ويدعم نفسه بالقسوة والحظر والقوة.

قد تواجه السلطات الشعبية والأرستقراطية في أمة عظيمة، كما في حالة ألمانيا وبولندا، صعوبات متساوية في المحافظة على مزاعمها ومطالبها، ولتجنّب الخطر من جهة الاغتصاب الملكي، اضطرت إلى إيجاد الحاكم من خلال الثقة الضرورية للسلطة التنفيذية.

الدول الأوروبية بأسلوب إنشائها الأول أرست أسس النظام الملكي، وكانت مستعدة التوحّد في حكم منتظم وواسع. وإذا كان اليونانيون الذين انتهى تقدّمهم في الداخل (الوطن) بتأسيس جمهوريات مستقلة كثيرة، أنجزت بقيادة أجاممنون (Agamemnon) فتحاً وإقامة مستعمرة في آسيا، فإن تلك الدول قد

تكون أعدَّت مثلاً من النوع ذاته. غير أنه، إذا كان السكان الأصليون في أيّ بلاد تتألف من كانتونات منفصلة يتوحَّدون بخطوات بطيئة، فإن الاتحاد أو التحالف الذي تدخل القبائل الغازية فيه يتحقّق حالاً بينها لنجاح غزواتها أو لتأمين ممتلكاتها. فالقيصر جابه بضع مئات من الأمم المستقلة في بلاد الغول لم يكن توحّدها قد تحقّق بعد، لكي تشكّل خطراً مشتركاً. والغزاة الألمان الذين أقاموا في أراضي الرومان، أقاموا في المنطقة ذاتها عدداً من المؤسسات المنفصلة، لكنها كانت أوسع بكثير مما كان يمكن للغوليين القدماء أن يبلغوه بتحالفهم ومعاهداتهم، أو نتيجة لحروبهم.

بذور الأنظمة الملكية الكبرى، وجذور السيادة الواسعة كانت تزرع في كل مكان، وفي المستعمرات التي قسمت الإمبراطورية الرومانية. ونحن لا نملك حساباً دقيقاً عن الأعداد التي استمرت، وباتساق ظاهري أثناء بعض العصور في الغزو والاستيلاء على هذه الجائزة المغرية. وحيث توقعوا مقاومةً، كانوا يحاولون حشد قوة متناسبة، وعندما فكّروا في الإقامة، كانت أمم بكاملها تتحرّك لتشارك في السلب والنهب. ولأنهم كانوا مبعثرين في منطقة شاسعة، حيث لا يستطيعون أن يكونوا في أمان من دون الحفاظ على اتحادهم، ظلّوا معترفين بالقائد الذي حاربوا تحت قيادته، ومثل الجيش الذي يرسل إلى مواقع منفصلة، على شكل فرق عسكرية، كانوا جاهزين للاجتماع أو التجمّع عندما يتطلَّب الظرف عملياتهم الموحَّدة أو مشاوراتهم التخطيطية.

مركز كل فريق منفصل يكون معيّناً، وكذلك ممتلكات كل رئيس تابع منها يؤمّن مورد عيشه وعيش أتباعه. ونموذج الحكم

مستمدّ من التبعيّة العسكرية، وكانت الإقطاعية الجزاء المؤقت للموظّف، المتناسب مع رتبته[3]. وكان هناك صنف من الناس مقدّر له أن يكون في الخدمة العسكرية، وصنف آخر للعمل وزراعة الأراضي لصالح أسياده. والموظَّف يُحسِّن منصبه درجةً درجة، وفي البداية تتحوّل المنحة المؤقتة إلى تثبيت لمدى الحياة، وهذه تصير مع توفّر شروط معيّنة إلى منحة تشتمل الوَرَثة.

وقد صارت مرتبة النبلاء وراثية في كل مكان، وشكّلت نظاماً قويّاً ودائماً من البشر في كل دولة. وفي حين يبقى الشعب في الاستعباد، يقومون بمنازعة مطالب رئيسهم فلا يحضرون أحياناً أو يوجّهون سلاحهم ضدّه. وشكّلوا عائقاً منيعاً ضدّ طغيان عام في الدولة، لكنهم كانوا هم أنفسهم من طريق مستخدميهم الحربيين طغاة كل منطقة صغيرة، ومنعوا إقامة نظام، أو أي تطبيق منتظم للقانون. واستغلوا الحكم الضعيف أو الأقليات ليتمادوا في انتهاكاتهم للحاكم صاحب السيادة، أو بعد أن جعلوا الملكية انتخابية، حدَّدوا أو دمّروا السلطة الملكية، عبر اتفاقيات وتعاقدات متتالية. واختزلت امتيازات الأمير، في بعض الحالات، كما في حالة الإمبراطورية الألمانية خاصة إلى مجرد لقب، ولم يبقَ من الوحدة القومية ذاتها سوى الإشراف على أمور رسمية غير مهمة قليلة، فحسب.

حيثما كان نزاع الحاكم صاحب السيادة وأتباعه في ظل امتيازات وراثية واسعة مرتبطة بالتاج، يُجرَّد اللوردات تدريجياً من

(3) William Robertson, *History of Scotland*, B. 1: Dalrymple's History of Feudal Tenures.

سلطاتهم، ويتحوّل النبلاء إلى حالة رعايا ويجبرون على أن يحملوا رتب شرفهم وأن يمارسوا سلطانهم القضائي معتمدين على الأمير. فمصلحته اقتضت تحويلهم إلى حالة من الخضوع المتساوي مع الشعب، وتوسيع سلطته، عبر تخليص العمال، الذين هم عالة على غيرهم من ظلم رؤسائهم المباشرين.

نجح أمراء أوروبا نجاحات مختلفة في تلك الخطة. وفي الوقت الذي حموا فيه الشعب، وشجّعوا ممارسة التجارة والفنون المربحة، مهَّدوا الطريق لظهور الطغيان في الدولة. وبذات السياسة التي بها حرَّروا المواطن من الكثير من الظلم والاضطهاد، زادوا من سلطات التاج.

غير أنه، عندما يكون للشعب بحسب الدستور ممثِّلٌ في الحكومة، ورئيس يمكنهم في ظلّه أن يكشفوا عن الثروة التي اكتسبوها، وعن معنى أهميتهم الشخصية، فإن هذه السياسة تتحوَّل ضدّ التاج، فهي تشكّل سلطة جديدة لكبح الامتيازات، وتأسيس حكم قانون، وعرض مشهد جديد في تاريخ البشر: ملكية ممزوجة بجمهورية، ومقاطعة شاسعة محكومة، خلال بعض العصور، من دون قوة عسكرية.

تلكم كانت الخطوات التي بها توصّلت الأمم الأوروبية إلى مؤسساتها الحاضرة: وفي بعض الحالات حوت الدساتير الشرعية، وفي حالات أخرى مارست دكتاتورية ملطّفة، أو استمرت في الصراع مع الذي كان لها انفرادياً مع تلك الحالات المتطرّفة المختلفة.

وقد هدَّد تقدّم الإمبراطورية، في عصور أوروبا الأولى بأن

يكون سريعاً، وأن يدفن الروح الاستقلالية للأمم في قبر، كالذي وجده الفاتحون العثمانيون لأنفسهم، وللشعب البائس الذي هزموه وتغلّبوا عليه. كما وسَّع الرومان بخطوات بطيئة إمبراطوريتهم، وكان كل اكتساب جديد نتيجة لحرب مملّة، كما اضطروا إلى إقامة مستعمرات، واستخدام أنواع مختلفة من التدابير لتأمين كل ملْكيّة جديدة. غير أن الرئيس الإقطاعي، الذي حرّكته منذ اللحظة التي حصل فيها على مؤسسة، رغبةٌ في توسيع مقاطعته وفي زيادة الموجودين في قائمة أتباعه، أحدث، بمجرّد منح منصب أو رتبة، ربطَ مناطق جديدة، وصار سيّداً للدولة قبل الاستقلال، ومن دون أي تحسين مادي في شكل سياستها.

وكانت الولايات (الإمارات) مثل قطع الآلة، جاهزة للتجمّع، ومثل المواد الزخرفية لمبنى، حاضرة لأن توضع وتنصب. وكنتيجة لصراعاتها اضطرت إلى التوحّد أو التمزّق غرباً بسهولة. أما استقلال الدول الضعيفة فلم يحفظ إلا ظواهر الحسد والغيرة المتبادلة بين الدول القوية، أو بحرص جميعها على الحفاظ على توازن السلطة.

النظام السياسي السعيد الذي اتبعته الدول الأوروبية للحفاظ على ذلك التوازن، ودرجة الاعتدال التي صارت في تكييفها المعاهدات والاتفاقيات عادية ومألوفة، حتى عند الأنظمة الملكية المنتصرة والقوية، كل ذلك شرَّف البشر وقد يولِّد أملاً بسعادة دائمة تستمد من تفكير، لم يحصل أقوى منه في أي حقبة زمنية سابقة، أو بين أي عددٍ من الأمم، مفادُه أن أول شعبٍ غازٍ سيدمِّر نفسه، ومنافسيه أيضاً.

قد يكون في مثل هذه الدول وكما في مبنى كبير يمكننا أن

نرى بشكل واضح جداً، الأجزاء المتعدِّدة التي يتألف منها الكيان السياسي، ونلاحظ ذلك التعاون أو التعارض في المصالح الذي يفيد في توحيد أنظمة مختلفة من البشر أو يفصلها، ويؤدي بالبشر عبر الحفاظ على مطالبهم المتعدّدة إلى تأسيس أشكال سياسية متنوعة. على كل حال إن الجمهوريات الصغيرة تتألف من أجزاء مثل تلك، ومن أعضاء تحرّكهم روح شبيهة. فهي تقدّم أمثلة عن حكمٍ تنوِّعه مجموعات عَرَضية من الفرقاء، كما تنوِّعه المصالح المختلفة التي ينخرط هؤلاء الفرقاء من خلال جدلها في النزاع.

وفي كل مجتمع توجد تبعيّة عَرَضية، مستقلة عن مؤسسته الرسمية، وغالباً ما تكون معادية لدستوره. وفي حين تتكلّم الإدارة والشعب لغةً ذات شكل خاص، ويبدو أنها تسمح بمطالبات للسلطة، من دون تنصيب شرعي في مرةٍ، أو من دون أفضلية رتب الإجلال الوراثية مرة أخرى، فإن تلك التبعيّة العَرَضية قد تكون نشأت من توزيع الملْكية، أو من ظرف آخر منح درجات متفاوتة من التأثير، وأعطى الدولة نبرتها، وتثبيت شخصيتها.

نظام العامة في روما، الذي اعتُبر لمدة طويلة في حالة دنيا، وأُبعد عن الوظائف العليا في الحاكمية، كانت له قوة كافية، بوصفه ممثّلاً لكيان قادر على إزالة ذلك التمييز المؤذي والمثير للاستياء، لكن الفرد الذي ظلَّ يعمل بانطباع مفيد على أنه ذو مرتبة ثانوية تابعة، أعطى في كل منافسة صوته لشريف روماني كان قد خبر حمايته، وشعر بسلطته الشخصية. وبهذه الوسيلة، كان صعود أسر الأشراف الرومانيين لحقبةٍ زمنية منتظماً قدر المستطاع عبر قواعد السلوك المعلنة والمعترف بها والخاصة بالطبقة الأرستقراطية، غير

أن المراكز العليا في الدولة التي صارت العامة تشارك بها تدريجياً منعت آثار التمييزات السابقة أو أضعفها. والقوانين التي وضعت لتعديل مطالب الطبقات الاجتماعية المختلفة تمَّ التملّص منها. وصار الشعب بمنزلة حزب أو عصبة، وتحالفها صار أكثر طريق مؤكَّد للسيادة. فكلويدس (Clodius)، كان مؤهلاً ليدافع عن حقوق الشعب، عبر تبنّيه في أسرة رومانية عامية، والقيصر، بمناصرته قضية هذا الحزب شقَّ طريقه إلى اغتصاب العرش والطغيان.

كتلك المشاهد السريعة والمتحوّلة، فإن أشكال الحكم لا تبدو إلا أنماطاً من الأحداث، حيث تختلف العصور المتعاقبة، واحدها عن الآخر. والنزاع الحزبي يظلّ دائماً جاهزاً للقبض على جميع الفوائد العارضة. وعندما يكون البشر في خطر من أي حزب، فقلّما يجدون حمايةً أفضل من حماية منافسه. واتحَّد كاتو (Cato) مع بومبيوس ضد قيصر، ولم يحترس ضد شيء أكثر من احتراسه من الصلح بين الأحزاب، الذي جمع نتيجته قادةً مختلفين ضد حريّة الجمهورية. وتلك الشخصية البارزة وقفت متميّزة في عصره مثل رجل بين أولاد صغار، وتفوّق على خصومه بصواب فهمه، ومقدار تمييزه وحدّة ذهنه، كما بثباته الرجولي ونزاهته التي بها ناضل ليصدّ تصاميم طموح عبثي وطفولي، كان يعمل على دمار البشر وهلاكهم.

ومع أن الدساتير الحرة للحكم نادراً ما تنشأ من مخطَّطٍ فرد أو لا تنشأ من مثله أبداً، فإنها غالباً ما تُحفظ عبر اليقظة والحذر، والنشاط، وحماسة رجالٍ مفردين. فما أسعد الذين يفهمون ويختارون موضوع العناية هذا، وما أسعد البشر عندما لا يكون

اختياره متأخراً جداً. فقد بقي ليميّز ويبرز حياة كاتو أو بروتوس، في مساء ثورات مميتة، ولتعزيز سرّي لنقمة ثراسيا (Thrasea) وهلفيديوس (Helvidius)، وإشغال أفكار المفكّرين من الرجال في أوقات الفساد. غير أننا نقول، إنه في مثل هذه الأمثلة المتأخرة والعقيمة غير الفاعلة كان من السعادة معرفة وتقييم هدفٍ بتلك الأهمية للبشر. فالسعي وراءه وحبّه، مهما كان غير ناجح، ألقى بريقاً رئيسياً على الطبيعة الإنسانية.

الجزء الثالث

الأهداف القومية عموماً والمؤسسات وأساليب الحياة ذات الصلة بها

حينما يكون نمط التبعيّة عَرَضياً، وتنشأ الحكومات، رئيسياً، من الأسلوب الذي صُنِّف به أعضاء الدولة أصلاً، ومن ظروف مختلفة تسبِّب لمجموعات من الرجال حكماً في بلادهم، وتوجد أهداف معيّنة تجذب انتباه كل حكم وتقود تفكير البشر في كل مجتمع، ولا يقتصر فعلها على توفير وظائف لرجال الدولة، لكنها بمقدار ما توجِّه المجتمع نحو تلك المؤسسات التي هي ظلّ سلطاتها يمسك الحاكم بالسلطة. مثل ذلك كان الدفاع القومي، وتوزيع العدالة، وحفظ الدولة وازدهارها الداخلي. وإذا أهملت هذه الأهداف علينا أن نفهم أن المشهد ذاته الذي فيه تتنازع الأحزاب على السلطة، والامتياز، أو المساواة، لا بدَّ من أن يختفي ولا يعود هناك وجود للمجتمع.

أما بحث تلك الأهداف فسوف يُطالَب به في كل اجتماع عام، وسيولِّد في نزاعٍ سياسي توسّلات لذلك الحسّ للأفراد والمزاعم الحزبية.

تترابط المقادير المطلوبة للحصول على معظم الأهداف

القومية ويجب السعي وراءها معاً، فهي غالباً ما تكون ذاتها. وكذلك، يمكن استخدام القوة المعدَّة للدفاع ضدّ الأعداء للحفاظ على السلم الأهلي: فقد تخدم القوانين الموضوعة لتأمين حقوق الناس وحرياتهم كمصادر تشجيع للسكان وللتجارة. ومن دون اعتبار لكيفية تصنيف أهداف كل مجتمع أو تمييزها من قِبَل رجال ذوي فكر، هو مضطر في كل مناسبةٍ إلى اتّخاد أو استبقاء الشكل الأنسب للحفاظ على مصالحه، أو تجنّب محنه.

على كل حال إن الأمم مثل البشر الخصوصيين لها غاياتها المحبَّبة، ومساعيها الرئيسية التي تنوِّع أساليب حياتها ومؤسساتها أيضاً. وهي أيضاً تحصل على الغايات ذاتها بوسائل مختلفة، وهي مثل الرجال الذين يصنعون ثرواتهم بمهنٍ مختلفة ويحتفظون بعادات مهنتهم الرئيسية، في كل حالةٍ يصلون إليها. فقد صار الرومان أغنياء في مواصلة فتوحاتهم، وفي فترة معيّنة زادوا أعداد البشر، بينما بدت نزعتهم للحرب مهدِّدةً الأرضَ بالدمار. وبعض الأمم الحديثة سعت إلى السيطرة والتوسّع استناداً إلى قواعد التجارة، وفي الوقت الذي لم يقصدوا فيه سوى جمع الثروات في الوطن، نراهم استمروا في اكتسابهم سيطرة في الخارج.

الصفات الحربية والتجارية تجتمع بأشكال مختلفة: فهي تتشكَّل بدرجات مختلفة عبر تأثير الظروف التي تؤدّي إلى نشوب الحرب غالباً تقريباً، وتثير الرغبة في الغزو عبر الظروف التي تترك الناس في حالة هدوء لتحسين مصادرهم المحليّة، أو لتشتري بثمار جهدهم من الأجانب ما لا تساعد تربتهم ومناخهم على إنتاجه.

أعضاء كل مجتمع يكونون مشغولين بأمور الدولة، بقدر ما

يسمح لهم دستورهم في المشاركة في الحكم، ويوجِّهون انتباههم إلى مواضيع ذات طبيعة عامة. والناس يكونون مصقولين أو غير مصقولين في مواهبهم نسبة لما تكون عليه تلك المواهب المستخدمة في ممارسة الفنون وفي شؤون المجتمع يكونون صالحين أو فاسدين في أساليبهم وسلوكهم، وبمقدار ما يكونون مشجَّعين، وموجّهين لأعلى مستويات الحرية والعدالة، أو أن يكونوا متدهورين في حالة من الحقارة والعبودية. غير أنه مهما كانت الفوائد الحاصلة، ومهما كانت الشرور التي يمكن تجنّبها من قِبَل الأمم في كل ناحية من تلك النواحي، فإنها تعتبر مجرّد حوادث عَرَضية طارئة: فنادراً ما تقبل أن تكون من بين أهداف الخطة السياسية، أو أنها كانت داخلة في نطاق أسباب الدولة.

نحن نخاطر بأن نُعامل هزءاً، عندما نتطلَّب من المؤسسات السياسية أن تكتفي بصقل مواهب الرجال، وبعدئذ إثارة مشاعر العقل الليبرالي: علينا أن نقدِّم دافعاً للمصلحة، أو بعض الأمل في فائدة خارجية لتنشيط المساعي، أو إدارة مقاييس الناس العاديين. فهم لا يكونون شجعاناً، وعبقريين، وبليغين إلا عند الضرورة، أو من أجل الربح: وهم يضخمون فوائد الثروة، والسكان، ومصادر الحرب الأخرى، لكنهم ينسون أن هذه لا طائل وراءها من دون توجيه الطاقات القادرة، ومن دون دعم القوة القومية. لذلك يمكننا أن نتوقع أن نجد بين الدول انحيازاً لخطة سياسية معينة مستمدة من تقدير للسلامة العامة، ومن الرغبة في تأمين الحرية الشخصية أو الملكية الخاصة، ونادراً من اعتبار النتائج الأخلاقية، أو من تقدير التحسّن الحقيقي للبشر.

الجزء الرابع

السكان والثروة

عندما نتصوَّر ما شعر به الرومان حين وصلت الأنباء عن سقوط زهور مدينتهم (شبانها) في معركة كاناي(*) (Cannae)، وعندما تتخيَّل ما كان يدور في عقل الخطيب حينما قال: «إن الشبّان في الشعب مثل الربيع بين الفصول»، وعندما نسمع بالفرح الذي غمر الصيّاد والمحارب في أميركا عندما احتفظ بمجد أسرته وأمته، فإننا نشعر بأقوى الدوافع لاحترام زيادة زملائنا من المواطنين وبقائهم. فاجتماع المصلحة، والعاطفة المحبة والآراء السياسية يزكّي ذلك الهدف ويجعله مقبولاً. ولا يهمله إهمالاً كلياً إلّا الطاغية الذي يخطئ في مصلحته، والسياسي الذي يعبث بالمسؤولية المتعلقة بحرصه وحذره، أو الناس الذين صاروا فاسدين، والذين يعتبرون زملاءهم من المواطنين منافسيهم في المصلحة، وفي المهن المربحة.

(*) موضع في إيطاليا على مقربة من رومية. وقد صار الاسم شهيراً بالمعركة التي جرت في سهله بين جيش الفينيقي هنيبعل والجيش الروماني المدافع عن رومية التي صارت مهدّدة بالسقوط. وتجدر الإشارة أن هنيبعل كان يتبع مدينة قرطاجة (تونس حالياً) الفينيقية، وكان هو وجيشه في إسبانيا، ومن هناك انطلق إلى إيطاليا قاطعاً هو ورجاله جبال البيرانيز وجبال الألب على ظهور الفيلة (المترجم).

عند المجتمعات البدائية الصغيرة، عموماً، والمنخرطة في صراعات وتواجه صعوبات متكررة، يكون حفظ أعدادهم وزيادتها هو الهدف الأهم. فالأميركي يحسب هزيمته عائدةً إلى عدد الرجال الذين خسرهم، أو بحسب انتصاره من الأسرى الذين تمكّن من جمعهم، لا من بقائه سيّداً للميدان، أو من إخراجه من الأرض التي واجه فيها العدوّ. فبالنسبة إليه، يكون الرجل الذي يشاركه في كل مساعيه، والذي يمكن أن يعانقه كصديق، والذي يجد فيه موضوعاً لعواطفه ومحبته، وعوناً في صراعاته، هو أثمن تعاظم للثورة.

عندما لا نحسب حساب وجود صداقة بين البشر، حتى في تلك الحالة، فإن المجتمع المنشغل في تكوين حزب يمكن أن يدافع عن نفسه، أو يمكن أن يزعج عدوّه، يجد هدفاً أعظم من زيادة أعداده. فالأسرى الذين يُتبنّون، أو الصغار من الجنسين الذين يمكن تربيتهم للشعب، يعتبرون أفضل غنيمة للعدو. فممارسة الرومان التي تمثّلت في السماح للمهزومين بالمشاركة في امتيازات مدينتهم، وسلب السابينيين (Sabines)، والتحالف الذي أعقب مع ذلك الشعب، لم تكن أمثلةً منفردة أو غير شائعة في تاريخ البشر. وقد اتّبعت الخطة السياسية ذاتها، وكانت طبيعيةً وواضحة حيثما تمثّلت قوة الدولة بسلاح أقليّة، وحيثما كان الرجال يُقَيَّمون في ذواتهم من دون اعتبار للطبقة الاجتماعية أو الثروة.

لذلك لا بدَّ من أن يظهر في العصور البدائية، عندما كان البشر يعيشون على صورة فئات صغيرة، أنه إذا كانت الأرض قليلة السكان فإن هذا العيب لا ينشأ من إهمال الذين من واجبهم أن يصلحوها. ومن المحتمل أيضاً أن يكون المسار الأفعل الذي يمكن اتخاذه لزيادة النوع البشري، متمثّلاً في خطر تحالف الأمم، وإجبار البشر

على العمل على صورة كيانات صغيرة تجعل الحفاظ على أعدادهم هدفاً رئيسياً لاهتمامهم. صحيح أن هذا وحده لن يكون كافياً، وقد يكون علينا أن نضيف تشجيع الأسر التي تربّي، الذي يتمتّع به البشر في ظلّ خطة مفيدة، وكذلك وسائل العيش الذي يعود إلى ممارسة الفنون.

لم تكن الأم راغبة في زيادة عدد أولادها، وهي لا تملك من المؤونة التي تساعد على تربيتهم عندما تكون هي نفسها مضطرة لتحمّل صعوبات كبيرة بحثاً عن طعامها. وقد قيل لنا، إنها في أميركا الشمالية، وقد جمعت مع مزاجها البارد أو المعتدل تقشّفاً خضعت له استناداً إلى تلك الصعوبة. وبحسب فهمها، تكون هناك مسألة حكمة وضمير في جعل طفل واحد يأكل لحم الطرائد مثل الغزال ويتبعها سيراً على القدمين قبل أن تعرّض للخطر واجباً جديداً في تجوالها في الغابات.

في خطوط العرض الدافئة، تزداد أعداد البشر بسبب المزاج المختلف الذي يمنحه المناخ، وبالسهولة الكبرى في الحصول على موارد العيش، بينما يظلّ الهدف ذاته مُهمِلاً ومعتبِراً الاتصالات الجنسية غير الشرعية بين الجنسين التي لا تقلق السكّان مجرّدَ فسوق. وفي أمكنة أخرى قيل لنا، إن دحر نوايا الطبيعة أو كبحها هو هدف سياسة بربرية. وفي جزيرة فورموسا (Formosa) يُحظر على الرجال أن يتزوجوا قبل سن الأربعين، وإن كانت الإناث حبالى قبل سن السادس والثلاثين، تُجرى عملية إجهاض بأمرٍ من الحاكم، الذي قد يستخدم عنفاً يهدِّد حياة الأم والطفل[1].

(1) Collection of Dutch Voyages.

وفي الصين، قد يكون القصد، من السماح للوالدين بقتل أو التخلّص من أطفالهم بمنزلة خلاص من مسؤولية ذرّية كثيرة العدد. ومع كل ذلك، فإن ما نسمعه عن ممارسة مقيتة، مثل تلك، يكرهها القلب الإنساني، ولم يكن لها أثر في الكبح الذي بدا أنه يهدِّد، فالذي حصل شبيه بما يجري في المؤسسات الكثيرة الأخرى، وكان له تأثير مناقض لما يبشِّر به. فالوالدان يتزوجان بمعرفة من وسيلة الخلاص تلك، والصغار ينقذون.

ومع أهمية موضوع السكان الذي يعتقد به البشر، فإنه يصعب أن نقع في تاريخ السياسة المدنية على أيّ مؤسسات حكيمة أو فاعلة خاصة بحسابه. فممارسات الأمم البدائية أو الضعيفة غير كافية، أو لا تستطيع أن تتغلَّب على العقبات التي تصادف في أساليب حياتها. إن نمو الصناعة، هي محاولات الناس لتحسين فنونهم، وتوسيع صلاتهم الاجتماعية، وتأمين ممتلكاتهم، وتثبيت حقوقهم، وهي حقاً أكثر الوسائل فاعليةً لترقية السكان، لكنها تنشأ من دافعٍ مختلف، وتنشأ أيضاً من اعتبارات المصلحة والسلامة الشخصية، وهي تستهدف فائدة الموجودين، لا إحداث زيادة في أعدادهم.

في الوقت نفسه فإنه من الأهمية بمكان معرفة أنه حيث يكون الناس محظوظين في مؤسساتهم السياسية، وناجحين في مهنهم، فمن المحتمل أن يزداد عددهم نسبةً إلى حالهم. ومعظم الوسائل الأخرى التي يُعمل الفكر بها لذلك الهدف، لا تخدم إلّا إحباط توقعات البشر أو تضليل انتباههم.

في إنشاء مستعمرة، وفي الكفاح لتعويض ما فعله الطاعون أو الحرب، يكون إبداع السياسيين المباشر مفيداً، لكن إن كان

تفكيرنا في زيادة البشر عموماً يتجاوز حريتهم وسعادتهم، فإن مساعداتنا للسكان تصير ضعيفةً وغير فاعلة. فهي لا تجعلنا نعمل إلّا على السطح، أو نتبع ظلّاً، ونهمل الاهتمام الجوهري، وفي دولةٍ متآكلة تجعلنا نتلهّى بملطِّفات، في حين تظلّ جذور الشرّ باقية. فأوكتافيوس (Octavius) أحيا أو فرض القوانين المتعلّقة بسكان مدينة روما، لكن قد يُقال عنه وعن حكّام كثيرين وُجِدوا في وضع مشابه، إنهم كانوا يعطون السمّ عندما كانوا يريدون العلاج، وكانوا يجلبون الغاز السام والشلل لمبادئ الحياة، وهم يحاولون، بواسطة تطبيقات خارجية على الجلد أن يعيدوا التفتّح لجسم متآكلٍ ومريض.

والحق يُقال، إنها لسعادة للبشر أن لا يكون هذا الموضوع المهم معتمداً دائماً على حكمة الحكّام أصحاب السيادة، أو على سياسة أفراد من البشر. فالشعب العازم على الحرية، يجد أفراده لأنفسهم حالةً يتبعون فيها الميول الطبيعية بنتيجة أقوى من ما يمكن أن تبتدعه مجالس الدولة. وعندما يكون الحكام أو المخططون هم أسياد هذا الموضوع، فإن أفضل ما يستطيعون فعله يتمثَّل في أن يكونوا محترسين فلا يضرّون بمصلحة لا يستطيعون تعزيزها كثيراً، ويقومون بانتهاكات لا يقدرون على إصلاحها.

وقد قال السيد هيوم (Hume): «عندما تكون الأمم مقسّمةً على مقاطعات صغيرة، وحكومات صغيرة، حيث يكون لكل رجل بيته وحقله ولكل مقاطعة عاصمتها الحرّة والمستقلة، فما أسعده من وضع للبشر، وما أنفعه للصناعة وللزراعة، وللزواج وللسكان!». ومع ذلك، فمن المحتمل هنا أن لا توجد مخططات لرجل الدولة،

ولمكافأة المتزوجين، أو لمعاقبة غير المتزوجين، ولدعوى الأجانب لإقامة، أو لمنع المواطنين من الرحيل. وعندما يرى كل مواطنٍ أن ممتلكاته آمنة، ويوجد ما يكفي من التموين لورثته، ولا يكون مثبطَ العزيمة بالمخاوف المحزنة، ومخاوف الاضطهاد أو العَوْز، وحيث تكون كل وظيفة طبيعية أخرى حرّة، حينذاك لا يمكن تقييد ما يؤمّن الرعاية. لقد اقتضت الطبيعة أن يكون الأقوياء أصحاب السلطة عدول لكنها لم توكل حفظ أعمالها لخططهم الرؤوية. فما هو الوقود الذي يقدر السياسي أن يضيفه إلى لهيب الشباب؟ فليتوقَّف عن إخماده لتظلّ النتيجة في أمان. وإذا كنا نضطهد البشر أو نحطّ من قدرهم بيدٍ، فمن العبث - مثل أوكتافيوس - أن نرفع باليد الأخرى مغريات الزواج، أو سوط العقم. ومن العبث دعوة سكّان جدد من الخارج، في حين أن الموجودين اضطروا للبقاء في مراكزهم بشكل مشكوك فيه، والارتجاف تحت حالة موارد رزقهم القلقة والمشكوك بها، وهذا ليس بتأثير توقّع أسرة كثيرة العدد فقط. والحاكم الاعتباطي الذي يصنع هذه الحالة لرعاياه، تكون بقايا شعبه مدينة لغرائز الطبيعية القوية، لا لأي وسيلة من صنعه.

الناس يتجمعون حيث يكون الوضع مغرياً، وفي أجيال قليلة سوف يملؤون كل قطر بمقدار ما فيه من وسائل العيش. ويزدادون في ظروف تنذر بالضعف والانحلال. فحروب الرومان المتكررة وحروب العديد من المجتمعات المزدهرة، وحتى وباء الطاعون، وسوق العبيد، كل ذلك كان يجد تموينه حتى من دون تدمير المصدر، وصار الصرف أو النزف منتظماً وإن وضعت المسألة أمام الذرّية من دون زعزعة الأسر التي نشؤوا منها. وحيث يكون التموين جيداً للبشر، فإن السياسي بمكافأة للزواج وبإغراءات للأجانب أو

عبر حصر المواطنين في الوطن، يفهم أنه يزيد بذلك أعداد شعبه، وهو غالباً ما يكون مثل الذي يطير في الخرافة، ويعجب من نجاحه في تدوير الدولاب، وفي تحريك العربة ولا يكون قد عمل سوى مرافقة ما كان متحركاً، فهو يدفع بمجذافه ليسرِّع الطوفان، ويلوِّح بمروحته ليضفي سرعة على الرياح.

ومهما كانت مشاريع المستوطنات المنيعة والسكان سريعةً فإنها تكون في نهاية المطاف مكلفةً للبشر دائماً. وقد قيل لنا، إن ما ينوف على مئة ألف فلّاح كانوا يُقادون مثل القطعان الى بيترسبرغ (Petersburg)، في المحاولات الأولى التي رمت إلى استكمال تلك المستعمرة، وهكلوا سنوياً لنقص موارد العيش[2]. وحاول الهندي أن يقيم بقرب موز الجنة[3] وكلما ازدادت أسرته كان يضيف شجرة للممشى.

ولو كان موز الجنة، والكاكاو، أو النخيل تكفي لعيش ساكن مقيم، لصار البشر في المناطق ذات المناخ الدافئ بعدد أشجار الغابة. غير أنه في الكثير من أنحاء الأرض، يكون الإنتاج الطبيعي التلقائي الناشئ من طبيعة المناخ والتربة معدوماً، وتنحصر وسائل العيش بثمار العمل والمهارة. وعندما يقتصد الناس في الإنفاق، ويزيدون من كدّهم ونشاطهم، ويحسّنون فنونهم، فلا بدَّ من أن يزداد عددهم نسبة لذلك. لذا فإن الحقول المحروثة والممهَّدة في أوروبا مسكون أكثر مما هي مسكونة الغابات الأميركية أو سهول التتار.

---

(2) Strachlenberg.

(3) Dampier.

غير أن زيادة البشر التي تصاحب تراكم الثروة لها حدود. فتعبير ضرورة الحياة (Necessary of Life) غامض ونسبي: فهو يعني شيئاً عن المتوحّش، ويعني شيئاً آخر عند المواطن المثقّف: فله إشارة الى ما هو ميل وعادات عيش. وعندما تتحسّن الفنون، وتزداد الثروات، وعندما تكون ممتلكات الأفراد أو توقعاتهم في الربح وفقاً لرأيهم بما هو مطلوب لإنشاء أسرة، فإنهم يهتمون بها بنشاط وابتهاج. غير أنه، عندما يكون ما يملكه الناس أقلّ من معيارهم، والثروة المفترض أن تكون كافيةً للزواج تحصل بصعوبة، فإن الناس يتوقّفون فجأة، أو يبدؤون بالانحدار. ويعود المواطن بحسب فهمه إلى حالة المتوحّش، ويظن أن صغاره يجب أن يموتوا بسبب العوز، ويتخلّى عن مشهد متدفّق بالكثير لأنه لا يملك الثروة التي تتطلّبها مرتبته أو رغباته. ولا وجود لعلاج نهائي يطبّق على هذا الشرّ، عبر تراكم الثروة فقط. لأن طلب المواد الغالية الثمن مهما كانت سيستمر. وإذا شاعت الحرائر واللآلئ، فإن الناس سيبدؤون باشتهاء بعض التزيينات الجديدة، ولا يستطيع إلّا الأغنياء أن يحدثوها. وإذا غرقوا في دعابتهم، فإن مطالبهم تتكرّر، وذلك لأن الزيادة المستمرة للثروة، لا أي مقياس تمَّ الحصول عليه، هي التي تُبقي الخيالَ ذا الرغبة القوية مرتاحاً.

يميل الناس إلى العمل، وإلى ممارسة الفنون المريحة بدوافع من المصلحة. ثمار عمل العامل توفِّر أماناً له، وتقدِّم له الأمل في الاستقلال أو الحرية. وقد وجد الشعب ممثِّلاً مخلصاً في اكتساب الثروة، ووكيلاً مخلصاً في جمع ما كسب. أما السياسي فلا يستطيع أن يفعل شيئاً في هذه الحالة كما في حالة السكان ذاتها، أكثر من تجنّب القيام بأذى. ويحسن به في بدايات التجارة أن يكون عارفاً

بكيفية كبح ظواهر الاحتيال التي تتعرض لها. فالصلات الاجتماعية - إن استمرّت - هي الطريق الفرعية التي يكون فيها الناس الملتزمين بنتائج تجاربهم أقلّ ميلاً إلى الخطأ.

التاجر في العصور البدائية كان قصير النظر، ومخادعاً ومحتالاً، ومرتزقاً مثل الجندي المستأجر، لكنه في الحالة المتقدِّمة لفنّه صارت وجهات نظره واحدة وتأسّست قواعد سلوكه: صار دقيقاً وواضحاً، وليبرالياً، ومخلصاً ومغامراً مقداماً في زمن الفساد العام، وهو وحده حاز كل فضيلة، ما عدا القوة اللازمة للدفاع عن مكتسباته. ولم يكن يحتاج لعونٍ من الدولة سوى حمايته، وغالباً ما كان في نفسه أذكى أعضائها وأكثرهم احتراماً. وفي الصين قيل لنا إن ظواهر الاحتيال، والخداع والفساد كانت الممارسات المسيطرة عند أنواع الرجال جميعهم، وكان التاجر هو المستعد للعطاء ولإحداث الثقة، بينما كان مواطنوه يعملون بخططٍ وبقيود لشرطة ملائمة لمخادعين محتالين، وكان يعمل وفقاً لمسوّغات التجارة ولقواعد سلوك البشر.

إذا كان الناس مرتبطين بالثروة القومية، فإن الحرية والأمن الشخصي يشكّلان الأساس العظيم للناس وللثروة القومية. وإذا وُضع هذا الأساس في الدولة، فإن الطبيعة تؤمّن زيادة أعضائها ونشاطهم. ويكون أحدهما برغبات أكثر الغيورين المتحمسين في الإطار الإنساني، والثاني بالنظر إلى أكثر الحائزين على العقل حيازةً منتظمةً وثابتةً. لذا، فإن الهدف العظيم للخطة السياسية، بالنسبة إلى كليهما، يتمثَّل في تأمين وسائل العيش والسكن للأسرة، وحماية العامل بكدٍّ في ممارسته مهنته، وتسوية أو إنهاء قيود الشرطة، والعواطف الاجتماعية للبشر، بمهنهم المنفصلة اللافتة.

في الأمور المتعلّقة بحرفة خاصة، وصناعة، وتجارة، كان الممارس ذو الخبرة هو السيد، وكل مفكّر عام مبتدئ. وكان هدف التجارة جعل الفرد غنياً، فبمقدار ما يزيد من أرباحه، يزيد من ثروة بلاده. وإذا تطلّب الأمر حمايةً، وجب منحها. وإذا ارتُكبت جرائم خداع واحتيال فيجب كبحها، ولا يمكن للحكم أن يطالب بأكثر من ذلك. وعندما يمدّ السياسي الصافي يداً نشيطةً، فإنه لا يفعل سوى زيادة المقاطعات والمداخلات وأسس التشكّي. وعندما ينسى التاجر مصالحه الخاصة لكي يضع خططاً لبلاده، فإن زمن الرؤية والوهم يقترب، والأساس الصلب للتجارة يفتقد. وقد يُقال له، إنه ما دام يسعى وراء مصلحته، ولا يقدِّم سبباً للتذمّر، فإن المصلحة التجارية سالمة.

الشرطة العامة في فرنسا التي عملت على أساس الفرضية القائلة بأن تصدير الحنطة سيفقدها من البلاد التي زرعت فيها إلى وقتٍ متأخر، وضع ذلك الفرع التجاري في حالةٍ من المنع القاسي. وصاحب الأرض الإنجليزي والمزارع لهما سمعة حسنة تمكّنهما من الحصول على مكافأة أو علاوة للتصدير لرعاية وتأييد بيع سلعتهم، وقد بيَّن الحدث أن المصلحة الخاصة هي الحامي وأنها الراعي الأفضل للتجارة ولكثير من تحسينات الدولة. فهناك أمة وضعت الخطة الدقيقة لمستعمرة في قارة أميركا الشمالية، ولم تثق في سلوك التجّار والرجال القصيري النظر، وأمة أخرى تركت الرجال يكتشفون مواقعهم في حالةٍ من الحرية، ويفكرون لأنفسهم. فكانت النتيجة أن العمل النشيط والآراء المحدودة لطرفٍ أدّيا إلى مستعمرة مزدهرة، أما المشاريع الكبرى للطرف الآخر فما زالت مجرّد فكرة.

غير أنني أقول بشكل إرادي إنني قد تخلّيت عن موضوع لست ملمّاً به كثيراً، ولم أنخرط في الهدف الذي له أكتب. فالأفكار

المتعلّقة بالتجارة والثروة ذكرها أقدر الكتّاب، ومن المحتمل أن يزوِّد الشعب، قريباً، بنظرية اقتصاد قومي مشابهة لما كان يظهر عن أي موضوع علمي[4]. غير أني أقول، إنه، من وجهة النظر المتعلقة بالشؤون الإنسانية، والتي اتَّخذتها، لا شيء يبدو أهم من الاحتراس العام الذي فهمه المؤلّفون الذين أشرت إليهم، بأن لا نعتبر تلك المواد بأنها تؤلف مجموع السعادة القومية، أو الهدف الرئيسي لأي دولة. في العلم، نحن نفصل بين أهدافنا، أما في الممارسة، فمن الخطأ عدم جمعها كلها، في نظرتنا سريعاً.

الأمة التي تبحث عن الذهب والمعادن الثمينة، تُهمل المصادر المحلية للثروة، وتصير عالةً على جيرانها، في ضرورات الحياة، والأمة الهادفة تحسين مصادرها الداخلية وزيادة تجارتها، يصير أفرادها عالةً على الأجانب للدفاع عن ما اكتسبوه. ومن المؤلم في الحديث أن نجد مصلحة التجار تعطي نبرةً لتفكيرنا، وأن نقع على موضوع يُقدَّم دائماً، على أنه الشغل الشاغل للمجالس القومية، ويندر تدخّل الحكم به، على نحوٍ ملائم، يُطبَّق أو لا يُطبَّق أبداً خارج الحماية التي يتحملها.

نتشكّى من ضعف الروح العامة، لكننا نقول إنه مهما كان أثر هذا الخطأ في الممارسة، فإنه، في التفكير المتأمل ليس من أخطائنا: فنحن نفكّر للصالح العام، لكن الحاجة لتظاهرات قومية أفضل من حيازة تلك التي نعبّر عنها: يكون عندنا أمم، مثل مجموعة (شركة) من التجار، لا يفكرون بشيء سوى الاحتكارات، وأرباح التجارة، وأيضاً مثلهم يعهدون بالحماية لقوة لا يملكونها.

---

(4) Adam Smith, *The Theory of Moral Sentiment.*

ولأن البشر، مثل الحيوانات الأخرى يعيشون جماعات، وحيث تتوافّر ضرورات الحياة، ويزداد تخزين الثروة، ترانا لا نعود نحسب حساب السعادة، والطابع الأخلاقي والسياسي للشعب. ولأننا قلقون على السرب الذي سنجعله يتكاثر، فإننا لا نجعل نظراتنا أبعد من مرابط الحيوانات ومراعيها. وننسى أن القلّة غالباً ما حوّلت الكثرة إلى غنيمة، ولا يغري الفقراء أكثر من صناديق الحديد الخاصة بحفظ النفائس التي عند الأغنياء، وعندما يحين وقت دفع ثمن الحرية، فإن السيف الثقيل للمنتصر يُبسط في الكفّة المضادّة.

ومهما يكن السلوك الفعلي للأمم في هذا الأمر، فمن المؤكّد أن الكثير من حججنا ستدفعنا، من أجل الثروة والسكان، للدخول في مشهد يكون فيه البشر قد تعرَّضوا للفساد، عاجزين عن الدفاع عن ممتلكاتهم، ويكونون خاضعين للاضطهاد والدماء فيه. فنحن نقطع الجذور في الوقت الذي نمدّ فيه الأغصان ونقوّي أوراق النبات.

قد يكون أحد الآراء مفيداً أن فضائل البشر في أمان، وأن البعض الذي يوجّه انتباهه إلى الشؤون العامة لا يفكّر بشيء إلّا بأعداد الناس وثرواتهم: فمن الخوف من الفساد أن لا يفكر آخرون بشيء سوى كيفية الحفاظ على الفضائل القومية. وعلى المجتمع الإنساني واجبات نحو كليهما. فهما لا يتعارضان إلّا خطأً، وعندما يتحدان - حتى عندئذٍ - لا يملكان من القوة ما يكفي لقتال الطرف القذر التي يعيد كل شيء للمنفعة الشخصية، ولا يعير اهتماماً بأي سلامة أو زيادة لأي رأسمال سوى رأسماله.

الجزء الخامس

الهدر القومي

تكمن قوة الأمم في ثروتها، وعدد أفرادها وصفات شعبها. وإن تاريخ صراعها بدءاً من الحالة البدائية هو في معظمه تفصيل عن صراعات أفرادها والفنون التي مارسوها، لتقوية نفوسهم أو لتأمينها. فغزواتها وفتوحاتها، وشعبها، وتجارتهم، وترتيباتهم المدنية والعسكرية، ومهارتهم في صناعة الأسلحة، وفي طرق الهجوم والدفاع، وتوزيع الأعمال ذاته سواء في الشؤون الخاصة أم في الشؤون العامة، كل ذلك يميل إلى منح مكوّنات القوة القومية ومصادر الحرب أملاً بتوظيفه بفائدة وبأفضلية.

وإذا افترضنا أنه بتلك الفوائد والأفضلية تُحفظ شخصية الشعب وصفاته أو تُحسّن، فلا بدَّ من أن يتبع ذلك القول، إن ما يكتسب من المدنيّة، هو زيادة في القوة حقيقية، وأن دمار الأمم لا يمكن أن ينزع عن أفراد الأمة صعودها. وحيث تتوقّف الدول عن تقدّمها، أو تتآكل فعلياً، مهما كانت قابلةً للتقدم فإنها وصلت إلى حدٍّ لا تستطيع أن تتعدّاه، أو تكون عاجزةً عن الاستفادة القصوى من مصادرها ومزاياها الطبيعية، أو لنقص في الروح القومية وضعف في الشخصية. واستناداً إلى هذا الافتراض، فإنها بدءاً من كونها ساكنة قد تشرع بالتراجع وبالانتكاس في عصور متعاقبة تصل إلى حالة من

الضعف أكبر من ذلك الذي تخلَّت عنه في بداية تقدّمها، ومع ظهور فنون أفضل وسلوك أعلى، تعرّض نفسها لأن تصير ضحيةً للبرابرة الذين صدّوهم في زمن الإنجاز أو في ذروة مجدها.

ومهما كانت ثروة الشعب الطبيعية، ومهما كانت حدود تحسين مخزونهم، فإنه لم توجد أمة بلغت تلك الحدود، أو كانت قادرةً على تأخير بلاياها وآثار سلوكها السيىء إلى أن يتمّ استهلاك ما تملكه من مواد وتنتهي خصوبة الأرض، أو تتناقص أعداد شعبها بشكل كبير. ونفس الأخطار السياسية، وضعف الأخلاق الذي يمنع الاستفادة الصحيحة من المصادر أيضاً، يوقفان زيادة هذه المصادر أو تحسّنها. ثروة الدولة في ثروة أعضائها. والدخل الفعلي للدولة يتألّف من حصة كل ثروة خاصة اعتادت المصلحة العامة أن تطلبها لأهداف قومية. وهذا الدخل لا يكون دائماً متناسباً مع ما يمكن أن يكون فائضاً أو وافراً في الممتلكات الخاصة، وإنما مع ما يظنه المالك، وما يوفّره من دون انتهاكٍ لأسلوب حياته، ومن دون توقيف مشاريع إنفاقه وتجارته. لذلك، يجب أن يكون واضحاً أن أي زيادة غير معتدلة في الإنفاق الخصوصي هي مقدّمة لضعف قومي، نعني: أن الحكم، حتى عندما يستهلك كل واحد من رعاياه أملاكاً أميرية، يمكن أن يضيق دخلها ويمكن شرح المفارقة بالأمثلة، وتتمثّل في أن الشعب يكون فقيراً، بينما أفراده أغنياء.

غالباً ما تخطئ بالخلط بين المال والثروة، فنعتقد أن الشعب لا يفتقر عبر هدر المال الذي يصرف في ما بينهم. والحقيقة هي أن البشر لا يصيرون فقراء إلّا بطريقين، هما: توقّف أرباحهم، أو نفاد موادهم عبر الاستهلاك، وأن لا يعود المال المعروف في

البلاد، والمتبادل، ولا المستهلك، أكثر من تبادل عصا الحساب(*) (Tally) أو قطعة نقدية بين عددٍ من الأيدي، مما ينقص ثروة الشركة أو الجماعة التي يحصل التداول فيها، غير أنه في حين يكون المال متداولاً في الوطن، فإن ضروريات الحياة التي هي المؤلِّف الحقيقي للثروة تكون في حالة استهلاك بطيء، والصناعة التي قد توظَّف لزيادة مخزون الشعب، قد تتوقَّف أو يُساء استعمالها.

الجيوش الكبيرة الباقية في الوطن أو في الخارج، من دون أي هدف قومي، تكون لشهور كثيرة بشكل لا لزوم له، عاملةً على تبذير مخازن الشعب، كما تتوقّف أيدٍ كثيرة عن العمل في الفنون التي منها تصنع أرباحه. والمشاريع غير الضرورية تضيع في المضاربات الكثيرة، والخسائر تبقى وتكون متناسبةً مع الرأسمال المستخدم في المشروع. فالهلفيتي (Helvettii)، لكي يغزوا منطقة الغول الرومانية، أحرقوا مساكنهم، وتخلّوا عن أدوات زراعتهم، وصرفوا في سنة واحدة ما وفّروه في سنين، وقد أخفق المشروع في تحقيق النجاح وتفكّكت الأمة.

وقد حاولت الدول أحياناً عبر الإمساك بقوة برصيدها، بدلاً من توظيف رأسمالها، أن تخُفي المخاطر التي تعرَّضت لها. فقد وجدت في الديون التي أقامتها مصدراً طارئاً شجّع مشاريعها. وبأسلوبها في وضع المبالغ المالية المنقولة تركت الرأسمال لأغراض التجارة في أيدي المواطن، في حين أنه كان يُصرف فعلياً من قِبَل الحكومة. وبهذه الوسائل والطرق تابعت تنفيذ المشاريع القومية الكبيرة من

(*) عبارة عن عصا ذات أسنان أو أثلام تمثّل أعداداً تبيّن مقدار الدَّين أو المبالغ المدفوعة (المترجم).

دون توقيف الصناعة الخاصة، وتركت للمستقبل التسديد الجزئي للديون التي حصلت بعقود أجورها مستقبلية. وإلى هذا الحدّ كان ما هو ملائم مقبولاً ومعقولاً، وبدا عادلاً. وهكذا، أُنزل الحمل المتزايد أيضاً، وإذا غرقت أمة في زمن ما في المستقبل، فإن كل وزير يأمل بأن تظلّ ذات اكتفاء ذاتي. غير أن المقياس لذلك السبب بكل فوائده خطر جداً، فهو في أيدي إدارة متهوّرة وطموحة لا تفكّر إلّا بالحالة الراهنة، وتتصوَّر أن تكون الدولة لا تُنهك، عندما يُفترض الرأسمال وتدفع الفائدة.

ويحدّثوننا عن أمةٍ نافست في فترة من الفترات أمجاد وعظمة العالم القديم، وأزاحت سيطرة سيّد كان مسلَّحاً ضدّها بقوى مملكة عظيمة، وحطَّمت النير الذي به اضطهدت، وفي قرنٍ من الزمان تمكّنت، بصناعتها وقوتها القومية من أن تنشئ قوّة جديدة ومنيعة ضربت ملوك أوروبا وحكامها بالخوف والقلق المترقّب، وحوَّلت شارات الفقر التي كانوا يبروزنها إلى علامات حربٍ وسيطرة. وقد تحققت تلك الغاية بالجهود العظيمة لروح أيقظها القمع والاضطهاد، والسعي الناجح للثروة القومية، وبالتوقّع السريع بمداخيل مستقبلية. غير أن هذه الدولة الرائعة، وبلغة الجزء السابق، لم تقتصر على الانشغال في الأعمال، بل صادرت إرث أجيالٍ كثيرة آتية.

وعلى كل حال فإن النفقات القومية الكبرى لا تتضمّن بالضرورة أي معاناة قومية. فما دام الدخل مطبقاً بنجاحٍ للحصول على غايات ذات قيمة، فإن مكاسب كل مغامرة، تزيد على نفقاتها، والشعب لا بدَّ من أن يكون كاسباً، وموارده لا بدَّ من أن تتزايد. غير

أن النفقات، سواء بقيت في الوطن أم في الخارج، وسواء أكانت هدراً للدخل الحاضر أم توقّعاً لدخل المستقبل، فيجب اعتبارها من أسباب الدمار القومي، إن لم تجلب عائدات ملائمة وصحيحة.

الجزء السادس

الحرية المدنيّة

إن كانت الحرب للسلب أو للدفاع هي الهدف الرئيسي للأمم، فإن كل قبيلة منذ حالتها الأولى ستهدف أن تكون حشداً من التتار، وفي نجاحاتها جميعها ستسرع لتكون في عظمة إمبراطورية تتارية. والقائد العسكري سوف يعقب الحاكم المدني، والاستعدادات للهرب بكل الممتلكات أو المتابعة بكل القوات تمثِّل في كل مجتمع مجموعَ الترتيبات الشعبية العامة.

سُيعدّ مؤسساً لأمته ذلك الذي كان الأول الذي علَّم، بدءاً من ضفاف الفولغا (Wolga) أو جينيسكا (Jenisca)، فالسكيثي ركوب الخيل، ونقل كوخه على عجلات، وأزعج عدوّه وأهلكه بغارات عسكرية بهجوماته وفراره، وباستعمال الرمح والقوس بسرعة كبيرة عندما يغلب في الأرض، ويطلق سهامه في الريح لتصيب مطارده الذي علَّم مواطنيه أن يستعملوا الحيوان ذاته في كل غرض من أغراض الملبنة في مزرعة الألبان، وفي المسالخ، وفي ميدان المعركة. أو مثل كيريس (Ceres) وباخوس (Bacchus) عند اليونانيين يُمنح تقديراً من إله كمكافأة على إبداعاته المفيدة.

ووسط مثل هذه المؤسسات، يمكن أن يكون قد تمَّ تناقل إنجازات هرقل وجانسون (Jason) إلى الأجيال التي أعقبت، لكن إنجازات ليكرغوس أو سولون اللذين كانا بطلي المجتمع السياسي، كان يمكن أن لا تكتسب شهرة خيالةً أو حقيقية في سجلّات الشهرة.

كل قبيلة من قبائل البرابرة المحاربين يتمتع أفرادها في ما بينهم بأقوى مشاعر الحبّ والاحترام، بينما يحملون إلى بقية البشر مظهر قطّاع الطرق والنهّابين[1]. قد يكونون غير مبالين بالمصلحة، ولا يخشون الخطر، لكن شعورنا بالإنسانية أو احترامنا لحقوق الأمم، وإعجابنا بالحكمة المدنية والعدالة، وحتى تخنّثنا ذاته، كل ذلك يجعلنا نبتعد محتقرين أو مروَّعين من مشهد لا يعرض سوى النزر القليل من صفاتنا الخيّرة، ويعمل على لوم ضعفنا بذلك المقدار.

في تسيير شؤون المجتمع المدني، يمارس البشر أفضل مواهبهم، وأفضل عواطفهم أيضاً. وبالالتحام مع فوائد المجتمع المدني، وصل فنّ الحرب إلى كماله، وفهمت أفضل فهم مصادر الجيوش والنشاطات المعقَّدة التي يجب تعلّمها في سلوكها. وأشهر المحاربين كانوا مواطنين أيضاً، وفي مواجهة الروماني، أو اليوناني، كان رئيس القبيلة في تراقيا، في ألمانيا أو في بلاد الغول مجرد مبتدئ. وقد تعلَّم بيلا (Pella) مبادئ فنه من إبامينونداس وبيلوبيداس (Pelopidas).

كما لاحظنا في الجزء السابق إذا كان على الأمم أن تكيّف سياستها على أساس توقّع الحرب من الخارج، فهي أيضاً ملزمة

(1) Laurent D'Arvieux, *History of the Arabs.*

بتوفير السلم في الوطن. غير أنه لا وجود لسلم في غياب العدالة. فقد يبقى لكن في انقسامات، ونزاعات، وآراء متضادة، من غير اقتراف أخطاء. وفي حالة العداوة، يكون المؤذي والذي تعرَّض للأذى في معاني الكلمات ذاتها.

حيث يتمتع الناس بالسلام، فإن مردّ ذلك يعود إلى ظواهر الاحترام المتبادل والمحبة المتبادلة، أو إلى القيود القانونية. وأكثر الدول سعادة هي تلك التي تسبّب السلام لأعضائها عبر الطريق الأول، لكنه ليس من المألوف بما فيه الكفاية إحداثه بالطريق الثاني. الطريق الأول يبقي فرص الحرب والمنافسة، والثاني يسوّي مزاعم البشر بالتسويات وبالاتفاقيات. فمدينة إسبارطة علّمت مواطنيها عدم الاهتمام بالمنفعة، وأمم حرّة أخرى أمَّنت منافع أعضائها، واعتبرت ذلك جزءاً رئيسياً من حقوقهم.

القانون هو المعاهدة أو الاتفاقية التي وافق عليها أعضاء المجتمع الواحد نفسه، وفي ظلها يستمر الحاكم والمحكوم في التمتّع بحقوقهم والحفاظ على سلام المجتمع. والرغبة في الربح أو المال هو الدافع الأكبر للأذى، لذا فإنه في القانون إشارة رئيسية الى المِلْكية. فهو يُعيّن الطرق المختلفة التي بها يمكن اكتساب المِلْكية، مثل حقّ التقادم والتفريغ: أي نقل الملكية من شخص لآخر، والوراثة، والقانون يضع شروطاً ضرورية لجعل حيازة الملكية آمنة.

بالإضافة إلى الجشع لكسب المال، ثمَّة دوافع أخرى تجعل البشر المنطلقين منها غير عادلين، مثل الكبرياء، والحقد وتعمّد الأذى، والحسد والانتقام. والقانون يستأصل المبادئ ذاتها، أو يمنع آثارها.

مهما كانت الدوافع التي تُرتكب بها الأضرار، توجد تفاصيل مختلفة يعاني منها الذي تعرَّض للأذى. فقد يعاني على مستوى السلع التي يملكها، أو يعاني في شخصه، أو في حرية سلوكه. فالطبيعة جعلته سيداً لكل عمل لا يؤذي الآخرين. وقوانين مجتمعه تؤهّله لمركز محدَّد، وتمنحه شراكةً معينة في حكم بلاده. لذلك، فإن الأذى أو الضرر بهذا المعنى يقيّده بشكل غير عادل ويمكن وصفه بأنه انتهاك لحقوقه السياسية.

فعندما يكون للمواطن حقّ في الملْكية وحق في المنزلة الاجتماعية ويكون محمياً في ممارساتهما، يُقال إنه حرّ. والكوابح ذاتها التي تمنعه من اقتراف جرائم، هي جزء من حريته. ولا شخص يكون حراً عندما أي شخص يقوم بعمل مؤذٍ، وتكون لديه حصانة. والأمير المستبدّ، حتى هذا الأمير الجالس على عرشه ليس مستثنى من هذه القاعدة العامة. فهو نفسه يكون عبداً في اللحظة التي يدّعي فيها أن القوة هي التي تحسم أي نزاع. فعدم احترامه لحقوق شعبه يرتدّ عليه، وفي الأحوال العامة جميعها المجهولة والمشكوك فيها، لا يوجد منصب أكثر زعزعة من منصبه.

من الجزئيات والتفاصيل المختلفة التي يشير إليها الناس عندما يتكلّمون عن الحرية، سواء أكانت سلامة الشخص والسلع، وكرامة المرتبة، أم الإسهام في الأهمية السياسية، وكذلك، الناشئة من طرق مختلفة بها تكون حقوقهم في مأمن، يكون الناس مختلفين في تفسيرهم كل مفردة، وكل أمة حرّة تفترض أن الحرية لا توجد إلّا عندها، وهي تقيسها بعادات أفرادها الخاصة ونظام أساليب حياتهم.

وقد فكّر البعض أن التوزيع غير المتساوي للثروة هو مظلمة،

تتطلّب توزيعاً جديداً للملكية، كأساس للعدالة الاجتماعية. مثل هذا المخطط يلائم الحكم الديمقراطي، وفيه فقط سمح بدرجةٍ من التأثير.

المستعمرات الجديدة، مثل التي لدى إسرائيل، والمؤسسات المفردة، مثل إسبارطة وكريت، قدَّمت أمثلة عن تنفيذه الفعلي. غير أن الروح الديمقراطية، حتى هذه الروح، لم تفعل في معظم الدول الأخرى أكثر من إطالة الصراع من أجل القوانين الزراعية، وتعمل في مناسبة على شطب الديون، وتظلّ تتذكَّر الشعب في ظلّ جميع التمييزات في الثروة، وأنه ما يزال له حق في المساواة.

لقد ناضل المواطن في روما، وفي أثينا، وفي العديد من الجمهوريات لنفسه ولنظامه. وقد أُثير القانون الزراعي ونوقش لعصور: فهو أفاد في إيقاظ العقل، وغذَى روح المساواة، وأعدَّ ميداناً لبذل قوته، لكنه لم يتأسس مع نتائجه الأخرى الأكثر رسمية.

الكثير من المؤسسات التي استُخدمت للدفاع عن الضعفاء ضد الظلم، أسهمت في تأمين حيازة الملكية، والعمل لصالح قسمتها غير المتساوية، وزيادة صعود أولئك الذين تمكن الخشية من سوء استعمالهم للسلطة. وتلك الإساءات حصل الشعور بها مبكّراً في أثينا وفي روما[2].

لقد اقتُرح لمنع التراكم المتزايد للثروة في أيدٍ فردية أن يكون ذلك عبر تحديد زيادة الثروات الخاصة ووقف الأملاك، ووقف حقّ البكورة الذي أفاد حقّ البكر في الإرث كله دون الآخرين من الورثة. كما اقترح وضع قوانين تختصّ بحق الإنفاق وتنظيمه، ومنع تدمير

---

(2) Plutarch, *Life of Solon*. Livy

الممتلكات المتوسطة المقدار ووقف استعمال ممتلكات كبيرة والرغبة فيها. تلك الطرق المختلفة تتوافق مع مصالح التجارة، ويمكن تبنّيها بدرجات مختلفة من قِبَل شعب هدفه القومي يَمْثُلُ في الثروة، وهي لها درجة من التأثير عبر الإيحاء بالاعتدال، أو بشعور بالمساواة، وإخماد الانفعالات التي تدفع البشر إلى الإساءات المتبادلة.

يبدو بطريقة خاصة أن هدف قوانين الإنفاق، والتقسيم المتساوي للثروة، هو منع إرضاء الخيلاء، وضبط التفاخر بالثروة الكبرى، وبهذه الطريقة إضعاف الرغبة في الثروات والغنى، والمحافظة في قلب المواطن على ذلك الاعتدال وتلك المساواة اللذين لا بدَّ من أن ينظّما سلوكه.

ذلك الهدف لم يتحقق أبداً في أي دولة، كان فيها تقسيم غير متساوٍ للملْكية، وحيث سمح للثروة بمنح تمييز ومرتبةٍ والواقع هو أنه يصعب بأي طريقة مهما تكن وقف هذا المصدر من الفساد. ومن بين جميع الأمم المعروف تاريخها معرفةً يقينيّةً، عُرِفَ أن التصميم ذاته وطريقة تحقيقه كان في مدينة إسبارطة وحدها.

فهناك كانت الملْكية معترفاً بها قانونياً، لكن نتيجةً لتنظيمات وممارسات معيّنة، كان أكثرها فاعلية ما وجده البشر هناك. فأساليب الحياة التي عمَّت الأمم البسيطة قبل تأسيس الملْكيّة ظلّت محفوظةً بمقدار ما[3]. ومحبة الثروة والغنى، ولقرون قمعت، وعُلِّم المواطن أن يعتبر نفسه ملكاً لبلاده، لا كمالكٍ لأرض خاصة.

وقد اعتبر بيع أو شراء إرث المواطن أمراً شائناً. وكان يُعهد

---

(3) Part II, Sec. 2.

للعبيد في كل أسرة بالعناية بآثاره. ولم يكن الرجال الأحرار يعرفون الفنون ذات الربح. وقام العدل على ازدراء إغراءات الجرائم. وما يحافظ على الحرية المدنية الذي كانت تطبّقه الدولة، كان في الميول التي سادت في قلوب مواطنيها.

وقد حُرِّر الفرد من كل قلق يمكن أن ينشأ حول خطه: فقد عُلِّم ووظِّف لمدى الحياة في خدمة الشعب. وكان يأكل في مكان مشترك لا يجد فيه أي تمييز سوى ما يتعلّق بالمواهب والفضائل، وكان صغاره وتلاميذه في وصاية وحماية الدولة. وهو نفسه كان يعتبر والداً وموجّهاً إلى شبان بلاده، لا إلى الأب القلق لأسرة منفصلة.

وقيل لنا، إن ذلك الشعب اهتم بتزيين أشخاصه، فكانوا يُعرفون من بعيد باللون الأحمر أو اللون الأرجواني الذي يرتدونه، لكنهم لا يستطيعون أن يجعلوا عدَّتهم وعرباتهم، وبناياتهم، أو أثاثهم مواضيع وَلَعٍ، أو ذوقاً. فالنجار والبنّاء مقيّدان باستعمال الفأس والمنشار: يجب أن تكون ورشة عملهم بسيطة، وقد استمرت كما هي لعصور نسبةً لشكلها. وقد استخدمت عبقرية الفنان في تهذيب وصقل طبيعته، لا لتزيين مساكن زملائهم المواطنين.

وبحسب هذه الخطة كان لهم أعضاء في مجلس شيوخ، وحكّام مقاطعات وقادة جيوش ووزراء دولة، لكن لم يكن لديهم رجال ثروات. ومثل أبطال هوميروس، كانوا يوزّعون رتب الشرف والإجلال بالكأس والطبق. والمواطن الذي تمكَّن بقدرته السياسية من أن يكون الحَكَم أو الوسيط في اليونان كان يعتبر نفسه مكرَّماً عندما يتلقّى حصة مضاعفةً في مأدبة عشاء علنية. فقد يكون نشيطاً،

وذا عقل نفّاذ، وشجاعاً، ونزيهاً وكريماً، لكن طبقته الاجتماعية، وطاولته وأثاثه قد تشوّه بحسب تقديرنا بريق كل فضائله. والأمم المجاورة طلبت قادةً لمثل هذا المعهد الخاص برجال الدولة والمحاربين، كما نحن بطلب ممارسين لكل فنّ من الأقطار التي يتفوّقون فيها: طهاة من فرنسا وموسيقيين من إيطاليا.

وبعد كل شيء، قد لا نكون قد عرفنا، بما فيه الكفاية، طبيعة قوانين إسبارطة ومؤسساتها، ولم نفهم، كفايةً، الأسلوب الذي به حققت تلك الدولة بمفردها غاياتها. غير أن الإعجاب بشعبها، وإشارة المؤرخين المعاصرين الدائمة إلى تفوّقها المعترف به، لن يسمحا لنا بالشك في الوقائع. وقد قال كسينوفون: «عندما لاحظت أن هذه الأمة، بالرغم من عدم كونها الأكثر عدداً، كانت أقوى دولة في اليونان، يتملّكني العجب، وبعد أن عرفت الفنون التي بها حققت بروزها، وعندما عرفت مؤسساتها توقّفت دهشتي. فكما أن إنساناً يمتاز ويتفوّق على من يهمله، كذلك هم السبارطيون عندما تفوَّقوا على كل أمة، لكونها الدولة الوحيدة التي درست فيها الفضيلة كهدف للحكم».

إذا اعتبرت مواضيع الملْكية موارد عيش أو متعة أيضاً، فلا تأثير لها في إفساد البشر، أو في إيقاظ روح التنافس والحسد، لكن إن اعتبرت مصادر للامتيازات والإجلال، حيث الثروة تكوِّن المرتبة، فإنها تثير أعنف العواطف، وتمتصّ كل مشاعر الروح الإنسانية: فقد جمعوا الجشع والحقارة مع الطموح والخيلاء، وقادوا البشر عبر فنونٍ خسيسةٍ ومرتزقة إلى الحيازة ما يُفترض أنه سموّ وجلال.

ونقيض ذلك نقول، إنه يحثّ بوضع حدّ لمصدر الفساد

ذاك، فإن المواطن يكون قائماً بواجباته، ويكون الحاكم مستقيماً أخلاقياً، ويمكن إدارة أي شكل من أشكال الحكم بحكمة، وكذلك ستؤمن المراكز الثقة. وبأي حكمٍ وسلطةٍ تكون، فالمحتمل أن الطاقة والقوة التي تبقى في الدولة ستستخدمان في خدمتها، وذلك لأنه استناداً إلى هذا الرأي تكون الخبرة والقدرات هما المرشدان الوحيدان، والمؤهِّلان الوحيدان للثقة العامة. وإذا نُظِّم المواطنون في طبقات منفصلة، سيكونون هم الذين يشكّلون ضوابط متبادلة عبر اختلاف آرائهم، لا عبر تعارض خطفهم التي يحبونها.

ويمكننا، وبسهولة، أن نشرح النقود والتقريعات الموجهة للحكم في إسبارطة، عبر الذين لا يعتبرونها إلّا من ناحية إصلاحاتها. فهي لم تُحسب لمنع ممارسة الجريمة عبر خلق توازنٍ بين الميول الأنانية والمتحيّزة للبشر، وإنما عبر الإيحاء بفاضل النفس، والعمل بالبراءة في حال غياب الميول الجرمية، وبالحصول على سلامها الداخلي من لامبالاة أعضائها بالدوافع العادية للنزاع وللفوضى. ومن تفاهة البحث عن مماثل له في أي دستور آخر في دولة، ولا توجد في خاصته الرئيسية ولا سِمته المميّزة. وسيادة المجلس الذي أعضاؤه «متساوون بالسلطة» (Collegiate Sovereignty)، ومجلس الشيوخ، والقضاة الخمسة الذين كان لهم «سلطة على الملك الأيفوري» (Ephori)، لها نظائر في جمهوريات أخرى خاصة ما كان هناك شبيه في حكم قرطاجة[4]. ولكن السؤال هو: ما القرابة بين النتائج التي يمكن الوقوع عليها بين دولة هدفها الوحيد هو الفضيلة، ودولة أخرى هدفها الرئيسي متمثّل في الثروة، وبين شعب ملوكه المجتمعون يقيمون في ذات الكوخ، ولا يملكون من

---

(4) Aristotle.

الثروة سوى طعامهم اليومي، وجمهورية تجارية تكون الممتلكات الخاصة فيها لازمةً للتأهّل لوظائف عليا في الدولة؟

هناك حكومات صغيرة طردت ملوكها عندما صاروا ضدّ خططها، أو بعد اختبارها طغيانهم. وهنا، ظلّ التعاقب الوراثي للملوك على حاله. ودول أخرى كانت تخشى من مؤامرات أعضائها، في مجال التنافس على المنزلة، وهنا لا بدَّ من التوسّل كشرط وحيد للحصول على مكان في مجلس الشيوخ. وسلطة التحقيق العليا التي تمثَّلت في أشخاص القضاة الخمسة الذين كان لهم سلطة على الملك، نُقلت إلى عدد قليل من الرجال الذين يكونون بالقرعة، ومن دون تمييز، ومن مراتب الشعب جميعها. إن تطلَّب الأمر إيجاد مقابل لذلك، ولمواد أخرى كثيرة في الخطة السياسية السبارطية، فيمكن الوقوع على كل ذلك في تاريخ البشر العام.

غير أن إسبارطة، وبالرغم من كل خلل قد يُفترض وجوده في شكلها ازدهرت لقرون عبر استقامة وكمال أخلاقها، وعبر شخصية وطباع مواطنيها. وعندما تحطّمت تلك الاستقامة والكمال، فإن أفراد ذلك الشعب لم يقعوا في ضعف الأمم التي سقطت في التخنّث. فقد سقطوا في التيّار الذي أُدخلت إليه دول أخرى في السيل الجارف، وسيل العواطف العنفية، وفي انتهاكات الأزمنة البربرية. وسلكوا في حياة مثل الأمم الأخرى، بعد انتهاء الحياة السبارطية، فراحوا يشيدون الأسوار، وبدؤوا يحسّنون ممتلكاتهم، بعد أن توقّفوا عن تحسين شعبهم، وعلى أساس هذه الخطة الجديدة، في صراعهم للحياة السياسية بقوا بعد هلاك نظام الدول تحت السيطرة المقدونية، وعاشوا للعمل مع دول أخرى نشأت في

حلف أخيون (Achaean)، وكانوا المجتمع اليوناني الأخير الذي صار قريةً في إمبراطورية روما.

قد يُعتقد أننا ركَّزنا طويلاً على تاريخ ذلك الشعب الرائع الفريد، فلنتذكَّر، أن عذرنا كان هو أن أفراد ذلك الشعب، وحدهم، وبلغة كسينوفون جعلوا الفضيلة هدف الدولة.

يجب أن نكون قانعين بأن نستمد حريتنا من مصدر مختلف، وأن نتوقَّع العدالة من الحدود الموضوعة على سلطات الحاكم، وأن نعتمد للحماية القوانين الموضوعة لتأمين ممتلكات وشخص المواطن. فنحن نعيش في مجتمعات، لا بدَّ من أن يكون الرجال فيه أثرياء لكي يكونوا عظماء، وحيث المتعة ذاتها غالباً ما تُطلب انطلاقاً من الخيلاء والغرور، وحيث الرغبة في سعادة مفترضة تخدم في تسعير أسوأ العواطف والانفعالات، وهي نفسها أساس التعاسة، وحيث العدالة العامة التي هي مثل القيود والأغلال على الجسم، قد تمنع الاقتراف الفعلي للجرائم، من دون تحريك مشاعر الإخلاص والمساواة.

ويتّصف البشر بهذا الوصف لحظةَ تمسك بهم عاطفة الثروة والسلطة. غير أن وصفهم في كل حالة يكون خليطاً: في أفضل الحالات، ويكون خليطاً من الشرور، وفي أسوأها يكون خليطاً من الخيرات. ومن دون وجود مؤسسات تحفظ أساليب حياتهم، باستثناء القوانين الجزائية وقيود الشرطة، نراهم قد استمدّوا من المشاعر الغريزية حبَّ الكرامة والإخلاص، واستمدوا من عدوى المجتمع نفسه تقديراً لما هو مشرِّف ويستحق التقدير. واستمدوا من اتحادهم ومعارضتهم المشتركة للأعداد الخارجيين حماسةً

لمجتمعهم، وشجاعةً للحفاظ على حقوقه. وإذا عمل الإهمال المتكرّر للفضيلة بوصفها هدفاً سياسياً على إضعاف الثقة في إفهام الرجال، فإن بريقها وتكرارها بوصفهما النسل العفوي للقلب سيعيدان ما يشرِّف طبيعتنا.

وفي كل حالة عَرَضية ومختلطة من حالات أساليب الحياة القومية، نعتمد سلامة كل فرد ونتائج عمله السياسي، أكثر ما تعتمد على نفسه، لكنها تعتمد أكثر على الحزب الذي ينتمي إليه. ولهذا السبب نجد أن كل من يشعر بمصلحة عامة هو قابل لأن يتّحد في أحزاب، ويدعم الأعضاء واحدهم الآخر، بمقدار ما تتطلبه تلك المصلحة العامة.

حيث يكون للمواطنين في أي مجتمع حرّ مرتبات مختلفة، يكون لكل مرتبةٍ مجموعة خاصة من المزاعم والمطالب، وبالنسبة لأعضاء الدولة الآخرين تكون حزباً، وبالنسبة للاختلافات في المصلحة بين أعضائه قد يسمح بانقسامات لا حصر لها. غير أنه يوجد في كل دولة مصلحتان يمكن فهمهما مباشرةً، هما مصلحة الأمير وأتباعه، ومصلحة النبلاء أو أي عصبة مؤقتة مضادة للشعب.

وحيثما تكون سلطة السيادة محفوظة بالجسم الجمعي، يبدو من غير الضروري التفكير بمؤسسات إضافية لضمان حقوق المواطن. غير أنه من الصعب، إن لم يكن من المستحيل للجسم الجمعي أن يُمارس تلك السلطة بطريقة تبطل لزوم كل حذر سياسي آخر.

وإذا كان للمجالس الشعبية كل وظائف الحكم، وإذا عبرت

بأدبٍ وبالأسلوب العنيف الذي تقدر عليه عن مشاعرها، والشعور بحقوقها، وعدائها للأعداء الخارجيين والمحليين، فإنها تكون مطالبة بالبحث في مسائل تتعلق بالسلوك القومي، أو لتقرير مسائل تخصّ المساواة والعدالة. فالشعب معرَّض لعقبات وأشياء مزعجة كثيرة، والحكومات الشعبية، خلافاً لجميع الحكومات الأخرى تكون عرضةً للأخطاء الإدارية، ولضعف في تطبيق التدابير العامة.

وبغية تجنّب تلك الظواهر غير الملائمة، كان الشعب دائماً مقتنعاً وراضياً بأن يفوِّض جزءاً من سلطته. فأسس أفراده مجلس شيوخ لمناقشة وإعداد مسائل، هذا إن لم يكن للبتّ بها لتوضع أمام الجسم الجمعي للوصول إلى قرار نهائي. وهم سلّموا السلطة التنفيذية لمجلس من ذلك النوع، أو لحاكمٍ أو قاضٍ ليرأس اجتماعاتهم. وفي ظلّ استعمال تلك الوسيلة الضرورية والعامة، نجد أنه حتى عندما تكون الأشكال الديمقراطية محروسة بعناية، يظلّ هناك حزب للقلّة وآخر للكثرة، وأحدهما يهاجم والآخر يدافع، وكلاهما مستعدان للقيام بدوريهما. وبالرغم من الواقع المفيد أن خطراً كبيراً على الحرية ينشأ من أفراد الشعب أنفسهم، الذين يكونون في أزمنة الفساد أدوات سهلة للاغتصاب والطغيان، فإننا نجد في المظهر العادي للحكم، أن السلطة التنفيذية لها اليد العليا، ويظهر أن حقوق الشعب معرّضة دائماً للانتهاك.

ومع ذلك، فإنه في اليوم الذي كان يجمع فيه الشعب الروماني، كان أعضاء مجلس الشيوخ يختلطون بالجمهور، ولم يكن القنصل أكثر من خادم للجمهور، ومع ذلك عندما انفضَّ ذلك الاجتماع المهيب اجتمع أعضاء مجلس الشيوخ لكي يصفوا أعمال رئيسهم،

وخرج القنصل مسلّحاً بالفأس والقضبان لكي يعلِّم كل روماني بحسب قدرته الخضوع الذي هو مدين به للدولة.

وكذلك حتى عندما كان أفراد الجسم الجمعي هم أصحاب السيادة، فإنهم لم يكونوا يجتمعون إلّا عَرَضياً. وبالرغم من أنهم في مثل تلك المناسبات كانوا يقرّرون كل مسألة تخصّ حقوقهم ومصالحهم بوصفهم شعباً، وكانوا يستطيعون أن يؤكدوا حريتهم بقوة لا تُقاوَم، فإنهم لم يكونوا يعتقدون أنهم آمنين من دون سلطةٍ ثابتةٍ ومنتظمةٍ تعمل لصالحهم.

كان الجمهور قوياً في كل مكان، لكنه كان يحتاج، لسلامة أعضائه، عندما يكونون متفوقين وأيضاً عندما يكونون مجتمعين، إلى قيادة لتوجيه قوته ولاستخدامه. وقيل لنا إنه لتحقيق ذلك الغرض أُسِّس في مدينة إسبارطة ما عُرف باسم أيفوري أي القضاة الخمسة الذين كانت لهم سلطة على الملك، وكذلك مجلس المئة في قرطاجة والمدافعون عن حقوق الشعب في روما. وفي ذلك الجوّ المهيأ، كان الحزب الشعبي، وفي حالات كثيرة، قادراً على التعاطي مع خصومه، حتى إنه داسَ على السلطات، سواء أكانت أرستقراطية أم ملكية، ولم يكن ممكناً أن ينازعها بطريقة أخرى. وفي مثل تلك الحالات، كانت الدولة تعاني من التأخيرات، والمقاطعات وظواهر الفوضى، التي ندر أن أخفق القادة الشعبيون في خلقها في أعمال الحكم، سواء أكانت صادرة عن حسد، أم عن غيرة مسيطرة من العظماء.

وعندما يكون أفراد الشعب، كما هو الحال في بعض المجتمعات الكبيرة لا يملكون سوى مشاركةً في التشريع، فإنهم

لا يستطيعون أن يتغلّبوا على السلطات الإضافية، التي لها أيضاً مشاركة وتكون في حالة الدفاع عن نفسها، وحيث لا تعمل إلّا عبر ممثّليها، فإن قوتها قد تستخدم بانتظام. وقد يسهمون في دستور الحكم إسهاماً أبقى من تلك التي يكون فيها الشعب حائزاً السلطة التشريعية كلها أو مطالباً بها عندما يجتمع، أو الطغاة، وعند التبعثر والتفرّق، عبيد دولة فَسُد نظامها. وفي حكم خليط، نجد أن المصلحة الشعبية الموازنة لمصالح الأمير والنبلاء، تؤسس توازناً بينهما، فيه تَمْثُلُ الحرية العامة والنظام العام.

من بعض مثل تلك الترتيبات العَرَضية للمصالح المختلفة تنشأ أنواع الحكم الخليط جميعها، وعلى تلك الدرجة التي يحدثه لنفسه كل مصلحة منفصلة، تعتمد المساواة في القوانين التي تسنّها، والضرورة القادرة على فرضها والقاضية بالالتزام الدقيق بمفردات القانون في حالة تنفيذه. لذلك إن الدول ليست مؤهَّلةً تأهّلاً متساوياً في إدارة العمل التشريعي، وليست متساوية الحظ في إكمال دستورها المدني والإشراف المنتظم عليه.

وفي المؤسسات الديمقراطية، لا يكون المواطنون الشاعرون بأنهم يملكون السيادة، بأنهم قلقون بأن يحوز رعايا الحكومات الأخرى على توضيح لحقوقهم، أو تأمينها بمرسوم فعلي. فهم يثقون في القوة الشخصية بدعم الحزب وبحسّ الشعب.

وإذا قام أفراد الجسم الجمعي بوظيفة القاضي، وبوظيفة المشرِّع أيضاً، فمن النادر أن يفكروا في ابتداع قواعد لتوجيههم، وأندر من ذلك اتباع أي قاعدة محدَّدة بعد وضعها. فهم يستغنون في وقت ما سنوّه في وقت آخر. وفي قدرتهم المميّزة في الحكم

على الأشياء أكثر من قدرتهم التشريعية، يكونون مدفوعين بعواطف وانحيازات تنشأ في ظروف القضية التي تكون أمامهم.

غير أنه في ظلّ أنظمة حكم بسيطة من نوعٍ مختلف سواء أكانت أرستقراطية أم ملكية، هناك ضرورة لوجود قانون، وهناك أنواع مختلفة من المصالح لا بدَّ من تسويتها عند صياغة كل قانون. والحاكم صاحب السيادة يرغب في توفير الاستقرار والنظام في الإدارة، بواسطة قواعد واضحة ومعلنة. أما المواطن فيرغب في معرفة شروط واجبه وحدوده. فهو يذعن أو يثور بحسب ما تكون الشروط التي عليه أن يعيشها مع الحاكم صاحب السيادة، أو مع زملائه من المواطنين متَّسقة مع شعوره بحقوقه أو لا تكون.

لا الملك ولا مجلس النبلاء، عندما يكون أي واحد منهما حائزاً على السيادة، يمكن أن يدّعي أنه يحكم، أو يقضي استنسابياً وفق هواه. ولا يستطيع حاكم، سواء أكان مؤقتاً أم وراثياً، أن يهمل، بسلامةٍ، سمعة العدالة والمساواة التي منها استمدت سلطته واحترام شخصه بمقدار كبير. على كل حال إن الأمم كانت محظوظةً بفحوى قوانينها وبتنفيذها، نسبة لقبولها كل مرتبة من مراتب الشعب، عبر التمثيل أو عبر سواه للمشاركة في التشريع. وفي ظلّ مؤسسات من هذا القبيل، يُعتبر القانون حرفياً معاهدة أو اتفاقية وافقت عليها الأطراف المعنيّة، وقدَّمت رأيها في وضع مفرداتها. والمصالح التي تتأثَّر بالقانون تخضع للمشاورات أيضاً عند وضعه. وكل طبقةٍ تعلن معترضةً عن إضافة أو إصلاح خاص بها. وهم يتابعون التعديل عبر القوانين لكل موضوع نزاع. وفي الوقت الذي يستمرون فيه في التمتّع بحريتهم، يستمرون في زيادة القوانين، ومراكمة مجلّدات

كما لو أنهم قادرون على إزالة كل أساس ممكن للنزاع، وأنهم يحفظون حقوقهم بمجرّد كتابتها.

وقد أثبتت روما وإنجلترا، في ظلّ نظامي حكمهما الخليطين، حيث كان الأول ميّالاً للديمقراطية، والثاني للنظام الملكي، أنهما أعظم أمتين مشرّعتين بين الأمم. الأولى أورثت الأساس، والقسم الكبير من البنية الفوقية لدستوره المدني للقارة الأوروبية، والأخرى في جزيرتها أوصلت السلطة وحكم القانون إلى درجة من الكمال لم تحصل أبداً في تاريخ البشرية.

في ظلّ مثل تلك المؤسسات الإيجابية المرْضية، اكتسبت التقاليد المعروفة ممارسة المحاكم وقراراتها، والقوانين الإيجابية أيضاً سلطة القوانين. وكان كل عملٍ يُدار بقاعدة ثابتةٍ ومحدَّدة. وأفضل الاحتراسات الفاعلة اتخذت بغية التطبيق غير المنحاز للقواعد على الحالات الجزئية. واللافت الرائع الآن نجده في الطرق الرائعة الفريدة في المثلين الفريدين لقضائهما وتطابقهما في سلطان قضائي. فقد احتفظ أفراد الشعب في كليهما بطريقة من الطرق بمركز الحكم القضائي لأنفسهم، وجعلوا القرار المتعلّق بالحقوق المدنية، أو بالمسائل الجنائية لمحكمة من نظراء كانوا عندما يحكمون على زملائهم من المواطنين يصفون شرط حياتهم لأنفسهم.

وفي نهاية المطاف علينا أن لا نبحث عن مجرّد قوانين ونعتبرها المسؤولة عن ضمانات العدالة، وإنما بهذه الضمانات في السلطات حُصّلت تلك القوانين، ولولا دعمها الثابت المستمرّ لكان أسيئ استعمالها. فالقوانين تفيد في تسجيل حقوق الشعب، وتعبِّر عن

قصد الأحزاب في الدفاع عن ما عبَّر عنه نصّ القانون، لكن من دون القوة التي تحافظ على ما اعتبر حقاً، فإن مجرّد التسجيل، أو القصد الضعيف لا نفع منه.

فإذا حصل شعب أثاره الاضطهاد، أو حصلت مجموعة من الأشخاص لهم مصلحة مؤقتة، على دساتير كثيرة، وتنازلات وتعاقدات لصالح مطالبهم، ولم يكن هناك إعداد كافٍ للحفاظ عليها، فغالباً ما تُنسى المواد المكتوبة مع المناسبة التي صيغت فيها.

فتاريخ إنجلترا، وتاريخ كل بلاد حرّة يزخر بالأمثلة عن قوانين سُنَّت عندما اجتمع الشعب أو ممثلوه، لكنها لم تُنفَّذ عندما تُرِك التاج وحده أو السلطة التنفيذية وحدها. وأكثر قوانين المساواة المكتوبة يتَّسق مع أكثر الإدارات طغياناً. وشكل المحكمة من قِبَل المحلَّفين في إنجلترا – حتى هذا – توجد سلطته في القانون، في حين أن الدعاوى القضائية للمحاكم كانت اعتباطية وقمعية.

علينا أن نُعجب بأن الحجر الأساسي للحرية المدنية، والقانون الذي يجبر بكشف خفايا كل سجن، وإعلان سبب كل إيداع الشخص في السجن، وما هو الشخص المتهم لكي يطالب بإضافات، أو بمحاكمته في مدة محدَّدة. فلا وجود لشكل أكثر حكمةً ويكون معارضاً لإساءة استعمال السلطة. غير أنه يتطلَّب بنيةً لا تكون أقلّ من الدستور السياسي كله لبريطانيا العظمى، ولروح لا تكون أقلّ من الحماس المقاوم والعنيف المتمرّد لهذا الشعب المحظوظ للمحافظة على نتائجه وتأمينها.

فإذا كانت تُعتمد سلامة الشخص، وامتلاك الأرض اللذين

عرِّفا جيداً في نص الدستور، لحفظهما على قوة الشعب الحرّ وغيرته، وعلى درجة الاحترام التي تحافظ عليها كل مرتبة من مراتب الدولة لنفسها، فإن الأوضح هو أن ما دعوناه حرية سياسية، أو حقّ الفرد بالتصرّف في موقعه لنفسه وللعشب، لا يمكن أن يقوم على أي أساسٍ آخر. فالأرض المملوكة يمكن إنقاذها، والشخص يمكن إطلاق سراحه عبر أشكال من الإجراءات المدنية، لكن حقوق العقل لا يمكن استبقاؤها بأي قوة غير قوته.

الجزء السابع

تاريخ الفنون

لقد سبق لنا أن لاحظنا أن الفن طبيعي للإنسان، وأن المهارة التي اكتسبها بعد عصور كثيرة من الممارسة، ليست إلّا تحسينات لموهبةٍ كان حائزاً عليها منذ البداية. وفيتروفيوس (Vitruvius) وجد بدايات الهندسة المعمارية في شكل الكون السكيثي. وقد يكون صانع الدروع والأسلحة قد وجد أول منتوجات لحرفته في المقلاع والقوس، ووجدها نجّار السفن في قارب المتوحشين الطويل الخفيف. وكذلك المؤرخ والشاعر قد يكونان قد وجدا المقالات الأولى لفنيهما في القصة والأغنية اللتين تختفيان بالحروب، والحبّ، ومغامرات الرجال عندما كانوا في أكثر حالاتهم بدائية.

وبتصميمه على صقل طبيعته وتحسين وضعه، كان الإنسان يجد دائماً موضوعاً يركِّز انتباهه عليه، وكذلك عبقريته وجهده. وعندما لم يفكّر بأي تحسين شخصي، حتى عندئذٍ كانت طاقاته تتعزّز بالتمارين ذاتها التي كان ينسى فيها نفسه، نعني: كان عقله وعواطفه منخرطين انخراطاً مفيداً في شؤون المجتمع. وإبداعه ومهارته مورسا لإحداث وسائل الراحة والتسلية، وإطعامه. وكانت ظروف زمانه والبلاد التي عاش فيها هما اللذان يحدّدان مهنته الخاصة: ففي

أحد الأوضاع يكون منهمكاً في الحروب وفي النقاشات السياسية، وفي وضع آخر اهتمَّ بمصلحته، وراحته الشخصية، أو بما يلائمه. فكان يلائم بين وسائله مع غاياته، ومع تزايد مخترعاته، وتابع عمله درجةً درجة، إلى تهذيب وتحسين فنونه. وفي كل خطوة من خطى تقدّمه كانت رغبته تتوسَّع، عندما كانت تزداد مهارته: فكان من العبث التفكير بوسيلة لم يعد يستعملها، مثل إخباره عن نعمٍ لا سيطرة له عليها.

وبصورة عامة، يُفترض أن عصوراً قد اقتُبست ممن جاؤوا قبلها، وأن أمماً تلقَّت نصيبها من التعلّم أو الفن من الخارج. فجرى الاعتقاد بأن الرومان تعلّموا من اليونانيين، وتعلمت الشعوب الحديثة الأوروبية من كليهما. من أمثلة قليلة من هذا النوع، نتعلَّم أن نعتبر كل علمٍ أو فنٍ مستمدٌ، ونقبل أنه لا وجود لشيء أصيل في ممارسات وفي أساليب حياة أي شعب. فاليوناني كان نسخةً عن المصري، والمصري أيضاً كان مقلِّداً، بالرغم من أننا لم نعد نرى النموذج الذي شُكِّل بحسبه.

من المعروف أن الناس يتحسَّنون بالقدوة وبالاتصال. غير أنه في حالة الأمم التي أعضاؤها يثيرون ويوجهون واحدهم الآخر، تسعى للحصول على أصول الفنون من الخارج، في حين أن كل مجتمع يملك مبادئ لا يحتاج إلا فرصة ملائمة لإظهارها إلى النور؟ فعندما تسنح الفرصة لأفراد أي شعب، فإنهم، وبصورة عامة، يمسكون بها، وفي استمرارها يحسّنون من المبتدعات التي أدّت إليها في ما بينهم، أو ينسخون من الآخرين بإرادتهم، لكنهم لا يستخدمون إبداعهم الخاص، ولا يتطلعون إلى الخارج طلباً للتعلّم

حول مواضيع لا تقع في مجال مساعيهم وحرفهم العامة. فهم لا يتبنّون تحسيناً لم يكتشفوا نفعه.

لقد لاحظنا بتكرار أن الإبداعات عَرَضية، لكن من المحتمل أن يمسك بالإبداع العَرَضي الذي يفوت فناناً في عصرٍ، فنانٌ يعقبه، ويكون مقيِّماً أفضل لفائدته. وحيثما تكون الظروف مؤاتية، وعندما يكون الناس مهتمين بالأشياء الفنية، فإن الإبداع يبقى بصيرورته ممارسةً عامة، وكل نموذج يُدرس، ويُحسب حساب كل حادث عَرَضي. وإذا استعارت الأمم من جيرانها، فالمحتمل أن لا تستعير إلّا ما تكون هي في حالة قريبة من إبداعه هي نفسها.

لذلك إن أي ممارسة فريدة لبلادٍ، قلَّما نُقِلت إلى بلاد أخرى، إلى أن تصير الطريق ممهَّدة بظروفٍ مماثلة. ومن ذلك نشأت تذمّراتنا المتكررة من بلادة البشر أو عنادهم، والانتقالات البطيئة للفنون من مكان الى آخر. ففي حين تبنّى الرومان فنون اليونانيين، استمر تراقيون والإليريون (Illyrians) في النظر إليها نظرة لامبالاة. وكانت تلك الفنون محصورةً، في حقبةٍ زمنية في المستعمرات اليونانية، وفي حقبةٍ زمنية أخرى في المستعمرات الرومانية. وعندما كانت تنتشر عبر اتصال مرئي، حتى عندئذٍ، ظلَّت الأمم المستقلة تتلقّاها ببطء الإبداع. فلم يكن تقدّمها أسرع في روما منه في أثينا، ولم تصل إلى أطراف الإمبراطورية الرومانية إلّا بالترافق مع مستعمرات جديدة، وألحقت بالخطة السياسية الإيطالية.

الجنس البشري الحديث، الذي ذهب إلى الخارج لامتلاك المناطق المصقولة المثقفة، أبقى الفنون التي مارسها في الوطن: وراح السيّد الجديد يصطاد الخنزير الذكر، أو يرعى القطعان من

المواشي، حيث كان بإمكانه أن يحصد حصاداً كبيراً، وبنى كوخاً على شكل قصر، ودفن بتدميرٍ واحدٍ عام الأبنيةَ، والمنحوتات، والرسوم، والمكتبات التي كانت للسكان السابقين، وأقام مستعمرةً بحسب خطته، وقال مؤكّداً أنه مع أن نكهة الأدب الروماني والأدب الحديث تشبه النكهة اليونانية الأصلية، فإن البشر في كل واحدة من الحالتين، لم يكونوا ليشربوا من ذلك الينبوع، ما لم يكونوا مسرعين لفتح منابع تخّصهم.

الشعور والخيال، واستعمال اليد أو الرأس، ليست مبتدعات رجال خصوصيين، وازدهار الفنون الذي يعتمد عليها، هو في حالة أي شعبٍ برهانٌ على سعادة سياسية في الوطن، أكثر من كونه تعليماً وارداً من الخارج، أو من أي تفوّق طبيعي في الصناعة أو المواهب.

وعندما يتحول انتباه الإنسان إلى مواضيع جزئية، وعندما تُترك مكتسبات عصرٍ، كلها، للعصر الذي يليه، وعندما يكون كل فردٍ محمياً في مركزه، ويكون حرّاً في السعي وراء حاجاته، فإن الإبداعات تتجمع وتتراكم، ويصعب معرفة الأصلي في أي فنّ. إن الخطوات التي تؤدّي إلى التقدّم كثيرة، ونحن في حيرة من أمرنا، حول مَنْ نمنحه أكبر نصيب من المديح، الأول أم الأخير الذي حمل جزءاً في مسار التقدّم.

الجزء الثامن

تاريخ الأدب

إذا شئنا أن نعتمد على الملاحظات العامة التي اشتمل عليها الجزء السابق، فإن فنون الأدب وكذلك الفنون الميكانيكية، لكونها نتاجاً طبيعياً للعقل الإنساني، تنشأ، بشكل عفوي، عندما يكون البشر سعداء وفي بعض الأمم ليس يلزم أن تنظر إلى الخارج بحثاً عن أصل الأدب أكثر من النظر عن أي فكرة عن أي من المباهج أو الممارسات التي كان البشر ميّالين للانغماس فيها، في ظلّ حالة من الازدهار والحريّة.

نحن ميّالون لاعتبار الفنون غريبة عن طبيعة الإنسان وطارئة، غير أنه لا يوجد فنّ لا يجد مناسبته في الحياة الإنسانية، وأنه لم يطرح في وضعٍ أو في وضع آخر من أوضاع نوعنا، كوسيلةٍ لتحقيق غاية مُفيدة ماً. فالفنون الميكانيكية والتجارية نشأت من حب الملْكية، وشُجِّعت بمطامح السلامة والكسب، بينما نشأت الفنون الأدبية والليبرالية من الفهم، والخيال والقلب. فهي مجرّد تمارين خاصة بالقلب في بحثه عن ملذّاته ووظائفه الخاصة، وتعزَّزت بظروف جعلت العقل يتمتَّع بنفسه.

البشر مشغولون سواء بسواء في الماضي، والحاضر

والمستقبل، وهم جاهزون لأي عملٍ يوسِّع من قواهم. لذلك، فإن الإنتاج، سواء أكان في القصة، أم الخرافة، أم التفكير، الذي يوظِّف الخيال، أو يحرِّك القلب، استمر لعصور موضوعاً للاهتمام ومصدراً للبهجة. وإن ذكرى التعاملات المحفوظة في التقاليد أو في الكتابة، هي المصادر الطبيعية لإرضاء العاطفة التي تتألّف من حب الاستطلاع، والإعجاب، وحبّ التسلية.

وقبل أن تُكتب كتب كثيرة، وقبل أن يتقدَّم العلم تقدّماً واسعاً، كانت منتوجات العبقريات وحدها كاملة أحياناً: فلم يكن القائم بالعمل محتاجاً لعونٍ من تعليمٍ حيث يكون وصف القصة مرتبطاً بأشياء قريبة ومجاورة. وحيث يكون له صلة بسلوك وبشخصيات البشر الذين تعامل هو نفسه معهم، وكان له دور في وظائفهم وحظوظهم.

بذلك الامتياز كان الشاعر الأوَّل الذي قدَّم ثمار عبقريته يقود حياة تلك الفنون التي بها كان مصير العقل عرض خيالاته والتعبير عن عواطفه. فكل قبيلة بربرية كان لها إيقاعات عاطفية أو تاريخية، وكانت تحتوي على الخرافة، والحماسة، والإعجاب بالعظمة أو المجد الذي كان يستحوذ على قلوب الرجال في أول حالات المجتمع. وكان نظم الشعر يبهجهم، إمّا لأن إيقاع الأعداد طبيعي بالنسبة إلى لغة الشعور، أو لأن عدم معرفتهم بالكتابة اضطرهم إلى جعل الأذن تساعد الذاكرة، بغية تسهيل التكرار، وضمان الحفاظ على أعمالهم.

عندما ننظر إلى اللغة التي استخدمها المتوحّشون في أي مناسبة مقدَّسة أو جليلة، يبدو أن الإنسان شاعر بالطبيعة. وسواء أكان مضطراً في البداية لعيوبٍ في لسانه، أم لقلّة التعابير المناسبة،

أم أغرته متعة الخيال عند وضع التشابيه بين موضوعات ذلك الخيال، فإنه كان يغلِّف كل فكرة بصورةٍ وتشبيه. وقال خطيب أميركي: «لقد زرعنا شجرة السلام، ودفنّا الفأس تحت جذورها، ومن الآن فصاعداً سوف نستريح في ظلّها، وسوف نتواصل لجعل السلسلة التي تربط أممنا تشعّ ببريقها». مثل تلك المجموعات من التشابيه هي التي استخدمتها تلك الأمم في خطبها الرنّانة العامة. كما تبنَّت تلك التشابيه الحيّة وتلك الحرية اللغوية الجريئة، التي وحّدها المتعلمون، لاحقاً، خير ملائمة للتعبير عن تحوّلات سريعة في الخيال وحماسة عقل مدجّج بالعاطفة.

إذا طُلب منا وكان علينا أن نشرح كيف يمكن أن يكون الرجال شعراء، أو خطباء من دون عونٍ مما تعلّمه الباحث والناقد، فإننا نتساءل بدورنا، كيف يمكن للأجسام أن تسقط بسبب وزنها، قبل أن تُسجَّل قوانين الجاذبية في كتب؟ فالعقل، والجسد أيضاً لهما قوانين موجودة في مجرى الطبيعة، ولا يجمعها الناقد إلا بعد أن يبيّن المثل ما تكون.

كل قصة تحصل عبر الرابطة الفيزيقية التي ذكرناها بين عواطف خيالٍ حارّ، والانطباعات المتلقّاة من أصوات موسيقية محزنة عند الأمم البدائية، تتكرّر في الشعر ويكون لها شكل أغنية. والتاريخ الأول لجميع الأمم متساوٍ من هذه الناحية. فالكهنة، ورجال الدولة، والفلاسفة، في عصور اليونان الأولى، ألقوا تعليماتهم بلغة الشعر، واختلطوا مع العاملين في الموسيقى والقصة الخرافية البطولية.

فليس مستغرباً أن يكون الشعر أول نوع من التأليف في كل أمة، وأن يكون الأسلوب الصعب، والبعيد عن الاستعمال

المألوف، والشامل والعام هو الأول الذي حقّق نضجه. وإن أكثر الشعراء الذين أثاروا الإعجاب عاشوا قبل التاريخ، وقبل التقاليد. فأغنية المتوحشين اللافنية، والقصة البطولية للشاعر، كان لهما جمال بارز أحياناً لا يغيّرهما تحسين اللغة، ولا تحسينات النقّاد يمكن أن تصلحهما[1].

في ظلّ الضرر المفترض الذي تسبّبه المعرفة المحدودة، والفهم البدائي، كان للشعر البسيط انطباعات تعوّض عن عيوب مهارته وأكثر. فأفضل مواضيع الشعر، والشخصيات العنيفة والشجاعة، والكرم والباسلة، والأخطار الكبرى، وتجارب المناعة والإخلاص، كل ذلك كان الشاعر يعرضها في نظرته، أو تُلقى في التقاليد المُفعمة بالحياة، مثل الحقيقة، لأن تصديقها متساوٍ. فهو لا ينخرط في استذكار مشاعر مشهد عصر ناءٍ عن عصره، مثل فرجيل (Virgil) أو تاسو (Tasso). وهو لا يحتاج لأن يطلب منه الناقد[2] أن يتذكّر ما فكّر به شخص آخر، أو بأي أسلوب كان سيعبّر آخر عن فكره. فالعواطف البسيطة، والصداقة، والحنق والحبّ هي التي تؤلّف حركات عقله، وهو لا يملك فرصةً لمحاكاتها. ولأنه بسيط وتحمّس في مفاهيمه ومشاعره، فهو لا يعرف تنوّعاً في الفكر أو في الأسلوب، لتضليل حكمه أو ممارسته. فهو يعبّر عن مشاعر القلب، بكلماتٍ من القلب، لأنه لا يعرف سواها. لذا في الحين الذي نعجب فيه بحكم فرجيل وإبداعه، وبحكم شعراء لاحقين آخرين، فإن تلك المفردات لم تُطبّق تطبيقاً صحيحاً على هوميروس. وبالرغم من أنه ذكيّ وسامٍ بمفاهيمه، فإننا لا نستطيع أن نشاركهُ أنوار فهمه، ولا

---

(1) Translations of Gallic Poetry, by James McPherson.

(2) انظر لونجينوس (Longinus).

حركات قلبه، فهو يبدو متكلّماً من وحيٍ لا من إبداع، ومرشَداً في اختباره أفكاره وتعابيره بغريزة فوق طبيعية، لا بالتفكير.

كانت لغة العصور الأولى بسيطة ومحصورة من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى كانت متنوّعة وحرّة: فقد سمحت بالحريّات التي حُرم منها الشاعر في الأزمنة التي أعقبت.

وفي العصور البدائية لم تكن هناك امتيازات في المرتبة أو المهنة تفصل وتفرِّق بين الرجال. فقد عاشوا بأسلوب حياة واحد، وتكلّموا بلغة محلية واحدة. فلم يكن على الشاعر أن يختار تعبيره من بين لهجات فريدة لحالات مختلفة. ولم يكن عليه أن يحترس ويحمي لغته من الأخطاء الغريبة، وأخطاء الميكانيكي، والفلّاح، والبحّاثة، أو رجل الحاشية، لكي يجد تلك الملاءمة الأنيقة والسموّ العاجل المتحرِّر من اللغة العامية لطبقةٍ، واللغة المتحذلقة لطبقة ثانية، أو الثرثارة الوقحة لطبقة ثالثة. فاسم كل شيء، وكل شعور ثابت، وإذا كان لمفهومه جلال الطبيعة، فسيكون لتعبيره صفاء لا يعتمد على اختياره.

بذلك الحصر الواضح في اختيار كلماته، كان حرّاً في تجاوز الأنماط المألوفة في الإنشاء، وكان بإمكانه أن يجد لنفسه في شكل لغةٍ غير قائمةً على قواعد إيقاعٍ ملائم لنبرة عقله. فالحرية التي يمارسها عندما يكون المعنى لافتاً، وتكوينه للغة عالية، تبدو تحسيناً لقواعد اللغة لا انتهاكاً لها. فهو يقدِّم أسلوباً للأجيال التي ستعقب، ويصير نموذجاً منه يصدر حكم الأجيال القادمة كلها.

غير أنه، مهما كان ميل البشر الأول للشعر، أو الفوائد التي

حصلوا عليها من تعهّد وتشجيع هذا النوع من الأدب، سواء أنشئت التأليفات الشعرية الناضجة الأولى من كونها الأولى التي تمَّ درسها، أو من كونها حاصلة على سحر يشغل الأشخاص ذوي العبقرية الحيّة الناشطة، الذين كانوا الأكثر تأهّلاً لتحسين بلاغة لغتهم المحليّة. وإنها لحقيقة لافتة، وليست موجودة فحسب حيث كان مزاج التأليف أصلياً، وكان مفتوحاً في نظام التعاقب الطبيعي، لكن في روما، حتى في هذه المدينة، وفي أوروبا الحديثة، حيث بدأ المتعلّمون في وقتٍ مبكّر في ممارسة النماذج الأجنبية، نجد شعراء في كل أمة يقرؤون ويدرسون بسعادة، بينما كان كتّاب النثر في العصور ذاتها مهملين.

وكما سبق سوفوكليس (Sophocles) ويوربيديس (Euripides) مؤرخي بلاد اليونان وأخلاقييهم، لم يكن نيفيوس (Naevius) وإنيوس (Ennius) اللذين كتبا التاريخ الروماني بلغة الشعر وحدها، لكن كان هناك لوسيليوس (Lucilius)، بلوتس (Plautus)، ترنتيوس (Terence)، ويمكننا أن نضيف الـ لوكريتيوس (Lucretius) الذين سبقوا شيشرون، سالوست (Sallust)، أو القيصر. وقد سبق دانتي (Dante) وبترارك (Petrarch) كل كاتب نثر جيّد في إيطاليا، وكورناي (Corneille) وراسين (Racine) صنعا عصر مؤلفات النثر الجميل في فرنسا. ولم يقتصر الأمر في إنجلترا على تشوسر (Chaucer) وسبنسر (Spenser) بل شمل شكسبير (Shakespeare) وميلتون (Milton)، في حين كانت محاولاتنا في التاريخ أو العلم في عهد الطفولة لا يستحقان انتباهنا إلا من أجل المادة التي يعالجانها.

هيلانيكس (Hellanicus) الذي يعتبر من أوائل كتّاب النثر

في اليونان والذي سبق هيرودوت (Herodotus) مباشرة، أو كان معاصراً له، انطلق بالإعلان عن عزمه إزالة الأفكار الوحشية والخرافات المتطرّفة من التاريخ، التي بها جلب الشعراء له الخزي والعار[3]. وقد تكون الحاجة لسجلاّت أو مراجع تعود إلى أي تعاملات بعيدة، قد حالت بينه وبين إعطاء الحقيقة كل الفائدة التي كان يمكن تحصيلها من ذلك التحوّل إلى النشر، كما حالت بين الذي أعقبه مباشرة وبين مثل ذلك الإعطاء. وعلى كل حال كانت هناك عصور من التقدّم الاجتماعي حصل فيها احتفاء بمثل ذلك المقترح. فعندما صار الناس منشغلين في مواضيع الخطط السياسية، أو الفنون التجارية، رغبوا في المعرفة وفي التعلّم، كما أصبحت مشاعرهم مُثارة. فقد اهتموا بما كان حقيقة واقعية في التعاملات الماضية. وأشادوا على ذلك الأساس تأمّلات وأفكاراً طبقوهما على الأمور الحالية، ورغبوا في الحصول على معلومات عن مواضيع مهنٍ مختلفة، وعن مشاريع بدؤوا في تنفيذها. وأساليب حياة الناس، وممارسات الحياة العادية، وشكل المجتمع أعدّت مواضيعهم للكاتب الأخلاقي والسياسي. وبالرغم من أن مجرد العبقرية وصواب الشعور والفكر الصحيح قد نُقِلت باللغة العادية، فقد فُهمت على أنها جدارة أدبية، وبتطبيقها على العقل أكثر من الخيال والعواطف لاقت احتفاءً استحقّه التعليم الذي جلبته.

تستخدم مواهب الرجال في أمور مختلفة، وتُوجَّه بحوثهم إلى مواضيع مختلفة. فالمعرفة مهمة كدائرة من دوائر المجتمع المدني، ومطلوبة في ممارسة كل فن. فعلم الطبيعة، والأخلاق، والسياسة، والتاريخ، لها معجبون كُثر، وحتى الشعر نفسه الذي حافظ على

---

(3) اقتبسها ديمتريوس بلريوس (Demetrius Phalerius).

مركزه السابق في منطقة الخيال الدافئ والعاطفة الحماسية، ظهر في أشكال متنوّعة متنامية.

إلى الآن سارت الأمور من دون أمثلة من الخارج، أو توجيه من مدارس. فقد تحوَّلت عَرَبة تيسبيس (Thespis) إلى مسرح لا لإرضاء المتعلمين وإنما لإبهاج الشعب الأثيني، وتقرّرت جائزة الجدارة الشعرية من قِبَل ذلك الشعب قبل وبعد وضع القواعد. ولم يكن اليونانيون على معرفةٍ بكل لغة، سوى لغتهم، وإذا تعلّموا فإن تعلمهم لم يكن إلا عبر دراسة ما أنتجوه هم أنفسهم: فالأساطير الطفولية، التي قيل إنهم نسخوها من آسيا لم يكن لها أثر كبير في تعزيز حبهم للفنون، أو في نجاحهم في ممارساتها.

عندما يفاجأ المؤرخ بالأحداث التي شاهدها أو سمعها، وعندما يُصار إلى ربطها مع أفكاره أو عواطفه، وعندما رجل الدولة، المطلوب منه أن يتكلّم في المحافل العامة، يكون مضطراً لأن يعدّ لكل ظهور لافتٍ، خطاباً مدروساً، وعندما تصير المحادثة طويلة وراقية، وعندما تكون المشاعر الاجتماعية وأفكار الرجال ملزمةً بأن تكون مكتوبة، فإن نظام تعليم سينشأ من تلك الحياة النشيطة. فالمجتمع نفسه مدرسة، ودروسه تُلقى في ممارسة شؤون واقعية. فالمؤلف يكتب انطلاقاً من ملاحظات وضعها حول موضوعه، لا مما تقوله الكتب، وكل إنتاج يحمل علامة صانعه، لا فاعليته كتلميذ أو كباحث. وقد يطرأ سؤال، حول إذا ما كان الجهد الذي بذله في البحث عن نماذج بعيدة، والبذل طلباً للتعليم، عبر استشارات مظلمة ولغات مجهولة، لم يطفئا ناره، ويجعلاه كاتباً لكل طبقة دنيا.

لذلك إنه إذا أمكن اعتبار المجتمع مدرسة لصناعة الأدب والكتابة، فمن المحتمل أن تكون دروسه مختلفة في كل دولة منفصلة، وفي كل عصر. وقد حدث لحقبة معيّنة من الزمن، أن أخمدت تطبيقات الشعب الروماني القاسية للخطة السياسية وللحرب الفنون الأدبية، كما قمعت العباقرة، والمؤرخين والشعراء أيضاً. ومؤسسات إسبارطة احتقرت علناً كل ما ليس له علاقة بالفضائل العملية، وفضائل الروح القوية والمصمّمة: فقد صُنِّفت مباهج الخيال وعروض اللغة، من قِبَل أفراد ذلك الشعب، مع فنون الطهاة والعطّارين، وذكر بعض الكتّاب أغانيهم التي امتدحت الثبات والجَلَد، وما يزال يُحتفظ بمجموعات من أقوالهم الذكية وأجوبتهم السريعة البارعة، فدلّوا على وجود فضائل وقدرات شعب نشيط، لا عن قدرة في العلم، أو في الذوق الأدبي. ولأنهم كانوا مستحوذين بما هو جوهري للسعادة من فضائل القلب فقد أدركوا قيمته، ولم تقلقهم وتلهيهم أشياء لا حصر لها يضيع البشر كثيراً في تقدير قيمتها: ولأنهم ثابتون ولا يتزعزعون في إدراكهم، فإنهم أداروا ظهورهم لحماقات البشر. «متى ستبدأ في ممارستها؟»، ذلكم كان السؤال الذي وجهه إسبارطيّ لشخص كان ما يزال، في وقت متقدّم من حياته منشغلًا بمسائل تتعلّق بطبيعة الفضيلة.

في حين حصر ذلك الشعب بحوثه في مسألة واحدة، هي مسألة كيفية تحسين شجاعة القلب الإنساني وعواطفه النزيهة والحفاظ عليهما، فإن منافسيهم الأثينيين نظروا في تحسين كل موضوع فكري أو عاطفي. فبالمكافآت النفعية أو مكافآت الشهرة التي منحوها لكل محاولة عبقرية وظِّفت لخدمة بهجة الحياة، وتزيينها، أو إفادتها، وبعدم المساواة في الثروة، والحرف المتعددة

في الحرب، والسياسة، والتجارة، والفنون المربحة، بكل ذلك أيقظوا ما كان صالحاً أو طالحاً في الميول الطبيعية للبشر. فكان كل طريق للبروز مفتوحاً: البلاغة، والثبات أو الجَلَد، والمهارة العسكرية، والحسد، والإنقاص من القدر أو السمعة، والنزاع الحزبي، والخيانة، وحتى آلهة الفنون والعلوم نفسها، كانت تتوسَّل منح أهمية في شعب منهمك في العمل، وذكي وهائج مائج.

من هذا المثل يمكننا الاستنتاج، ومن دون زلل أنه بالرغم من أن الأعمال والمهن تكونان أحياناً منافستين في البحث، فإن التقاعد ووقت الفراغ ليسا الشرطين الرئيسيين لتحسين أو لممارسة المواهب الأدبية. وإن أكثر جهود الخيال والشعور لفتاً وروعةً لها إشارة إلى البشر: فهي تُثار بوجود البشر وتفاعلهم: وتكون أقوى ما تكون عندما تُثار في العقل عبر نشاطه الرئيسي، وعبر المنافسات، والصداقات، والمعارضات التي تكون بين شعب متقدِّم وطامح. وفي وسط المناسبات الكبرى التي تدفع بالمجتمع الحرّ، والفاسق أيضاً، وللحركة يصير أعضاؤه قادرين على القيام بكل جهد. فالمشاهد ذاتها التي أشغلت ثيميستوكليس (Themistocles) وتراسيبولوس، أوحت من طريق العدوى عبقرية سوفوكليس وأفلاطون. فمن كان فظّاً ومن كان عبقرياً وجدا مجالين متساويين لمواهبهما، وصارت الآثار الأدبية مستودعات للحسد والحماقة كما للحكمة والفضيلة.

قد تستمد مدرسة نورها واتجاهها، في حقبةٍ زمنية، من الحياة النشيطة، وفي حقبة أخرى تكون بقايا روح نشيطة مدعومة، وبقوةٍ، من آثار أدبية، ومن تاريخ التعاقدات التي حفظت أمثلة وخبرة أزمنة سابقة وأفضل. غير أنه مهما كان الأسلوب الذي شكَّل الرجال ليكونوا ذوي جهود عظيمة في مجال البلاغة أو السلوك، فالذي

بلاد اليونان التي كانت مقسّمة إلى دول صغيرة جداً وكثيرة، وغارقة خلافاً لأي بقعة في العالم في نزاعات محليّة وحروب خارجية، قدَّمت المثل في كل نوع من أنواع الأدب. وانتقلت النار إلى روما، ولم يحصل ذلك عندما توقَّفت عن الاستمرار بنزعاتها السياسية، وإنما عندما ربطت ما بين محبة التحسين والمتعة من جهة ومساعيها القومية من جهة أخرى، وغرقت في ميل للبحث والدرس في وسط هيجانات سبّبتها حروب ومطالبات الأحزاب المتضادّة. وقد أُعيد إحياؤها في أوروبا الحديثة بين الدول الإيطالية المتمرّدة، وانتشرت في الشمال هي والروح التي هزّت بنية الخطة السياسية القوطية(*) (Gothic)، وظهرت عندما كان الناس موزعين على صورة أحزاب، في ظلّ طوائف مدنية أو دينية، وعندما كانوا مختلفين حول أهم مواضيع وأقدسها.

قد نقنع من أمثلة عصور كثيرة أن المواهب الليبرالية الممنوحة للمجتمعات المثقَّفة، ووقت الفراغ الذي أُعِدَّ لها للدرس، ليسا الوسيلتين الممكنتين لإثارة جهود العبقري وقد هَزُلَ في ظلّ الاعتزال الرهباني. فالرجال البعيدون عن مواضيع المعرفة النافعة، وليس لهم دوافع تُحيي عقلاً نشيطاً وقويّاً، لا يستطيعون أن ينتجوا إلا لغةً تقنيّة فجّة، وأن يجمعوا ما ليس مرتبطاً بالأشكال الأكاديمية.

فالكلام والكتابة المنصفان، انطلاقاً من ملاحظة الطبيعة يستلزم الشعور بمشاعر الطبيعة. فذو العقل النقّاذ والمتحمس في سير الحياة، من المحتمل أن يبذل قوّةً متناسبةً وعبقريةً في ممارسته مواهبه الأدبية. وبالرغم من أن الكتابة صارت مهنة، وتتطلّب كل

(*) القوطيون (Goths) شعب جرماني اجتاح الإمبراطورية الرومانية في القرون الأولى للميلاد (المترجم).

تطبيق ودرس موجود في المهن الأخرى، فإن المتطلّبات الرئيسية في هذه المهنة تتمثّل في روح وحساسيّة عقلٍ قويّ.

يبدو أن أكثر ظواهر الخداع سطوعاً، يكون في البحث عن إنجازات البشر في مجد ثمار التأمّل، مهملين صفات الثبات والجَلَد والمحبة العامة اللازمة لجعل معرفتنا مادة من مواد السعادة أو الفائدة.

القسم الرابع

النتائج الناجمة عن تقدّم الفنون المدنيّة والتجاريّة

الجزء الأوَّل

الفصل بين الفنون والمهن

من الواضح أنه مهما كان الناس مدفوعين بحسّ لزومٍ وبرغبةٍ في الملائمة، أو منتفعين من أي فوائد تتعلّق بالموقف أوً بالخطة السياسية، فإنهم عاجزون عن إحداث تقدّم كبير في تعهّد ورعاية فنون الحياة قبل أن يفصلوا الأعمال المتعدِّدة التي تتطلّب مهارةً وانتباهاً خاصين، والتزامَ أشخاص مختلفين بها. أما المتوحِّش، أو البربري، الذي عليه أن يبني ويزرع ويصنع لنفسه، فإنه يفضِّل في فترة الإنذارات الكبرى بالخطر والمتاعب، أن يتمتّع بالكسل على تحسين حظّه أو ثروته، فقد يكون مثبط العزيمة، فلا يقوم بالصناعة، أو يكون هناك ما يحول دون اكتسابه مهارةً بسبب تشتّت انتباهه، نعني مهارةً في إدارة أي موضوع جزئي.

وقد حوَّل التمتّع بالسلم، والأمل في القدرة على مبادلة سلعةٍ بأخرى بصورة تدريجية، مثل الصيّاد والمحارب إلى مبادل للبضائع وتاجر. وصارت الأحداث التي عملت على توزيع وسائل العيش بطريقة غير متساوية، وكذلك الميل والفرص المفضَّلة، هي التي تُحدِّد وظائف الرجال المختلفة، وأدّى بهم الشعور بالمصلحة بلا حدود إلى توزّع مهنهم.

فوجد الفنان بقدر ما يحصر انتباهه في جزء محدَّد من أي عمل، يكون إنتاجه أكمل وينمو بيديه بكميات أكبر. ووجد كل متعهِّد أو مقاول في الصناعة أنه كلما زاد من تقسيم وتوزيع مهمّات عمّاله زاد العمال الذين يقدر على توظيفهم في نواحٍ منفصلة فإن نفقاته تتناقض، وأرباحه تزيد. والمستهلك بدوره يريد في كل نوع من أنواع السلع، صناعةً أكمل مما تستطيع إنتاجه أيدٍ عاملة في مواضيع متنوّعة، وما تقدّم التجارة سوى التقسيم المستمرّ للفنون الميكانيكية.

قد تستحوذ كل حرفةٍ على انتباه الإنسان كله، ويكون لها سرّ لا بدَّ من أن يُدرس أو يُتَعلَّم من قِبل مبتدئين منظمين. فقد يصدق أن تتألّف الأمم من تجار، ومن أعضاء يكونون جاهلين بما يتعدّى تجارتهم الخاصة، وكل الشؤون الإنسانية، وهؤلاء قد يسهمون في الحفاظ على حكوماتهم وتوسيعها، من غير أن يجعلوا مصلحتها موضوع اعتبارهم أو انتباههم. فكل فردٍ يتميّز بحرفته، وله الموقع الذي يلائمه. والمتوحّش الذي لا يعرف التميز والامتيازات سوى بجدارته، وجنسه (كذكر أو كأنثى)، أو نوعه، والذي يعتبر المجتمع مجتمعه، موضوع حبه المسيطر، ويذهله أن يجد في مشهد له تلك الطبيعة، أن كونه إنساناً لا يؤهِّله لأي منصب مهما كان، فيضطر للهرب إلى الغابات بذهول، ونفور، ومقتٍ شديد.

وبفضل الفنون والحِرف صارت مصادر الثروة مفتوحة، فكل نوع من المواد صار يُصاغ على أكمل وجه، وكل سلعة صارت تُنتج بأكبر مقدار. وصار يمكن للدولة أن تقدِّر أرباحها وعائداتها من طريق عدد سكانها. فيمكنها أن تكتسب لها الاحترام والسلطة القوميين اللذين يكونان للمتوحّش على حساب دمه.

يبدو أن المنفعة المكتسبة في الفروع الدنيا للصناعة عبر فصل أجزائها، تعادلها تلك التي تنشأ من وسيلة مماثلة في الدوائر العليا الخاصة بالسياسة والحرب. فالجندي لا همَّ له سوى خدمته، ورجال الدولة قسموا أعمال الحكم المدني إلى حصص. وخدّام الشعب في كل وظيفة ومن دون أن يكونوا ماهرين في شؤون الدولة قد ينجحون في الإشراف على أشكال من العمل سبق أن قامت على خبرة آخرين. فقد جُعلوا مثل أجزاء آلةٍ يوحّدهم الهدف من دون أي اتفاق أو تناغم من قِبَلهم، وبالرغم من معرفتهم بالتاجر في أي مجموعة عامة فإنهم يلتقون معه في تجهيز الدولة بمصادرها، وسلوكها، وبقوّتها.

براعات السمّور(*) (Beaver)، والنملة والنحلة تنسب إلى حكمة الطبيعة. والأمم المصقولة المثقّفة تنسب إلى نفسها، ويُفترض أن تدلّ على طاقةٍ أعلى من طاقات العقول البدائية، غير أن مؤسسات البشر، مثل ما يخصّ كل حيوان، هي من وحي الطبيعة، وهي نتيجة للغزيرة الموجَّهة بأنواع من الأوضاع التي يوجد فيها البشر. ونشأت تلك المؤسسات من تحسينات متعاقبة حصلت من دون أي شعور بأثرها العام، وأوصلت الشؤون الإنسانية إلى حالةٍ من الاكتمال لا يمكن أن تقدر الطاقة العظمى، التي تتزيَّن بها الطبيعة البشرية وأن تحققها، وما يُنفَّذ عند الكلّ لا يمكن فهمه بمقداره الكامل.

من كان يتوقع، أو يعدِّد المشاغل والحرف المنفصلة التي كانت تميِّز أعضاء أي دولة تجارية، والأنواع المختلفة من الوسائل

(*) حيوان من القواضم ثمين الفرو (المترجم).

التي استُعملت في حجيرات منفصلة، وعمل الفنان المهتم بشؤونه، على إبداعها لاختصار أو لتسهيل عمله المنفصل؟ وفي بلوغ تلك الغاية القوية بدا كل جيل بالمقارنة مع سابقيه من الأسلاف عبقرياً، وبالمقارنة بمن خلفه قد يبدو غبيّاً، أما العبقرية الإنسانية مهما كانت الذرا التي قد تكون قد حققتها مع تتابع العصور، فقد استمرت في الحركة بخطى متساوية، وزحفت لصنع الخطوة الأخيرة أيضاً، وهي الأولى من خطى التحسن التجاري أو المدني.

قد يحصل ارتياب حول إذا ما كان مقدار الطاقة القومية يزداد مع تقدّم الفنون. والحق يُقال، إن العديد من الفنون الميكانيكية لا يتطلَّب قدرة لنجاح أفضل، في ظلّ قمعٍ كلّي للشعور وللعقل، وجهل بأمر الصناعة، والخرافة أيضاً. فالتفكير والخيال معرَّضان للخطأ، لكن عادة تحريك اليد، أو القدم، مستقلّة عن أي واحدٍ منهما. لذا، فإن أصحاب المعامل يزدهرون أكثر عندما لا يستشار العقل، وحيث تعتبر ورشة العمل، ومن دون أي جهدٍ خيالي كبير بمنزلة آلة أجزاؤها رجال.

كان المتوحّش يقطع الغابة من دون أن يستعمل الفأس، وكانت الأوزان تُرفع من دون عون القوى الميكانيكية. وقد تستحق جدارة المبدع، في كل فرع، أفضليةً على المنفِّذ، والذي اخترع أداةً، أو استطاع أن يعمل من دونها، يستحق مديح العبقرية، وبدرجة أعلى من الفنّان الذي بعونها ينتج عملاً متفوِّقاً.

غير أنْ هناك أقساماً كثيرة في ممارسة كل فن، وفي تفاصيل كل دائرة لا تتطلَّب قدرات، وهي تجنح فعلياً إلى تقليص وتحديد النظرات العقلية، فهناك أقسام أخرى تؤدي إلى ظواهر تفكير عام،

وإلى توسيع للفكر. وفي الصناعة تكون عبقرية الرئيس مصقولةً، بينما عبقرية العمّال الأدنى منه مهدورة. وقد يكون رجل الدولة حائزاً على فهمٍ واسعٍ للشؤون الإنسانية، في حين تكون الأدوات التي يوظفها جاهلةً بالنظام الذي يجمعها. وقد يكون الملازم العام في الجيش ذا فاعليةٍ كبيرة في المعرفة الحربية، في حين تكون مهارة الجندي محصورةً بحركات قليلة باليد وبالقدم. فالأمل قد يكون قد كسب ما خسره الأخير، ولكونه منشغلاً في تسيير جيوش منظَّمة، فإنه قد يمارس بمقدارٍ كبير جميع فنون المحافظة على البقاء، والخداع، والاستراتيجية، التي يمارسها المتوحش في قيادته مجموعة صغيرة، أو في الدفاع عن نفسه ليس إلّا.

الذي يمارس الفن وأي مهنة قد يقبل مسألة ذات فكر عام عند رجل العلم، كما أن التفكير نفسه في عصر الفصل هذا، قد يصبح مهنة فريدة ومميِّزة. وفي غمرة الحِرف والمهن المدنية، يبدو البشر في أضواء متنوّعة، وتطرح مسألة البحث والخيال، وبها تنفخ الحيوية في الحديث الذي يتوسَّع كثيراً. فإنتاجات العبقرية تُجلب إلى السوق، والناس مستعدون لدفع ثمن كل ما ينقل خبراً أو يسبب تسليةً. وبهذه الوسيلة، يسهم الكسالى والناشطون في تقدّم الفنون، وفي إضفاء جوّ من العبقرية المتفوّقة على الأمم الثقافية المصقولة، هذه العبقرية التي تبدو أنها حقَّقت غايات كان المتوحّش قد سعى إليها في الغابة، وحققت معرفةً ونظاماً وثروة.

الجزء الثاني

التبعيّة الناجمة عن فصل الفنون والمهن

ثمَّة أساس للتبعية في اختلاف المواهب والميول الطبيعية، وأساس ثانٍ في التقسيم غير المتساوي للملْكية، وثالث، معرفته لا تقل في العادات التي تُكتسب عبر ممارسة فنون مختلفة.

بعض الوظائف ليبرالي، وبعضها الآخر يدوي. فهو يتطلَّب مواهب مختلفة، وسواء كان ذلك سبب الأفضلية التي نقدّمها أم لم يكن، فإن المعقول المؤكَّد تشكيل رأينا في المرتبة المستحقة لرجال من ذوي مهن ومواقع معينة من تأثير أسلوب حياتهم في رعاية وصقل قوى العقل، أو في المحافظة على مشاعر القلب.

يتصف الإنسان بسموّ أو نبل طبيعي بحسبه يُخال أنه في حالته البدائية، ومهما كانت الضرورة الضاغطة عليه فهو قادر على الارتفاع فوق اعتبار موارد العيش، والاهتمام بالمصلحة، والعمل، فحسب، انطلاقاً من القلب في علاقاته، وعلاقات الصداقة أو العداوة، ولا يبيّن عن نفسه إلّا في مناسبات الخطر أو الصعوبة، ويترك الهموم العادية للضعفاء أو العبيد.

في كل وضع تنظِّم إدراكاته ذاتها مفاهيمه للدناءة وللكرامة. وفي المجتمع المثقَّف تجعله رغبته في تجنّب صفة الخسيس يخفي اعتباراته لما يتصل بمحافظته على ذاته أو بعيشه فحسب. وهو يحسب المتسوِّل الذي يعتمد على الإحسان، والعامل الذي يجهد ويكدّ لكي يأكل، والحرفي اليدوي الذي لا يتطلّب فنه جهداً عبقرياً، هؤلاء كلهم ينحطّون بالهدف الذي يسعون إليه، وبالوسائل التي يستخدمونها لتحقيقه. فالمهن تتطلّب الكثير من المعرفة والبحث، فهي تبدأ من ممارسة الخيال، وحبّ الكمال، مؤدية إلى الإطراء والربح أيضاً وتضع الفنان في طبقة عليا، وتقرِّبه من ذلك المركز الذي يعتبر من يكون فيه أنه في عِلّيين، لأنهم يكونون غير مقيّدين بعمل، ولأنهم أحرار في اتباع ميول عقولهم، ولعب ذلك الدور في المجتمع الذي تقودهم إليه مشاعر قلوبهم، أو نداءات الشعب.

كان ذلك الأخير هو المركز، الذي في حالة التمييز بين الأحرار والعبيد، ناضل المواطنون في كل جمهورية قديمة للحصول عليه واستبقائه لأنفسهم. أما النساء أو العبيد في العصور الأولى، فقد خصصوا لأغراض العناية المنزلية، أو العمل الجسدي مع تقدّم الفنون المربحة، ورُبِّيَ العبيد للقيام بالمهن اليدوية، كما عُهد إليهم ببيع السلع لصالح أسيادهم. أما الأحبار فلم يكن يعتبر لهم هدف باستثناء ما يخصّ السياسة والحرب. وبهذا الشكل، حصلت تضحية بمقام نصف الشعب للنصف الآخر، مثل الحجارة من المقلع ذاته التي تدفن لتكون الأساس الذي يسند المبنى الضخم المنحوت إلى الأجزاء العليا من المبنى. وفي غمرة المدائح الموجهة لليونانيين وللرومان تذكرّنا تلك الحالة بأنه لا وجود لمؤسسة إنسانية كاملة.

في الكثير من المدن الإغريقية (اليونانية)، لم تمنح الفوائد

الناشئة للأحرار من ذلك التميز الوحشي القاسي بصورة متساوية للمواطنين جميعهم. فالثروة كانت موزّعة توزيعاً غير متساوٍ، والأغنياء وحدهم كانوا معفيين من العمل، وتحوّل الفقراء إلى مجرّد عاملين لموارد عيشهم، وكانت المصلحة هي العاطفة المسيطرة عند كليهما، وصارت حيازة العبيد، مثل أيّ ملْكية مربحة موضوعَ جشع في المال، لا ابتعاداً عن الأمور الخسيسة. أما ثمار المؤسسة فكان يُحصل عليها، أو استمر التمتع بها لوقت طويل في مدينة إسبارطة وحدها. ونحن نشعر بالظلم الذي انصبَّ على ذلك القن (Helot) في إسبارطة القديمة عبر ظواهر الوحشية والمعاملة غير المتساوية اللتين تعرَّض لهما. غير أننا عندما لا نفكر إلّا بالترتيب العالي للناس في تلك الدولة، وعندما ننظر إلى ذلك الارتقاء الروحي والشهامة اللذين لا يخيفهما الخطر، والمصلحة التي ليس لها وسائل إفساد، وعندما نعتبرهم أصدقاء، أو مواطنين، فسنكون قابلين لأن ننسى مثلهم أن للعبيد حقاً بأن يُعاملوا كبشر.

نحن نبحث عن ترقية للشعور وليبرالية للعقل في وسط تلك الترتيبات من المواطنين، الذين كانوا بداعي حالتهم وحظوظهم متحرّرين من الاهتمامات الخسيسة. ذلكم كان وصف الرجل الحرّ في إسبارطة. وإذا كان حظ العبد عند القدماء أتعس من حظ العامل الفقير والعامل اليدوي عند الحديثين، فقد يحصل ارتياب حول إذا ما كانت المراتب العليا التي كان أصحابها يحوزون الاعتبار ومراتب الشرف، لم يخفقوا تناسبياً في تقدير الكرامة التي تلائم حالتهم. وإذا كانت مطالب العدالة والحرية المتساوية ستؤول إلى تحويل كل طبقة إلى عبيد ومرتزقة، فإننا نخلق بذلك أمةً من الأقنان، لا مواطنين أحراراً.

في كل دولة تجارية، وبالرغم من أي زعمٍ بحقوق متساوية، لا بدَّ من أن يقمع إعلاء القلّةِ الكثرةَ. ومن هنا نعتبر أن الحقارة المتطرّفة لبعض الطبقات لا بدَّ من أن تنشأ بصورة رئيسية من نقص المعرفة، والافتقار للتربية الليبرالية، ونحن نشير إلى مثل تلك الطبقات، كما لو أننا نشير إلى الصورة التي كانت لنوعنا في حالته البدائية وغير المثقَّفة. غير أننا ننسى كم من الظروف الكثيرة خاصة في المدن المكتظَّة بالسكان جنحت إلى إفساد مراتب البشر الدنيا. وما كان الجهل إلّا أقل تلك العيوب. فالإعجاب بالثروة غير المملوكة غدا مبدأً للحسد، أو الذلّ، وعادة عملٍ دائم للمنفعة من خلال شعور بالخضوع. فالجرائم التي تمَّ إغراؤهم باقترافها لكي يغذّوا فُسوقهم وجشعهم، أو لإرضاء حب اكتسابهم للمال، كل ذلك صدر عن الفساد الخُلقي والحقارة، ولم يصدر عن الجهل. فكما أن المتوحّش لم يتلقَّ تعليماتنا، فهو أيضاً لم يكن عارفاً برذائلنا. فهو لم يعرف من هو أعلى منه، فلا يمكن أن يكون عبداً. وهو لم يعرف تمييزات في الثروة، فليس بحسود. فهو كان ينطلق في عمله من مواهبه في أعلى موقع يمكن أن يقدّمه المجتمع الإنساني، وهو منصب المستشار، والجندي في بلاده. وبتشكيله مشاعره، كان يعرف كل ما يريد القلب أن يعرفه، وكان قادراً على تمييز الصديق الذي أحبّه، والمصلحة العامة التي توقظ حماسه.

الاعتراضات الرئيسية على الحكم الديمقراطي أو الشعبي تنشأ من ظواهر عدم المساواة التي تحصل بين البشر كنتيجة للفنون التجارية. ولا بدَّ من الاعتراف بأنه، عندما تتألف الاجتماعات العامة من رجال ذوي ميول خسيسة، وتطبيقاتهم العادية تكون غير ليبرالية، فإنهم لا يصلحون للقيادة مهما كانوا مدعومين باختيار

أسيادهم وقادتهم. فكيف يستطيع من حصر أفكاره بوسائل عيشه أو ببقائه أن يؤتمن على إدارة أمم؟ فإذا سُمح لمثل هؤلاء الرجال بأن ينظروا في شؤون الدولة، فإنهم يدخلون الفوضى والشغب لمجالسها، أو العبودية والفساد. وهي قلّما تتوقّف عن التحزّبات المدمِّرة، أو عن نتائج قرارات سيئة التكوين أو سيئة التنفيذ.

حفظ الأثينيون حكمهم الشعبي في ظلّ تلك العيوب جميعها. فقد أُلزم العامل اليدوي، وتحت طائلة العقوبة بأن يظهر في السوق العامة، وأن يسمع مناقشات حول مواضيع الحرب والسلام. وكان يُغرى بجوائز مالية، لكي يحضر محاكمات مدنية وجنائية. غير أنه بالرغم من التمرين المستهدف صقلَ مواهب المعوزين والفقراء، فإنهم كانوا بشكل دائم يصدرون عن عقول ميّالة للربح، أو بعادات حرفةٍ غير ليبرالية. ولأنهم غارقون في الشعور بتفاوتهم وضعفهم الشخصيين، فقد كانوا مستعدين أن يضعوا نفوسهم بشكل كلّي بتصرّف قائد شعبي ما، يتملّق عواطفهم ويلعب على مخاوفهم، أو كانوا مدفوعين بالحسد، مما جعلهم جاهزين لأن يبعدوا عن الدولة كل من كان محترماً وبارزاً في الترتيب العالي للمواطنين. والرئاسة ذات السيادة كانت في كل لحظةٍ جاهزة للسقوط من أيديهم، سواء أكانت مهملة للشعب، مرةً، أم كانت إدارتها سيئة في مرة أخرى.

في مثل تلك الحالة، كان الشعب بشكل متكرّر محكوماً من شخص واحد أو من قلّة يعرف أو تعرف كيف تسيّره. فبيركليس (Pericles) كان له نوعٌ من السلطة الأميرية في أثينا، وكراسوس (Crassus)، وبومبيوس وقيصر حصلوا على التوجيه السيادي في روما، إمّا مشاركةً أو تعاقباً.

وسواء في الدول الكبرى أو في الصغرى فإن الحفاظ على الديمقراطية يتمّ بصعوبة في ظل الظروف المختلفة وثقافة العقل غير المتساوية، التي تلحق حرفاً مختلفة وتطبيقات متباينة تفصل بين الناس، في حالة الفنون التجارية المتقدّمة. وعلى أية حال لا نقدر إلّا أن نرافع ضد شكل الديمقراطية، بعد إزاحة المبدأ، ونرى الاستحالة العقلية للمطالب الخاصة بالنفوذ والاعتبار المتساويين، بعد عدم بقاء شخصيات الرجال على تشابهها.

الجزء الثالث

أساليب حياة الأمم الثقافيّة المصقولة والتجاريّة

كان للبشر في حالتهم البدائية تشابه كبير في أساليب الحياة، لكنهم عندما صاروا متمدنين انخرطوا في أنواع مختلفة من الحرف. فطرقوا ميادين واسعة، وتباعدوا على مسافات طويلة. على كل حال لو أنهم أُرشدوا بميول متشابهة وبأفكار طبيعية متماثلة، لكانوا استمروا في النهاية كما في بداية تقدّمهم في الاتفاق على جزئيات كثيرة. وفي حين تسلِّم المجتمعات على مستوى أعضائها، بأن ذلك التنوّع في الرتب والحرف الذي سبق أن وصفناه هو نتيجة التجارة أو أساسها، فإنهم سوف يتشابهون في نتائج كثيرة لذلك التوزيع، وفي ظروف أخرى يوجدون فيها، تقريباً.

في ظلّ أي شكل من أشكال الحكم يحاول السياسيون القضاء على الأخطار التي تهدّدهم من الخارج، والظواهر المقلقة التي تزعجهم في الداخل. وبذلك السلوك - إن نجح - يكسبون في أزمنة قليلة سيطرةً وصعوداً في بلادهم، ويقيمون حدوداً على مسافةٍ من العاصمة، ويجدون في رغبات الهدوء المتبادلة، التي تستحوذ على البشر، وفي تلك المؤسسات العامة التي تحفظ

السلم في المجتمع، راحةً من الحروب الخارجية وفَرَجاً وراحةً من الاضطرابات الداخلية. ويتعلمون كيف يفصلون في كل نزاعٍ من دون حدوث شغبٍ أو فتنة، ويؤَمّنون كل مواطن بسلطة القانون على حيازته لحقوقه الشخصية.

في هذه الحالة التي تطمح إليها الأمم المزدهرة والتي حصلت عليها بمقدار ما، نجد أن البشر بعد أن أرسوا أساس السلامة، يتابعون بناء بنية فوقية ملائمة لنظراتهم. والنتيجة تكون متنوّعة في الدول المختلفة، وحتى في مراتب البشر المختلفة في المجتمع ذاته، والنتيجة الحاصلة لكل فردٍ تتطابق مع موقعه. وذلك يمكّن رجل الدولة والجندي من تسوية إشكال إجراءاتهم المختلفة. وقد تمكّن صاحب الحرفة، في كل حرفة من السعي وراء فائدته المنفصلة، وهي توفِّر لإنسان المتعة وقتاً للتحسن، وللمفكِّر وقتاً للمحادثة الأدبية أو البحث.

في هذا المشهد تصير المسائل التي لا علاقة لها بالحِرف النشيطة للبشر مواضيع بحثٍ، وتصير ممارسة الشعور والعقل ذاته بمنزلة مهنة. فأغاني الشاعر وخطب السياسي والمحارب، والتقاليد وقصة الأزمنة القديمة، تعتبر نماذج أو إنتاجاً أولياً لفنون كثيرة، ويصير هدف المهن المختلفة نسخه أو تحسينه. وتُصنَّف مؤلفات الخيال مثل مواضيع التاريخ الطبيعي إلى أصناف وأنواع، وتجمع قواعد كل نوع مفرد على نحوٍ متميّز، وتحفظ المكتبة مثل المستودع مع المصنوعات الخالصة لفنانين مختلفين يطمحون بعونٍ من المختصّ بقواعد اللغة والناقد، وكل واحد منهم بطريقته الخاصة لتعليم العقل وتحريك القلب.

وكل أمةٍ عبارة عن جمعٍ دقيق من الشخصيات المختلفة، يحتوي، في ظلّ أي شكل سياسي على بعض الأمثلة عن ذلك التنوّع الذي توفّره نزوات البشر، واتجاهاتهم ومدركاتهم الموظَّفة توظيفات مختلفة. فكل حرفةٍ لها مرتبة شرف، ونظام سلوك وعادات، فللتاجر تعامله الخاص والمنصف، وللسياسي طاقته وخطابه، وابن المجتمع له تربيته الصالحة، وذكاؤه. وكل مركز اجتماعي له مركبة خاصة، ولباس خاص، وطقس، يُميَّز بهم، ويخفي من خلالهم الطابع القومي تحت المرتبة الاجتماعية أو الفردية.

يمكن تطبيق هذا الوصف نفسه على مدينة أثينا وروما، وعلى لندن وباريس. وقد يلاحظ البدائي أو المراقب البسيط التنوّع الذي رآه في المنازل وفي المهن لرجال مختلفين، لا في مظاهر أمم مختلفة. فسوف يجد في شوارع المدينة ذاتها تنوّعاً كبيراً كالموجود في منطقة شعب منفصل. فلا يستطيع أن ينفذ بنظره عبر الغيوم المتجمّعة أمامه، ولا يرى كيف يختلف التاجر، والعامل اليدوي أو العالم في بلاد عنهم في بلاد أخرى. غير أن المواطن في كل منطقة يستطيع أن يميّز الغريب، وعندما يكون مسافراً يفاجئه ويدهشه مظهر بلاد غريبة في اللحظة التي فيها يجتاز حدود بلاده. فسيماء الشخص أو مظهره الخارجي، ونبرة صوته، ولهجة لغته، وتوتّر حديثه، سواء أكان حزيناً أم ضعيفاً، مرحاً أم قاسياً، كل ذلك لا يبقى كما كان.

قد ينشأ الكثير من مثل تلك الفروق في الأمم المصقولة المثقَّفة من تأثير المناخ، أو من المصادر التي ما تزال مخفيّةً أو غير مرئية، لكن التمييزات الرئيسة التي يمكننا الاعتماد عليها، تُستمدّ

من الدور الذي يضطر أفراد الشعب أن يقوموا به بقدرتهم، ومن المواضيع أو الأهداف التي تضعها الدولة أمامهم، أو من دستور الحكم الذي يصف بنود المجتمع لأعضائه، فكل ذلك له تأثير كبير في تشكيل مفاهيمهم وعاداتهم.

كان مصير الشعب الروماني اكتساب الثروة من طريق الغزوات والفتوح، وسلب المناطق، والقرطاجيون الذين اعتمدوا على عائدات التجارة، وإقامة المستعمرات التجارية ملؤوا شوارع عواصمهم المختلفة بأناس ذوي ميول ومظاهر مختلفة. والروماني كان يمسك بسيفه عندما كان يطلب العظمة، وكانت الدولة تجد جيوشها جاهزةً في مساكن شعبها. والقرطاجي عاد إلى موقعه استناداً إلى مشروع مماثل، وعندما يتهدّد الخطر الدولةَ، أو تقرَّر الدولة الحرب، كان يقدّم أرباحه لاستئجار جيش من الخارج.

لا بدَّ من أن يكون العضو في نظام جمهوري والعضو في نظام ملكي مختلفين لاختلاف الأدوار المحدَّدة لهما من الأشغال في قطريهما: أحدهما مقدَّر له أن يعيش مع آخرين مساوين له، أو أن يكافح بمواهبه الشخصية وطابعه للبروز، والآخر وُلِدَ في مركز اجتماعي محدَّد، وحيث كل ادعاء بالمساواة يولِّد فوضى واضطراباً، وحيث لا شيء سوى الأسبقية التصدّرية هو الذي يُدرس. وعندما تكون مؤسسات البلاد ناضجة، يجد كل واحد منهما في القوانين حمايةً لحقوقه الخاصة، لكن هذه الحقوق ذاتها التي تُفهم بأشكال مختلفة، وبمجموعة من الآراء المختلفة، تولِّد مزاجاً عقلياً مختلفاً. فالجمهوري عليه أن يعمل في الدولة للاحتفاظ بمطالبه، وعليه أن ينتمي لحزب لكي يكون في أمان، وعليه أن يقود أحد الأحزاب

ليصير عظيماً. أما المواطن في النظام الملكي فيشير إلى مولده دعماً للامتياز الذي يدّعيه. فهو ينتظر في قصر ليظهر أهميته، ويرفع شارات الاستقلال والأفضلية ليكسب تقديراً من الشعب.

إذا كانت المؤسسات القومية المحسوبة للمحافظة على الحريّة، بدلاً من أن تدعو المواطن ليعمل لنفسه، ويحافظ على حقوقه، قامت بواجب الأمن الذي لا يتطلّب منه انتباهاً أو جهداً شخصياً، فإن هذا الكمال الظاهري الحكومي قد يوهن أيدي المجتمع، ويفصل ويبعد استناداً إلى قواعد الاستقلال، والمراتب الاجتماعية المختلفة التي طُلب منه العمل على تسويتها. فلا يمكن أن تعمل الأحزاب المشكّلة في الجمهوريات، ولا اجتماعات البلاط الملكي التي تعقد في أنظمة الحكم الملكية يمكن أن تحصل، عندما يتوقف الشعور بالتعاون بين أعضائها. فقد تتكرّر ظواهر اللجوء إلى التجارة، ويظل الجمهور يسعى وراء مجرد التسلية، في حين يتراجع النظر الخاص إلى النقيض، نافراً من الجَلَبة التي تنشأ من ظواهر الاحترام والانتباه، الذي قد يكون جزءاً من العقيدة السياسية التي تقتضي عدم تصديق أي نتيجة، ومسألة تتطلّب ازدراءً.

هذه الحالة الذهنية أو النزوة قد تنشأ في الأنظمة الجمهورية أو الملكية سواء بسواء: وأكثر ما تكون في خليط منهما، حيث تؤمن إدارة العدالة على نحوٍ أفضل، وحيث يبحث الشخص عن المساواة، لكنه لا يجد سوى الاستقلال محلّها، وحيث يتعلَّم انطلاقاً من روح المساواة، أن يكره ظواهر التمييز ذاتها، بحسب قيمتها الحقيقية، ويعمل على إرجاء مدهش.

في كل واحد من الشكلين المنفصلين، الجمهوري والملكي،

أو في تطبيق مبادئ أي واحدٍ منهما، يضطر الناس إلى تملّق مواطنيهم، وأن يقوموا بأدوار ويتخاطبوا بغية تحسين حظوظهم وثرواتهم، أو ليحافظوا على سلامتهم أيضاً. ويجدون في كليهما مدرسةً للتمييز والنفوذ العقلي. غير أنهم يتعلمون، في أحدهما تجاوز الجدارات الخصوصية للشخصية من أجل القدرات التي لها وزنها عند الشعب، وفي الآخر يتعلّمون تجاوز المواهب العظيمة والمحترمة، من أجل الصفات المنخرطة أو المبهجة في مشهد التسلية وفي المجتمع الخاص. وفي الحالتين هم مضطرون لتكييف أنفسهم بعناية، بحسب شكل وأساليب حياة بلادهم. فهم لا يجدون محلاً للأهواء والنزوات، أو التسليات الفردية. فعلى الجمهوري أن يكون شعبياً، وعلى رجل الحاشية أن يكون مهذَّباً. الأول يجب أن يعتبر نفسه مرتاحاً في كل مجموعة، والآخر عليه أن يختار منتجعاته، وأن لا يرغب في أن يكون مميَّزاً إلّا حيث يكون المجتمع مقدَّراً ومحترماً. ومع من هم أدنى منه يتَّخذ مظهر الحماية أو الوقاية، ويعاني بدوره من ذات المظهر. أما الإسبارطي الذي لا يخشى شيئاً سوى الفشل في واجبه، والذي لا يحب سوى صديقه والدولة، فلا يتطلب مثل تلك الخشية الدائمة على نفسه التي تدعم شخصيته كما يحصل تكراراً عند المواطن في النظام الملكي من قبيل تكييف نفقاته وثروته لتتلاءم مع رغبات خيلائه، وللظهور في طبقة اجتماعية بسموّ مولده أو طموحه نعني بمقدار ما يمكنهما بلوغه من ذلك السمو.

لا يوجد تفصيل من التفاصيل في ذات الوقت، ولا نكون فيه ظالمين أكثر من تطبيق الشخصية المفترضة للبلاد على الفرد، أو لا نكون فيه تكراراً مضلّلين أكثر من أخذ فكرتنا عن شعب من مثلِ

واحد، أو من قلّة من أعضائه. فدستور مدينة أثينا هو الذي أنتج كليون (Cleon) وبيركليس، ولكن جميع الأثينيين لم يكونوا مثل كليون أو بيركليس. فقد عاش ثيميستوكليس وأرستيدس (Aristides) في العصر ذاته؛ أحدهما علّم ما هو مربح، والآخر علَّم بلاده العدالة.

الجزء الرابع

متابعة الموضوع ذاته
(أساليب حياة الأمم الثقافية)

قانون الطبيعة الذي ينطبق على الأمم هو ذاته الذي ينطبق على الأفراد، فهو يمنح أفراد الجسم الاجتماعي الحق بالمحافظة على نفوسهم، وأن يستخدموا براحةٍ وسائل الحياة، ويحفظوا ثمار العمل، ويطلبوا الاتفاقيات والعقود. وفي حالات العنف هو يدين المعتدي، ويعطي للمتضرِّر حق الدفاع والمطالبة بالجزاء. وفي مجال التطبيق يجيز الخلاف والنزاع ويولِّد تنوّعاً في فهم البشر وممارساتهم.

وقد اتفقت الأمم بصورة شاملة على التمييز بين ما هو صواب وما هو خطأ، وفي انتزاع التعويضات عن الأذى عبر الموافقة أو بواسطة القوة. ودائماً كانت تعتمد بدرجة من الدرجات على الإيمان بالمعاهدات، لكنها تصرَّفت كما لو أن القوة هي الحاسم الأخير في نزاعاتهم جميعها، والقوة اللازمة للدفاع عن نفسها، والضمان الذي لا ضمان يفوقه لسلامتها. ومع استرشادها بتلك الأفكار العامة نراها اختلفت ولم يقتصر اختلافها على مسائل شكلية، بل شمل مسائل ذات أهمية عظمى تتعلق بتوسّل الحرب، ونتائج الأسر، وحقوق الغزو والنصر.

عندما ينغمر عدد من المجتمعات المستقلّة بشكل متكرّر في حروب، ويكون بينها تحالفات وتعارضات واضحة، نراها تتبنّى تقاليد تتَّخذها أساساً لقواعد، أو لقوانين لا بدَّ من المحافظة عليها، أو تذرّعها في تعاقداتهم المتبادلة جميعها. وفي الحرب - حتى في الحرب - ذاتها نراها تتبع نظاماً، وتدافع عن مراقبة الأشكال في عمليات تدميرها المتبادل ذاتها.

لقد استمدت دول اليونان وإيطاليا القديمة أساليبها من طبيعة حكوماتها الجمهورية، واستمدتها دول أوروبا الحديثة من تأثير النظام الملكي، الذي كان لانتشاره في هذا الجزء من العالم أثرٌ عظيم في الأمم، وحتى حيث لم يكن هو الشكل القائم. استناداً إلى قواعد هذا الحكم نقع على تمييز بين الدولة وأعضائها، مثل الذي بين الملك والشعب، يجعل الحرب عملية خطة سياسية لا مسألة عداوة شعبية. وعند تركيزنا على المصلحة الشعبية لن نتكلم عن المصلحة الخصوصية، كما أننا نحمل احتراماً واعتباراً للأفراد، غالباً ما يمنع المسائل الدموية في حماسة النصر ويسبب لأسير الحرب استقبالاً كريماً في المدينة التي جاء لتدميرها نفسها. وقد تأسست تلك الممارسات تأسيساً جيّداً، حتى إنه يندر أن يشكّل أي إثارة من العدو، أو أي مطلب لخدمة، عذراً لتجاوز قواعد الإنسانية القائمة، أو خلاصاً للقائد الذي يقترفها من أن يصبحَ موضوع مقتٍ وخوف مروّع.

بالنسبة لذلك، كانت الممارسة العامة لليونانيين وللرومان ممارسة مضادّة. فقد حاولوا جرح الدولة عبر تحطيم أعضائها، وهجر أرضها، وعبر تدمير ممتلكات رعاياها. ومنحوا مكاناً

للاستعباد، أو لجلب الأسير إلى تنفيذ حكم إعدام مهيب، أما العدوّ وبعد تجريده من سلاحه فقد كان في معظم الأحيان يُباع في السوق أو يُقتل، فلا يعود أبداً لتقوية جماعته. فعندما كان ذلك هو موضوع الحرب، فلا عجب أن تكون المعارك قد خيضت بيأسٍ، وأن الحصن كان يُدافع عنه إلى النهاية الأخيرة. فلعبة الحياة الإنسانية مرّت بمخاطر عالية ونُفذّت بحماسٍ متناسب معها.

ومصطلح بربري في تلك الحالة من أساليب الحياة لم يكن يستخدمه اليونانيون أو الرومان بالمعنى الذي نستخدمه نحن، نعني: لوصف شعبٍ مجرد من الفنون التجارية، ومسرف في حياته وحياة الآخرين، وأفراده متحمسون في علاقتهم بمجتمع واحد، وعنيدون في كراهيتهم لمجتمع آخر. كل ذلك كان يمثّل في جزء كبير ولامع من تاريخهم، شخصيتهم، وشخصية بعض الأمم الأخرى، التي نميّزها، استناداً إلى هذا الشرح ذاته، بتسميتها بربرية أو بدائية.

لقد لوحظ أن تلك الشعوب المشهورة كانت مدينة، وبمقدار كبير من اعتبارها لا لتاريخها، وإنما للأسلوب الذي تمَّ به، ولقدرة مؤرخيهم وكتاب آخرين. فقد روى قصتهم رجال عرفوا كيف يجذبون انتباهنا لأعمال العقل والقلب أكثر من الآثار الخارجية، وتمكّنوا من عرض شخصيات بغية الإعجاب بها وحبّها، في خضم أفعال يجب علينا الآن أن نكرهها أو ندينها بشكل شامل. مثل هوميروس، الذي هو نموذج الأدب اليوناني، وعملوا على أن ننسى معاملة العدو الحقودة الانتقامية الوحشية وعديمة الندم لصالح السلوك النشيط، والشجاعة والعواطف القويّة، التي حافظ البطل بها على قضية صديقه وبلاده.

أساليب حياتنا مختلفة، والنظام الذي به ننظِّم مداركنا في أمور كثيرة مختلف، ولا شيء سواه يجعلنا نطيق ممارسة الأمم القديمة. ولو كان مؤرِّخ سجَّل تلك الممارسة، فهو لن يذكر إلا تفاصيل الأحداث من دون أن يلقي أي ضوء على شخصيات الفاعلين، والمؤرخ التتاري مثلاً لا يذكر لنا سوى الدماء التي أُهرقت في الميدان، وعدد السكان الذين ذبحوا في المدينة، نقول، لو حصل كل ذلك، لم يكن علينا أن نميّز اليونانيين عن جيرانهم البرابرة، ولا كنا فكّرنا بأن صفة اللطف كانت صفة الرومان إلى آخر تاريخهم، وحتى انهيار إمبراطوريتهم.

ولا شك في أننا سنكون سعيدين بالاطلاع على ملاحظات مثل ذلك المسافر الذي كنا أحياناً نرسله إلى الخارج لكي يكشف أساليب حياة البشر، التي تركها التاريخ من دون نظر، وليجمع شخصية اليونانيين من حالة بلادهم، أو من ممارستهم في الحرب. فقد يقول: «هذه البلاد بالمقارنة مع بلادنا لها هيئة الجذب والخراب. فقد رأيت على الطريق فرقاً من العمال كانوا يستخدمون في الحقول، لكني لم أرَ مساكن السيد وصاحب الأرض. وقيل لي إن الإقامة في البلاد غير آمنة، وسكان كل منطقة يتجمّعون في المدن للحماية. ولم يكن ممكناً أن يتمّنوا قبل أن يقيموا حكماً منتظماً له محاكم خاصة بالعدالة لتنظر في شكاواهم. أما في الوقت الحاضر، فيمكنني أن أقول إن كل قريةٍ تعمل لنفسها، والفوضى العارمة منتشرة. والحق أقول إني لم أكن منزعجاً إذ عليك أن تعرف أنهم يدعون أنفسهم أمماً، ويقومون بكل إزعاج وأذى بذريعة الحرب».

أنا لا أقصد التقليل من حرّيات المسافرين، ولا أن أتنافس مع

مؤلف الرحلة إلى ليليبوت (Lilliput) المشهور، لكني لا أستطيع، إلّا أن أحاول أن أنقل ما شعرت عند سماعهم يتكلّمون عن بلادهم، وجيوشهم، ومداخليهم، ومعاهداتهم، وتحالفاتهم. فليس عليك إلّا أن تتخيّل القيّمين على الكنيسة والموظفين الكبار في قصر هايغيت (Highgate) أو في قصر هامبستيد (Hampstead) وقد تحّولوا إلى رجال دولة وجنرالات، لكي تحصل على مفهوم معقول لتلك البلاد الواحدة. لقد مررت في دولةٍ، لا يؤوي فيها أفضل منزل في العاصمة أحقر عمالكم، وحيث لا يختار متسوّلوكم تناول الطعام مع الملك، ومع ذلك اعتُبروا أمةً عظيمة، ولم يكن لهم أقلّ من ملكين. وقد رأيت واحداً منهما، فما كان أروعه من ملك فقلّما وضع ملابس على ظهره، وبدلاً من طاولة خاصة بجلالته، كان يذهب إلى مكان الأكل مع راعاياه. ولم يملكوا أقلّ مقدار من المال، وقد اضطررت إلى تحصيل الطعام على الحساب العام، إذ لم يكن يمكن الحصول على شيء من السوق. وسوف تتصوَّر أنه لا بدَّ من أن تكون هناك خدمة أطباق، وحضور واسع في انتظار الغريب الشهير، لكن طعامي تألَّف من مقدارٍ من حساء الخضر جلبه إليّ عبدٌ عارٍ، وتركني أتناول كما أشاء وكنت في حالة خطر دائم من إمكانية أن يُسرق مني من قِبَل الأولاد الصغار، الذين كانوا يقظين لتصيّد المناسبات والفرص السانحة، وكانوا بارعين في خطف طعامهم، مثل أي كلب عرفته من كلاب الصيد. وباختصار أقول، كانت تعاسة الشعب كله، وكذلك تعاستي، وأنا هناك، تتعدّيان الوصف. فقد تظن أن كل همّهم كان تعذيب أنفسهم بقدر ما يستطيعون، حتى إنهم كانوا مستائين من أحد ملوكهم لكونه محبوباً. فقد قدّم هدّيةً، عندما كنت هناك، وكانت

بقرة لأحد المحسوبين عليه، وصدريةً لآخر[1]، وقيل للعموم، إن تلك الطريقة لكسب الأصدقاء معناها نهب الشعب. وقد أخبرني سيدي الإقطاعي، بجدّية، أنه يجب على الإنسان أن لا يتقيّد بأي واجب يضعف حبّه لبلاده، وأن لا يقيم أي علاقة شخصية تجاوز عادة العيش مع صديقه، وأن يكون لطيفاً وكريماً معه عندما يقدر.

«وفي إحدى المرات سألته، لماذا - ولصالحهم - لم يمكّنوا ملوكهم من أن يكون حالهم أفضل؟ فقال، لأننا أردنا لهم سعادة العيش مع الناس. وعندما لم تعجبني بيوتهم وقلت خاصةً إنهم لم يبنوا كنائس أفضل، فأجاب: ماذا ستكون عندئذٍ إذا وجدت الدين في جدران الحجارة؟ هذا يكفي كمثلٍ عن حديثنا، ولأنه كان جامعاً مانعاً، يمكن أن تصدِّق أنني لم أطلْ المقام للاستفادة منه، وقيل لي إنه كان لديهم مراكب بثلاث صوارٍ وقوارب مسطّحة القاع لحمل البضائع وتفريغها، تمّ استخدامها في التجارة، والتي كانوا، أيضاً يجمعونها في أسطول أكثر من أي شيء سواه تمثّل في احتمال إيجادي ممراً من هناك، وتوديع تلك البلاد التعيسة. لقد جهدت لكي أشهد احتفالاتهم الدينية، وأجمع الغيّاب. وقد نسخت بعض الكتابات المنقوشة، كما سوف ترى عندما تقرأ مجلّتي، وعندئذٍ سوف تصدِّق من العيّنة التي قدّمتها لك أنهم لم يكونوا جماعة: فبالرغم من أنهم كانوا فقراء وقذرين، ظلّوا يتظاهرون بالكبرياء، والشخص الذي لم يكن يساوي أربعة بنسات(*)، كان أعلى من أن يعمل لعيشه. وكانوا يذهبون إلى الخارج حفاةً، ومن دون غطاء على رؤوسهم، ملفوفين بغطاء السرير الذي يمكنك أن تتخيّل أنهم

(1) Plutarch in the Life of Agesilaus.

(*) البنس (Penny) يساوي 100/1 من الجنيه الإنجليزي (المترجم).

ناموا تحته. فهم يرمون كل شيء، ويبدون مثل الكثيرين من أكلة لحوم البشر، عندما يمارسون الرياضات والتمارين العنيفة، التي يقدِّرون فيها تقديراً عالياً أعمال البطولة البارعة والقوة. فالأطراف المفتولة العضلات والأذرع العضلية، والقدرة على السهر طوال الليالي، والقدرة على الصيام لمدة طويلة، والاستغناء عن أي نوعٍ من الطعام، كل ذلك كان يعتبر إنجازات أرستقراطية. فليس لهم حكومة ثابتة يمكنني أن أعرفها. فأحياناً كانت الغوغاء، وأحياناً أخرى كان من هو أفضل منها يفعل ما يشاء. وكانوا يجتمعون على شكل جماهير كبيرة في الهواء الطلق، وقلّما يتفقون على شيء. وإذا كان لشخص جراءة كافية وصوت عالٍ، كان يمكنه أن يكون شخصية عظيمة. ومنذ وقت، كان هناك دبّاغ عمل لمدة من الزمن كل شيء كان أمامه. وراح ينتقد بصوت عالٍ ما فعله الآخرون، وامتدح ما يمكن أن يُنجز، إلى أن أُبعد في النهاية لكي يطبّق كلماته ولينظِّف جلود العدو بدلاً من جلده[2]. وقد تتصوّر أن يكون قد ضُغط عليه للعودة إلى عمله، إلا أنه أُرسل لقيادة الجيش. والواقع أنهم نادراً ما كانوا، ولمدة طويلة يعملون بعقلٍ واحد باستثناء استعدادهم لإزعاج جيرانهم. وهم يخرجون كتلاً، وينبهون ويقتلون حيثما يكونون». وإلى هذا الحدّ نفترض أن يكون رحّالتنا قد كتب، وكان يمكنه استناداً إلى ذكرى السمعة التي اكتسبتها تلك الأمم عن بعد، أن يضيف «أنه لا يستطيع أن يفهم كيف أمكن الباحثين، الرجال المصقولين وحتى النساء، أن يلتقوا للإعجاب بشعبٍ لا يشببهم».

ولكي نشكل رأياً في الشخصية التي منها انطلقوا وفعلوا في الميدان خلال منافساتهم مع الأمم الأخرى، علينا أن نلاحظهم في

(2) Thucydides lib. 4. Aristophanes.

وطنهم. فقد كانوا جسورين ولا يخشون شيئاً في نزعاتهم الأهلية، وكانوا مستعدين للاستمرار إلى أبعد ما يكون، وأن يصلوا بجدالاتهم إلى حدّ اعتماد القوة. والأفراد تميَّزوا بروحهم وشجاعتهم الشخصيتين، لا عبر قيمة ممتلكاتهم، أو مرتبة مولودهم. فكان لديهم سمو شخصي قائم على الشعور بالمساواة لا التصدّرية. فكان الجنرال في حملةٍ يصير جندياً خاصاً في الحملة التي تليها ويخدم في الصفوف. وكانوا توّاقين لاكتساب قوة جسدية، وذلك لأن المعارك في استعمالهم أسلحتهم كانت اختباراً لقوة الجندي، ولإدارة القائد أيضاً. وبقايا تماثيلهم تظهر عظمة رجولية، وجوّاً من البساطة والراحة، ولكونه متكرراً في الطبيعة صار مألوفاً عند الفنّان. وقد يكون العقل استمد ثقةً وقوةً وتوجّه الجسد، كما شابهت بلاغتهم وأسلوبهم مركبة الشخص. وتمثّلت ثقافة العقل الرئيسية في ممارسة الشؤون. وأهم الشخصيات المحترمة كانت ملزمة بالاختلاط بالجمهور، ولم يستمدوا درجة سموّهم إلّا من سلوكهم، وبلاغتهم وقوتهم الشخصية. ولم يكن لهم أشكال تعبير تدلّ على احترامٍ رسمي ومحروس. والقدح استمر واستخدم أقوى المفردات في معظم الأحيان من قِبَل الخطباء المشهورين والمصقولين. ولم تكن هناك قواعد للنزاع سوى الإملاءات المباشرة للعاطفة، وكانت تختتم بكلمات توبيخ، وعنف، وضربات. ولحسن حظّهم كانوا بشكل دائم غير مسلحين، كما كان حمل سيف في أيّام السلم يعتبر عندهم علامة البربري. وعندما يحملون السلاح عند الانقسامات الحزبية، كان الحزب المسيطر يدعم نفسه بطرد مخاصميه بالإبعاد وبسفك الدم. وكان المغتصب يحاول الاحتفاظ بمركزه بأقسى أنواع الإعدام الفوري. وكان يُواجه بدوره بمؤامرات واغتيالات، وكان فيها أكثر المواطنين احتراماً مستعدين لاستعمال الخنجر.

تلكم كانت صفة روحهم في هيجاناتها الظرفية في الوطن. وهي تتفجر بعنف ملائم وقوة مناسبة ضد منافسيهم من الأجانب ومن الأعداء. وخلال العمليات الحربية لم يحسبوا حساب أي طلب لطيف إنساني. فالمدن كانت تدمَّر عن بكرة أبيها، أو تستعبد، أما الأسرى فيباعون ويشوَّهون أو يُحكم عليهم بالموت.

عندما يُنظر من هذا الجانب لا تستحق الأم القديمة سوى طلب تقدير تافه من سكان أوروبا الحديثة، الذين أعلنوا أنهم أدخلوا كياسات السلام في ممارسة الحرب، والذين قدَّروا الامتداح والتساهل بدرجة أعلى من البسالة العسكرية، أو حبّ بلادهم. ومع ذلك فإنهم من نواحٍ أخرى استحقوا ثناءنا وحصلوا عليه. فتعلّقهم الشديد ببلادهم، واحتقارهم للآلام وللموت من أجلها، وفهمهم الرجولي للاستقلال الشخصي الذي يجعل من كل فرد حتى في ظلّ المؤسسات المضطربة المتداعية والقوانين الناقصة حارساً لحرية زملائهم المواطنين، ولنشاط عقولهم. وباختصار نقول، لقد أكسبهم ذكاؤهم النفّاذ، وقدرة سلوكهم، وقوة روحهم، المرتبةَ الأولى بين الأمم.

وإذا كانت عداواتهم كبيرة، فقد كانت محبتهم كبيرة. وقد أحبّوا عندما اكتفوا الشفقة، وكانوا عنيدين ومتصلّبين في حين لم نكن رحيمين، وإنما كنا مترددين. وفي نهاية المطاف، ما يحدِّد جدارة الإنسان هو ثباته وكرمه مع شركائه، وحماسته للأهداف القومية، وقوّته التي تحفظ الحقوق السياسية، لا بالاعتدال وحده الذي ينطلق غالباً من اللامبالاة بالمصلحة القومية والعامة، ويعمل على إضعاف الأعصاب التي تعتمد عليها قوة الشخصية الخاصة والعامة.

عندما صارت الأمة تُعتبر، في ظلّ الأنظمة الملكية المقدونية والرومانية، مثل إقطاعية الأمير، واعتبر سكان منطقة بمنزلة ملْكية مربحة، فإن امتلاك الأرض، وأرض المقاطعات، وعدم تدمير شعوبها، صار هو هدف الغزو. ولم يكن للمواطن المسالم أي اهتمام في شجارات الحكام. وقيِّد عنف الجندي وضبط بنظام. فحارب لأنه تعلَّم أن يحمل السلاح، وأن يطيع، وأحياناً كان يسفك دماً في جوّ الحماسة الخاصة بالنصر، وباستثناء حالة الحروب الأهلية، لم تكن لديه عواطف تثير عداوة تتعدّى ميدان المعركة يومها. وكان القادة يُحكم عليهم بأهداف المشروع، وكانوا يلقون السيف عندما يتمّ الحصول عليها.

في الأمم الأوروبية الحديثة، حيث سعة الأرض تسمح بالتمييز بين الدولة ورعاياها، تعوَّدنا أن نفكّر بالفرد بحنوّ وشفقة، ونادراً ما فكرنا بالشعب لحماس. وأجرينا تحسينات خاصة بقوانين الحرب، وبالملطّفات التي ابتُدعت للتخفيف من شدّتها وقساوتها، وجمعنا بين التهذيب واستعمال السيف، وتعلمنا أن نخوض الحرب في ظل اتفاقيات ومعاهدات وأن نثق في صدق العدوّ الذي نفكّر بتدميره. فالمجد يكون بنجاح أكبر عبر التوفير والحماية لا عبر التدمير والقهر، وكذلك ألطف الأهداف. أما استخدام القوة فيقتصر على تحقيق العدالة، والحفاظ على الحقوق القومية.

قد تكون هذه هي الميزة الرئيسية، التي على أساسها نمنح في الأمم الحديثة صفتي متمدن (Civilized) أو مثقَّف (Polished). غير أننا رأينا أنها لم ترافق التقدّم عند اليونانيين، ولم تماشي تقدّم السياسة، والأدب والفلسفة. ولم تنتظر عائدات العلم والتهذيب عند الحديثين. فقد وُجِدت في حقبةٍ سابقةٍ من تاريخنا، وكانت

مميّزةً أكثر مما هي في الوقت الحاضر. ومن دونها كانت أساليب حياة العصور بدائيةً وغير منظَّمة. فملك من ملوك فرنسا وقع أسيراً في أيدي الأعداء، لكنه عومل، منذ أربعمئة سنة خلت، بكثير من الامتياز واللطف، كملك متوَّج في ظروف شبيهة، كما يمكن أن يُتوقَّع في عصر التهذيب هذا(3). وكذلك أمير كوندي (Conde) الذي هُزِمَ وأُسِرَ في معركة درو (Dreux)، نام في الليل في الوقت نفسه مع عدوّه، دوق دي غيز(4) (Guise) .

إذا كانت أخلاق التقاليد الشعبية، ومذاق القصص الخيالية، التي كانت من إنتاج عصور معيّنة أو من تسلياتها هي أيضاً دلائل على عقائدهم وشخصياتهم، فإنه يمكننا أن نفترض أن أساس ما يُعتبر الآن قانون حرب وأمم كان معبَّراً عنه في قصص الفروسية والبسالة. فنظامنا الحربي لا يختلف عن نظام اليونانيين الحربي، أكثر مما تختلف الشخصيات المحبوبة، في الفترة الرومانسية الأولى، وعن الشخصيات المذكورة في **الإلياذة**، وفي كل قصيدة قديمة. فبطل القصة الخيالية اليونانية الممنوح قوة عالية، وشجاعة وبراعة، كان يستغلّ كل فرص ليقتل العدوّ ويبقى سالماً، وكان الذي يحرّكه هو الرغبة في النهب، أو مبدأ الانتقام، ولم يتوقَّف عن التقدّم لمعيقات أو ندامة أو صفقة. وهوميروس، الذي كان يعرف أكثر من الشعراء جميعهم، كيف يصف مشاعر المحبة القويّة، ولم يحاول أن يثير مؤاساة. فقد سقط هكتور (Hector) من دون شفقة، وأهين جسده من قِبَل كل يوناني.

ونقيض ذلك، نجد أن قصتنا الخيالية أو الرواية الغرامية

---

(3) Hume, *History of England.*

(4) Davila.

الحديثة، تجمع بين موضوع شفقة، وضعف، ومضطَّهد وعاجز عن الدفاع، مع موضوع إعجاب، وشجاع، وكريم ومظفَّر، أو ترسل البطل إلى الخارج بحثاً عن المخاطر، وعن مناسبات يبرهن فيها عن شجاعة. ولأنه مكلَّف ومسؤول عن قواعد لطف رقيق ليمارس حتى مع العدوّ، وبإجلال غير مؤكَّد لا يعرِّضه لمعاناة عندما يستعمل ويستغل أي حيلة أو مفاجأة، ويكون غير مبالٍ بالنهب، نراه لا يقاتل إلّا طلباً للشهرة، ويوظِّف شجاعته لإنقاذ المكروب، وحماية البريء. وإذا كان منتصراً، فهو يعلو فوق الطبيعة، مثلما يحصل في كرمه ولطفه، وكذلك في براعته وشجاعته.

استناداً إلى هذا التقابل بين نظام القصة الخرافية القديمة والقصة الخرافية الحديثة، قد يصعب تحديد أصل الأفكار المتعلقة بالإجلال والمختلفة والمتضادة في أممٍ متشابهة في البدائية، وفي الحرب، وفي حبّ المجد العسكري. فبطل الشعر اليوناني يسير على قواعد العداوة والعاطفة المعادية. فقواعد حربه مثل تلك السائدة في غابات أميركا. فهي تتطلَّب منه أن يكون شجاعاً، لكنها تجيز له أن يمارس ضدّ العدوّ كل نوع من أنواع الخداع.

أما بطل القصة الغرامية الحديثة، فهو يعلن عن ازدراء للاستراتيجية وللخطر أيضاً، ويجمع في الشخص ذاته صفاتٍ وميولاً متضادّة، مثل الشدّة واللطف، ومحبة الدم ومشاعر اللطف والشفقة.

عندما اكتمل تشكيل نظام الفروسية، عمل على أساس احترام مدهش وتقدير للجنس الجميل، استناداً إلى أشكال قتالٍ تمَّ تأسيسها، وعلى أساس ربط بين الشخصية البطولية والمقدَّسة.

فقواعد الصراع الرسمية، ونوع من التحّدي القانوني كانا معروفين عند السلفية (Celtic) القديمة في أوروبا[5]. والألمان عندما كانوا في غابات بلادهم، حتى زمانئذٍ عبّروا عن نوع من المحبة والإخلاص للجنس الأنثوي. والدين المسيحي فرض الاعتدال والشفقة بالعصور البربرية. وبتوحّد هذه المبادئ فإنها صارت أساساً لنظامٍ، صارت فيه الشجاعة موجَّهة من قِبَل الدين والحبّ، واتَّحد ما هو حربي وعنيف مع ما هو لطيف. وعندما امتزجت صفات البطل والقدّيس، فإن الروح اللطيفة للمسيحية، بالرغم من تحوّلها إلى حقد في معظم الأحيان نتيجة لتعصّب الأحزاب المتضادّة الأعمى، وبالرغم من أنها لم تتمكّن من أن تلطّف من ضراوة المحارب، ولا إخماد الإعجاب بالشجاعة والقوّة، فإنها أكَّدت إدراك الرجال لما يجب أن يعتبر أهلاً للتقدير والمكافأة، وما هو رائع في إدارة نزاعاتهم.

في التاريخ المبكّر والتقليدي لليونانيين وللرومان، عرف أن حوادث اغتصاب النساء كانت أكثر الحوادث حصولاً في الحروب، وكان الجنسان من دون ريب في جميع الأزمنة مهمين لبعضهما. وكانت حماسة الحبّ الأقوى في آسيا وفي أفريقيا، والجمال كان يُقدَّر من قِبَل المواطنين في زمن هوميروس أكثر مما كان يُقدَّر من قِبَل الموجودين في أماديس دي جاولا (Amadis de Gaula) أو من قِبَل المؤلفين عن الكياسة الحديثة. فقال قال بريام العجوز، عندما ظهرت هيلين (Helen): «أي عجب أن تتنازع الأمم وتتقاتل لحيازة مثل هذا الجمال؟ ولا ريب في أن ذلك الجمال حازه محبّون مختلفون، وهذا موضوع أجرى عليه البطل الحديث تحسينات كثيرة، وبدا أنه حلّق في السحاب. فهو كان يهيم على مسافةٍ

(5) Liv., lib. 28. C. 21.

محترمة، ووظَّف شجاعته للإمساك بالإعجاب، لا لحيازة خليلته. وصُيِّرت العفّة الهادئة التي لا تُغلب معبوداً ليعبد في حالات الإرهاق والمعاناة والآلام، ومعارك البطل والعاشق».

لا ريب في أن تكون المؤسسات الإقطاعية عبر المرتبة العالية التي رفعت إليها أسراً معينة، فضَّلت بمقدار كبير ذلك النظام الرومانسي. ولم يقتصر الأمر على بريق الأصل النبيل، وإنما حصن الدولة ذو الجدران ذات الفتحات والفرجات أيضاً، عمل على استعمال الخيال وخلق تبجيل لبنات وشقيقات الرؤساء البواسل اللواتي لم يكن ممكناً الوصول إلى مرتبتهن التي كانت ظاهرة، واللواتي لم يعرفن من يستحق إلّا من كان ذا عقل سامٍ وكان شجاعاً، كما لم يكن الاقتراب منهن عبر أي مرتقى سوى الذي اتَّصف باللطف والاحترام.

ما كان أصلاً فريداً في تلك الأفكار حوَّله الكاتب الرومانسي إلى غلوّ، وتحت عنوان الفروسية قُدِّم كنموذج للسلوك، وحتى في الشؤون العامة، نعني: حظوظ الأمم تديرها البسالة وصارت الحياة الإنسانية، في مناسباتها الكبرى مشهد تصنّع وحماقة. ومضى المحاربون لتحقيق القصص الخرافية التي تعلّموها، وكرَّس الأمراء وقادة الجيوش أهم مآثرهم وبطولاتهم لخليلةٍ حقيقية أو وهمية.

غير أنه مهما كان مصدر عقائدهم، التي غالباً ما كانت متغطرسة وتعبت على السخرية، فإننا لا نشك في آثارهم الباقية على أساليب حياتنا وعاداتنا.

فمسألة الإجلال، وانتشار البسالة في أحاديثنا، وعلى مسارحنا

الكثير من الآراء التي يستعملها العاديون من البشر حتى في إدارة الحرب، وعقيدتهم المفيدة بأن قائد الجيش المكلَّف بمعركة مثل سواه يُهان ويتعرّض للخزي، وإذا رفضها كان ذلك، كل هذا من دون شك، من بقايا ذلك النظام القديم. كما أن الفروسية المجتمعة مع عبقرية سياستنا بتلك المزايا الموجودة في قانون الأمم، والتي بها تتميّز الدول الحديثة عن الدول القديمة. وإذا كان لا بدَّ من أخذ قاعدة قياسنا درجات التهذيب والمدنية من هناك، أو من تقدّم الفنون التجارية، فسوف نجد أنفسنا متفوقين كثيراً على أيّ أمةٍ من أمم الزمان القديم المشهورة.

القسم الخامس

أفول الأمم

الجزء الأول

البروز القومي المفترض، وتقلّبات الشؤون الإنسانية

لا وجود لأمةٍ بلغت حدّاً من التعاسة يجعلها تعتقد أنها دون بقية البشر وهناك القليل من هذه الأمم قد تكون راغبة في التخلّي عن مطلب المساواة. والقسم الأعظم اعتبروا أنفسهم، في ذات الوقت، الحكّام القضاة والنماذج لما هو ممتاز في نوعهم والأوّل برأيهم، وهم لا يمنحون الآخرين الاعتبار أو البروز إلّا إذا قاربوا حالتهم. فهناك أمة مزهوّة بالخُلُق الشخصي، أو بثقافة نفرٍ قليلٍ من أفرادها، وأمة أخرى تتباهى بسياستها، وثروتها، وتجّارها، وحدائقها وعماراتها، والأمة التي لا تملك شيئاً تفتخر به، هي أمة عقيمة وتافهة، لأن أفرادها جهلة. وقد اعتبر الروس أنفسهم قبل حكم بطرس الكبير (Peter the Great)، حائزين كل درجة شرف قومي، واستخدموا الوصف Nemei أو الأمم الغبيّة (Dumb Nations)، وهو الاسم الذي أطلقوه على الجيران الغربيين في أوروبا حنيئذٍ وبدرجات متناسبة من الازدراء[1]. أما خارطة العالم في الصين، فكانت أشبه ما يكون بصحيفة مربّعة، شغلت معظمها

---

(1) Strahlenberg.

مقاطعات تخص تلك الإمبراطورية العظيمة، وعلى حافاتها مناطق منعزلة، إليها كانت تدفع البقية البائسة من البشر. وقد قال أحد المتعلمين الصينيين للمبشّر الأوروبي: «إذا لم تستخدم لغتنا ولا المعرفة في كتبنا، فما هو الأدب، أو ما هو العلم الذي يمكن أن تحصل عليه؟»[2].

كلمة مصقول (Polished)، تدلّ أصلاً، إذا نظرنا إلى منشئها اللغوي، على حالة الأمم لجهة قوانينها وحكمها، والناس يكونون متمدنين عند قيامهم بواجبات المواطنين. وفي استعمالاتها الأخيرة، دلّت على فاعلية الأمم في ممارسة الفنون الليبرالية واليدوية، وفي الأدب، والتجارة، والرجال المتمدّنون، ورجال الأزياء، والتجّار. غير أنه مهما كانت تطبيقاتها، فإنه يبدو حتى إن وُجد اسم أفضل من هذا أنَّ كل أمة، حتى البربرية، أو الفاسدة، سوف تتَّخذه، وتطبق نقيضه حيثما تكره أو تجد فرقاً. وقلّما يُلفظ الاسمان غريب (Alien) أو أجنبي (Foreingner)، من دون درجة أو مقدار من الخزي أو التأنيب. والشعب المتعجرف يستعمل كلمة بربري (Barbarian)، وغيره يستعمل كلمة لطيف (Gentile)، وكل ذلك يوظَّف لتمييز الغريب الذي لغته ونسبه يختلفان عن لغتهم ونَسَبهم.

عندما نزعم أننا أقمنا آراءنا على العقل، وأننا نريد تسويغ تفضيلنا لأمة على أخرى، حتى عندئذٍ، نحن ننسب تقديرنا للظروف التي لا تتعلّق بالشخصية القومية، والتي قلّما ترقّي وتعزّز مصلحة البشر. فالغزو أو المقدار الكبير من الأرض مهما كان مملوءاً بالسكّان، والثروة الواسعة كيفما وُزِّعت أو وُظِّفت، ما هي إلا

(2) Gemelli Carceri.

عناوين ننغمس فيها ونتساهل معها، وهي تشكّل خيلاء لأمم أخرى، كما نفعل ذلك مع الأفراد استناداً لثرواتهم ودرجات شرفهم. وأحياناً نتجادل حول أي رأسمال هو الأكثر تضخماً، وأي ملك تمتَّع بأكبر سلطة مطلقة، وفي بلاط أي قصر استُهلك خبز المواطن بأكثر التظاهرات شغباً وفوضى. والواقع هو أن هذه الأفكار تخصّ العقول العادية، لكن من المستحيل تحديد كيف يمكن لأفكار العقول العادية المألوفة أن تقود البشرية.

لا شك في وجود أمثلة قليلة جداً عن دول حسَّنت عبر فنون السياسة الميول الأصلية للطبيعة البشرية، أو حاولت عبر احتراسات حكيمة وفاعلة أن تحول دون فسادها. فالمحبة وقوة العقل اللتان تؤلّفان رابطة المجتمعات وقوّتها، كانتا من وحي الله وصفتين أصيلتين من صفات الطبيعة الإنسانية. وإن أحكم خطة للأمم، باستثناء أمثلة قليلة، كان يميل للحفاظ على السلام في المجتمع، وكبح الآثار الخارجية للعواطف السيئة، أكثر من تقوية ميل القلب نفسه للعدالة وللخير. فقد مالت عبر إدخالها فنوناً متنوّعة، وتدريب عبقرية الرجال، وعبر إدخالهم في حِرف متنوعة، وبحوث، ودراسات، لتشكيل العقل، وغالباً إفساده. فقد جنحت إلى إدخال مسألة الامتياز والخيلاء، وعبء إعاقة الفرد بواسطة مواضيع جديدة خاصة بالاهتمام الشخصي، وعملت على استبدال قلقه وتوقه لثروة منفصلة، عوضاً عن الثقة والمحبة اللتين بهما عليه أن يتوحَّد مع أقرانه من المخلوقات لبقائهم المشترك.

سواء أكان ذلك الارتياب منصفاً أم لم يكن، فقد كنّا، في ظروف، ميّالين لإثباته أو نقضه. سواء أكان ذلك الارتياب في محلّه

أم لم يكن، فقد وصلنا إلى الإشارة إلى الظروف التي تثبته أو تنفيه. وإذا كان فهم السعادة الحقيقية للأمم مهماً، كذلك من المهم معرفة نقاط الضعف وتلك الرذائل، التي بها لا يفسد البشر تلك السعادة فحسب بل يفقدون في عصرٍ الفوائد الخارجية التي كسبوها في عصر سابق.

الثروة، والتوسّع، وقوة الأمم هي نتائج الفضيلة، وخسران هذه الفوائد غالباً ما يكون نتيجةً للرذيلة. وعلينا أن نفترض أن الناس نجحوا في اكتشاف وفي تطبيق كل فنّ تمَّ به الحفاظ على الدول وحكمها، والحصول عبر جهود الحكمة والشهامة على المؤسسات المدهشة وفوائد شعبٍ متمدّنٍ ومزدهر، واحتواء جزء من تاريخهم اللاحق، الذي يحتوي، بحسب الإدراك العامي على عرضٍ كامل لتلك الثمار الناضجة، التي لم ينقلوا إلى ذلك الحين سوى البراعم، وتشكّلها الأول، إن هذا يستحق أكثر من سابقه الانتباه وإثارة إعجابنا.

غير أن ما حدث لم يكن مطابقاً لذلك التوقّع. ففضائل البشر تجلَّت أكثر ما تجلَّت في صراعاتهم، وليس بعد حصولهم على غاياتهم. ومع ذلك إن تلك الغايات بالرغم من تحقيقها بالفضيلة فهي غالباً ما كانت أسباب الفساد والرذيلة. فالبشر في طموحهم للسعادة القومية أحلّوا الفنون التي تزيد من ثرواتهم محلّ تلك التي تحسّن طبيعتهم. فقد احتفوا بأنفسهم بأوصاف المتمدّن (civilized) والمصقول (polished)، حيث كان عليهم أن يشعروا بالعار، وحتى عندما عملوا، لفترةٍ، بالقواعد التي ترفع، وتقوّي، وتحفظ الشخصية القومية نراهم آجلاً أو عاجلاً ينحرفون عن

هدفهم، ويسقطون ضحيةً لسوء الحظ، أم لظواهر الإهمال التي شجَّعها الازدهار نفسه.

الحرب التي توفِّر للبشر انشغالاً رئيسياً لروحهم القلقة، تفيد بتنوّع أحداثها في تنويع حظوظهم. ففي حين تفتح لقبيلة أو لمجتمع الطريق إلى البروز وتؤدي إلى السيطرة، فإنها تعمل على إخضاع قبيلة أخرى أو مجتمع آخر، وتنهي مشهد محاولاتهما القومية. والمنافسة الشهيرة بين قرطاجة وروما كانت عند الطرفين بمنزلة ممارسة طبيعية لروح طموحة، وتضيق ذرعاً من معارضها حتى من يدّعي منهم مساواتها. وكان سلوك القادة وحظوظهم يجعلان كفة الميزان معلّقة، ولكن مهما كانت الجهة التي كانت تميل إليها تلك الكفّة، فقد كانت النتيجة أن أمةً عظيمة لا بدَّ من أن تسقط، وأن مقعد إمبراطوريتها وسياستها لا بدّ من أن يزاحا من موقعها، وعندئذٍ سيتقرر إن كان السريان أو اللاتين سيحيطون بالمعرفة الواسعة، التي ستملأ في مستقبل الزمان دراسات المثقفين وتشغلهم.

هكذا نرى أن الدول كانت تتعرَّض للغزو من الخارج، قبل أن تظهر علامات عن انحلالها الداخلي، حتى في وسط ازدهارها، وفي فترة حماسها الكبير لأهداف قومية. فأثينا في ذروة طموحها وعظمتها تعرَّضت لجرح قاتل في كفاحها لمدّ قوتها البحرية إلى ما وراء المياه اليونانية. وهناك أمم من كل وصف كانت منيعة بقوتها البدائية، ومحترمةً بنظامها وخبرتها العسكرية سقطت بدورها عند تقدم قوتها، وعند انحدارها، فريسةً لطموح الرومان وروحهم المتغطرسة. قد تثير هذه الأمثلة وتنبّه غيرة الدول وحذرها. ووجود أخطار شبيهة قد يقلق مواهب السياسيين ورجال الدولة، لكن

تقلّبات الحظ هي من مواد التاريخ المعروفة، ويجب أن لا تذهلنا، ومن زمن بعيد.

هل وجدنا أن الأمم التي انطلقت من بدايات بسيطة، ووصلت إلى حدّ حيازة الفنون التي تؤدي إلى السيادة صارت آمنة على مصالحها بما يتناسب مع المؤهّلات التي بها حصلت عليها، وأنها استمرت في طريق السعادة التي لا يعتريها انقطاع، إلى أن تحطَّمت بكوارث خارجية، وأنها احتفظت بقوّتها إلى أن ظهرت قوة أكثر حظاً أو أكثر قوة وعملت على إخمادها فهذا الموضوع الذي نفكّر به لا ينظر إليه عبر صعوبات كثيرة، كما أنه لا يؤدي إلى ظهور أفكار كثيرة حوله، غير أننا عندما نلاحظ في أمم كثيرة نوعاً من العودة العفوية إلى عدم الشهرة والضعف، وعندما على الرغم من التحذيرات الدائمة بوجود الخطر يُعرِّضون أنفسهم للخضوع في فترة من الفترات لقوى لم تكن تستطيع أن تنافسهم بقوى سابقة غالباً ما صدَّتها واحتقرتها، حول موضوع ازداد غرابةً، وازداد شرحه صعوبة.

فإن الحقيقة تُعرف بأمثلةٍ متنوعة مختلفة. فإمبراطورية آسيا، ولأكثر من مرة، تحوَّلت من قوة عظمى إلى قوى صغرى. والدول اليونانية التي كانت دولاً محاربةً، أرخت من قوتها، وتخلَّت عن الصعود الذي تنازعت عليه مع ملوك الشرق إلى قوى من منطقة غامضة، وصارت منيعة في سنواتٍ قليلة، وبرزت بقيادة رجل واحد. والإمبراطورية الرومانية التي وقفت وحدها لعصور، وأخضعت كل من نافسها، ولم تعرف قوة تخشى من منافستها، انهارت أخيراً أمام عدوٍ عديم الفنون ومحتقر، وبتحولها إلى

الداخل للنهب، وفي النهاية إلى الغزو على حدودها تداعت من جميع الأطراف، وتقلّصت في كل جانب، وتقطّعت أوصال أرضها، وتلاشت المناطق جميعها، مثل الأغصان المتساقطة مع الزمن، من دون أن تمزقها عنفياً قوة أكبر. والروح التي بها أربك ماريوس (Marius) هجومات البربريين وصدهم، في زمنٍ سابق، والقوى المدنية والعسكرية اللتان بهما تمكّن القنصل وفيالقه من توسيع تلك الإمبراطورية، ليس لهما مثيل الآن. وكان مصير العظمة الرومانية الانحدار بقدر ما كان نصيبها الصعود في السابق، وذلك تمَّ بدرجات بطيئة، كما ضعفت في كل صدام. وتقلّصت عائدة إلى أبعادها الأصيلة ضمن إطار مدينة واحدة. ولأنها اعتمدت من أجل بقائها على ما يجلبه الحصار من حظّ فقد مُحقت بضربة، والجمرة التي ملأت العالم بلهيبها سقطت مثل نور ضعيف في تجويف.

مثل هذه المظاهر أدّت إلى نشوء إدراك عام مفاده أن تقدّم المجتمعات إلى ما ندعوه ذرا العظمة القومية ليس طبيعياً أكثر مما هي عودتها إلى الضعف والظلمة ضرورية ولا يمكن تجنّبها. وإن صور الشباب والشيخوخة تنطبق على الأمم، فالمجتمعات مثل الأفراد من البشر لها مدة حياة، وطول خيطٍ تغزله المصائر بحيث يكون في جزء مستقيماً وقويّاً، وفي جزءٍ آخر واهياً وممزّقاً، لكي يقطع، عندما تستحق الحقبة الزمنية المعينة ويفسح المجال لتجديد الشعار عند الذين يتعاقبون. فقرطاجة التي كانت أقدم من روما شعرت بضعفها المبكّر، كما قال بوليبيوس (Polybius)، ورأى أن من بقي، أيضاً، حمل في صدرها بذور الفناء.

الواقع هو أن الصورة ملائمة وفي محلّها، وتاريخ البشر جعل

التطبيق يبدو مألوفاً. غير أنه لا بدَّ من أن يكون واضحاً، أن حالة الأمم وحالة الأفراد مختلفتان جداً. فالبنية الإنسانية لها مسلك عام: فلها في كل فرد سياق ضعيف ووقت محدود، فهي تتلف بالتمرين، وتنهك بتكرار وظائفها، لكن في مجتمع يتغيّر ويتجدَّد فيه أعضاؤه في كل جيل، وحيث يبدو الجنس البشري متمتعاً بشباب دائم وفوائد متراكمة، فإننا لا نستطيع بأي شبه عقلي أن نتوقّع أن نجد حماقات مرتبطة بالعمر وطول الأيام.

ليس الموضوع بجديد، والأفكار ستتجمع عند كل قارئ. والعقائد التي نحملها في نفس الوقت، وحتى عند التأمل في موضوع بتلك الأهمية، لا يمكن أن تكون من دون ثمارٍ للبشر. ومهما تكن قليلةً آثار التفكير على سلوك البشر، فإن أحد الأخطاء المغتفرة التي يمكن أن يرتكبها كاتب يتمثَّل في الاعتقاد بأنه على وشك أن ينجز مقداراً كبيراً من الخير. غير أننا، بعد أن نترك الاهتمام بالنتائج للآخرين، سنتابع النظر في أسس عدم الاتّساق بين البشر، ومصادر التآكل الداخلي، وظواهر الفساد المدمّر التي تتعرَّض لها الأمم في حالة اللطف المنجز.

الجزء الثاني

الجهود الوقتيّة وظواهر تراخي الروح القوميّة

سبق أن لاحظنا في ما يتعلّق بالخصائص العامة للطبيعة البشرية، أن الإنسان لم يخلق ليرتاح. ففيه كل صفةٍ محبوبةٍ ومحترمة هي قوة فاعلة، وكل موضوع ثناء هو مجهود. وإذا كانت أخطاؤه وجرائمه هي حركات كائن نشيط، فإن فضائله وسعادته تَمثُلُ في استخدام عقله. وكل البريق الذي ينشره حوله لاجتذاب أو لإشغال أقرانه من المخلوقات يشبه لهيب الشهاب الذي لا يلمع إلا إذا استمرت الحركة. فأوقات الراحة وعدم الشهرة متشابهة. ونحن نعرف أن المهمّات المعيّنة له قد تفوق في معظم الأحيان، وقواه قد تكون دونها. وأنه قد يقلق كثيراً، وقد يقلق قليلاً، لكنه لا يستطيع أن يحدِّد وسطاً دقيقاً بين الأوضاع التي يُضايق ويرهق، والأوضاع التي ينغمر فيها بالضنى الوهن. ونحن نعرف أنه قد يستخدم في عدد متنوِّع كثيراً من المواضيع التي تشغل عواطف ومشاعر مختلفة، وأنه نتيجة للاعتياد يحمِّل نفسه على الإذعان لمشاهد مختلفة. وكل ما نستطيع أن نحدّده بصورة عامةٍ، هو أنه مهما كانت المواضيع التي ينخرط بها، فإن نوع طبيعته يتطلَّب منه أن يكون منشغلاً، وسعادته تريده أن يكون عادلاً.

الآن علينا أن نبحث عن أسباب توقّف الأمم عن أن تكون متفوّقة، وأسباب انحدار المجتمعات التي جذبت انتباه البشر بأمثلة عظيمة عن الشهامة، والسلوك والنجاح القومي من أعالي ذرا احترامها وإجلالها، وتخلّت في عصر عن النصر الذي أنجزته في عصر سابق. قد تكون هناك أسباب عديدة، ويمكن أن نستمد أحدها من تقلّبات البشر وتناقضاتهم، الذين تعبوا من مساعيهم وجهودهم، حتى عندما استمرت المناسبات التي أدّت إلى تلك المساعي بمقدار ما. وسبب آخر نستمدّه من تغيّر الأوضاع، وزوال الأهداف التي عملت على إثارة روحهم.

السلامة العامة، والمصالح النسبية للدول، والمؤسسات السياسية، ومطالب الأحزاب ومزاعمها، والتجارة، والفنون، كل ذلك موضوعات جذبت انتباه الأمم. والفوائد المكتسبة في بعض تلك البنود تحدِّد درجة الازدهار القومي. ويشكّل الحماس والقوة اللتين بهما تطلب، في أي وقتٍ، مقياس الروح القومية. وعندما تتوقّف تلك الأشياء عن بعث الحيوية، يمكن القول، إن الأمم قد وهنت. وعندما تُهمل، لوقت طويل، فإن الدول تأفل، وشعوبها تنحطّ.

وفي أكثر الأمم تقدّماً إقداماً وإبداعاً وجهداً، نجد أن تلك الروح متقلّبة، وأن تلك إن استمرت لمدة أطول لكي تحصل على فوائد أو لتحفظها، كان لها فترات من الكسل ومن الحماسة. فكانت الرغبة في السلامة العامة في جميع الأزمنة، هي دافعاً قوياً للسلوك، لكنه يكون أكثر نشاطاً عندما يجتمع مع عواطف ظرفية، وعندما تشتعل المثيرات، وعندما تشجع الانتصارات، أو عندما تصل الإهانات إلى السخط.

كل الشعب هو مثل الأفراد الذين يتألف منهم، يعمل بتأثير دعابات وقتية، وآمال متفائلة، أو عداوات عنيفة. فهم معرَّضون، في مرةٍ، للدخول في صراعات قومية بعنفٍ، وفي مرة أخرى، للتخلي عنها، لتعبٍ وقرف. وفي مجادلاتهم المحلية ونزاعاتهم في الوطن، كانوا أحياناً متحمسين أو كسولين. والعواطف الوبائية المعدية تتفجَّر أو تخمد وفقاً لأسس تافهة، ومهمة أيضاً. والأطراف كانت مستعدة، مرة، أن تأخذ أسماءَها، ومزاعم معارضيها من نزوة أو من مجرّد حادث. وفي مرة أخرى، كانت تتحمّل أكثر المناسبات خطورةً، فتجعلها تمضي بهدوء. وإذا ظهرت مسحة من العبقرية الأدبية، عرضاً، أو بدا موضوع جديد لبحث، فإن اكتشافات حقيقية أو مزعومة سرعان ما تتضاعف، ويصير كل حديث متعلّقاً بالبحث ومنعماً بالحياة. وإذا وُجد مصدر جديد للثروة، أو عرض أمل في الغزو، فإن خيالات البشر تشتعل وتتأجَّج، وتنخرط أجزاء كاملة من الكرة الأرضية فجأةً في مغامرات مدمِّرة أو ناجحة.

إذا تمكّنا من استذكار الروح التي ظهرت، أو من التعرّف على وجهات النظر التي كانت لأجدادنا، عندما تفجّروا في طوفان وانطلقوا من مقاعدهم القديمة وتدفقوا في الإمبراطورية الرومانية، فقد نجد، بعد نجاحهم الأول على الأقل اهتياجاً في عقول الرجال، لا تبدو أي محاولة أمامه شاقّة، ولا صعوبات لا يمكن التغلّب عليها.

كانت العصور اللاحقة للمغامرة في أوروبا، تلك التي أطلقت فيها الحماس، وانطلق أتباع الصليب إلى غزو المشرق، لكي ينهبوا بلاداً ولاستعادة الذخائر والآثار المقدّسة، تلك التي من أجلها

تنازع الناس في دول مختلفة على الحرية، وهاجموا بنية الاغتصاب المدني والديني، بعد الحصول على وسائل لعبور المحيط الأطلسي والإبحار حول رأس الرجاء الصالح، صار سكان نصف العالم منفتحين على النصف الآخر، وصار البشر من كل فجٍّ عميق يخوضون في الدماء، وبكل جريمة، وبكل المخاطر صالوا وجالوا في العالم بحثاً عن الذهب.

والضعفاء والكسالى، حتى هؤلاء هبّوا للمغامرة نتيجةً لعدوى مثل تلك العصور اللافتة. والدول التي لم يشتمل شكلها على مبادئ الجهد الذي لا يتوقَّف، لصالح مصلحة البشر أو ضدّها، قد تكون أظهرت مؤقت للقوة القومية. وفي حالة مثل هذه الأمم، لم تكن عائدات الاعتدال إلّا العودة إلى الظلمة، وتحوَّلت جراءة عصر إلى اكتئاب في العصر الذي أعقبه.

غير أننا نقول، إنه، في حالة الدول المحظوظة بسياستها المحلية، قد يخمد الجنون نفسه، نتيجةً للاضطرابات العنيفة، ويتحوَّل إلى حكمة. ويعود الناس إلى مزاجهم العادي، معافين من الحماقات، وحكماء بالخبرة، أو يعودون بمواهب محسَّنة، في إدارة المشاهد التي صنعتها نوبات الجنون، فيبدون مؤهّلين خير تأهيل، للسعي بنجاح وراء هدف الأمم. ومثل الجمهوريات القديمة مباشرة بعد فتنة أو عصيان، أو مثل مملكة بريطانيا العظمى في خاتمة حروبها الأهلية يستعيدون روح النشاط التي أوقظت حديثاً، ويكونون أقوياء في كل مسعى، سواء اختص بالسياسة، أم بالتعليم أم بالفنون. فمن مشهدهم الذي على حافظ الدمار نراهن يتحوّلون إلى أعظم ازدهار.

ينخرط الناس في حِرفٍ بدرجات من الحماس لا تتناسب مع أهمية هدفهم. وعندما يتعارضون أو يتحدّون، فكل ما يرغبون فيه يقتصر على مظاهر ومزاعم العمل. فهم ينسون، في حمّى عدواتهم موضوع نزاعاتهم، أو لا يطلبون عبر الأفكار الرسمية المتعلقة به إلا إخفاء عواطفهم. فعندما يلتهب القلب لا يقدر أي تفكير أن يخمد حماسته، وعندما تخمد حماسته لا يقدر أي تفكير أن يثيرها، ولا تقدر أي بلاغة أن توقظ عواطفه السابقة.

ولا بدًّ من أن يعتمد استمرار المنافسة بين الدول على درجة المساواة التي تُوازن قواها، أو على الدوافع التي تدفع أي فريق، أو الجميع للاستمرار بصراعاته. والتوقّفات الطويلة للحرب تجعل في كل مرحلة من مراحل المجتمع المدني، والروحَ العسكرية تهن. فإضعاف ليساندر (Lysander) لمدينة أثينا كان ضربةً قاتلةً لمؤسسات ليكرغوس. والحيازة الهادئة على إيطاليا، ولسعادة البشر، وضعت نهايةً لتقدّم الرومان العسكري. وبعد استراحة لبعض السنين، وجد هنيبعل إيطاليا غير جاهزة لهجومه، والرومان في وضع مائل إلى السقوط، على ضفاف نهر بو (Po)، لكن ذلك الطموح العسكري بعد إثارته بالشعور بخطر جديد لاحقاً، أوصلهم إلى ضفاف نهري الراين والفرات.

الدول كلها، حتى الممتازة ببسالتها وبراعتها العسكرية، تضع أحياناً سلاحها جانباً للكسل أو التراخي، وتكون منهكة من النزاعات العقيمة. غير أنها إذا حافظت على وضعية المجتمعات المستقلة، فسيكون لها مناسبات متعدّدة لاستعادة قوّتها وبذلها. وحتى في ظلّ أنظمة الحكم الشعبية، نجد الناس لا يعودون يحترمون حقوقهم

السياسية، ويبدون أحياناً مهملين وكسولين. غير أنهم إذا حافظوا على قوّة الدفاع عن أنفسهم فإن فترة ممارستها لا تكون طويلة. وعندما تُهمل الحقوق السياسية، فإنها تتعرّض للغزو دائماً. ولا بدَّ من أن تصدر الإنذارات عن هذا الجانب بشكل دائم لتجديد وإحياء انتباه الأطراف، وحب المعرفة والفنون قد يغيّر أهدافه، أو يضعف لفصل من الفصول، لكن، ما دام الناس أحراراً، وما دامت ممارسة العبقرية لم يعقبها شيء، فيمكن للشعب أن يتابع سيره في أوقات مختلفة بحماسة مختلفة، لكن تقدّمه قلّما يتوقّف توقّفاً كلياً، ولا تضيع الفوائد المكتسبة في العصر الذي يليه. وإن أردنا أن نقع على أسباب الفساد النهائي علينا أن ندرس تلك الثورات الدولية التي أزاحت أو منعت أهداف كل بحث عبقري أو مسعى ليبرالي، والتي حرمت المواطن من فرص التصرّف كعضوٍ في مجتمع، وسحقت روحه، وحقَّرت مشاعره، ولم تؤهّل عقله للنظر في الأمور.

الجزء الثالث

ظواهر تراخي الروح القوميّة التابعة للأمم الثقافيّة المصقولة

كان على الأمم المتحسّنة في طريق تقدّمها أن تتصارع مع الأعداء الخارجيين، الذين كانت تكنّ لهم عداوة قصوى، الذين قاتلتهم في نزاعات وحروب كثيرة من أجل وجودها كشعوب. وفي فترات زمنية معيّنة أيضاً شعرت بوجود إزعاجات ومظالم ولّدت نفاد صبرٍ قوي، فوضعوا إصلاحات ومؤسسات جديدة علّقوا عليها آمالًا متفائلة في السعادة القومية. وكان كل فن في الأزمنة الأولى غير كامل وقابل لتحسينات عديدة. وكانت المبادئ الأولى لكل علم ما تزال أسراراً يُراد الكشف عنها ونشرها بشكل متتابع باستحسان وبنصر.

يمكننا أن نتخيّل أن الجنس البشري في عصور التقدّم كان مثل المستكشفين الذين يخرجون لاكتشاف أراضٍ خصبة، والعالم مفتوح أمامهم، وقد عرض لهم في كل خطوة شيء جديد. فهم يدخلون كل أرض جديدة بتوقّع شيء وبفرح. ويشاركون في كل مغامرة حماس الناس، ويعتقدون أنهم سيبلغون السعادة القومية، والمجد

الذي لا يزول، فينسون الخيبات السابقة في غمرة الآمال بالنجاح المستقبلي. أما العقول البدائية الثَّملة بكل عاطفة، والمنحازة إلى حالها، ومساعيها، انطلاقاً من الجهل فإنها تظن أن كل مشهد هو أدنى من المشهد الموجودة فيه. وهم يُثارون بالنجاح وبسوء الحظ سواء بسواء، ويكونون متفائلين، ومتحمسين ومندفعين، ويتركون للأجيال العارفة التي ستعقبهم تذكارات عن مهارة ناقصة، وعن تطبيق بدائي لكل فن، لكنهم يتركون أيضاً علامات عن روح قوية ومتحمّسة لا يكون الذين سيخلفونهم مؤهلين دائماً للاحتفاظ بها أو محاكاتها.

يمكن القبول بذلك كوصف منصف لمجتمعات ناجحة في فترات معيّنة من تقدّمها هذا على الأقلّ. وقد تكون الروح التي بها يتقدّمون غير متساوية في أزمنة مختلفة، وقد يكون لها نوبات وتقطعات ناشئة من تناقض العواطف الإنسانية، ومن الظهور العَرَضي أو إبعاد المناسبات التي تثيرها. غير أن السؤال هو: هل تجد تلك الروح التي تظلّ لوقتٍ تحمل مشروع الفنون المدنية والتجارية توقفاً طبيعياً في نهاية مساعيها الخاصة؟ وهل يتحقّق وينتهي عمل المجتمع المدني، وهل يمكن التخلّي عن فرصة بذل مجهود إضافي؟ وهل خيبات الأمل المستمرة تُنقص من الآمال المتفائلة ومألوفية المواضيع تكسر مضاء الجدّة؟ وهل التجربة ذاتها تلطّف حماسة العقل؟ وهل يمكن من جديد مقارنة المجتمع بالفرد؟ ومع أن قوة الأمة مثل قوة الجسم الطبيعي لا تتبدّد بتآكلٍ فيزيائي، فهل يمكن الارتياب والقول، إنها قد تهن لنقصٍ في التدريب، وتفنى في آخر جهودها؟ وهل تصير المجتمعات بعد إتمامها كل تصاميمها مثل الرجال بعد سنوات الذين يهملون التسليات ويكونون لامبالين

بعواطف الشباب، الباردةً ولا المباليةً بأشياء اعتادت بعث الحياة فيها في عصرٍ بدائي؟ وهل يمكن مقارنة مجتمع مصقول ومثقَّف برجل نفَّذ خطته فبنى بيته واستقر، وباختصار بعد أن عرف مفاتن كل موضوع، وبدَّد حماسته، وهوى إلى الكسل واللامبالاة غير المقيَّدة؟ فإذا كان الأمر كذلك، نكون قد وجدنا على الأقل تشبيهاً آخر لهدفنا. غير أنه من المحتمل هنا أيضاً، أن يكون التشابه ناقصاً، وأن الاستدلال الذي نجم هو مثل معظم الحُجج المستمدّة من المماثلة، فهي تلي المخيّلة، ولا تقدّم أي معلومات حقيقية عن الموضوع الذي تشير إليه.

مواد الفن الإنساني لا يمكن استنفادها، وتطبيقات الصناعة ليس لها نهاية. ولا تُقاس الحماسة القومية في أي وقت بالفرص الموجودة لنشاطها. ولا يُقاس حبّ استطلاع العلماء بمقدار الموضوع الذي بقي للبحث.

الجهلة وعديمو الفنون الذين تبدو لهم مواضيع العلم جديدة، والذين يكون أسلوب حياتهم بسيطاً جداً نجدهم هامدين وفضوليين أكثر من المجهَّزين بمعرفةوسائل الحياة، عوضاً عن أن يكونوا نشطاء ومحبين للاستطلاع. وعندما نقارن الجزئيات التي شَغَلت البشر في البداية وفي العصور المتقدمة، وعصر الفنون التجارية، فسوف نجد أن تلك الجزئيات قد تضاعفت وتوسَّعت أخيراً. وعلى أية حال إن الأسئلة التي طرحناها تستحق الإجابة. وإذا لم نجد في نتيجة التجارة مواضيع المساعي البشرية مبعدةً، أو مصغَّرة بمقدار كبير، فإننا سنجدها متغيّرة على الأقل. وفي تقديرنا للروح القومية، قد نقع على إهمال في قسمٍ، ولكنه عُوِّض بانتباه متنامٍ في قسم آخر.

صحيح، وبشكل عام، أنه يوجد في مساعينا جميعها نهاية لما يُقلق، وموضع راحة نطمح إليه. ونحن نقوم بإزالة ذلك الذي لا يلائمنا أو نكسب فوائده لصالحنا، عندما تتوقف أعمالنا. فقد قال بيروس (Pyrrhus)، عندما استولى على إيطاليا وصقلية، حينئذٍ، سأتمتع براحتي. هذه النهاية نفكر بها في جهودنا القومية والشخصية. وبالرغم من التجارب المعاكسة المتكررة، فإنها تُعتبر إذا نظر إليها جيداً بأنها ذروة السعادة أو الهناءة. غير أن الطبيعة بحكمةٍ وفي أكثر الأمور الجزئية، عملت على إعاقة مشروعنا، فلم توفِّر لنا في أي مكان نصل إليه تلك النعمة الرؤوية، نعمة الراحة المطلقة. فبلوغ غاية ليس إلّا بداية لمسعى جديد. واكتشاف أحد الفنون ليس إلّا إطالة للخيط الذي نستعمله في بحوث إضافية، وفي حين نأمل في التخلّص من متاهة، نُقاد إلى أكثر ممرّاتها تعقيداً.

ومن بين المهن التي يمكن تعدادها، والرامية إلى ممارسة الإبداع وصقل مواهب الرجال كانت هناك حِرف ووسائل الثروة، بما في ذلك جميع الوسائل المختلفة التي تُفيد في زيادة الصناعات، وفي تحسين الفنون الميكانيكية. غير أنه لا بدَّ من الاعتراف بأنه، مثل المواد التجارية قد تستمر في التراكم من دون حدّ، كذلك فإن الفنون المعمول بها لتحسينها قد تسمح بتحسينات دائمة. ولا وجود لمقدارٍ من الثروة، أو لدرجةٍ من المهارة يمكن أن تنقص ضرورات الحياة الإنسانية المعروفة. فالتحسين والكثرة ينشئان رغبات جديدة، عندما يوفران الوسائل، أو يطبّقان الطرق لإشباعها.

ونتيجة للفنون التجارية يزداد عدم المساواة في الثروة زيادة كبيرة، وتضطر أكثرية كل شعب، أو تُثار بقوة وبجشع لاستخدام

كل موهبة تملكها. فبعد تاريخ مؤلف منذ بضعة آلافٍ من السنين، وظِّف في الصناعة وفي التجارة، ما يزال سكان الصين العاملين بكدٍّ أكثر من أي شعبٍ على وجه الأرض.

جزء من تلك الملاحظة يمكن تطبيقه على الفنون الممتازة والأدبية. فهي أيضاً تشمل موادّ لا يمكن حصرها، وتنطلق من رغبات لا يمكن إشباعها. غير أن الاحترام الخاص بالجدارة الأدبية غير ثابت ومتقلِّب، وهو يتعلّق بالزيّ المتحوّل. فعندما تتراكم المنتوجات العلمية، فإن اكتساب المعرفة يشغل الوقت الذي يمكن تخصيصه للإبداع. ويتمّ الحصول على هدف العلم أو موضوعه بمواهب معتدلة أو دنيا، أما القائمة المتزايدة من المدّعين فتخفف من بريق القلّة البارزة. وعندما لا نقصد إلّا أن نتعلَّم ما علَّمه الآخرون، فمن المحتمل أن تكون معرفتنا أقل من معرفة معلّمينا. ويستمر تكرار الأسماء الكبرى بإعجاب، بعد أن نتوقف عن النظر في أسس مديحنا. ويُرفض مدَّعون جدد، لا لأنهم أقل من سابقيهم، وإنما لأنهم لم يتفوَّقوا عليهم، أو لأننا في الواقع سلَّمنا من دون بحث وفحص في جدارة الأوّلين، وعاجزون عن الحكم على أيّ منهما.

بعد إقامة المكتبات وتجهيزها، وبعد إشغال كل ممرّ من ممرّات العبقرية صرنا نسبةً لإعجابنا بما سبق أن أنجز، متحيّزين ضدّ محاولات إضافية. صرنا تلاميذ ومعجبين عوضاً عن منافسين، واستعضنا بمعرفة الكتب بدلاً من الروح الباحثة عن المعرفة أو الزاخرة بالحياة، التي كُتبت بها.

قد تكون الفنون التجارية والمريحة تابعت نجاحها، لكنها

صعدت على حساب حِرفٍ أخرى. هذه الرغبة في الربح تخنق روح الكمال. فالمنفعة تبرّد الخيال، وتصلِّب القلب، وإن أخذ الوظائف بالاعتبار، بقدر ما تكون مربحة، وأرباحها مضمونة، يقود العبقرية والطموح نفسه إلى ورشة العمل. إنه بمعزلٍ عن تلك الاعتبارات، صار فصل المهن، في الوقت الذي بدا أنه يعِد بالتحسّن في المهارة، هو فعلياً سبب صيرورة إنتاج كل فنّ أكثر كمالاً مع تقدّم التجارة. ومع ذلك في نهايته وعند آثاره الأخيرة خدم بمقدار ما في تحطيم عصابات المجتمع، واستبدل مجرد أشكال الفن وقواعده ووضعها محلّ العبقرية، وأبعد الأفراد عن المشهد العام، مشهد الوظيفة، الذي فيه تنشغل بسعادة مشاعر القلب والعقل.

بالتمييز (Distinction) بين الحِرف، التي فصلت أعضاء المجتمع المصقول المثقَّف، واحدهم عن الآخر، صار كل فردٍ حائزاً نوع موهبته، أو مهارته الخاصة، التي يجهلها الآخرون، وصار المجتمع مؤلفاً من أجزاء لا تشيع فيها الروح التي يجب أن تشيع في سلوك الأمم. فقد قال بيركليس: «ترى في الأشخاص أنفسهم انتباهاً للأمور الخاصة والعامة، ونرى في الرجال ذوي الحرف المنفصلة معرفةً كافية بما يخصّ المجتمع، لأننا وحدنا نعتبر الذين لا يهتمون بالدولة تافهين». قد يكون هذا المديح للأثينيين قد قُدِّم استناداً إلى المعرفة بإمكانية أن تتعرَّض البلاد لهجومٍ من أعدائها، أو أنه سيحصل بسرعة. وطبقاً لذلك حدث أن صارت أعمال الدولة والحرب تُدار بشكل سيىء في مدينة أثينا، عندما صارت هذه، وتطبيقات أخرى أهدافاً لحرفٍ منفصلة. كما بيّن تاريخ ذلك الشعب وبغزارة أن الرجال لم يعودوا مواطنين، ولا شعراء جيّدين

ولا خطباء منوّهين نسبةً لما كانوا يتميّزون به في تلك المهن، والحرف المنفصلة الأخرى.

الحيوانات الأقل اعتباراً منّا لها من الذكاء ما يكفيها للحصول على طعامها، ولإيجاد وسائل لمتعها المنفردة. غير أنه تُرك للإنسان أخذ المشورة للإقناع، وللاعتراض، ويثير في مجتمع أقرانه من البشر، ويفقد الشعور بمصلحته الشخصية أو بسلامته في غمرة حماسته في حالة الصداقة وفي حالة المعارضة.

عندما ينخرط الإنسان في أي واحدٍ من الانقسامات التي تفصل البشر عن تسميات القطر، والقبيلة، أو عبر أي نظام للبشر، متأثراً بالمصالح، يدرك موقعه الطبيعي، وتجد مشاعر القلب ومواهب الإدراك، ممارستها الطبيعية. فالحكمة، واليقظة، والإخلاص والثبات هي الخصال المطلوبة في مثل ذلك المشهد، والصفات التي يريد تحسينها.

في العصور البسيطة أو البربرية، وعندما كانت الأمم ضعيفة، كانت ظواهر إزعاج الأعداء، وحبّ البلاد، والحزب، أو العصبة هي ذاتها. وكان الشعب مجموعة من الأصدقاء، وبقية البشر بمنزلة أعدائه. وكان الموت والعبودية هما الشرّان المعروفان اللذان اهتموا بإبعادهما. وكان النصر والسيطرة هما الهدفان اللذان يشكّلان طموحهم. وبداعي الشعور بما يمكن أن يعانوا من الغزوات الخارجية، كان أحد أهداف كل مجتمع مزدهر، أن يزيد من قوته، وأن يوسِّع حدوده. وبقدر ما يتحقق هذا الهدف يزداد الأمن. والذين كانوا يملكون المناطق الداخلية البعيدة عن الحدود، لم يكونوا معتادين على المخاطر من الخارج. والذين كانوا على الأطراف

بعيدين عن مراكز الحكم لم يألفوا سماح ما يُدعى بالمصالح السياسية، والشعب صار هدفاً أبعد من أن يفهمه أيّ طرف منهما. فهم يتمتعون بحماية القوانين أو جيوش الحكم، ويفاخرون بروعته وقوته، لكن المشاعر المتوهّجة، ومشاعر المحبّة العامة، التي تمتزج في الدول الصغيرة مع حنان الوالد والوالدة والمحب، والصديق والرفيق فقدت جزءاً كبيراً من قوتها بمجرد توسيع أهدافهم.

إن أساليب حياة الأمم البدائية تتطلّب إصلاحاً. فالنزاعات الخارجية والشجارات المحليّة، هما أعمال عواطف متطرفة ومتفائلة. فالدولة ذات الهدوء الواسع لها نتائج سعيدة كثيرة. غير أنه إذا طبَّقت الأمم خطة التوسّع والهدوء إلى أن لا يعود أفرادها يفهمون روابط المجتمع المشتركة ولا تجمعهم محبة قضية بلادهم، فلا بدَّ من أن يخطئوا في الجانب الآخر، وبتركها النزر القليل مما يثير أرواح الرجال فإنها تجلب عصور الكسل إن لم يكن التآكل.

يمكن لأعضاء مجتمع بذلك الأسلوب أن يكونوا مثل سكّان مقاطعة محتلَّة، وأن يفقدوا الشعور بكل رابطة، سوى رابطة القرابة أو الجوار، وأن لا يكون لديهم شؤون عامة للتعاقد سوى ما يتعلّق بالروابط التجارية، نعني: روابط، وتعاقدات تظلّ فيها الأمانة والصداقة حاصلتين، لكن الروح القومية فيها، التي نفكّر فيها الآن لا يمكن ممارستها.

على كل حال نقول، إن ما ذكرناه عن إضعاف التوسّع لروابط الاتحاد السياسي، لا يمكن تطبيقه على الأمم الضيّقة أصلاً، التي لم تغيّر حدودها، ولا على تلك التي هي في حالتها البدائية، متوسّعة مثل مملكة عظيمة.

في الأراضي ذات الاتّساع الكبير، والخاضعة لحكم واحد، والحاصلة على الحرية، تكون الوحدة القومية في العصور البدائية غير كاملة أبداً. وكل منطقة تشكّل طرفاً منفصلاً، وأبناء الأسر المختلفة يكونون متعارضين، كقبائل وعشائر، ويندر أن يعملوا بتوافق ثابت. وصراعاتهم ونزاعاتهم غالباً ما تظهرهم كأنهم أمم كثيرة في حالة حرب أكثر من شعب وحَّدته روابط خطة سياسية. على أية حال، إنهم يملكون روحاً بالرغم من أنها تكون في حال انقساماتهم، وفي غمرة الفوضى، مؤذيةً فإن قوتها في مناسبات عديدة تعزّز قوة الدولة وتضاف إليها.

ومهما تكن المساحة القومية يظلّ النظام المدني، والحكم المنتظم مفيدين ولهما أهمية عظيمة. غير أن هذا لا يعني أن كل ترتيب وُضِعَ لبلوغ هذين الهدفين، والذي يمكنه أن يستعمل ويصقل أفضل صفات الرجال، هو من طبيعة تنتج آثاراً باقية، وأنه يضمن المحافظة على تلك الروح القومية التي نشأ منها.

نحن معذورون إذا كنا نرهب الإصلاحات السياسية التي يقوم بها رجال عاديون عندما نفكّر بأن الراحة، أو عدم الفعل هو هدفهم الكبير. وأنهم في معظم الأحيان يقيمون حكوماتهم لمنع الهياج والاهتياج، لا لمنع الظلم والخطأ. والحواجز والقيود التي يقيمونها ضد الأعمال الشرّيرة للبشر، تمنعهم من العمل على نحوٍ مطلق. وكان هؤلاء السياسيون يرون أن كل نزاع يقوم به شعب حرّ معناه الفوضى وخرق السلام القومي. فما أعظم حرائق القلب؟ وما أعظم التأخير في الأمور؟ وما أعظم الافتقار إلى السرّية والسرعة في إنجاز الأمور؟ وما أعظم العيوب في الخطة السياسية؟ ويتخيّل

العباقرة، أحياناً، أن عامة الشعب لا حقّ لها في التصرّف، أو التفكير. وهناك أمير عظيم أسعده أن يسخر من احتراس قضاة في بلاد حرّة وحصرهم أنفسهم أو تقيّدهم بالتفسير الدقيق للقانون[1].

نحن، وبسهولة نطلق آراءنا حول ما يمكن الرجال أن يفعلوه، انسجاماً مع النظام العام. فاهتياجات الشعب وتفلّت أفراده قذفت الشخصيات المَلَكية بالنفور والاشمئزاز. فحرية الأوروبيين في أن يجوبوا الشوارع والميادين تبدو للصيني مقدّمة مؤكَّدة للاضطراب وللفوضى. «هل يستطيع الرجال أن ينظروا إلى رئيسهم دون أن يرتجفوا؟ وهل يستطيعون أن يتحدثوا دون طقوس دقيقة ومكتوبة؟ وما هي الآمال في السلام إذا لم تغلق الشوارع في ساعة؟ وما أعظم الفوضى، إنْ سمح للناس أن يفعلوا ما يشاؤون، في أي شيء؟».

إنْ كانت الاحتراسات التي يتَّخذها البشر، واحدهم ضد الآخر، ضروريةً لمنع جرائمهم، ولا تنشأ من طموح فاسد، أو من غيرة وخشية حكامهم، فإن العمل نفسه يجب أن يُستحسن بوصفه أفضل علاج يوافق رذائل البشر. فيجب إبعاد الأفعى السامة، ويجب ربط النمر بالسلاسل. غير أنه إذا كانت السياسة القوية المطبقة بقصد الاستعباد لا لمنع الجرائم، تميل إلى إفساد عادات الشعب وأساليب حياته، وإخماد روح الأمم، وإذا كانت قساوتها تطبق للقضاء على هياجانات شعب حرّ، لا لمعالجة الفساد فيه، وإذا تمّت الموافقة على الأشكال على أنها مفيدة، لأنها تسكت صوت البشر، أو تُدان على أنها ضارة، لأنها تسمح لذلك الصوت بأن يُسمع، عندئذٍ قد نتوقّع أن يكون الكثير من التحسينات المفتخر بها

---

(1) Memoirs of Brandenburg.

والخاصة بالمجتمع المدني مجرّد وسائل لإخماد الروح السياسية، وسوف تحجز الفضائل الفاعلة كثيراً من فوضى البشر التي لا تهدأ.

إذا كان هدف السياسة المعلنة عند أي شعب والمتعلقة بجميع إصلاحاته الداخلية يتمثَّل في تأمين الشخص وما يملكه من دون أي اعتبار لشخصيته السياسية فقط، حينئذٍ نقول إن الدستور قد يكون حراً، لكن الأعضاء قد لا يستحقون الحرية التي حازوها، وغير ملائمين للحفاظ عليها. قد تكون نتائج مثل هذا الدستور إغراق الرجال جميعاً على اختلاف مرتباتهم في مساعٍ منفصلة تطلب اللذة أو المتعة التي قد ينالونها، استناداً إلى ذلك الافتراض من دون إزعاج أو يسعون وراء الربح الذي قد يحصلون عليه من دون أي اهتمام بالحكم.

فإذا كانت تلك هي غاية الصراعات السياسية، فإن التصميم عندما يُنفَّذ لتأمين ممتلكات الفرد، ووسائل عيشه، قد يضع حداً لممارسة تلك الفضائل المطلوبة لتنفيذه. فالإنسان الذي يدافع، وبالتنسيق مع زملائه، عن ممتلكاته أو عن شخصه، قد يجد في ذلك المجهود كرماً عظيماً وروحاً قوية. غير أن الذي يكون معزّزاً في مؤسسات سياسية يلجأ - لأنه آمن - إلى مجرّد التمتّع بالثروة، فإنه حُوِّل إلى مصدر فساد الفوائد التي سببتها فضائل الآخر. وفي بعض العصور، يستمد الأفراد حمايتهم بشكل رئيسي من قوّة الحزب الذي يتبعونه، ولكن في حالة الفساد يوهمون أنفسهم بأنهم يمكنهم أن يستمرّوا قادرين على أن يستمدوا من الشعب، تلك السلامة، التي في العصور السابقة كانوا يحصلون عليها من طريق احتراسهم وروحهم، ومن طريق علاقتهم الحميمة بأصدقائهم، وعبر ممارسة

كل موهبة تجعلهم محترمين، ومهابين، أو محبوبين. لذلك فإنه في فترة ما كانت الظروف تفيد في إثارة الروح، وفي الحفاظ على عادات الناس وأساليب حياتهم، وفي فترة أخرى، كانت الحكمة الكبيرة والحماسة لخير البشر من قبل قادتهم، هما المطلوبان للأغراض ذاتها.

يمكن التفكير بأن روما لم تمُت من السبات والكسل، ولم تهلك بالتخلّي عن حماستها السياسية في الداخل. فقد كان اضطرابها الاجتماعي والسياسي عنيفين وحادّين. ومع ذلك نقول، لو مورست فضائل كاتو وبروتوس في ساعة الاحتضار الأخيرة للجمهورية، لكان الحياد والانعزال الحذر عند أتيكوس (Atticus) قد وجدا أماناً في الفصل العاصف ذاته، وظل الجسم الشعبي الكبير مرتاحاً ومن دون إزعاج أمام تيّار العاصفة الذي حطّم مراتب الرجال العليا. ففي عقول الناس اختفى الشعور بالشأن العام، والعداوات الحزبية ذاتها أخمدت، فهم لا يقدرون على المشاركة إلّا في الاهتياج الذي يقوم به جنود فرقةٍ، أو محازبون لقائد. غير أن هذه الدولة سقطت في الظلمة لافتقارها لرجالٍ بارزين. وإذا بحثنا في الوقت الذي نتكلم عنه عن أسماء قليلة فقط مميَّزة في تاريخ البشر، فإننا لن نقع على فترة احتوت على قائمة أسماء أكثر مما احتوت قائمتها. غير أن تلك الأسماء صارت متميّزة في الصراع للسيطرة، لا في ممارسة الحقوق المتساوية، نعني: الشعب كان مفسداً، وكانت إمبراطورية بتلك العظمة بحاجةٍ إلى قائد.

أما أنظمة الحكم الديمقراطي بشكل عام فقد كانت في حالة خطر من الدمار بسبب صعود بعض الزمر، وبسبب روح التمرّد عند

الشعب، ولكونه مفسداً لم يعد ملائماً للمشاركة في إدارة الدولة. غير أنه، في مؤسسات أخرى، حيث يمكن الحصول على الحرية بنجاحٍ، نجد أنه، إذا كان الرجال فاسدين، فإن القوة القومية تبتعد عن إساءة استعمال ذلك الأمن ذاته الذي سبّبه الكمال الموجود في النظام العام.

إن توزيع السلطة والمراكز، وتطبيق القانون الذي به يوضع حدّ للتعدّيات والمضايقات المتبادلة، وبه تؤمن للأفراد ولممتلكاتهم، ومن دون الحاجة إلى أصدقاء أو عصابات سرّية ومن دون إلزام، كل ذلك يعود لعبقرية الأمة ويشرّفها، ولا يكون ممكناً تحقيقها بشكل كامل من دون جهود الفهم والكرامة، ومحاولات روح مصمّمة وقوية تزيّن حوليّات الشعب وسجلّات تاريخه، ولا تترك عصور المستقبل مجرّد موضوع إعجابٍ واستحسان. غير أننا إذا اعتبرنا أن الغاية تحققت، وأن البشر لم يعودوا ينشطون في التمتّع بالحرية انطلاقاً من المشاعر الليبرالية، أو بنظرة للحفاظ على العادات العامة، وإذا كان الأفراد يظنون أنفسهم آمنين من دون أي انتباه أو مجهود منهم، فإنه سيكتشف أن تلك الميزة المفتخر بها لا توفّر لهم سوى فرصة للتمتّع في وقت الفراغ بوسائل الراحة وبضروريات الحياة، أو نقول، بلغة كاتو: تعلمهم الافتخار بمنازلهم، وفيلّاتهم، وتماثيلهم وصورهم وتقييمها تقييماً أعلى مما تفعل الجمهورية. وقد يزداد ضجرهم من دستورهم الذي لم يتوقفوا عن الافتخار به في أحاديثهم، وأهملوه دائماً في سلوكهم.

ليست أخطار الحرية موضوع بحثنا الحالي، لكنها لا تكون أقوى من أي سبب أكثر من - على سبيل المثال - إهمالات الشعب الذي قوته مدينٌ لها كل دستور، كما كل مؤسسة، وكذلك المحافظة

مهما كانت الدوافع التي تُرتكب بها الأضرار، توجد تفاصيل مختلفة يعاني منها الذي تعرَّض للأذى. فقد يعاني على مستوى السلع التي يملكها، أو يعاني في شخصه، أو في حرية سلوكه. فالطبيعة جعلته سيداً لكل عمل لا يؤذي الآخرين. وقوانين مجتمعه تؤهّله لمركز محدَّد، وتمنحه شراكةً معينة في حكم بلاده. لذلك، فإن الأذى أو الضرر بهذا المعنى يقيّده بشكل غير عادل ويمكن وصفه بأنه انتهاك لحقوقه السياسية.

فعندما يكون للمواطن حقّ في الملْكية وحق في المنزلة الاجتماعية ويكون محمياً في ممارساتهما، يُقال إنه حرّ. والكوابح ذاتها التي تمنعه من اقتراف جرائم، هي جزء من حريته. ولا شخص يكون حراً عندما أي شخص يقوم بعمل مؤذٍ، وتكون لديه حصانة. والأمير المستبدّ، حتى هذا الأمير الجالس على عرشه ليس مستثنى من هذه القاعدة العامة. فهو نفسه يكون عبداً في اللحظة التي يدّعي فيها أن القوة هي التي تحسم أي نزاع. فعدم احترامه لحقوق شعبه يرتدّ عليه، وفي الأحوال العامة جميعها المجهولة والمشكوك فيها، لا يوجد منصب أكثر زعزعة من منصبه.

من الجزئيات والتفاصيل المختلفة التي يشير إليها الناس عندما يتكلّمون عن الحرية، سواء أكانت سلامة الشخص والسلع، وكرامة المرتبة، أم الإسهام في الأهمية السياسية، وكذلك، الناشئة من طرق مختلفة بها تكون حقوقهم في مأمن، يكون الناس مختلفين في تفسيرهم كل مفردة، وكل أمة حرّة تفترض أن الحرية لا توجد إلّا عندها، وهي تقيسها بعادات أفرادها الخاصة ونظام أساليب حياتهم.

وقد فكّر البعض أن التوزيع غير المتساوي للثروة هو مظلمة،

تتطلّب توزيعاً جديداً للملكية، كأساس للعدالة الاجتماعية. مثل هذا المخطط يلائم الحكم الديمقراطي، وفيه فقط سمح بدرجةٍ من التأثير.

المستعمرات الجديدة، مثل التي لدى إسرائيل، والمؤسسات المفردة، مثل إسبارطة وكريت، قدَّمت أمثلة عن تنفيذه الفعلي. غير أن الروح الديمقراطية، حتى هذه الروح، لم تفعل في معظم الدول الأخرى أكثر من إطالة الصراع من أجل القوانين الزراعية، وتعمل في مناسبة على شطب الديون، وتظلّ تتذكَّر الشعب في ظلّ جميع التمييزات في الثروة، وأنه ما يزال له حق في المساواة.

لقد ناضل المواطن في روما، وفي أثينا، وفي العديد من الجمهوريات لنفسه ولنظامه. وقد أُثير القانون الزراعي ونوقش لعصور: فهو أفاد في إيقاظ العقل، وغذَى روح المساواة، وأعدَّ ميداناً لبذل قوته، لكنه لم يتأسس مع نتائجه الأخرى الأكثر رسمية.

الكثير من المؤسسات التي استُخدمت للدفاع عن الضعفاء ضد الظلم، أسهمت في تأمين حيازة الملكية، والعمل لصالح قسمتها غير المتساوية، وزيادة صعود أولئك الذين تمكن الخشية من سوء استعمالهم للسلطة. وتلك الإساءات حصل الشعور بها مبكّراً في أثينا وفي روما(2).

لقد اقتُرح لمنع التراكم المتزايد للثروة في أيدٍ فردية أن يكون ذلك عبر تحديد زيادة الثروات الخاصة ووقف الأملاك، ووقف حقّ البكورة الذي أفاد حقّ البكر في الإرث كله دون الآخرين من الورثة. كما اقترح وضع قوانين تختصّ بحق الإنفاق وتنظيمه، ومنع تدمير

---

(2) Plutarch, *Life of Solon*. Livy

الممتلكات المتوسطة المقدار ووقف استعمال ممتلكات كبيرة والرغبة فيها. تلك الطرق المختلفة تتوافق مع مصالح التجارة، ويمكن تبنّيها بدرجات مختلفة من قِبَل شعب هدفه القومي يَمْثُلُ في الثروة، وهي لها درجة من التأثير عبر الإيحاء بالاعتدال، أو بشعور بالمساواة، وإخماد الانفعالات التي تدفع البشر إلى الإساءات المتبادلة.

يبدو بطريقة خاصة أن هدف قوانين الإنفاق، والتقسيم المتساوي للثروة، هو منع إرضاء الخيلاء، وضبط التفاخر بالثروة الكبرى، وبهذه الطريقة إضعاف الرغبة في الثروات والغنى، والمحافظة في قلب المواطن على ذلك الاعتدال وتلك المساواة اللذين لا بدَّ من أن ينظّما سلوكه.

ذلك الهدف لم يتحقق أبداً في أي دولة، كان فيها تقسيم غير متساوٍ للملْكية، وحيث سمح للثروة بمنح تمييز ومرتبةٍ والواقع هو أنه يصعب بأي طريقة مهما تكن وقف هذا المصدر من الفساد. ومن بين جميع الأمم المعروف تاريخها معرفةً يقينيّةً، عُرِفَ أن التصميم ذاته وطريقة تحقيقه كان في مدينة إسبارطة وحدها.

فهناك كانت الملْكية معترفاً بها قانونياً، لكن نتيجةً لتنظيمات وممارسات معيّنة، كان أكثرها فاعلية ما وجده البشر هناك. فأساليب الحياة التي عمَّت الأمم البسيطة قبل تأسيس الملْكيّة ظلّت محفوظةً بمقدار ما(3). ومحبة الثروة والغنى، ولقرون قمعت، وعُلِّم المواطن أن يعتبر نفسه ملكاً لبلاده، لا كمالكٍ لأرض خاصة.

وقد اعتبر بيع أو شراء إرث المواطن أمراً شائناً. وكان يُعهد

---

(3) Part II, Sec. 2.

للعبيد في كل أسرة بالعناية بآثاره. ولم يكن الرجال الأحرار يعرفون الفنون ذات الربح. وقام العدل على ازدراء إغراءات الجرائم. وما يحافظ على الحرية المدنية الذي كانت تطبّقه الدولة، كان في الميول التي سادت في قلوب مواطنيها.

وقد حُرِّر الفرد من كل قلق يمكن أن ينشأ حول خطه: فقد عُلِّم ووظِّف لمدى الحياة في خدمة الشعب. وكان يأكل في مكان مشترك لا يجد فيه أي تمييز سوى ما يتعلّق بالمواهب والفضائل، وكان صغاره وتلاميذه في وصاية وحماية الدولة. وهو نفسه كان يعتبر والداً وموجّهاً إلى شبان بلاده، لا إلى الأب القلق لأسرة منفصلة.

وقيل لنا، إن ذلك الشعب اهتم بتزيين أشخاصه، فكانوا يُعرفون من بعيد باللون الأحمر أو اللون الأرجواني الذي يرتدونه، لكنهم لا يستطيعون أن يجعلوا عدَّتهم وعرباتهم، وبناياتهم، أو أثاثهم مواضيع وَلَعٍ، أو ذوقاً. فالنجار والبنّاء مقيّدان باستعمال الفأس والمنشار: يجب أن تكون ورشة عملهم بسيطة، وقد استمرت كما هي لعصور نسبةً لشكلها. وقد استخدمت عبقرية الفنان في تهذيب وصقل طبيعته، لا لتزيين مساكن زملائهم المواطنين.

وبحسب هذه الخطة كان لهم أعضاء في مجلس شيوخ، وحكّام مقاطعات وقادة جيوش ووزراء دولة، لكن لم يكن لديهم رجال ثروات. ومثل أبطال هوميروس، كانوا يوزّعون رتب الشرف والإجلال بالكأس والطبق. والمواطن الذي تمكَّن بقدرته السياسية من أن يكون الحَكَم أو الوسيط في اليونان كان يعتبر نفسه مكرَّماً عندما يتلقّى حصة مضاعفةً في مأدبة عشاء علنية. فقد يكون نشيطاً،

وذا عقل نفّاذ، وشجاعاً، ونزيهاً وكريماً، لكن طبقته الاجتماعية، وطاولته وأثاثه قد تشوّه بحسب تقديرنا بريق كل فضائله. والأمم المجاورة طلبت قادةً لمثل هذا المعهد الخاص برجال الدولة والمحاربين، كما نحن بطلب ممارسين لكل فنّ من الأقطار التي يتفوّقون فيها: طهاة من فرنسا وموسيقيين من إيطاليا.

وبعد كل شيء، قد لا نكون قد عرفنا، بما فيه الكفاية، طبيعة قوانين إسبارطة ومؤسساتها، ولم نفهم، كفايةً، الأسلوب الذي به حققت تلك الدولة بمفردها غاياتها. غير أن الإعجاب بشعبها، وإشارة المؤرخين المعاصرين الدائمة إلى تفوّقها المعترف به، لن يسمحا لنا بالشك في الوقائع. وقد قال كسينوفون: «عندما لاحظت أن هذه الأمة، بالرغم من عدم كونها الأكثر عدداً، كانت أقوى دولة في اليونان، يتملّكني العجب، وبعد أن عرفت الفنون التي بها حققت بروزها، وعندما عرفت مؤسساتها توقّفت دهشتي. فكما أن إنساناً يمتاز ويتفوَّق على من يهمله، كذلك هم السبارطيون عندما تفوَّقوا على كل أمة، لكونها الدولة الوحيدة التي درست فيها الفضيلة كهدف للحكم».

إذا اعتبرت مواضيع الملْكية موارد عيش أو متعة أيضاً، فلا تأثير لها في إفساد البشر، أو في إيقاظ روح التنافس والحسد، لكن إن اعتبرت مصادر للامتيازات والإجلال، حيث الثروة تكوِّن المرتبة، فإنها تثير أعنف العواطف، وتمتصّ كل مشاعر الروح الإنسانية: فقد جمعوا الجشع والحقارة مع الطموح والخيلاء، وقادوا البشر عبر فنونٍ خسيسةٍ ومرتزقة إلى الحيازة ما يُفترض أنه سموّ وجلال.

ونقيض ذلك نقول، إنه يحثّ بوضع حدّ لمصدر الفساد

ذاك، فإن المواطن يكون قائماً بواجباته، ويكون الحاكم مستقيماً أخلاقياً، ويمكن إدارة أي شكل من أشكال الحكم بحكمة، وكذلك ستؤمن المراكز الثقة. وبأي حكمٍ وسلطةٍ تكون، فالمحتمل أن الطاقة والقوة التي تبقى في الدولة ستستخدمان في خدمتها، وذلك لأنه استناداً إلى هذا الرأي تكون الخبرة والقدرات هما المرشدان الوحيدان، والمؤهِّلان الوحيدان للثقة العامة. وإذا نُظِّم المواطنون في طبقات منفصلة، سيكونون هم الذين يشكّلون ضوابط متبادلة عبر اختلاف آرائهم، لا عبر تعارض خطفهم التي يحبونها.

ويمكننا، وبسهولة، أن نشرح النقود والتقريعات الموجهة للحكم في إسبارطة، عبر الذين لا يعتبرونها إلّا من ناحية إصلاحاتها. فهي لم تُحسب لمنع ممارسة الجريمة عبر خلق توازنٍ بين الميول الأنانية والمتحيّزة للبشر، وإنما عبر الإيحاء بفاضل النفس، والعمل بالبراءة في حال غياب الميول الجرمية، وبالحصول على سلامها الداخلي من لامبالاة أعضائها بالدوافع العادية للنزاع وللفوضى. ومن تفاهة البحث عن مماثل له في أي دستور آخر في دولة، ولا توجد في خاصته الرئيسية ولا سِمته المميّزة. وسيادة المجلس الذي أعضاؤه «متساوون بالسلطة» (Collegiate Sovereignty)، ومجلس الشيوخ، والقضاة الخمسة الذين كان لهم «سلطة على الملك الأيفوري» (Ephori)، لها نظائر في جمهوريات أخرى خاصة ما كان هناك شبيه في حكم قرطاجة[4]. ولكن السؤال هو: ما القرابة بين النتائج التي يمكن الوقوع عليها بين دولة هدفها الوحيد هو الفضيلة، ودولة أخرى هدفها الرئيسي متمثِّل في الثروة، وبين شعب ملوكه المجتمعون يقيمون في ذات الكوخ، ولا يملكون من

(4) Aristotle.

الثروة سوى طعامهم اليومي، وجمهورية تجارية تكون الممتلكات الخاصة فيها لازمةً للتأهّل لوظائف عليا في الدولة؟

هناك حكومات صغيرة طردت ملوكها عندما صاروا ضدّ خططها، أو بعد اختبارها طغيانهم. وهنا، ظلّ التعاقب الوراثي للملوك على حاله. ودول أخرى كانت تخشى من مؤامرات أعضائها، في مجال التنافس على المنزلة، وهنا لا بدًّ من التوسّل كشرط وحيد للحصول على مكان في مجلس الشيوخ. وسلطة التحقيق العليا التي تمثّلت في أشخاص القضاة الخمسة الذين كان لهم سلطة على الملك، نُقلت إلى عدد قليل من الرجال الذين يكونون بالقرعة، ومن دون تمييز، ومن مراتب الشعب جميعها. إن تطلّب الأمر إيجاد مقابل لذلك، ولمواد أخرى كثيرة في الخطة السياسية السبارطية، فيمكن الوقوع على كل ذلك في تاريخ البشر العام.

غير أن إسبارطة، وبالرغم من كل خلل قد يُفترض وجوده في شكلها ازدهرت لقرون عبر استقامة وكمال أخلاقها، وعبر شخصية وطباع مواطنيها. وعندما تحطّمت تلك الاستقامة والكمال، فإن أفراد ذلك الشعب لم يقعوا في ضعف الأمم التي سقطت في التخنّث. فقد سقطوا في التيّار الذي أُدخلت إليه دول أخرى في السيل الجارف، وسيل العواطف العنفية، وفي انتهاكات الأزمنة البربرية. وسلكوا في حياة مثل الأمم الأخرى، بعد انتهاء الحياة السبارطية، فراحوا يشيدون الأسوار، وبدؤوا يحسّنون ممتلكاتهم، بعد أن توقّفوا عن تحسين شعبهم، وعلى أساس هذه الخطة الجديدة، في صراعهم للحياة السياسية بقوا بعد هلاك نظام الدول تحت السيطرة المقدونية، وعاشوا للعمل مع دول أخرى نشأت في

حلف أخيون (Achaean)، وكانوا المجتمع اليوناني الأخير الذي صار قريةً في إمبراطورية روما.

قد يُعتقد أننا ركَّزنا طويلاً على تاريخ ذلك الشعب الرائع الفريد، فلنتذكَّر، أن عذرنا كان هو أن أفراد ذلك الشعب، وحدهم، وبلغة كسينوفون جعلوا الفضيلة هدف الدولة.

يجب أن نكون قانعين بأن نستمد حريتنا من مصدر مختلف، وأن نتوقَّع العدالة من الحدود الموضوعة على سلطات الحاكم، وأن نعتمد للحماية القوانين الموضوعة لتأمين ممتلكات وشخص المواطن. فنحن نعيش في مجتمعات، لا بدَّ من أن يكون الرجال فيه أثرياء لكي يكونوا عظماء، وحيث المتعة ذاتها غالباً ما تُطلب انطلاقاً من الخيلاء والغرور، وحيث الرغبة في سعادة مفترضة تخدم في تسعير أسوأ العواطف والانفعالات، وهي نفسها أساس التعاسة، وحيث العدالة العامة التي هي مثل القيود والأغلال على الجسم، قد تمنع الاقتراف الفعلي للجرائم، من دون تحريك مشاعر الإخلاص والمساواة.

ويتّصف البشر بهذا الوصف لحظةَ تمسك بهم عاطفة الثروة والسلطة. غير أن وصفهم في كل حالة يكون خليطاً: في أفضل الحالات، ويكون خليطاً من الشرور، وفي أسوأها يكون خليطاً من الخيرات. ومن دون وجود مؤسسات تحفظ أساليب حياتهم، باستثناء القوانين الجزائية وقيود الشرطة، نراهم قد استمدّوا من المشاعر الغريزية حبَّ الكرامة والإخلاص، واستمدوا من عدوى المجتمع نفسه تقديراً لما هو مشرِّف ويستحق التقدير. واستمدوا من اتحادهم ومعارضتهم المشتركة للأعداء الخارجيين حماسةً

لمجتمعهم، وشجاعةً للحفاظ على حقوقه. وإذا عمل الإهمال المتكرّر للفضيلة بوصفها هدفاً سياسياً على إضعاف الثقة في إفهام الرجال، فإن بريقها وتكرارها بوصفهما النسل العفوي للقلب سيعيدان ما يشرِّف طبيعتنا.

وفي كل حالة عَرَضية ومختلطة من حالات أساليب الحياة القومية، نعتمد سلامة كل فرد ونتائج عمله السياسي، أكثر ما تعتمد على نفسه، لكنها تعتمد أكثر على الحزب الذي ينتمي إليه. ولهذا السبب نجد أن كل من يشعر بمصلحة عامة هو قابل لأن يتّحد في أحزاب، ويدعم الأعضاء واحدهم الآخر، بمقدار ما تتطلبه تلك المصلحة العامة.

حيث يكون للمواطنين في أي مجتمع حرّ مرتبات مختلفة، يكون لكل مرتبةٍ مجموعة خاصة من المزاعم والمطالب، وبالنسبة لأعضاء الدولة الآخرين تكون حزباً، وبالنسبة للاختلافات في المصلحة بين أعضائه قد يسمح بانقسامات لا حصر لها. غير أنه يوجد في كل دولة مصلحتان يمكن فهمهما مباشرةً، هما مصلحة الأمير وأتباعه، ومصلحة النبلاء أو أي عصبة مؤقتة مضادة للشعب.

وحيثما تكون سلطة السيادة محفوظة بالجسم الجمعي، يبدو من غير الضروري التفكير بمؤسسات إضافية لضمان حقوق المواطن. غير أنه من الصعب، إن لم يكن من المستحيل للجسم الجمعي أن يُمارس تلك السلطة بطريقة تبطل لزوم كل حذر سياسي آخر.

وإذا كان للمجالس الشعبية كل وظائف الحكم، وإذا عبرت

بأدبٍ وبالأسلوب العنيف الذي تقدر عليه عن مشاعرها، والشعور بحقوقها، وعدائها للأعداء الخارجيين والمحليين، فإنها تكون مطالبة بالبحث في مسائل تتعلق بالسلوك القومي، أو لتقرير مسائل تخصّ المساواة والعدالة. فالشعب معرَّض لعقبات وأشياء مزعجة كثيرة، والحكومات الشعبية، خلافاً لجميع الحكومات الأخرى تكون عرضةً للأخطاء الإدارية، ولضعف في تطبيق التدابير العامة.

وبغية تجنّب تلك الظواهر غير الملائمة، كان الشعب دائماً مقتنعاً وراضياً بأن يفوِّض جزءاً من سلطته. فأسس أفراده مجلس شيوخ لمناقشة وإعداد مسائل، هذا إن لم يكن للبتّ بها لتوضع أمام الجسم الجمعي للوصول إلى قرار نهائي. وهم سلّموا السلطة التنفيذية لمجلس من ذلك النوع، أو لحاكمٍ أو قاضٍ ليرأس اجتماعاتهم. وفي ظلّ استعمال تلك الوسيلة الضرورية والعامة، نجد أنه حتى عندما تكون الأشكال الديمقراطية محروسة بعناية، يظلّ هناك حزب للقلّة وآخر للكثرة، وأحدهما يهاجم والآخر يدافع، وكلاهما مستعدان للقيام بدوريهما. وبالرغم من الواقع المفيد أن خطراً كبيراً على الحرية ينشأ من أفراد الشعب أنفسهم، الذين يكونون في أزمنة الفساد أدوات سهلة للاغتصاب والطغيان، فإننا نجد في المظهر العادي للحكم، أن السلطة التنفيذية لها اليد العليا، ويظهر أن حقوق الشعب معرّضة دائماً للانتهاك.

ومع ذلك، فإنه في اليوم الذي كان يجمع فيه الشعب الروماني، كان أعضاء مجلس الشيوخ يختلطون بالجمهور، ولم يكن القنصل أكثر من خادم للجمهور، ومع ذلك عندما انفضَّ ذلك الاجتماع المهيب اجتمع أعضاء مجلس الشيوخ لكي يصفوا أعمال رئيسهم،

وخرج القنصل مسلّحاً بالفأس والقضبان لكي يعلِّم كل روماني بحسب قدرته الخضوع الذي هو مدين به للدولة.

وكذلك حتى عندما كان أفراد الجسم الجمعي هم أصحاب السيادة، فإنهم لم يكونوا يجتمعون إلّا عَرَضياً. وبالرغم من أنهم في مثل تلك المناسبات كانوا يقرّرون كل مسألة تخصّ حقوقهم ومصالحهم بوصفهم شعباً، وكانوا يستطيعون أن يؤكدوا حريتهم بقوة لا تُقاوّم، فإنهم لم يكونوا يعتقدون أنهم آمنين من دون سلطةٍ ثابتةٍ ومنتظمةٍ تعمل لصالحهم.

كان الجمهور قوياً في كل مكان، لكنه كان يحتاج، لسلامة أعضائه، عندما يكونون متفوقين وأيضاً عندما يكونون مجتمعين، إلى قيادة لتوجيه قوته ولاستخدامه. وقيل لنا إنه لتحقيق ذلك الغرض أُسِّس في مدينة إسبارطة ما عُرف باسم أيفوري أي القضاة الخمسة الذين كانت لهم سلطة على الملك، وكذلك مجلس المئة في قرطاجة والمدافعون عن حقوق الشعب في روما. وفي ذلك الجوّ المهيأ، كان الحزب الشعبي، وفي حالات كثيرة، قادراً على التعاطي مع خصومه، حتى إنه داسَ على السلطات، سواء أكانت أرستقراطية أم ملكية، ولم يكن ممكناً أن ينازعها بطريقة أخرى. وفي مثل تلك الحالات، كانت الدولة تعاني من التأخيرات، والمقاطعات وظواهر الفوضى، التي ندر أن أخفق القادة الشعبيون في خلقها في أعمال الحكم، سواء أكانت صادرة عن حسد، أم عن غيرة مسيطرة من العظماء.

وعندما يكون أفراد الشعب، كما هو الحال في بعض المجتمعات الكبيرة لا يملكون سوى مشاركةً في التشريع، فإنهم

لا يستطيعون أن يتغلّبوا على السلطات الإضافية، التي لها أيضاً مشاركة وتكون في حالة الدفاع عن نفسها، وحيث لا تعمل إلّا عبر ممثّليها، فإن قوتها قد تستخدم بانتظام. وقد يسهمون في دستور الحكم إسهاماً أبقى من تلك التي يكون فيها الشعب حائزاً السلطة التشريعية كلها أو مطالباً بها عندما يجتمع، أو الطغاة، وعند التبعثر والتفرّق، عبيد دولة فَسُد نظامها. وفي حكم خليط، نجد أن المصلحة الشعبية الموازنة لمصالح الأمير والنبلاء، تؤسس توازناً بينهما، فيه تَمْثُلُ الحرية العامة والنظام العام.

من بعض مثل تلك الترتيبات العَرَضية للمصالح المختلفة تنشأ أنواع الحكم الخليط جميعها، وعلى تلك الدرجة التي يحدثه لنفسه كل مصلحة منفصلة، تعتمد المساواة في القوانين التي تسنّها، والضرورة القادرة على فرضها والقاضية بالالتزام الدقيق بمفردات القانون في حالة تنفيذه. لذلك إن الدول ليست مؤهَّلةً تأهّلاً متساوياً في إدارة العمل التشريعي، وليست متساوية الحظ في إكمال دستورها المدني والإشراف المنتظم عليه.

وفي المؤسسات الديمقراطية، لا يكون المواطنون الشاعرون بأنهم يملكون السيادة، بأنهم قلقون بأن يحوز رعايا الحكومات الأخرى على توضيح لحقوقهم، أو تأمينها بمرسوم فعلي. فهم يثقون في القوة الشخصية بدعم الحزب وبحسّ الشعب.

وإذا قام أفراد الجسم الجمعي بوظيفة القاضي، وبوظيفة المشرِّع أيضاً، فمن النادر أن يفكروا في ابتداع قواعد لتوجيههم، وأندر من ذلك اتباع أي قاعدة محدَّدة بعد وضعها. فهم يستغنون في وقت ما سنوّه في وقت آخر. وفي قدرتهم المميّزة في الحكم

على الأشياء أكثر من قدرتهم التشريعية، يكونون مدفوعين بعواطف وانحيازات تنشأ في ظروف القضية التي تكون أمامهم.

غير أنه في ظلّ أنظمة حكم بسيطة من نوعٍ مختلف سواء أكانت أرستقراطية أم ملكية، هناك ضرورة لوجود قانون، وهناك أنواع مختلفة من المصالح لا بدَّ من تسويتها عند صياغة كل قانون. والحاكم صاحب السيادة يرغب في توفير الاستقرار والنظام في الإدارة، بواسطة قواعد واضحة ومعلنة. أما المواطن فيرغب في معرفة شروط واجبه وحدوده. فهو يذعن أو يثور بحسب ما تكون الشروط التي عليه أن يعيشها مع الحاكم صاحب السيادة، أو مع زملائه من المواطنين متَّسقة مع شعوره بحقوقه أو لا تكون.

لا الملك ولا مجلس النبلاء، عندما يكون أي واحد منهما حائزاً على السيادة، يمكن أن يدّعي أنه يحكم، أو يقضي استنسابياً وفق هواه. ولا يستطيع حاكم، سواء أكان مؤقتاً أم وراثياً، أن يهمل، بسلامةٍ، سمعة العدالة والمساواة التي منها استمدت سلطته واحترام شخصه بمقدار كبير. على كل حال إن الأمم كانت محظوظةً بفحوى قوانينها وبتنفيذها، نسبة لقبولها كل مرتبة من مراتب الشعب، عبر التمثيل أو عبر سواه للمشاركة في التشريع. وفي ظلّ مؤسسات من هذا القبيل، يُعتبر القانون حرفياً معاهدة أو اتفاقية وافقت عليها الأطراف المعنيّة، وقدَّمت رأيها في وضع مفرداتها. والمصالح التي تتأثَّر بالقانون تخضع للمشاورات أيضاً عند وضعه. وكل طبقةٍ تعلن معترضةً عن إضافة أو إصلاح خاص بها. وهم يتابعون التعديل عبر القوانين لكل موضوع نزاع. وفي الوقت الذي يستمرون فيه في التمتّع بحريتهم، يستمرون في زيادة القوانين، ومراكمة مجلّدات

كما لو أنهم قادرون على إزالة كل أساس ممكن للنزاع، وأنهم يحفظون حقوقهم بمجرّد كتابتها.

وقد أثبتت روما وإنجلترا، في ظلّ نظامي حكمهما الخليطين، حيث كان الأول ميّالاً للديمقراطية، والثاني للنظام الملكي، أنهما أعظم أمتين مشرّعتين بين الأمم. الأولى أورثت الأساس، والقسم الكبير من البنية الفوقية لدستوره المدني للقارة الأوروبية، والأخرى في جزيرتها أوصلت السلطة وحكم القانون إلى درجة من الكمال لم تحصل أبداً في تاريخ البشرية.

في ظلّ مثل تلك المؤسسات الإيجابية المرْضية، اكتسبت التقاليد المعروفة ممارسة المحاكم وقراراتها، والقوانين الإيجابية أيضاً سلطة القوانين. وكان كل عملٍ يُدار بقاعدة ثابتةٍ ومحدَّدة. وأفضل الاحتراسات الفاعلة اتخذت بغية التطبيق غير المنحاز للقواعد على الحالات الجزئية. واللافت الرائع الآن نجده في الطرق الرائعة الفريدة في المثلين الفريدين لقضائهما وتطابقهما في سلطان قضائي. فقد احتفظ أفراد الشعب في كليهما بطريقة من الطرق بمركز الحكم القضائي لأنفسهم، وجعلوا القرار المتعلّق بالحقوق المدنية، أو بالمسائل الجنائية لمحكمة من نظراء كانوا عندما يحكمون على زملائهم من المواطنين يصفون شرط حياتهم لأنفسهم.

وفي نهاية المطاف علينا أن لا نبحث عن مجرّد قوانين ونعتبرها المسؤولة عن ضمانات العدالة، وإنما بهذه الضمانات في السلطات حُصّلت تلك القوانين، ولولا دعمها الثابت المستمرّ لكان أسيئ استعمالها. فالقوانين تفيد في تسجيل حقوق الشعب، وتعبِّر عن

قصد الأحزاب في الدفاع عن ما عبَّر عنه نصّ القانون، لكن من دون القوة التي تحافظ على ما اعتبر حقاً، فإن مجرّد التسجيل، أو القصد الضعيف لا نفع منه.

فإذا حصل شعب أثاره الاضطهاد، أو حصلت مجموعة من الأشخاص لهم مصلحة مؤقتة، على دساتير كثيرة، وتنازلات وتعاقدات لصالح مطالبهم، ولم يكن هناك إعداد كافٍ للحفاظ عليها، فغالباً ما تُنسى المواد المكتوبة مع المناسبة التي صيغت فيها.

فتاريخ إنجلترا، وتاريخ كل بلاد حرّة يزخر بالأمثلة عن قوانين سُنَّت عندما اجتمع الشعب أو ممثلوه، لكنها لم تُنفَّذ عندما تُرك التاج وحده أو السلطة التنفيذية وحدها. وأكثر قوانين المساواة المكتوبة يتّسق مع أكثر الإدارات طغياناً. وشكل المحكمة من قِبَل المحلَّفين في إنجلترا - حتى هذا - توجد سلطته في القانون، في حين أن الدعاوى القضائية للمحاكم كانت اعتباطية وقمعية.

علينا أن نُعجب بأن الحجر الأساسي للحرية المدنية، والقانون الذي يجبر بكشف خفايا كل سجن، وإعلان سبب كل إيداع الشخص في السجن، وما هو الشخص المتهم لكي يطالب بإضافات، أو بمحاكمته في مدة محدَّدة. فلا وجود لشكل أكثر حكمةً ويكون معارضاً لإساءة استعمال السلطة. غير أنه يتطلَّب بنيةً لا تكون أقلّ من الدستور السياسي كله لبريطانيا العظمى، ولروح لا تكون أقلّ من الحماس المقاوم والعنيف المتمرّد لهذا الشعب المحظوظ للمحافظة على نتائجه وتأمينها.

فإذا كانت تُعتمد سلامة الشخص، وامتلاك الأرض اللذين

عرِّفا جيداً في نص الدستور، لحفظهما على قوة الشعب الحرّ وغيرته، وعلى درجة الاحترام التي تحافظ عليها كل مرتبة من مراتب الدولة لنفسها، فإن الأوضح هو أن ما دعوناه حرية سياسية، أو حقّ الفرد بالتصرّف في موقعه لنفسه وللعشب، لا يمكن أن يقوم على أي أساسٍ آخر. فالأرض المملوكة يمكن إنقاذها، والشخص يمكن إطلاق سراحه عبر أشكال من الإجراءات المدنية، لكن حقوق العقل لا يمكن استبقاؤها بأي قوة غير قوته.

الجزء السابع

تاريخ الفنون

لقد سبق لنا أن لاحظنا أن الفن طبيعي للإنسان، وأن المهارة التي اكتسبها بعد عصور كثيرة من الممارسة، ليست إلّا تحسينات لموهبةٍ كان حائزاً عليها منذ البداية. وفيتروفيوس (Vitruvius) وجد بدايات الهندسة المعمارية في شكل الكون السكيثي. وقد يكون صانع الدروع والأسلحة قد وجد أول منتوجات لحرفته في المقلاع والقوس، ووجدها نجّار السفن في قارب المتوحشين الطويل الخفيف. وكذلك المؤرخ والشاعر قد يكونان قد وجدا المقالات الأولى لفنيهما في القصة والأغنية اللتين تختفيان بالحروب، والحبّ، ومغامرات الرجال عندما كانوا في أكثر حالاتهم بدائية.

وبتصميمه على صقل طبيعته وتحسين وضعه، كان الإنسان يجد دائماً موضوعاً يركّز انتباهه عليه، وكذلك عبقريته وجهده. وعندما لم يفكّر بأي تحسين شخصي، حتى عندئذٍ كانت طاقاته تتعزّز بالتمارين ذاتها التي كان ينسى فيها نفسه، نعني: كان عقله وعواطفه منخرطين انخراطاً مفيداً في شؤون المجتمع. وإبداعه ومهارته مورسا لإحداث وسائل الراحة والتسلية، وإطعامه. وكانت ظروف زمانه والبلاد التي عاش فيها هما اللذان يحدّدان مهنته الخاصة: ففي

أحد الأوضاع يكون منهمكاً في الحروب وفي النقاشات السياسية، وفي وضع آخر اهتمَّ بمصلحته، وراحته الشخصية، أو بما يلائمه. فكان يلائم بين وسائله مع غاياته، ومع تزايد مخترعاته، وتابع عمله درجةً درجة، إلى تهذيب وتحسين فنونه. وفي كل خطوة من خطى تقدّمه كانت رغبته تتوسَّع، عندما كانت تزداد مهارته: فكان من العبث التفكير بوسيلة لم يعد يستعملها، مثل إخباره عن نعمٍ لا سيطرة له عليها.

وبصورة عامة، يُفترض أن عصوراً قد اقتُبست ممن جاؤوا قبلها، وأن أمماً تلقَّت نصيبها من التعلّم أو الفن من الخارج. فجرى الاعتقاد بأن الرومان تعلّموا من اليونانيين، وتعلمت الشعوب الحديثة الأوروبية من كليهما. من أمثلة قليلة من هذا النوع، نتعلَّم أن نعتبر كل علمٍ أو فنٍ مستمدٌّ، ونقبل أنه لا وجود لشيء أصيل في ممارسات وفي أساليب حياة أي شعب. فاليوناني كان نسخةً عن المصري، والمصري أيضاً كان مقلِّداً، بالرغم من أننا لم نعد نرى النموذج الذي شُكِّل بحسبه.

من المعروف أن الناس يتحسَّنون بالقدوة وبالاتصال. غير أنه في حالة الأمم التي أعضاؤها يثيرون ويوجهون واحدهم الآخر، تسعى للحصول على أصول الفنون من الخارج، في حين أن كل مجتمع يملك مبادئ لا يحتاج إلا فرصة ملائمة لإظهارها إلى النور؟ فعندما تسنح الفرصة لأفراد أي شعب، فإنهم، وبصورة عامة، يمسكون بها، وفي استمرارها يحسّنون من المبتدعات التي أدّت إليها في ما بينهم، أو ينسخون من الآخرين بإرادتهم، لكنهم لا يستخدمون إبداعهم الخاص، ولا يتطلعون إلى الخارج طلباً للتعلّم

حول مواضيع لا تقع في مجال مساعيهم وحرفهم العامة. فهم لا يتبنّون تحسيناً لم يكتشفوا نفعه.

لقد لاحظنا بتكرار أن الإبداعات عَرَضية، لكن من المحتمل أن يمسك بالإبداع العَرَضي الذي يفوت فناناً في عصرٍ، فنانٌ يعقبه، ويكون مقيِّماً أفضل لفائدته. وحيثما تكون الظروف مؤاتية، وعندما يكون الناس مهتمين بالأشياء الفنية، فإن الإبداع يبقى بصيرورته ممارسةً عامة، وكل نموذج يُدرس، ويُحسب حساب كل حادث عَرَضي. وإذا استعارت الأمم من جيرانها، فالمحتمل أن لا تستعير إلّا ما تكون هي في حالة قريبة من إبداعه هي نفسها.

لذلك إن أي ممارسة فريدة لبلادٍ، قلَّما نُقِلت إلى بلاد أخرى، إلى أن تصير الطريق ممهَّدة بظروفٍ مماثلة. ومن ذلك نشأت تذمّراتنا المتكررة من بلادة البشر أو عنادهم، والانتقالات البطيئة للفنون من مكان الى آخر. ففي حين تبنّى الرومان فنون اليونانيين، استمر تراقييون والإليريون (Illyrians) في النظر إليها نظرة لامبالاة. وكانت تلك الفنون محصورةً، في حقبةٍ زمنية في المستعمرات اليونانية، وفي حقبةٍ زمنية أخرى في المستعمرات الرومانية. وعندما كانت تنتشر عبر اتصال مرئي، حتى عندئذٍ، ظلَّت الأمم المستقلة تتلقّاها ببطء الإبداع. فلم يكن تقدّمها أسرع في روما منه في أثينا، ولم تصل إلى أطراف الإمبراطورية الرومانية إلّا بالترافق مع مستعمرات جديدة، وألحقت بالخطة السياسية الإيطالية.

الجنس البشري الحديث، الذي ذهب إلى الخارج لامتلاك المناطق المصقولة المثقفة، أبقى الفنون التي مارسها في الوطن: وراح السيّد الجديد يصطاد الخنزير الذكر، أو يرعى القطعان من

المواشي، حيث كان بإمكانه أن يحصد حصاداً كبيراً، وبنى كوخاً على شكل قصر، ودفن بتدميرٍ واحدٍ عام الأبنيةَ، والمنحوتات، والرسوم، والمكتبات التي كانت للسكان السابقين، وأقام مستعمرةً بحسب خطته، وقال مؤكّداً أنه مع أن نكهة الأدب الروماني والأدب الحديث تشبه النكهة اليونانية الأصلية، فإن البشر في كل واحدة من الحالتين، لم يكونوا ليشربوا من ذلك الينبوع، ما لم يكونوا مسرعين لفتح منابع تخّصهم.

الشعور والخيال، واستعمال اليد أو الرأس، ليست مبتدعات رجال خصوصيين، وازدهار الفنون الذي يعتمد عليها، هو في حالة أي شعبٍ برهانٌ على سعادة سياسية في الوطن، أكثر من كونه تعليماً وارداً من الخارج، أو من أي تفوّق طبيعي في الصناعة أو المواهب.

وعندما يتحول انتباه الإنسان إلى مواضيع جزئية، وعندما تُترك مكتسبات عصرٍ، كلها، للعصر الذي يليه، وعندما يكون كل فردٍ محمياً في مركزه، ويكون حرّاً في السعي وراء حاجاته، فإن الإبداعات تتجمع وتتراكم، ويصعب معرفة الأصلي في أي فنّ. إن الخطوات التي تؤدّي إلى التقدّم كثيرة، ونحن في حيرة من أمرنا، حول مَنْ نمنحه أكبر نصيب من المديح، الأول أم الأخير الذي حمل جزءاً في مسار التقدّم.

الجزء الثامن

تاريخ الأدب

إذا شئنا أن نعتمد على الملاحظات العامة التي اشتمل عليها الجزء السابق، فإن فنون الأدب وكذلك الفنون الميكانيكية، لكونها نتاجاً طبيعياً للعقل الإنساني، تنشأ، بشكل عفوي، عندما يكون البشر سعداء وفي بعض الأمم ليس يلزم أن تنظر إلى الخارج بحثاً عن أصل الأدب أكثر من النظر عن أي فكرة عن أي من المباهج أو الممارسات التي كان البشر ميّالين للانغماس فيها، في ظلّ حالة من الازدهار والحريّة.

نحن ميّالون لاعتبار الفنون غريبة عن طبيعة الإنسان وطارئة، غير أنه لا يوجد فنّ لا يجد مناسبته في الحياة الإنسانية، وأنه لم يطرح في وضعٍ أو في وضع آخر من أوضاع نوعنا، كوسيلةٍ لتحقيق غاية مُفيدة ماً. فالفنون الميكانيكية والتجارية نشأت من حب الملْكية، وشُجِّعت بمطامح السلامة والكسب، بينما نشأت الفنون الأدبية والليبرالية من الفهم، والخيال والقلب. فهي مجرّد تمارين خاصة بالقلب في بحثه عن ملذّاته ووظائفه الخاصة، وتعزّزت بظروف جعلت العقل يتمتّع بنفسه.

البشر مشغولون سواء بسواء في الماضي، والحاضر

والمستقبل، وهم جاهزون لأي عملٍ يوسِّع من قواهم. لذلك، فإن الإنتاج، سواء أكان في القصة، أم الخرافة، أم التفكير، الذي يوظِّف الخيال، أو يحرِّك القلب، استمر لعصور موضوعاً للاهتمام ومصدراً للبهجة. وإن ذكرى التعاملات المحفوظة في التقاليد أو في الكتابة، هي المصادر الطبيعية لإرضاء العاطفة التي تتألّف من حب الاستطلاع، والإعجاب، وحبّ التسلية.

وقبل أن تُكتب كتب كثيرة، وقبل أن يتقدَّم العلم تقدّماً واسعاً، كانت منتوجات العبقريات وحدها كاملة أحياناً: فلم يكن القائم بالعمل محتاجاً لعونٍ من تعليمٍ حيث يكون وصف القصة مرتبطاً بأشياء قريبة ومجاورة. وحيث يكون له صلة بسلوك وبشخصيات البشر الذين تعامل هو نفسه معهم، وكان له دور في وظائفهم وحظوظهم.

بذلك الامتياز كان الشاعر الأوَّل الذي قدَّم ثمار عبقريته يقود حياة تلك الفنون التي بها كان مصير العقل عرض خيالاته والتعبير عن عواطفه. فكل قبيلة بربرية كان لها إيقاعات عاطفية أو تاريخية، وكانت تحتوي على الخرافة، والحماسة، والإعجاب بالعظمة أو المجد الذي كان يستحوذ على قلوب الرجال في أول حالات المجتمع. وكان نظم الشعر يبهجهم، إمّا لأن إيقاع الأعداد طبيعي بالنسبة إلى لغة الشعور، أو لأن عدم معرفتهم بالكتابة اضطرهم إلى جعل الأذن تساعد الذاكرة، بغية تسهيل التكرار، وضمان الحفاظ على أعمالهم.

عندما ننظر إلى اللغة التي استخدمها المتوحّشون في أي مناسبة مقدَّسة أو جليلة، يبدو أن الإنسان شاعر بالطبيعة. وسواء أكان مضطراً في البداية لعيوبٍ في لسانه، أم لقلّة التعابير المناسبة،

أم أغرته متعة الخيال عند وضع التشابيه بين موضوعات ذلك الخيال، فإنه كان يغلّف كل فكرة بصورةٍ وتشبيه. وقال خطيب أميركي: «لقد زرعنا شجرة السلام، ودفنّا الفأس تحت جذورها، ومن الآن فصاعداً سوف نستريح في ظلّها، وسوف نتواصل لجعل السلسلة التي تربط أممنا تشعّ ببريقها». مثل تلك المجموعات من التشابيه هي التي استخدمتها تلك الأمم في خطبها الرنّانة العامة. كما تبنَّت تلك التشابيه الحيّة وتلك الحرية اللغوية الجريئة، التي وحّدها المتعلمون، لاحقاً، خير ملائمة للتعبير عن تحوّلات سريعة في الخيال وحماسة عقل مدجّج بالعاطفة.

إذا طُلب منا وكان علينا أن نشرح كيف يمكن أن يكون الرجال شعراء، أو خطباء من دون عونٍ مما تعلّمه الباحث والناقد، فإننا نتساءل بدورنا، كيف يمكن للأجسام أن تسقط بسبب وزنها، قبل أن تُسجَّل قوانين الجاذبية في كتب؟ فالعقل، والجسد أيضاً لهما قوانين موجودة في مجرى الطبيعة، ولا يجمعها الناقد إلا بعد أن يبيّن المثل ما تكون.

كل قصة تحصل عبر الرابطة الفيزيقية التي ذكرناها بين عواطف خيالٍ حارّ، والانطباعات المتلقّاة من أصوات موسيقية محزنة عند الأمم البدائية، تتكرّر في الشعر ويكون لها شكل أغنية. والتاريخ الأول لجميع الأمم متساوٍ من هذه الناحية. فالكهنة، ورجال الدولة، والفلاسفة، في عصور اليونان الأولى، ألقوا تعليماتهم بلغة الشعر، واختلطوا مع العاملين في الموسيقى والقصة الخرافية البطولية.

فليس مستغرباً أن يكون الشعر أول نوع من التأليف في كل أمة، وأن يكون الأسلوب الصعب، والبعيد عن الاستعمال

المألوف، والشامل والعام هو الأول الذي حقّق نضجه. وإن أكثر الشعراء الذين أثاروا الإعجاب عاشوا قبل التاريخ، وقبل التقاليد. فأغنية المتوحشين اللافنية، والقصة البطولية للشاعر، كان لهما جمال بارز أحياناً لا يغيّرهما تحسين اللغة، ولا تحسينات النقّاد يمكن أن تصلحهما[1].

في ظلّ الضرر المفترض الذي تسبّبه المعرفة المحدودة، والفهم البداثي، كان للشعر البسيط انطباعات تعوّض عن عيوب مهارته وأكثر. فأفضل مواضيع الشعر، والشخصيات العنيفة والشجاعة، والكرم والباسلة، والأخطار الكبرى، وتجارب المناعة والإخلاص، كل ذلك كان الشاعر يعرضها في نظرته، أو تُلقى في التقاليد المُفعمة بالحياة، مثل الحقيقة، لأن تصديقها متساوٍ. فهو لا ينخرط في استذكار مشاعر مشهد عصر ناءٍ عن عصره، مثل فرجيل (Virgil) أو تاسو (Tasso). وهو لا يحتاج لأن يطلب منه الناقد[2] أن يتذكّر ما فكّر به شخص آخر، أو بأي أسلوب كان سيعبّر آخر عن فكره. فالعواطف البسيطة، والصداقة، والحنق والحبّ هي التي تؤلّف حركات عقله، وهو لا يملك فرصةً لمحاكاتها. ولأنه بسيط وتحمّس في مفاهيمه ومشاعره، فهو لا يعرف تنوّعاً في الفكر أو في الأسلوب، لتضليل حكمه أو ممارسته. فهو يعبّر عن مشاعر القلب، بكلماتٍ من القلب، لأنه لا يعرف سواها. لذا في الحين الذي نعجب فيه بحكم فرجيل وإبداعه، وبحكم شعراء لاحقين آخرين، فإن تلك المفردات لم تُطبّق تطبيقاً صحيحاً على هوميروس. وبالرغم من أنه ذكيّ وسامٍ بمفاهيمه، فإننا لا نستطيع أن نشاركهُ أنوار فهمه، ولا

(1) Translations of Gallic Poetry, by James McPherson.

(2) انظر لونجينوس (Longinus).

حركات قلبه، فهو يبدو متكلّماً من وحيٍ لا من إبداع، ومرشَداً في اختباره أفكاره وتعابيره بغريزة فوق طبيعية، لا بالتفكير.

كانت لغة العصور الأولى بسيطة ومحصورة من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى كانت متنوّعة وحرّة: فقد سمحت بالحريّات التي حُرم منها الشاعر في الأزمنة التي أعقبت.

وفي العصور البدائية لم تكن هناك امتيازات في المرتبة أو المهنة تفصل وتفرِّق بين الرجال. فقد عاشوا بأسلوب حياة واحد، وتكلّموا بلغة محلية واحدة. فلم يكن على الشاعر أن يختار تعبيره من بين لهجات فريدة لحالات مختلفة. ولم يكن عليه أن يحترس ويحمي لغته من الأخطاء الغريبة، وأخطاء الميكانيكي، والفلّاح، والبحّاثة، أو رجل الحاشية، لكي يجد تلك الملاءمة الأنيقة والسموّ العاجل المتحرِّر من اللغة العامية لطبقةٍ، واللغة المتحذلقة لطبقة ثانية، أو الثرثارة الوقحة لطبقة ثالثة. فاسم كل شيء، وكل شعور ثابت، وإذا كان لمفهومه جلال الطبيعة، فسيكون لتعبيره صفاء لا يعتمد على اختياره.

بذلك الحصر الواضح في اختيار كلماته، كان حرّاً في تجاوز الأنماط المألوفة في الإنشاء، وكان بإمكانه أن يجد لنفسه في شكل لغةٍ غير قائمةٍ على قواعد إيقاعٍ ملائم لنبرة عقله. فالحرية التي يمارسها عندما يكون المعنى لافتاً، وتكوينه للغة عالية، تبدو تحسيناً لقواعد اللغة لا انتهاكاً لها. فهو يقدِّم أسلوباً للأجيال التي ستعقب، ويصير نموذجاً منه يصدر حكم الأجيال القادمة كلها.

غير أنه، مهما كان ميل البشر الأول للشعر، أو الفوائد التي

حصلوا عليها من تعهّد وتشجيع هذا النوع من الأدب، سواء أنشئت التأليفات الشعرية الناضجة الأولى من كونها الأولى التي تمَّ درسها، أو من كونها حاصلة على سحر يشغل الأشخاص ذوي العبقرية الحيّة الناشطة، الذين كانوا الأكثر تأهّلاً لتحسين بلاغة لغتهم المحليّة. وإنها لحقيقة لافتة، وليست موجودة فحسب حيث كان مزاج التأليف أصلياً، وكان مفتوحاً في نظام التعاقب الطبيعي، لكن في روما، حتى في هذه المدينة، وفي أوروبا الحديثة، حيث بدأ المتعلّمون في وقتٍ مبكّر في ممارسة النماذج الأجنبية، نجد شعراء في كل أمة يقرؤون ويدرسون بسعادة، بينما كان كتّاب النثر في العصور ذاتها مهملين.

وكما سبق سوفوكليس (Sophocles) ويوربيديس (Euripides) مؤرخي بلاد اليونان وأخلاقييهم، لم يكن نيفيوس (Naevius) وإنيوس (Ennius) اللذين كتبا التاريخ الروماني بلغة الشعر وحدها، لكن كان هناك لوسيليوس (Lucilius)، بلوتس (Plautus)، ترنتيوس (Terence)، ويمكننا أن نضيف الـ لوكريتيوس (Lucretius) الذين سبقوا شيشرون، سالوست (Sallust)، أو القيصر. وقد سبق دانتي (Dante) وبترارك (Petrarch) كل كاتب نثر جيّد في إيطاليا، وكورناي (Corneille) وراسين (Racine) صنعا عصر مؤلفات النثر الجميل في فرنسا. ولم يقتصر الأمر في إنجلترا على تشوسر (Chaucer) وسبنسر (Spenser) بل شمل شكسبير (Shakespeare) وميلتون (Milton)، في حين كانت محاولاتنا في التاريخ أو العلم في عهد الطفولة لا يستحقان انتباهنا إلا من أجل المادة التي يعالجانها.

هيلانيكس (Hellanicus) الذي يعتبر من أوائل كتّاب النثر

في اليونان والذي سبق هيرودوت (Herodotus) مباشرة، أو كان معاصراً له، انطلق بالإعلان عن عزمه إزالة الأفكار الوحشية والخرافات المتطرّفة من التاريخ، التي بها جلب الشعراء له الخزي والعار[3]. وقد تكون الحاجة لسجلاّت أو مراجع تعود إلى أي تعاملات بعيدة، قد حالت بينه وبين إعطاء الحقيقة كل الفائدة التي كان يمكن تحصيلها من ذلك التحوّل إلى النشر، كما حالت بين الذي أعقبه مباشرة وبين مثل ذلك الإعطاء. وعلى كل حال كانت هناك عصور من التقدّم الاجتماعي حصل فيها احتفاء بمثل ذلك المقترح. فعندما صار الناس منشغلين في مواضيع الخطط السياسية، أو الفنون التجارية، رغبوا في المعرفة وفي التعلّم، كما أصبحت مشاعرهم مُثارة. فقد اهتموا بما كان حقيقة واقعية في التعاملات الماضية. وأشادوا على ذلك الأساس تأمّلات وأفكاراً طبقوهما على الأمور الحالية، ورغبوا في الحصول على معلومات عن مواضيع مهنٍ مختلفة، وعن مشاريع بدؤوا في تنفيذها. وأساليب حياة الناس، وممارسات الحياة العادية، وشكل المجتمع أعدّت مواضيعهم للكاتب الأخلاقي والسياسي. وبالرغم من أن مجرد العبقرية وصواب الشعور والفكر الصحيح قد نُقِلت باللغة العادية، فقد فُهمت على أنها جدارة أدبية، وبتطبيقها على العقل أكثر من الخيال والعواطف لاقت احتفاءً استحقّه التعليم الذي جلبته.

تستخدم مواهب الرجال في أمور مختلفة، وتُوجَّه بحوثهم إلى مواضيع مختلفة. فالمعرفة مهمة كدائرة من دوائر المجتمع المدني، ومطلوبة في ممارسة كل فن. فعلم الطبيعة، والأخلاق، والسياسة، والتاريخ، لها معجبون كُثر، وحتى الشعر نفسه الذي حافظ على

(3) اقتبسها ديمتريوس بلريوس (Demetrius Phalerius).

مركزه السابق في منطقة الخيال الدافئ والعاطفة الحماسية، ظهر في أشكال متنوّعة متنامية.

إلى الآن سارت الأمور من دون أمثلة من الخارج، أو توجيه من مدارس. فقد تحوَّلت عَرَبة تيسبيس (Thespis) إلى مسرح لا لإرضاء المتعلمين وإنما لإبهاج الشعب الأثيني، وتقرّرت جائزة الجدارة الشعرية من قِبَل ذلك الشعب قبل وبعد وضع القواعد. ولم يكن اليونانيون على معرفةٍ بكل لغة، سوى لغتهم، وإذا تعلّموا فإن تعلمهم لم يكن إلا عبر دراسة ما أنتجوه هم أنفسهم: فالأساطير الطفولية، التي قيل إنهم نسخوها من آسيا لم يكن لها أثر كبير في تعزيز حبهم للفنون، أو في نجاحهم في ممارساتها.

عندما يفاجأ المؤرخ بالأحداث التي شاهدها أو سمعها، وعندما يُصار إلى ربطها مع أفكاره أو عواطفه، وعندما رجل الدولة، المطلوب منه أن يتكلّم في المحافل العامة، يكون مضطراً لأن يعدّ لكل ظهور لافتٍ، خطاباً مدروساً، وعندما تصير المحادثة طويلة وراقية، وعندما تكون المشاعر الاجتماعية وأفكار الرجال ملزمةً بأن تكون مكتوبة، فإن نظام تعليم سينشأ من تلك الحياة النشيطة. فالمجتمع نفسه مدرسة، ودروسه تُلقى في ممارسة شؤون واقعية. فالمؤلف يكتب انطلاقاً من ملاحظات وضعها حول موضوعه، لا مما تقوله الكتب، وكل إنتاج يحمل علامة صانعه، لا فاعليته كتلميذ أو كباحث. وقد يطرأ سؤال، حول إذا ما كان الجهد الذي بذله في البحث عن نماذج بعيدة، والبذل طلباً للتعليم، عبر استشارات مظلمة ولغات مجهولة، لم يطفئا ناره، ويجعلاه كاتباً لكل طبقة دنيا.

لذلك إنه إذا أمكن اعتبار المجتمع مدرسة لصناعة الأدب والكتابة، فمن المحتمل أن تكون دروسه مختلفة في كل دولة منفصلة، وفي كل عصر. وقد حدث لحقبة معيّنة من الزمن، أن أخمدت تطبيقات الشعب الروماني القاسية للخطة السياسية وللحرب الفنون الأدبية، كما قمعت العباقرة، والمؤرخين والشعراء أيضاً. ومؤسسات إسبارطة احتقرت علناً كل ما ليس له علاقة بالفضائل العملية، وفضائل الروح القوية والمصمّمة: فقد صُنِّفت مباهج الخيال وعروض اللغة، من قِبَل أفراد ذلك الشعب، مع فنون الطهاة والعطّارين، وذكر بعض الكتّاب أغانيهم التي امتدحت الثبات والجَلَد، وما يزال يُحتفظ بمجموعات من أقوالهم الذكية وأجوبتهم السريعة البارعة، فدلّوا على وجود فضائل وقدرات شعب نشيط، لا عن قدرة في العلم، أو في الذوق الأدبي. ولأنهم كانوا مستحوذين بما هو جوهري للسعادة من فضائل القلب فقد أدركوا قيمته، ولم تقلقهم وتلهيهم أشياء لا حصر لها يضيع البشر كثيراً في تقدير قيمتها: ولأنهم ثابتون ولا يتزعزعون في إدراكهم، فإنهم أداروا ظهورهم لحماقات البشر. «متى ستبدأ في ممارستها؟»، ذلكم كان السؤال الذي وجهه إسبارطيّ لشخص كان ما يزال، في وقت متقدّم من حياته منشغلًا بمسائل تتعلّق بطبيعة الفضيلة.

في حين حصر ذلك الشعب بحوثه في مسألة واحدة، هي مسألة كيفية تحسين شجاعة القلب الإنساني وعواطفه النزيهة والحفاظ عليهما، فإن منافسيهم الأثينيين نظروا في تحسين كل موضوع فكري أو عاطفي. فبالمكافآت النفعية أو مكافآت الشهرة التي منحوها لكل محاولة عبقرية وظِّفت لخدمة بهجة الحياة، وتزيينها، أو إفادتها، وبعدم المساواة في الثروة، والحرف المتعددة

في الحرب، والسياسة، والتجارة، والفنون المربحة، بكل ذلك أيقظوا ما كان صالحاً أو طالحاً في الميول الطبيعية للبشر. فكان كل طريق للبروز مفتوحاً: البلاغة، والثبات أو الجَلَد، والمهارة العسكرية، والحسد، والإنقاص من القدر أو السمعة، والنزاع الحزبي، والخيانة، وحتى آلهة الفنون والعلوم نفسها، كانت تتوسَّل منح أهمية في شعب منهمك في العمل، وذكي وهائج مائج.

من هذا المثل يمكننا الاستنتاج، ومن دون زلل أنه بالرغم من أن الأعمال والمهن تكونان أحياناً منافستين في البحث، فإن التقاعد ووقت الفراغ ليسا الشرطين الرئيسيين لتحسين أو لممارسة المواهب الأدبية. وإن أكثر جهود الخيال والشعور لفتاً وروعةً لها إشارة إلى البشر: فهي تُثار بوجود البشر وتفاعلهم: وتكون أقوى ما تكون عندما تُثار في العقل عبر نشاطه الرئيسي، وعبر المنافسات، والصداقات، والمعارضات التي تكون بين شعب متقدِّم وطامح. وفي وسط المناسبات الكبرى التي تدفع بالمجتمع الحرّ، والفاسق أيضاً، وللحركة يصير أعضاؤه قادرين على القيام بكل جهد. فالمشاهد ذاتها التي أشغلت ثيميستوكليس (Themistocles) وتراسيبولوس، أوحت من طريق العدوى عبقرية سوفوكليس وأفلاطون. فمن كان فظّاً ومن كان عبقرياً وجدا مجالين متساويين لمواهبهما، وصارت الآثار الأدبية مستودعات للحسد والحماقة كما للحكمة والفضيلة.

قد تستمد مدرسة نورها واتجاهها، في حقبةٍ زمنية، من الحياة النشيطة، وفي حقبة أخرى تكون بقايا روح نشيطة مدعومة، وبقوةٍ، من آثار أدبية، ومن تاريخ التعاقدات التي حفظت أمثلة وخبرة أزمنة سابقة وأفضل. غير أنه مهما كان الأسلوب الذي شكَّل الرجال ليكونوا ذوي جهود عظيمة في مجال البلاغة أو السلوك، فالذي

بلاد اليونان التي كانت مقسّمة إلى دول صغيرة جداً وكثيرة، وغارقة خلافاً لأي بقعة في العالم في نزاعات محليّة وحروب خارجية، قدَّمت المثل في كل نوع من أنواع الأدب. وانتقلت النار إلى روما، ولم يحصل ذلك عندما توقَّفت عن الاستمرار بنزعاتها السياسية، وإنما عندما ربطت ما بين محبة التحسين والمتعة من جهة ومساعيها القومية من جهة أخرى، وغرقت في ميل للبحث والدرس في وسط هيجانات سبّبتها حروب ومطالبات الأحزاب المتضادّة. وقد أُعيد إحياؤها في أوروبا الحديثة بين الدول الإيطالية المتمرّدة، وانتشرت في الشمال هي والروح التي هزّت بنية الخطة السياسية القوطية(*) (Gothic)، وظهرت عندما كان الناس موزعين على صورة أحزاب، في ظلّ طوائف مدنية أو دينية، وعندما كانوا مختلفين حول أهم مواضيع وأقدسها.

قد نقنع من أمثلة عصور كثيرة أن المواهب الليبرالية الممنوحة للمجتمعات المثقَّفة، ووقت الفراغ الذي أُعِدَّ لها للدرس، ليسا الوسيلتين الممكنتين لإثارة جهود العبقري وقد هَزُلَ في ظلّ الاعتزال الرهباني. فالرجال البعيدون عن مواضيع المعرفة النافعة، وليس لهم دوافع تُحيي عقلاً نشيطاً وقوياً، لا يستطيعون أن ينتجوا إلا لغةً تقنيّة فجّة، وأن يجمعوا ما ليس مرتبطاً بالأشكال الأكاديمية.

فالكلام والكتابة المنصفان، انطلاقاً من ملاحظة الطبيعة يستلزم الشعور بمشاعر الطبيعة. فذو العقل النفّاذ والمتحمس في سير الحياة، من المحتمل أن يبذل قوّةً متناسبةً وعبقريةً في ممارسته مواهبه الأدبية. وبالرغم من أن الكتابة صارت مهنة، وتتطلّب كل

(*) القوطيون (Goths) شعب جرماني اجتاح الإمبراطورية الرومانية في القرون الأولى للميلاد (المترجم).

تطبيق ودرس موجود في المهن الأخرى، فإن المتطلّبات الرئيسية في هذه المهنة تتمثّل في روح وحساسيّة عقلٍ قويّ.

يبدو أن أكثر ظواهر الخداع سطوعاً، يكون في البحث عن إنجازات البشر في مجد ثمار التأمّل، مهملين صفات الثبات والجَلَد والمحبة العامة اللازمة لجعل معرفتنا مادة من مواد السعادة أو الفائدة.

القسم الرابع

النتائج الناجمة عن تقدّم الفنون المدنيّة والتجاريّة

الجزء الأوَّل

الفصل بين الفنون والمهن

من الواضح أنه مهما كان الناس مدفوعين بحسّ لزومٍ وبرغبةٍ في الملائمة، أو منتفعين من أي فوائد تتعلّق بالموقف أوٍ بالخطة السياسية، فإنهم عاجزون عن إحداث تقدّم كبير في تعهّد ورعاية فنون الحياة قبل أن يفصلوا الأعمال المتعدِّدة التي تتطلّب مهارةً وانتباهاً خاصين، والتزامَ أشخاص مختلفين بها. أما المتوحِّش، أو البربري، الذي عليه أن يبني ويزرع ويصنع لنفسه، فإنه يفضِّل في فترة الإنذارات الكبرى بالخطر والمتاعب، أن يتمتّع بالكسل على تحسين حظّه أو ثروته، فقد يكون مثبط العزيمة، فلا يقوم بالصناعة، أو يكون هناك ما يحول دون اكتسابه مهارةً بسبب تشتّت انتباهه، نعني مهارةً في إدارة أي موضوع جزئي.

وقد حوَّل التمتّع بالسلم، والأمل في القدرة على مبادلة سلعةٍ بأخرى بصورة تدريجية، مثل الصيّاد والمحارب إلى مبادل للبضائع وتاجر. وصارت الأحداث التي عملت على توزيع وسائل العيش بطريقة غير متساوية، وكذلك الميل والفرص المفضَّلة، هي التي تُحدِّد وظائف الرجال المختلفة، وأدّى بهم الشعور بالمصلحة بلا حدود إلى توزّع مهنهم.

فوجد الفنان بقدر ما يحصر انتباهه في جزء محدَّد من أي عمل، يكون إنتاجه أكمل وينمو بيديه بكميات أكبر. ووجد كل متعهِّد أو مقاول في الصناعة أنه كلما زاد من تقسيم وتوزيع مهمّات عمّاله زاد العمال الذين يقدر على توظيفهم في نواحٍ منفصلة فإن نفقاته تتناقض، وأرباحه تزيد. والمستهلك بدوره يريد في كل نوع من أنواع السلع، صناعةً أكمل مما تستطيع إنتاجه أيدٍ عاملة في مواضيع متنوّعة، وما تقدّم التجارة سوى التقسيم المستمرّ للفنون الميكانيكية.

قد تستحوذ كل حرفةٍ على انتباه الإنسان كله، ويكون لها سرّ لا بدَّ من أن يُدرس أو يُتَعلَّم من قِبل مبتدئين منظمين. فقد يصدق أن تتألّف الأمم من تجار، ومن أعضاء يكونون جاهلين بما يتعدّى تجارتهم الخاصة، وكل الشؤون الإنسانية، وهؤلاء قد يسهمون في الحفاظ على حكوماتهم وتوسيعها، من غير أن يجعلوا مصلحتها موضوع اعتبارهم أو انتباههم. فكل فردٍ يتميّز بحرفته، وله الموقع الذي يلائمه. والمتوحّش الذي لا يعرف التمييز والامتيازات سوى بجدارته، وجنسه (كذكر أو كأنثى)، أو نوعه، والذي يعتبر المجتمع مجتمعه، موضوع حبه المسيطر، ويذهله أن يجد في مشهد له تلك الطبيعة، أن كونه إنساناً لا يؤهِّله لأي منصب مهما كان، فيضطر للهرب إلى الغابات بذهول، ونفور، ومقتٍ شديد.

وبفضل الفنون والحِرف صارت مصادر الثروة مفتوحة، فكل نوع من المواد صار يُصاغ على أكمل وجه، وكل سلعة صارت تُنتج بأكبر مقدار. وصار يمكن للدولة أن تقدِّر أرباحها وعائداتها من طريق عدد سكانها. فيمكنها أن تكتسب لها الاحترام والسلطة القوميين اللذين يكونان للمتوحّش على حساب دمه.

يبدو أن المنفعة المكتسبة في الفروع الدنيا للصناعة عبر فصل أجزائها، تعادلها تلك التي تنشأ من وسيلة مماثلة في الدوائر العليا الخاصة بالسياسة والحرب. فالجندي لا همَّ له سوى خدمته، ورجال الدولة قسموا أعمال الحكم المدني إلى حصص. وخدّام الشعب في كل وظيفة ومن دون أن يكونوا ماهرين في شؤون الدولة قد ينجحون في الإشراف على أشكال من العمل سبق أن قامت على خبرة آخرين. فقد جُعلوا مثل أجزاء آلةٍ يوحّدهم الهدف من دون أي اتفاق أو تناغم من قِبَلهم، وبالرغم من معرفتهم بالتاجر في أي مجموعة عامة فإنهم يلتقون معه في تجهيز الدولة بمصادرها، وسلوكها، وبقوّتها.

براعات السمّور(*) (Beaver)، والنملة والنحلة تنسب إلى حكمة الطبيعة. والأمم المصقولة المثقّفة تنسب إلى نفسها، ويُفترض أن تدلّ على طاقةٍ أعلى من طاقات العقول البدائية، غير أن مؤسسات البشر، مثل ما يخصّ كل حيوان، هي من وحي الطبيعة، وهي نتيجة للغزيرة الموجَّهة بأنواع من الأوضاع التي يوجد فيها البشر. ونشأت تلك المؤسسات من تحسينات متعاقبة حصلت من دون أي شعور بأثرها العام، وأوصلت الشؤون الإنسانية إلى حالةٍ من الاكتمال لا يمكن أن تقدر الطاقة العظمى، التي تتزيَّن بها الطبيعة البشرية وأن تحققها، وما يُنفَّذ عند الكلّ لا يمكن فهمه بمقداره الكامل.

من كان يتوقع، أو يعدِّد المشاغل والحرف المنفصلة التي كانت تميِّز أعضاء أي دولة تجارية، والأنواع المختلفة من الوسائل

(*) حيوان من القواضم ثمين الفرو (المترجم).

التي استُعملت في حجيرات منفصلة، وعمل الفنان المهتم بشؤونه، على إبداعها لاختصار أو لتسهيل عمله المنفصل؟ وفي بلوغ تلك الغاية القوية بدا كل جيل بالمقارنة مع سابقيه من الأسلاف عبقرياً، وبالمقارنة بمن خلفه قد يبدو غبيّاً، أما العبقرية الإنسانية مهما كانت الذرا التي قد تكون قد حققتها مع تتابع العصور، فقد استمرت في الحركة بخطى متساوية، وزحفت لصنع الخطوة الأخيرة أيضاً، وهي الأولى من خطى التحسن التجاري أو المدني.

قد يحصل ارتياب حول إذا ما كان مقدار الطاقة القومية يزداد مع تقدّم الفنون. والحق يُقال، إن العديد من الفنون الميكانيكية لا يتطلَّب قدرة لنجاح أفضل، في ظلّ قمعٍ كلّي للشعور وللعقل، وجهل بأمر الصناعة، والخرافة أيضاً. فالتفكير والخيال معرَّضان للخطأ، لكن عادة تحريك اليد، أو القدم، مستقلّة عن أي واحدٍ منهما. لذا، فإن أصحاب المعامل يزدهرون أكثر عندما لا يستشار العقل، وحيث تعتبر ورشة العمل، ومن دون أي جهدٍ خيالي كبير بمنزلة آلة أجزاؤها رجال.

كان المتوحّش يقطع الغابة من دون أن يستعمل الفأس، وكانت الأوزان تُرفع من دون عون القوى الميكانيكية. وقد تستحق جدارة المبدع، في كل فرع، أفضليةً على المنفِّذ، والذي اخترع أداةً، أو استطاع أن يعمل من دونها، يستحق مديح العبقرية، وبدرجة أعلى من الفنّان الذي بعونها ينتج عملاً متفوِّقاً.

غير أنْ هناك أقساماً كثيرة في ممارسة كل فن، وفي تفاصيل كل دائرة لا تتطلَّب قدرات، وهي تجنح فعلياً إلى تقليص وتحديد النظرات العقلية، فهناك أقسام أخرى تؤدي إلى ظواهر تفكير عام،

وإلى توسيع للفكر. وفي الصناعة تكون عبقرية الرئيس مصقولةً، بينما عبقرية العمّال الأدنى منه مهدورة. وقد يكون رجل الدولة حائزاً على فهمٍ واسعٍ للشؤون الإنسانية، في حين تكون الأدوات التي يوظفها جاهلةً بالنظام الذي يجمعها. وقد يكون الملازم العام في الجيش ذا فاعليةٍ كبيرة في المعرفة الحربية، في حين تكون مهارة الجندي محصورةً بحركات قليلة باليد وبالقدم. فالأمل قد يكون قد كسب ما خسره الأخير، ولكونه منشغلاً في تسيير جيوش منظَّمة، فإنه قد يمارس بمقدارٍ كبير جميع فنون المحافظة على البقاء، والخداع، والاستراتيجية، التي يمارسها المتوحش في قيادته مجموعة صغيرة، أو في الدفاع عن نفسه ليس إلّا.

الذي يمارس الفن وأي مهنة قد يقبل مسألة ذات فكر عام عند رجل العلم، كما أن التفكير نفسه في عصر الفصل هذا، قد يصبح مهنة فريدة ومميِّزة. وفي غمرة الحِرف والمهن المدنية، يبدو البشر في أضواء متنوّعة، وتطرح مسألة البحث والخيال، وبها تنفخ الحيوية في الحديث الذي يتوسَّع كثيراً. فإنتاجات العبقرية تُجلب إلى السوق، والناس مستعدون لدفع ثمن كل ما ينقل خبراً أو يسبب تسليةً. وبهذه الوسيلة، يسهم الكسالى والناشطون في تقدّم الفنون، وفي إضفاء جوّ من العبقرية المتفوّقة على الأمم الثقافية المصقولة، هذه العبقرية التي تبدو أنها حقَّقت غايات كان المتوحّش قد سعى إليها في الغابة، وحققت معرفةً ونظاماً وثروة.

الجزء الثاني

التبعيّة الناجمة عن فصل الفنون والمهن

ثمَّة أساس للتبعية في اختلاف المواهب والميول الطبيعية، وأساس ثانٍ في التقسيم غير المتساوي للملْكية، وثالث، معرفته لا تقل في العادات التي تُكتسب عبر ممارسة فنون مختلفة.

بعض الوظائف ليبرالي، وبعضها الآخر يدوي. فهو يتطلَّب مواهب مختلفة، وسواء كان ذلك سبب الأفضلية التي نقدّمها أم لم يكن، فإن المعقول المؤكَّد تشكيل رأينا في المرتبة المستحقة لرجال من ذوي مهن ومواقع معينة من تأثير أسلوب حياتهم في رعاية وصقل قوى العقل، أو في المحافظة على مشاعر القلب.

يتصف الإنسان بسموّ أو نبل طبيعي بحسبه يُخال أنه في حالته البدائية، ومهما كانت الضرورة الضاغطة عليه فهو قادر على الارتفاع فوق اعتبار موارد العيش، والاهتمام بالمصلحة، والعمل، فحسب، انطلاقاً من القلب في علاقاته، وعلاقات الصداقة أو العداوة، ولا يبيّن عن نفسه إلّا في مناسبات الخطر أو الصعوبة، ويترك الهموم العادية للضعفاء أو العبيد.

في كل وضع تنظِّم إدراكاته ذاتها مفاهيمه للدناءة وللكرامة. وفي المجتمع المثقَّف تجعله رغبته في تجنّب صفة الخسيس يخفي اعتباراته لما يتصل بمحافظته على ذاته أو بعيشه فحسب. وهو يحسب المتسوِّل الذي يعتمد على الإحسان، والعامل الذي يجهد ويكدّ لكي يأكل، والحرفي اليدوي الذي لا يتطلّب فنه جهداً عبقرياً، هؤلاء كلهم ينحطّون بالهدف الذي يسعون إليه، وبالوسائل التي يستخدمونها لتحقيقه. فالمهن تتطلَّب الكثير من المعرفة والبحث، فهي تبدأ من ممارسة الخيال، وحبّ الكمال، مؤدية إلى الإطراء والربح أيضاً وتضع الفنان في طبقة عليا، وتقرِّبه من ذلك المركز الذي يعتبر من يكون فيه أنه في عِلّيين، لأنهم يكونون غير مقيّدين بعمل، ولأنهم أحرار في اتباع ميول عقولهم، ولعب ذلك الدور في المجتمع الذي تقودهم إليه مشاعر قلوبهم، أو نداءات الشعب.

كان ذلك الأخير هو المركز، الذي في حالة التمييز بين الأحرار والعبيد، ناضل المواطنون في كل جمهورية قديمة للحصول عليه واستبقائه لأنفسهم. أما النساء أو العبيد في العصور الأولى، فقد خصصوا لأغراض العناية المنزلية، أو العمل الجسدي مع تقدّم الفنون المربحة، ورُبِّيَ العبيد للقيام بالمهن اليدوية، كما عُهد إليهم ببيع السلع لصالح أسيادهم. أما الأحبار فلم يكن يعتبر لهم هدف باستثناء ما يخصّ السياسة والحرب. وبهذا الشكل، حصلت تضحية بمقام نصف الشعب للنصف الآخر، مثل الحجارة من المقلع ذاته التي تدفن لتكون الأساس الذي يسند المبنى الضخم المنحوت إلى الأجزاء العليا من المبنى. وفي غمرة المدائح الموجهة لليونانيين وللرومان تذكّرنا تلك الحالة بأنه لا وجود لمؤسسة إنسانية كاملة.

في الكثير من المدن الإغريقية (اليونانية)، لم تمنح الفوائد

الناشئة للأحرار من ذلك التمييز الوحشي القاسي بصورة متساوية للمواطنين جميعهم. فالثروة كانت موزّعة توزيعاً غير متساوٍ، والأغنياء وحدهم كانوا معفيين من العمل، وتحوّل الفقراء إلى مجرّد عاملين لموارد عيشهم، وكانت المصلحة هي العاطفة المسيطرة عند كليهما، وصارت حيازة العبيد، مثل أيّ ملْكية مربحة موضوعَ جشع في المال، لا ابتعاداً عن الأمور الخسيسة. أما ثمار المؤسسة فكان يُحصل عليها، أو استمر التمتع بها لوقت طويل في مدينة إسبارطة وحدها. ونحن نشعر بالظلم الذي انصبَّ على ذلك القن (Helot) في إسبارطة القديمة عبر ظواهر الوحشية والمعاملة غير المتساوية اللتين تعرَّض لهما. غير أننا عندما لا نفكر إلّا بالترتيب العالي للناس في تلك الدولة، وعندما ننظر إلى ذلك الارتقاء الروحي والشهامة اللذين لا يخيفهما الخطر، والمصلحة التي ليس لها وسائل إفساد، وعندما نعتبرهم أصدقاء، أو مواطنين، فسنكون قابلين لأن ننسى مثلهم أن للعبيد حقاً بأن يُعاملوا كبشر.

نحن نبحث عن ترقية للشعور وليبرالية للعقل في وسط تلك الترتيبات من المواطنين، الذين كانوا بداعي حالتهم وحظوظهم متحرّرين من الاهتمامات الخسيسة. ذلكم كان وصف الرجل الحرّ في إسبارطة. وإذا كان حظ العبد عند القدماء أتعس من حظ العامل الفقير والعامل اليدوي عند الحديثين، فقد يحصل ارتياب حول إذا ما كانت المراتب العليا التي كان أصحابها يحوزون الاعتبار ومراتب الشرف، لم يخفقوا تناسبياً في تقدير الكرامة التي تلائم حالتهم. وإذا كانت مطالب العدالة والحرية المتساوية ستؤول إلى تحويل كل طبقة إلى عبيد ومرتزقة، فإننا نخلق بذلك أمةً من الأقنان، لا مواطنين أحراراً.

في كل دولة تجارية، وبالرغم من أي زعمٍ بحقوق متساوية، لا بدَّ من أن يقمع إعلاء القلّةِ الكثرةَ. ومن هنا نعتبر أن الحقارة المتطرّفة لبعض الطبقات لا بدَّ من أن تنشأ بصورة رئيسية من نقص المعرفة، والافتقار للتربية الليبرالية، ونحن نشير إلى مثل تلك الطبقات، كما لو أننا نشير إلى الصورة التي كانت لنوعنا في حالته البدائية وغير المثقَّفة. غير أننا ننسى كم من الظروف الكثيرة خاصة في المدن المكتظَّة بالسكان جنحت إلى إفساد مراتب البشر الدنيا. وما كان الجهل إلّا أقل تلك العيوب. فالإعجاب بالثروة غير المملوكة غدا مبدأً للحسد، أو الذلّ، وعادة عملٍ دائم للمنفعة من خلال شعور بالخضوع. فالجرائم التي تمَّ إغراؤهم باقترافها لكي يغذّوا فُسوقهم وجشعهم، أو لإرضاء حب اكتسابهم للمال، كل ذلك صدر عن الفساد الخُلقي والحقارة، ولم يصدر عن الجهل. فكما أن المتوحّش لم يتلقَّ تعليماتنا، فهو أيضاً لم يكن عارفاً برذائلنا. فهو لم يعرف من هو أعلى منه، فلا يمكن أن يكون عبداً. وهو لم يعرف تمييزات في الثروة، فليس بحسود. فهو كان ينطلق في عمله من مواهبه في أعلى موقع يمكن أن يقدّمه المجتمع الإنساني، وهو منصب المستشار، والجندي في بلاده. وبتشكيله مشاعره، كان يعرف كل ما يريد القلب أن يعرفه، وكان قادراً على تمييز الصديق الذي أحبّه، والمصلحة العامة التي توقظ حماسه.

الاعتراضات الرئيسية على الحكم الديمقراطي أو الشعبي تنشأ من ظواهر عدم المساواة التي تحصل بين البشر كنتيجة للفنون التجارية. ولا بدَّ من الاعتراف بأنه، عندما تتألف الاجتماعات العامة من رجال ذوي ميول خسيسة، وتطبيقاتهم العادية تكون غير ليبرالية، فإنهم لا يصلحون للقيادة مهما كانوا مدعومين باختيار

أسيادهم وقادتهم. فكيف يستطيع من حصر أفكاره بوسائل عيشه أو ببقائه أن يؤتمن على إدارة أمم؟ فإذا سُمح لمثل هؤلاء الرجال بأن ينظروا في شؤون الدولة، فإنهم يدخلون الفوضى والشغب لمجالسها، أو العبودية والفساد. وهي قلّما تتوقّف عن التحزّبات المدمِّرة، أو عن نتائج قرارات سيئة التكوين أو سيئة التنفيذ.

حفظ الأثينيون حكمهم الشعبي في ظلّ تلك العيوب جميعها. فقد أُلزم العامل اليدوي، وتحت طائلة العقوبة بأن يظهر في السوق العامة، وأن يسمع مناقشات حول مواضيع الحرب والسلام. وكان يُغرى بجوائز مالية، لكي يحضر محاكمات مدنية وجنائية. غير أنه بالرغم من التمرين المستهدف صقلَ مواهب المعوزين والفقراء، فإنهم كانوا بشكل دائم يصدرون عن عقول ميّالة للربح، أو بعادات حرفةٍ غير ليبرالية. ولأنهم غارقون في الشعور بتفاوتهم وضعفهم الشخصيين، فقد كانوا مستعدين أن يضعوا نفوسهم بشكل كلّي بتصرّف قائد شعبي ما، يتملّق عواطفهم ويلعب على مخاوفهم، أو كانوا مدفوعين بالحسد، مما جعلهم جاهزين لأن يبعدوا عن الدولة كل من كان محترماً وبارزاً في الترتيب العالي للمواطنين. والرئاسة ذات السيادة كانت في كل لحظةٍ جاهزة للسقوط من أيديهم، سواء أكانت مهملة للشعب، مرةً، أم كانت إدارتها سيئة في مرة أخرى.

في مثل تلك الحالة، كان الشعب بشكل متكرّر محكوماً من شخص واحد أو من قلّة يعرف أو تعرف كيف تسيّره. فبيركليس (Pericles) كان له نوعٌ من السلطة الأميرية في أثينا، وكراسوس (Crassus)، وبومبيوس وقيصر حصلوا على التوجيه السيادي في روما، إمّا مشاركةً أو تعاقباً.

وسواء في الدول الكبرى أو في الصغرى فإن الحفاظ على الديمقراطية يتمّ بصعوبة في ظل الظروف المختلفة وثقافة العقل غير المتساوية، التي تلحق حرفاً مختلفة وتطبيقات متباينة تفصل بين الناس، في حالة الفنون التجارية المتقدّمة. وعلى أية حال لا نقدر إلّا أن نرافع ضد شكل الديمقراطية، بعد إزاحة المبدأ، ونرى الاستحالة العقلية للمطالب الخاصة بالنفوذ والاعتبار المتساويين، بعد عدم بقاء شخصيات الرجال على تشابهها.

الجزء الثالث

أساليب حياة الأمم الثقافيّة المصقولة والتجاريّة

كان للبشر في حالتهم البدائية تشابه كبير في أساليب الحياة، لكنهم عندما صاروا متمدنين انخرطوا في أنواع مختلفة من الحرف. فطرقوا ميادينَ واسعة، وتباعدوا على مسافات طويلة. على كل حال لو أنهم أُرشدوا بميول متشابهة وبأفكار طبيعية متماثلة، لكانوا استمروا في النهاية كما في بداية تقدّمهم في الاتفاق على جزئيات كثيرة. وفي حين تسلِّم المجتمعات على مستوى أعضائها، بأن ذلك التنوّع في الرتب والحرف الذي سبق أن وصفناه هو نتيجة التجارة أو أساسها، فإنهم سوف يتشابهون في نتائج كثيرة لذلك التوزيع، وفي ظروف أخرى يوجدون فيها، تقريباً.

في ظلّ أي شكل من أشكال الحكم يحاول السياسيون القضاء على الأخطار التي تهدّدهم من الخارج، والظواهر المقلقة التي تزعجهم في الداخل. وبذلك السلوك - إن نجح - يكسبون في أزمنة قليلة سيطرةً وصعوداً في بلادهم، ويقيمون حدوداً على مسافةٍ من العاصمة، ويجدون في رغبات الهدوء المتبادلة، التي تستحوذ على البشر، وفي تلك المؤسسات العامة التي تحفظ

السلم في المجتمع، راحةً من الحروب الخارجية وفَرَجاً وراحةً من الاضطرابات الداخلية. ويتعلمون كيف يفصلون في كل نزاعٍ من دون حدوث شغبٍ أو فتنة، ويؤَمّنون كل مواطن بسلطة القانون على حيازته لحقوقه الشخصية.

في هذه الحالة التي تطمح إليها الأمم المزدهرة والتي حصلت عليها بمقدار ما، نجد أن البشر بعد أن أرسوا أساس السلامة، يتابعون بناء بنية فوقية ملائمة لنظراتهم. والنتيجة تكون متنوّعة في الدول المختلفة، وحتى في مراتب البشر المختلفة في المجتمع ذاته، والنتيجة الحاصلة لكل فردٍ تتطابق مع موقعه. وذلك يمكّن رجل الدولة والجندي من تسوية إشكال إجراءاتهم المختلفة. وقد تمكّن صاحب الحرفة، في كل حرفة من السعي وراء فائدته المنفصلة، وهي توفّر لإنسان المتعة وقتاً للتحسن، وللمفكّر وقتاً للمحادثة الأدبية أو البحث.

في هذا المشهد تصير المسائل التي لا علاقة لها بالحِرف النشيطة للبشر مواضيع بحثٍ، وتصير ممارسة الشعور والعقل ذاته بمنزلة مهنة. فأغاني الشاعر وخطب السياسي والمحارب، والتقاليد وقصة الأزمنة القديمة، تعتبر نماذج أو إنتاجاً أولياً لفنون كثيرة، ويصير هدف المهن المختلفة نسخه أو تحسينه. وتُصنَّف مؤلفات الخيال مثل مواضيع التاريخ الطبيعي إلى أصناف وأنواع، وتجمع قواعد كل نوع مفرد على نحوٍ متميّز، وتحفظ المكتبة مثل المستودع مع المصنوعات الخالصة لفنانين مختلفين يطمحون بعونٍ من المختصّ بقواعد اللغة والناقد، وكل واحد منهم بطريقته الخاصة لتعليم العقل وتحريك القلب.

وكل أمةٍ عبارة عن جمعٍ دقيق من الشخصيات المختلفة، يحتوي، في ظلّ أي شكل سياسي على بعض الأمثلة عن ذلك التنوّع الذي توفّره نزوات البشر، واتجاهاتهم ومدركاتهم الموظَّفة توظيفات مختلفة. فكل حرفةٍ لها مرتبة شرف، ونظام سلوك وعادات، فللتاجر تعامله الخاص والمنصف، وللسياسي طاقته وخطابه، وابن المجتمع له تربيته الصالحة، وذكاؤه. وكل مركز اجتماعي له مركبة خاصة، ولباس خاص، وطقس، يُميَّز بهم، ويخفي من خلالهم الطابع القومي تحت المرتبة الاجتماعية أو الفردية.

يمكن تطبيق هذا الوصف نفسه على مدينة أثينا وروما، وعلى لندن وباريس. وقد يلاحظ البدائي أو المراقب البسيط التنوّع الذي رآه في المنازل وفي المهن لرجال مختلفين، لا في مظاهر أمم مختلفة. فسوف يجد في شوارع المدينة ذاتها تنوّعاً كبيراً كالموجود في منطقة شعب منفصل. فلا يستطيع أن ينفذ بنظره عبر الغيوم المتجمّعة أمامه، ولا يرى كيف يختلف التاجر، والعامل اليدوي أو العالم في بلاد عنهم في بلاد أخرى. غير أن المواطن في كل منطقة يستطيع أن يميّز الغريب، وعندما يكون مسافراً يفاجئه ويدهشه مظهر بلاد غريبة في اللحظة التي فيها يجتاز حدود بلاده. فسيماء الشخص أو مظهره الخارجي، ونبرة صوته، ولهجة لغته، وتوتّر حديثه، سواء أكان حزيناً أم ضعيفاً، مرحاً أم قاسياً، كل ذلك لا يبقى كما كان.

قد ينشأ الكثير من مثل تلك الفروق في الأمم المصقولة المثقَّفة من تأثير المناخ، أو من المصادر التي ما تزال مخفيّةً أو غير مرئية، لكن التمييزات الرئيسة التي يمكننا الاعتماد عليها، تُستمدّ

من الدور الذي يضطر أفراد الشعب أن يقوموا به بقدرتهم، ومن المواضيع أو الأهداف التي تضعها الدولة أمامهم، أو من دستور الحكم الذي يصف بنود المجتمع لأعضائه، فكل ذلك له تأثير كبير في تشكيل مفاهيمهم وعاداتهم.

كان مصير الشعب الروماني اكتساب الثروة من طريق الغزوات والفتوح، وسلب المناطق، والقرطاجيون الذين اعتمدوا على عائدات التجارة، وإقامة المستعمرات التجارية ملؤوا شوارع عواصمهم المختلفة بأناس ذوي ميول ومظاهر مختلفة. والروماني كان يمسك بسيفه عندما كان يطلب العظمة، وكانت الدولة تجد جيوشها جاهزةً في مساكن شعبها. والقرطاجي عاد إلى موقعه استناداً إلى مشروع مماثل، وعندما يتهدّد الخطر الدولةَ، أو تقرَّر الدولة الحرب، كان يقدّم أرباحه لاستئجار جيش من الخارج.

لا بدَّ من أن يكون العضو في نظام جمهوري والعضو في نظام ملكي مختلفين لاختلاف الأدوار المحدَّدة لهما من الأشغال في قطريهما: أحدهما مقدَّر له أن يعيش مع آخرين مساوين له، أو أن يكافح بمواهبه الشخصية وطابعه للبروز، والآخر وُلِدَ في مركز اجتماعي محدَّد، وحيث كل ادعاء بالمساواة يولِّد فوضى واضطراباً، وحيث لا شيء سوى الأسبقية التصدّرية هو الذي يُدرس. وعندما تكون مؤسسات البلاد ناضجة، يجد كل واحد منهما في القوانين حمايةً لحقوقه الخاصة، لكن هذه الحقوق ذاتها التي تُفهم بأشكال مختلفة، وبمجموعة من الآراء المختلفة، تولِّد مزاجاً عقلياً مختلفاً. فالجمهوري عليه أن يعمل في الدولة للاحتفاظ بمطالبه، وعليه أن ينتمي لحزب لكي يكون في أمان، وعليه أن يقود أحد الأحزاب

ليصير عظيماً. أما المواطن في النظام الملكي فيشير إلى مولده دعماً للامتياز الذي يدّعيه. فهو ينتظر في قصر ليظهر أهميته، ويرفع شارات الاستقلال والأفضلية ليكسب تقديراً من الشعب.

إذا كانت المؤسسات القومية المحسوبة للمحافظة على الحريّة، بدلاً من أن تدعو المواطن ليعمل لنفسه، ويحافظ على حقوقه، قامت بواجب الأمن الذي لا يتطلّب منه انتباهاً أو جهداً شخصياً، فإن هذا الكمال الظاهري الحكومي قد يوهن أيدي المجتمع، ويفصل ويبعد استناداً إلى قواعد الاستقلال، والمراتب الاجتماعية المختلفة التي طُلب منه العمل على تسويتها. فلا يمكن أن تعمل الأحزاب المشكّلة في الجمهوريات، ولا اجتماعات البلاط الملكي التي تعقد في أنظمة الحكم الملكية يمكن أن تحصل، عندما يتوقف الشعور بالتعاون بين أعضائها. فقد تتكرّر ظواهر اللجوء إلى التجارة، ويظل الجمهور يسعى وراء مجرد التسلية، في حين يتراجع النظر الخاص إلى النقيض، نافراً من الجَلَبة التي تنشأ من ظواهر الاحترام والانتباه، الذي قد يكون جزءاً من العقيدة السياسية التي تقتضي عدم تصديق أي نتيجة، ومسألة تتطلَّب ازدراءً.

هذه الحالة الذهنية أو النزوة قد تنشأ في الأنظمة الجمهورية أو الملكية سواء بسواء: وأكثر ما تكون في خليط منهما، حيث تؤمن إدارة العدالة على نحوٍ أفضل، وحيث يبحث الشخص عن المساواة، لكنه لا يجد سوى الاستقلال محلّها، وحيث يتعلَّم انطلاقاً من روح المساواة، أن يكره ظواهر التمييز ذاتها، بحسب قيمتها الحقيقية، ويعمل على إرجاء مدهش.

في كل واحد من الشكلين المنفصلين، الجمهوري والملكي،

أو في تطبيق مبادئ أي واحدٍ منهما، يضطر الناس إلى تملّق مواطنيهم، وأن يقوموا بأدوار ويتخاطبوا بغية تحسين حظوظهم وثرواتهم، أو ليحافظوا على سلامتهم أيضاً. ويجدون في كليهما مدرسةً للتمييز والنفوذ العقلي. غير أنهم يتعلمون، في أحدهما تجاوز الجدارات الخصوصية للشخصية من أجل القدرات التي لها وزنها عند الشعب، وفي الآخر يتعلّمون تجاوز المواهب العظيمة والمحترمة، من أجل الصفات المنخرطة أو المبهجة في مشهد التسلية وفي المجتمع الخاص. وفي الحالتين هم مضطرون لتكييف أنفسهم بعناية، بحسب شكل وأساليب حياة بلادهم. فهم لا يجدون محلاً للأهواء والنزوات، أو التسليات الفردية. فعلى الجمهوري أن يكون شعبياً، وعلى رجل الحاشية أن يكون مهذَّباً. الأول يجب أن يعتبر نفسه مرتاحاً في كل مجموعة، والآخر عليه أن يختار منتجعاته، وأن لا يرغب في أن يكون مميَّزاً إلّا حيث يكون المجتمع مقدَّراً ومحترماً. ومع من هم أدنى منه يتّخذ مظهر الحماية أو الوقاية، ويعاني بدوره من ذات المظهر. أما الإسبارطي الذي لا يخشى شيئاً سوى الفشل في واجبه، والذي لا يحب سوى صديقه والدولة، فلا يتطلب مثل تلك الخشية الدائمة على نفسه التي تدعم شخصيته كما يحصل تكراراً عند المواطن في النظام الملكي من قبيل تكييف نفقاته وثروته لتتلاءم مع رغبات خيلائه، وللظهور في طبقة اجتماعية بسموّ مولده أو طموحه نعني بمقدار ما يمكنهما بلوغه من ذلك السمو.

لا يوجد تفصيل من التفاصيل في ذات الوقت، ولا نكون فيه ظالمين أكثر من تطبيق الشخصية المفترضة للبلاد على الفرد، أو لا نكون فيه تكراراً مضلّلين أكثر من أخذ فكرتنا عن شعب من مثلٍ

واحد، أو من قلّة من أعضائه. فدستور مدينة أثينا هو الذي أنتج كليون (Cleon) وبيركليس، ولكن جميع الأثينيين لم يكونوا مثل كليون أو بيركليس. فقد عاش ثيميستوكليس وأرستيدس (Aristides) في العصر ذاته؛ أحدهما علّم ما هو مربح، والآخر علَّم بلاده العدالة.

الجزء الرابع

متابعة الموضوع ذاته
(أساليب حياة الأمم الثقافية)

قانون الطبيعة الذي ينطبق على الأمم هو ذاته الذي ينطبق على الأفراد، فهو يمنح أفراد الجسم الاجتماعي الحق بالمحافظة على نفوسهم، وأن يستخدموا براحةٍ وسائل الحياة، ويحفظوا ثمار العمل، ويطلبوا الاتفاقيات والعقود. وفي حالات العنف هو يدين المعتدي، ويعطي للمتضرِّر حق الدفاع والمطالبة بالجزاء. وفي مجال التطبيق يجيز الخلاف والنزاع ويولِّد تنوّعاً في فهم البشر وممارساتهم.

وقد اتفقت الأمم بصورة شاملة على التمييز بين ما هو صواب وما هو خطأ، وفي انتزاع التعويضات عن الأذى عبر الموافقة أو بواسطة القوة. ودائماً كانت تعتمد بدرجة من الدرجات على الإيمان بالمعاهدات، لكنها تصرَّفت كما لو أن القوة هي الحاسم الأخير في نزاعاتهم جميعها، والقوة اللازمة للدفاع عن نفسها، والضمان الذي لا ضمان يفوقه لسلامتها. ومع استرشادها بتلك الأفكار العامة نراها اختلفت ولم يقتصر اختلافها على مسائل شكلية، بل شمل مسائل ذات أهمية عظمى تتعلق بتوسّل الحرب، ونتائج الأسر، وحقوق الغزو والنصر.

عندما ينغمر عدد من المجتمعات المستقلّة بشكل متكرّر في حروب، ويكون بينها تحالفات وتعارضات واضحة، نراها تتبنّى تقاليد تتَّخذها أساساً لقواعد، أو لقوانين لا بدَّ من المحافظة عليها، أو تذرّعها في تعاقداتهم المتبادلة جميعها. وفي الحرب - حتى في الحرب - ذاتها نراها تتبع نظاماً، وتدافع عن مراقبة الأشكال في عمليات تدميرها المتبادل ذاتها.

لقد استمدت دول اليونان وإيطاليا القديمة أساليبها من طبيعة حكوماتها الجمهورية، واستمدتها دول أوروبا الحديثة من تأثير النظام الملكي، الذي كان لانتشاره في هذا الجزء من العالم أثرٌ عظيم في الأمم، وحتى حيث لم يكن هو الشكل القائم. استناداً إلى قواعد هذا الحكم نقع على تمييز بين الدولة وأعضائها، مثل الذي بين الملك والشعب، يجعل الحرب عملية خطة سياسية لا مسألة عداوة شعبية. وعند تركيزنا على المصلحة الشعبية لن نتكلم عن المصلحة الخصوصية، كما أننا نحمل احتراماً واعتباراً للأفراد، غالباً ما يمنع المسائل الدموية في حماسة النصر ويسبب لأسير الحرب استقبالاً كريماً في المدينة التي جاء لتدميرها نفسها. وقد تأسست تلك الممارسات تأسيساً جيّداً، حتى إنه يندر أن يشكّل أي إثارة من العدو، أو أي مطلب لخدمة، عذراً لتجاوز قواعد الإنسانية القائمة، أو خلاصاً للقائد الذي يقترفها من أن يصبحَ موضوع مقتٍ وخوف مروّع.

بالنسبة لذلك، كانت الممارسة العامة لليونانيين وللرومان ممارسة مضادّة. فقد حاولوا جرح الدولة عبر تحطيم أعضائها، وهجر أرضها، وعبر تدمير ممتلكات رعاياها. ومنحوا مكاناً

للاستعباد، أو لجلب الأسير إلى تنفيذ حكم إعدام مهيب، أما العدوّ وبعد تجريده من سلاحه فقد كان في معظم الأحيان يُباع في السوق أو يُقتل، فلا يعود أبداً لتقوية جماعته. فعندما كان ذلك هو موضوع الحرب، فلا عجب أن تكون المعارك قد خيضت بيأسٍ، وأن الحصن كان يُدافع عنه إلى النهاية الأخيرة. فلعبة الحياة الإنسانية مرّت بمخاطر عالية ونُفذّت بحماسٍ متناسب معها.

ومصطلح بربري في تلك الحالة من أساليب الحياة لم يكن يستخدمه اليونانيون أو الرومان بالمعنى الذي نستخدمه نحن، نعني: لوصف شعبٍ مجرد من الفنون التجارية، ومسرف في حياته وحياة الآخرين، وأفراده متحمسون في علاقتهم بمجتمع واحد، وعنيدون في كراهيتهم لمجتمع آخر. كل ذلك كان يمثّل في جزء كبير ولامع من تاريخهم، شخصيتهم، وشخصية بعض الأمم الأخرى، التي نميّزها، استناداً إلى هذا الشرح ذاته، بتسميتها بربرية أو بدائية.

لقد لوحظ أن تلك الشعوب المشهورة كانت مدينة، وبمقدار كبير من اعتبارها لا لتاريخها، وإنما للأسلوب الذي تمَّ به، ولقدرة مؤرخيهم وكتاب آخرين. فقد روى قصتهم رجال عرفوا كيف يجذبون انتباهنا لأعمال العقل والقلب أكثر من الآثار الخارجية، وتمكّنوا من عرض شخصيات بغية الإعجاب بها وحبّها، في خضم أفعال يجب علينا الآن أن نكرهها أو ندينها بشكل شامل. مثل هوميروس، الذي هو نموذج الأدب اليوناني، وعملوا على أن ننسى معاملة العدو الحقودة الانتقامية الوحشية وعديمة الندم لصالح السلوك النشيط، والشجاعة والعواطف القويّة، التي حافظ البطل بها على قضية صديقه وبلاده.

أساليب حياتنا مختلفة، والنظام الذي به ننظِّم مداركنا في أمور كثيرة مختلف، ولا شيء سواه يجعلنا نطيق ممارسة الأمم القديمة. ولو كان مؤرِّخ سجَّل تلك الممارسة، فهو لن يذكر إلا تفاصيل الأحداث من دون أن يلقي أي ضوء على شخصيات الفاعلين، والمؤرخ التتاري مثلاً لا يذكر لنا سوى الدماء التي أُهرقت في الميدان، وعدد السكان الذين ذبحوا في المدينة، نقول، لو حصل كل ذلك، لم يكن علينا أن نميّز اليونانيين عن جيرانهم البرابرة، ولا كنا فكّرنا بأن صفة اللطف كانت صفة الرومان إلى آخر تاريخهم، وحتى انهيار إمبراطوريتهم.

ولا شك في أننا سنكون سعيدين بالاطلاع على ملاحظات مثل ذلك المسافر الذي كنا أحياناً نرسله إلى الخارج لكي يكشف أساليب حياة البشر، التي تركها التاريخ من دون نظر، وليجمع شخصية اليونانيين من حالة بلادهم، أو من ممارستهم في الحرب. فقد يقول: «هذه البلاد بالمقارنة مع بلادنا لها هيئة الجذب والخراب. فقد رأيت على الطريق فرقاً من العمال كانوا يستخدمون في الحقول، لكني لم أرَ مساكن السيد وصاحب الأرض. وقيل لي إن الإقامة في البلاد غير آمنة، وسكان كل منطقة يتجمّعون في المدن للحماية. ولم يكن ممكناً أن يتمّنوا قبل أن يقيموا حكماً منتظماً له محاكم خاصة بالعدالة لتنظر في شكاواهم. أما في الوقت الحاضر، فيمكنني أن أقول إن كل قريةٍ تعمل لنفسها، والفوضى العارمة منتشرة. والحق أقول إني لم أكن منزعجاً إذ عليك أن تعرف أنهم يدعون أنفسهم أمماً، ويقومون بكل إزعاج وأذى بذريعة الحرب».

أنا لا أقصد التقليل من حرّيات المسافرين، ولا أن أتنافس مع

مؤلف الرحلة إلى ليليبوت (Lilliput) المشهور، لكني لا أستطيع، إلّا أن أحاول أن أنقل ما شعرت عند سماعهم يتكلّمون عن بلادهم، وجيوشهم، ومداخليهم، ومعاهداتهم، وتحالفاتهم. فليس عليك إلّا أن تتخيّل القيّمين على الكنيسة والموظفين الكبار في قصر هايغيت (Highgate) أو في قصر هامبستيد (Hampstead) وقد تحّولوا إلى رجال دولة وجنرالات، لكي تحصل على مفهوم معقول لتلك البلاد الواحدة. لقد مررت في دولةٍ، لا يؤوي فيها أفضل منزل في العاصمة أحقر عمالكم، وحيث لا يختار متسوّلوكم تناول الطعام مع الملك، ومع ذلك اعتُبروا أمةً عظيمة، ولم يكن لهم أقلّ من ملكين. وقد رأيت واحداً منهما، فما كان أروعه من ملك فقلّما وضع ملابس على ظهره، وبدلاً من طاولة خاصة بجلالته، كان يذهب إلى مكان الأكل مع راعاياه. ولم يملكوا أقلّ مقدار من المال، وقد اضطررت إلى تحصيل الطعام على الحساب العام، إذ لم يكن يمكن الحصول على شيء من السوق. وسوف تتصوَّر أنه لا بدَّ من أن تكون هناك خدمة أطباق، وحضور واسع في انتظار الغريب الشهير، لكن طعامي تألَّف من مقدارٍ من حساء الخضر جلبه إليّ عبدٌ عارٍ، وتركني أتناول كما أشاء وكنت في حالة خطر دائم من إمكانية أن يُسرق مني من قِبَل الأولاد الصغار، الذين كانوا يقظين لتصيّد المناسبات والفرص السانحة، وكانوا بارعين في خطف طعامهم، مثل أي كلب عرفته من كلاب الصيد. وباختصار أقول، كانت تعاسة الشعب كله، وكذلك تعاستي، وأنا هناك، تتعدّيان الوصف. فقد تظن أن كل همّهم كان تعذيب أنفسهم بقدر ما يستطيعون، حتى إنهم كانوا مستائين من أحد ملوكهم لكونه محبوباً. فقد قدّم هدّيةً، عندما كنت هناك، وكانت

بقرة لأحد المحسوبين عليه، وصدريةً لآخر[1]، وقيل للعموم، إن تلك الطريقة لكسب الأصدقاء معناها نهب الشعب. وقد أخبرني سيدي الإقطاعي، بجدّية، أنه يجب على الإنسان أن لا يتقيّد بأي واجب يضعف حبّه لبلاده، وأن لا يقيم أي علاقة شخصية تجاوز عادة العيش مع صديقه، وأن يكون لطيفاً وكريماً معه عندما يقدر.

«وفي إحدى المرات سألته، لماذا - ولصالحهم - لم يمكّنوا ملوكهم من أن يكون حالهم أفضل؟ فقال، لأننا أردنا لهم سعادة العيش مع الناس. وعندما لم تعجبني بيوتهم وقلت خاصةً إنهم لم يبنوا كنائس أفضل، فأجاب: ماذا ستكون عندئذٍ إذا وجدت الدين في جدران الحجارة؟ هذا يكفي كمثلٍ عن حديثنا، ولأنه كان جامعاً مانعاً، يمكن أن تصدِّق أنني لم أطلْ المقام للاستفادة منه، وقيل لي إنه كان لديهم مراكب بثلاث صوارٍ وقوارب مسطّحة القاع لحمل البضائع وتفريغها، تمَّ استخدامها في التجارة، والتي كانوا، أيضاً يجمعونها في أسطول أكثر من أي شيء سواه تمثّل في احتمال إيجادي ممراً من هناك، وتوديع تلك البلاد التعيسة. لقد جهدت لكي أشهد احتفالاتهم الدينية، وأجمع الغيّاب. وقد نسخت بعض الكتابات المنقوشة، كما سوف ترى عندما تقرأ مجلّتي، وعندئذٍ سوف تصدِّق من العيّنة التي قدّمتها لك أنهم لم يكونوا جماعة: فبالرغم من أنهم كانوا فقراء وقذرين، ظلّوا يتظاهرون بالكبرياء، والشخص الذي لم يكن يساوي أربعة بنسات(*)، كان أعلى من أن يعمل لعيشه. وكانوا يذهبون إلى الخارج حفاةً، ومن دون غطاء على رؤوسهم، ملفوفين بغطاء السرير الذي يمكنك أن تتخيّل أنهم

---

(1) Plutarch in the Life of Agesilaus.

(*) البنس (Penny) يساوي 100/1 من الجنيه الإنجليزي (المترجم).

ناموا تحته. فهم يرمون كل شيء، ويبدون مثل الكثيرين من أكلة لحوم البشر، عندما يمارسون الرياضات والتمارين العنيفة، التي يقدِّرون فيها تقديراً عالياً أعمال البطولة البارعة والقوة. فالأطراف المفتولة العضلات والأذرع العضلية، والقدرة على السهر طوال الليالي، والقدرة على الصيام لمدة طويلة، والاستغناء عن أي نوعٍ من الطعام، كل ذلك كان يعتبر إنجازات أرستقراطية. فليس لهم حكومة ثابتة يمكنني أن أعرفها. فأحياناً كانت الغوغاء، وأحياناً أخرى كان من هو أفضل منها يفعل ما يشاء. وكانوا يجتمعون على شكل جماهير كبيرة في الهواء الطلق، وقلّما يتفقون على شيء. وإذا كان لشخص جراءة كافية وصوت عالٍ، كان يمكنه أن يكون شخصية عظيمة. ومنذ وقت، كان هناك دبّاغ عمل لمدة من الزمن كل شيء كان أمامه. وراح ينتقد بصوت عالٍ ما فعله الآخرون، وامتدح ما يمكن أن يُنجز، إلى أن أُبعد في النهاية لكي يطبّق كلماته ولينظِّف جلود العدو بدلاً من جلده[2]. وقد تتصوّر أن يكون قد ضُغط عليه للعودة إلى عمله، إلا أنه أُرسل لقيادة الجيش. والواقع أنهم نادراً ما كانوا، ولمدة طويلة يعملون بعقلٍ واحد باستثناء استعدادهم لإزعاج جيرانهم. وهم يخرجون كتلاً، وينبهون ويقتلون حيثما يكونون». وإلى هذا الحدّ نفترض أن يكون رحّالتنا قد كتب، وكان يمكنه استناداً إلى ذكرى السمعة التي اكتسبتها تلك الأمم عن بعد، أن يضيف «أنه لا يستطيع أن يفهم كيف أمكن الباحثين، الرجال المصقولين وحتى النساء، أن يلتقوا للإعجاب بشعبٍ لا يشببهم».

ولكي نشكل رأياً في الشخصية التي منها انطلقوا وفعلوا في الميدان خلال منافساتهم مع الأمم الأخرى، علينا أن نلاحظهم في

(2) Thucydides lib. 4. Aristophanes.

وطنهم. فقد كانوا جسورين ولا يخشون شيئاً في نزعاتهم الأهلية، وكانوا مستعدين للاستمرار إلى أبعد ما يكون، وأن يصلوا بجدالاتهم إلى حدّ اعتماد القوة. والأفراد تميَّزوا بروحهم وشجاعتهم الشخصيتين، لا عبر قيمة ممتلكاتهم، أو مرتبة مولودهم. فكان لديهم سمو شخصي قائم على الشعور بالمساواة لا التصدّرية. فكان الجنرال في حملةٍ يصير جندياً خاصاً في الحملة التي تليها ويخدم في الصفوف. وكانوا توّاقين لاكتساب قوة جسدية، وذلك لأن المعارك في استعمالهم أسلحتهم كانت اختباراً لقوة الجندي، ولإدارة القائد أيضاً. وبقايا تماثيلهم تظهر عظمة رجولية، وجوّاً من البساطة والراحة، ولكونه متكرراً في الطبيعة صار مألوفاً عند الفنّان. وقد يكون العقل استمد ثقةً وقوةً وتوجّه الجسد، كما شابهت بلاغتهم وأسلوبهم مركبة الشخص. وتمثَّلت ثقافة العقل الرئيسية في ممارسة الشؤون. وأهم الشخصيات المحترمة كانت ملزمة بالاختلاط بالجمهور، ولم يستمدوا درجة سموّهم إلّا من سلوكهم، وبلاغتهم وقوتهم الشخصية. ولم يكن لهم أشكال تعبير تدلّ على احترامٍ رسمي ومحروس. والقدح استمر واستخدم أقوى المفردات في معظم الأحيان من قِبَل الخطباء المشهورين والمصقولين. ولم تكن هناك قواعد للنزاع سوى الإملاءات المباشرة للعاطفة، وكانت تختتم بكلمات توبيخ، وعنف، وضربات. ولحسن حظّهم كانوا بشكل دائم غير مسلحين، كما كان حمل سيف في أيّام السلم يعتبر عندهم علامة البربري. وعندما يحملون السلاح عند الانقسامات الحزبية، كان الحزب المسيطر يدعم نفسه بطرد مخاصميه بالإبعاد وبسفك الدم. وكان المغتصب يحاول الاحتفاظ بمركزه بأقسى أنواع الإعدام الفوري. وكان يُواجه بدوره بمؤامرات واغتيالات، وكان فيها أكثر المواطنين احتراماً مستعدين لاستعمال الخنجر.

تلكم كانت صفة روحهم في هيجاناتها الظرفية في الوطن. وهي تتفجر بعنف ملائم وقوة مناسبة ضد منافسيهم من الأجانب ومن الأعداء. وخلال العمليات الحربية لم يحسبوا حساب أي طلب لطيف إنساني. فالمدن كانت تدمَّر عن بكرة أبيها، أو تستعبد، أما الأسرى فيباعون ويشوَّهون أو يُحكم عليهم بالموت.

عندما يُنظر من هذا الجانب لا تستحق الأم القديمة سوى طلب تقدير تافه من سكان أوروبا الحديثة، الذين أعلنوا أنهم أدخلوا كياسات السلام في ممارسة الحرب، والذين قدَّروا الامتداح والتساهل بدرجة أعلى من البسالة العسكرية، أو حبّ بلادهم. ومع ذلك فإنهم من نواحٍ أخرى استحقوا ثناءنا وحصلوا عليه. فتعلّقهم الشديد ببلادهم، واحتقارهم للآلام وللموت من أجلها، وفهمهم الرجولي للاستقلال الشخصي الذي يجعل من كل فرد حتى في ظلّ المؤسسات المضطربة المتداعية والقوانين الناقصة حارساً لحرية زملائهم المواطنين، ولنشاط عقولهم. وباختصار نقول، لقد أكسبهم ذكاؤهم النفّاذ، وقدرة سلوكهم، وقوة روحهم، المرتبةَ الأولى بين الأمم.

وإذا كانت عداواتهم كبيرة، فقد كانت محبتهم كبيرة. وقد أحبّوا عندما اكتفوا الشفقة، وكانوا عنيدين ومتصلّبين في حين لم نكن رحيمين، وإنما كنا مترددين. وفي نهاية المطاف، ما يحدِّد جدارة الإنسان هو ثباته وكرمه مع شركائه، وحماسته للأهداف القومية، وقوّته التي تحفظ الحقوق السياسية، لا بالاعتدال وحده الذي ينطلق غالباً من اللامبالاة بالمصلحة القومية والعامة، ويعمل على إضعاف الأعصاب التي تعتمد عليها قوة الشخصية الخاصة والعامة.

عندما صارت الأمة تُعتبر، في ظلّ الأنظمة الملكية المقدونية والرومانية، مثل إقطاعية الأمير، واعتبر سكان منطقة بمنزلة ملْكية مربحة، فإن امتلاك الأرض، وأرض المقاطعات، وعدم تدمير شعوبها، صار هو هدف الغزو. ولم يكن للمواطن المسالم أي اهتمام في شجارات الحكام. وقيَّد عنف الجندي وضبط بنظام. فحارب لأنه تعلَّم أن يحمل السلاح، وأن يطيع، وأحياناً كان يسفك دماً في جوّ الحماسة الخاصة بالنصر، وباستثناء حالة الحروب الأهلية، لم تكن لديه عواطف تثير عداوة تتعدّى ميدان المعركة يومها. وكان القادة يُحكم عليهم بأهداف المشروع، وكانوا يلقون السيف عندما يتمّ الحصول عليها.

في الأمم الأوروبية الحديثة، حيث سعة الأرض تسمح بالتمييز بين الدولة ورعاياها، تعوَّدنا أن نفكّر بالفرد بحنوّ وشفقة، ونادراً ما فكرنا بالشعب لحماس. وأجرينا تحسينات خاصة بقوانين الحرب، وبالملطّفات التي ابتُدعت للتخفيف من شدّتها وقساوتها، وجمعنا بين التهذيب واستعمال السيف، وتعلمنا أن نخوض الحرب في ظل اتفاقيات ومعاهدات وأن نثق في صدق العدوّ الذي نفكّر بتدميره. فالمجد يكون بنجاح أكبر عبر التوفير والحماية لا عبر التدمير والقهر، وكذلك ألطف الأهداف. أما استخدام القوة فيقتصر على تحقيق العدالة، والحفاظ على الحقوق القومية.

قد تكون هذه هي الميزة الرئيسية، التي على أساسها نمنح في الأمم الحديثة صفتي متمدن (Civilized) أو مثقَّف (Polished). غير أننا رأينا أنها لم ترافق التقدّم عند اليونانيين، ولم تماشي تقدّم السياسة، والأدب والفلسفة. ولم تنتظر عائدات العلم والتهذيب عند الحديثين. فقد وُجِدت في حقبةٍ سابقةٍ من تاريخنا، وكانت

مميّزةً أكثر مما هي في الوقت الحاضر. ومن دونها كانت أساليب حياة العصور بدائيةً وغير منظَّمة. فملك من ملوك فرنسا وقع أسيراً في أيدي الأعداء، لكنه عومل، منذ أربعمئة سنة خلت، بكثير من الامتياز واللطف، كملك متوَّج في ظروف شبيهة، كما يمكن أن يُتوقَّع في عصر التهذيب هذا[3]. وكذلك أمير كوندي (Conde) الذي هُزِمَ وأُسِرَ في معركة درو (Dreux)، نام في الليل في الوقت نفسه مع عدوّه، دوق دي غيز[4] (Guise) .

إذا كانت أخلاق التقاليد الشعبية، ومذاق القصص الخيالية، التي كانت من إنتاج عصور معيّنة أو من تسلياتها هي أيضاً دلائل على عقائدهم وشخصياتهم، فإنه يمكننا أن نفترض أن أساس ما يُعتبر الآن قانون حرب وأمم كان معبَّراً عنه في قصص الفروسية والبسالة. فنظامنا الحربي لا يختلف عن نظام اليونانيين الحربي، أكثر مما تختلف الشخصيات المحبوبة، في الفترة الرومانسية الأولى، وعن الشخصيات المذكورة في **الإلياذة**، وفي كل قصيدة قديمة. فبطل القصة الخيالية اليونانية الممنوح قوة عالية، وشجاعة وبراعة، كان يستغلّ كل فرص ليقتل العدوّ ويبقى سالماً، وكان الذي يحرّكه هو الرغبة في النهب، أو مبدأ الانتقام، ولم يتوقَّف عن التقدّم لمعيقات أو ندامة أو صفقة. وهوميروس، الذي كان يعرف أكثر من الشعراء جميعهم، كيف يصف مشاعر المحبة القويّة، ولم يحاول أن يثير مؤاساة. فقد سقط هكتور (Hector) من دون شفقة، وأهين جسده من قِبَل كل يوناني.

ونقيض ذلك، نجد أن قصتنا الخيالية أو الرواية الغرامية

---

(3) Hume, *History of England.*

(4) Davila.

الحديثة، تجمع بين موضوع شفقة، وضعف، ومضطَّهد وعاجز عن الدفاع، مع موضوع إعجاب، وشجاع، وكريم ومظفَّر، أو ترسل البطل إلى الخارج بحثاً عن المخاطر، وعن مناسبات يبرهن فيها عن شجاعة. ولأنه مكلَّف ومسؤول عن قواعد لطف رقيق ليمارس حتى مع العدوّ، وبإجلال غير مؤكَّد لا يعرِّضه لمعاناة عندما يستعمل ويستغل أي حيلة أو مفاجأة، ويكون غير مبالٍ بالنهب، نراه لا يقاتل إلّا طلباً للشهرة، ويوظِّف شجاعته لإنقاذ المكروب، وحماية البريء. وإذا كان منتصراً، فهو يعلو فوق الطبيعة، مثلما يحصل في كرمه ولطفه، وكذلك في براعته وشجاعته.

استناداً إلى هذا التقابل بين نظام القصة الخرافية القديمة والقصة الخرافية الحديثة، قد يصعب تحديد أصل الأفكار المتعلقة بالإجلال والمختلفة والمتضادة في أممٍ متشابهة في البدائية، وفي الحرب، وفي حبّ المجد العسكري. فبطل الشعر اليوناني يسير على قواعد العداوة والعاطفة المعادية. فقواعد حربه مثل تلك السائدة في غابات أميركا. فهي تتطلَّب منه أن يكون شجاعاً، لكنها تجيز له أن يمارس ضدّ العدوّ كل نوع من أنواع الخداع.

أما بطل القصة الغرامية الحديثة، فهو يعلن عن ازدراء للاستراتيجية وللخطر أيضاً، ويجمع في الشخص ذاته صفاتٍ وميولاً متضادّة، مثل الشدّة واللطف، ومحبة الدم ومشاعر اللطف والشفقة.

عندما اكتمل تشكيل نظام الفروسية، عمل على أساس احترام مدهش وتقدير للجنس الجميل، استناداً إلى أشكال قتالٍ تمَّ تأسيسها، وعلى أساس ربط بين الشخصية البطولية والمقدَّسة.

فقواعد الصراع الرسمية، ونوع من التحّدي القانوني كانا معروفين عند السلفية (Celtic) القديمة في أوروبا[5]. والألمان عندما كانوا في غابات بلادهم، حتى زمانئذٍ عبّروا عن نوع من المحبة والإخلاص للجنس الأنثوي. والدين المسيحي فرض الاعتدال والشفقة بالعصور البربرية. وبتوحّد هذه المبادئ فإنها صارت أساساً لنظامٍ، صارت فيه الشجاعة موجَّهة من قِبَل الدين والحبّ، واتَّحد ما هو حربي وعنيف مع ما هو لطيف. وعندما امتزجت صفات البطل والقدّيس، فإن الروح اللطيفة للمسيحية، بالرغم من تحوّلها إلى حقد في معظم الأحيان نتيجة لتعصّب الأحزاب المتضادّة الأعمى، وبالرغم من أنها لم تتمكّن من أن تلطّف من ضراوة المحارب، ولا إخماد الإعجاب بالشجاعة والقوّة، فإنها أكَّدت إدراك الرجال لما يجب أن يعتبر أهلاً للتقدير والمكافأة، وما هو رائع في إدارة نزاعاتهم.

في التاريخ المبكّر والتقليدي لليونانيين وللرومان، عرف أن حوادث اغتصاب النساء كانت أكثر الحوادث حصولاً في الحروب، وكان الجنسان من دون ريب في جميع الأزمنة مهمين لبعضهما. وكانت حماسة الحبّ الأقوى في آسيا وفي أفريقيا، والجمال كان يُقدَّر من قِبَل المواطنين في زمن هوميروس أكثر مما كان يُقدَّر من قِبَل الموجودين في أماديس دي جاولا (Amadis de Gaula) أو من قِبَل المؤلفين عن الكياسة الحديثة. فقال قال بريام العجوز، عندما ظهرت هيلين (Helen): «أي عجب أن تتنازع الأمم وتتقاتل لحيازة مثل هذا الجمال؟ ولا ريب في أن ذلك الجمال حازه محبّون مختلفون، وهذا موضوع أجرى عليه البطل الحديث تحسينات كثيرة، وبدا أنه حلّق في السحاب. فهو كان يهيم على مسافةٍ

(5) Liv., lib. 28. C. 21.

محترمة، ووظَّف شجاعته للإمساك بالإعجاب، لا لحيازة خليلته. وصُيِّرت العفّة الهادئة التي لا تُغلب معبوداً ليعبد في حالات الإرهاق والمعاناة والآلام، ومعارك البطل والعاشق».

لا ريب في أن تكون المؤسسات الإقطاعية عبر المرتبة العالية التي رفعت إليها أسراً معينة، فضَّلت بمقدار كبير ذلك النظام الرومانسي. ولم يقتصر الأمر على بريق الأصل النبيل، وإنما حصن الدولة ذو الجدران ذات الفتحات والفرجات أيضاً، عمل على استعمال الخيال وخلق تبجيل لبنات وشقيقات الرؤساء البواسل اللواتي لم يكن ممكناً الوصول إلى مرتبتهن التي كانت ظاهرة، واللواتي لم يعرفن من يستحق إلّا من كان ذا عقل سامٍ وكان شجاعاً، كما لم يكن الاقتراب منهن عبر أي مرتقى سوى الذي اتَّصف باللطف والاحترام.

ما كان أصلاً فريداً في تلك الأفكار حوَّله الكاتب الرومانسي إلى غلوّ، وتحت عنوان الفروسية قُدِّم كنموذج للسلوك، وحتى في الشؤون العامة، نعني: حظوظ الأمم تديرها البسالة وصارت الحياة الإنسانية، في مناسباتها الكبرى مشهد تصنّع وحماقة. ومضى المحاربون لتحقيق القصص الخرافية التي تعلّموها، وكرَّس الأمراء وقادة الجيوش أهم مآثرهم وبطولاتهم لخليلةٍ حقيقية أو وهمية.

غير أنه مهما كان مصدر عقائدهم، التي غالباً ما كانت متغطرسة وتعبت على السخرية، فإننا لا نشك في آثارهم الباقية على أساليب حياتنا وعاداتنا.

فمسألة الإجلال، وانتشار البسالة في أحاديثنا، وعلى مسارحنا

الكثير من الآراء التي يستعملها العاديون من البشر حتى في إدارة الحرب، وعقيدتهم المفيدة بأن قائد الجيش المكلَّف بمعركة مثل سواه يُهان ويتعرّض للخزي، وإذا رفضها كان ذلك، كل هذا من دون شك، من بقايا ذلك النظام القديم. كما أن الفروسية المجتمعة مع عبقرية سياستنا بتلك المزايا الموجودة في قانون الأمم، والتي بها تتميّز الدول الحديثة عن الدول القديمة. وإذا كان لا بدَّ من أخذ قاعدة قياسنا درجات التهذيب والمدنية من هناك، أو من تقدّم الفنون التجارية، فسوف نجد أنفسنا متفوقين كثيراً على أيّ أمةٍ من أمم الزمان القديم المشهورة.

القسم الخامس

أفول الأمم

الجزء الأول

البروز القومي المفترض، وتقلّبات الشؤون الإنسانية

لا وجود لأمةٍ بلغت حدّاً من التعاسة يجعلها تعتقد أنها دون بقية البشر وهناك القليل من هذه الأمم قد تكون راغبة في التخلّي عن مطلب المساواة. والقسم الأعظم اعتبروا أنفسهم، في ذات الوقت، الحكّام القضاة والنماذج لما هو ممتاز في نوعهم والأوَّل برأيهم، وهم لا يمنحون الآخرين الاعتبار أو البروز إلّا إذا قاربوا حالتهم. فهناك أمة مزهوّة بالخُلُق الشخصي، أو بثقافة نفرٍ قليلٍ من أفرادها، وأمة أخرى تتباهى بسياستها، وثروتها، وتجّارها، وحدائقها وعماراتها، والأمة التي لا تملك شيئاً تفتخر به، هي أمة عقيمة وتافهة، لأن أفرادها جهلة. وقد اعتبر الروس أنفسهم قبل حكم بطرس الكبير (Peter the Great)، حائزين كل درجة شرف قومي، واستخدموا الوصف Nemei أو الأمم الغبيّة (Dumb Nations)، وهو الاسم الذي أطلقوه على الجيران الغربيين في أوروبا حينئذٍ وبدرجات متناسبة من الازدراء[1]. أما خارطة العالم في الصين، فكانت أشبه ما يكون بصحيفة مربَّعة، شغلت معظمها

---

(1) Strahlenberg.

مقاطعات تخص تلك الإمبراطورية العظيمة، وعلى حافاتها مناطق منعزلة، إليها كانت تدفع البقية البائسة من البشر. وقد قال أحد المتعلمين الصينيين للمبشّر الأوروبي: «إذا لم تستخدم لغتنا ولا المعرفة في كتبنا، فما هو الأدب، أو ما هو العلم الذي يمكن أن تحصل عليه؟»[2].

كلمة مصقول (Polished)، تدلّ أصلاً، إذا نظرنا إلى منشئها اللغوي، على حالة الأمم لجهة قوانينها وحكمها، والناس يكونون متمدنين عند قيامهم بواجبات المواطنين. وفي استعمالاتها الأخيرة، دلَّت على فاعلية الأمم في ممارسة الفنون الليبرالية واليدوية، وفي الأدب، والتجارة، والرجال المتمدّنون، ورجال الأزياء، والتجّار. غير أنه مهما كانت تطبيقاتها، فإنه يبدو حتى إن وُجد اسم أفضل من هذا أنَّ كل أمة، حتى البربرية، أو الفاسدة، سوف تتَّخذه، وتطبق نقيضه حيثما تكره أو تجد فرقاً. وقلّما يُلفظ الاسمان غريب (Alien) أو أجنبي (Foreingner)، من دون درجة أو مقدار من الخزي أو التأنيب. والشعب المتعجرف يستعمل كلمة بربري (Barbarian)، وغيره يستعمل كلمة لطيف (Gentile)، وكل ذلك يوظَّف لتمييز الغريب الذي لغته ونسبه يختلفان عن لغتهم ونَسَبهم.

عندما نزعم أننا أقمنا آراءنا على العقل، وأننا نريد تسويغ تفضيلنا لأمة على أخرى، حتى عندئذٍ، نحن ننسب تقديرنا للظروف التي لا تتعلّق بالشخصية القومية، والتي قلّما ترقّي وتعزِّز مصلحة البشر. فالغزو أو المقدار الكبير من الأرض مهما كان مملوءاً بالسكّان، والثروة الواسعة كيفما وُزِّعت أو وُظِّفت، ما هي إلا

---

(2) Gemelli Carceri.

عناوين ننغمس فيها ونتساهل معها، وهي تشكّل خيلاء لأمم أخرى، كما نفعل ذلك مع الأفراد استناداً لثرواتهم ودرجات شرفهم. وأحياناً نتجادل حول أي رأسمال هو الأكثر تضخماً، وأي ملك تمتَّع بأكبر سلطة مطلقة، وفي بلاط أي قصر استُهلك خبز المواطن بأكثر التظاهرات شغباً وفوضى. والواقع هو أن هذه الأفكار تخصّ العقول العادية، لكن من المستحيل تحديد كيف يمكن لأفكار العقول العادية المألوفة أن تقود البشرية.

لا شك في وجود أمثلة قليلة جداً عن دول حسَّنت عبر فنون السياسة الميول الأصلية للطبيعة البشرية، أو حاولت عبر احتراسات حكيمة وفاعلة أن تحول دون فسادها. فالمحبة وقوة العقل اللتان تؤلّفان رابطة المجتمعات وقوّتها، كانتا من وحي الله وصفتين أصيلتين من صفات الطبيعة الإنسانية. وإن أحكم خطة للأمم، باستثناء أمثلة قليلة، كان يميل للحفاظ على السلام في المجتمع، وكبح الآثار الخارجية للعواطف السيئة، أكثر من تقوية ميل القلب نفسه للعدالة وللخير. فقد مالت عبر إدخالها فنوناً متنوّعة، وتدريب عبقرية الرجال، وعبر إدخالهم في حِرف متنوعة، وبحوث، ودراسات، لتشكيل العقل، وغالباً إفساده. فقد جنحت إلى إدخال مسألة الامتياز والخيلاء، وعبء إعاقة الفرد بواسطة مواضيع جديدة خاصة بالاهتمام الشخصي، وعملت على استبدال قلقه وتوقه لثروة منفصلة، عوضاً عن الثقة والمحبة اللتين بهما عليه أن يتوحَّد مع أقرانه من المخلوقات لبقائهم المشترك.

سواء أكان ذلك الارتياب منصفاً أم لم يكن، فقد كنّا، في ظروف، ميّالين لإثباته أو نقضه. سواء أكان ذلك الارتياب في محلّه

أم لم يكن، فقد وصلنا إلى الإشارة إلى الظروف التي تثبته أو تنفيه. وإذا كان فهم السعادة الحقيقية للأمم مهماً، كذلك من المهم معرفة نقاط الضعف وتلك الرذائل، التي بها لا يفسد البشر تلك السعادة فحسب بل يفقدون في عصرٍ الفوائد الخارجية التي كسبوها في عصر سابق.

الثروة، والتوسّع، وقوة الأمم هي نتائج الفضيلة، وخسران هذه الفوائد غالباً ما يكون نتيجةً للرذيلة. وعلينا أن نفترض أن الناس نجحوا في اكتشاف وفي تطبيق كل فنّ تمَّ به الحفاظ على الدول وحكمها، والحصول عبر جهود الحكمة والشهامة على المؤسسات المدهشة وفوائد شعبٍ متمدّنٍ ومزدهر، واحتواء جزء من تاريخهم اللاحق، الذي يحتوي، بحسب الإدراك العامي على عرضٍ كامل لتلك الثمار الناضجة، التي لم ينقلوا إلى ذلك الحين سوى البراعم، وتشكّلها الأول، إن هذا يستحق أكثر من سابقه الانتباه وإثارة إعجابنا.

غير أن ما حدث لم يكن مطابقاً لذلك التوقّع. ففضائل البشر تجلَّت أكثر ما تجلَّت في صراعاتهم، وليس بعد حصولهم على غاياتهم. ومع ذلك إن تلك الغايات بالرغم من تحقيقها بالفضيلة فهي غالباً ما كانت أسباب الفساد والرذيلة. فالبشر في طموحهم للسعادة القومية أحلّوا الفنون التي تزيد من ثرواتهم محلّ تلك التي تحسِّن طبيعتهم. فقد احتفوا بأنفسهم بأوصاف المتمدّن (civilized) والمصقول (polished)، حيث كان عليهم أن يشعروا بالعار، وحتى عندما عملوا، لفترةٍ، بالقواعد التي ترفع، وتقوّي، وتحفظ الشخصية القومية نراهم آجلاً أو عاجلاً ينحرفون عن

هدفهم، ويسقطون ضحيةً لسوء الحظ، أم لظواهر الإهمال التي شجَّعها الازدهار نفسه.

الحرب التي توفِّر للبشر انشغالاً رئيسياً لروحهم القلقة، تفيد بتنوّع أحداثها في تنويع حظوظهم. ففي حين تفتح لقبيلة أو لمجتمع الطريق إلى البروز وتؤدي إلى السيطرة، فإنها تعمل على إخضاع قبيلة أخرى أو مجتمع آخر، وتنهي مشهد محاولاتهما القومية. والمنافسة الشهيرة بين قرطاجة وروما كانت عند الطرفين بمنزلة ممارسة طبيعية لروح طموحة، وتضيق ذرعاً من معارضها حتى من يدّعي منهم مساواتها. وكان سلوك القادة وحظوظهم يجعلان كفة الميزان معلّقة، ولكن مهما كانت الجهة التي كانت تميل إليها تلك الكفّة، فقد كانت النتيجة أن أمةً عظيمة لا بدًّ من أن تسقط، وأن مقعد إمبراطوريتها وسياستها لا بدّ من أن يزاحا من موقعها، وعندئذٍ سيتقرر إن كان السريان أو اللاتين سيحيطون بالمعرفة الواسعة، التي ستملأ في مستقبل الزمان دراسات المثقفين وتشغلهم.

هكذا نرى أن الدول كانت تتعرَّض للغزو من الخارج، قبل أن تظهر علامات عن انحلالها الداخلي، حتى في وسط ازدهارها، وفي فترة حماسها الكبير لأهداف قومية. فأثينا في ذروة طموحها وعظمتها تعرَّضت لجرح قاتل في كفاحها لمدّ قوتها البحرية إلى ما وراء المياه اليونانية. وهناك أمم من كل وصف كانت منيعة بقوتها البدائية، ومحترمةً بنظامها وخبرتها العسكرية سقطت بدورها عند تقدم قوتها، وعند انحدارها، فريسةً لطموح الرومان وروحهم المتغطرسة. قد تثير هذه الأمثلة وتنبّه غيرة الدول وحذرها. ووجود أخطار شبيهة قد يقلق مواهب السياسين ورجال الدولة، لكن

تقلّبات الحظ هي من مواد التاريخ المعروفة، ويجب أن لا تذهلنا، ومن زمن بعيد.

هل وجدنا أن الأمم التي انطلقت من بدايات بسيطة، ووصلت إلى حدّ حيازة الفنون التي تؤدي إلى السيادة صارت آمنة على مصالحها بما يتناسب مع المؤهّلات التي بها حصلت عليها، وأنها استمرت في طريق السعادة التي لا يعتريها انقطاع، إلى أن تحطَّمت بكوارث خارجية، وأنها احتفظت بقوّتها إلى أن ظهرت قوة أكثر حظاً أو أكثر قوة وعملت على إخمادها فهذا الموضوع الذي نفكّر به لا ينظر إليه عبر صعوبات كثيرة، كما أنه لا يؤدي إلى ظهور أفكار كثيرة حوله، غير أننا عندما نلاحظ في أمم كثيرة نوعاً من العودة العفوية إلى عدم الشهرة والضعف، وعندما على الرغم من التحذيرات الدائمة بوجود الخطر يُعرِّضون أنفسهم للخضوع في فترة من الفترات لقوى لم تكن تستطيع أن تنافسهم بقوى سابقة غالباً ما صدَّتها واحتقرتها، حول موضوع ازداد غرابةً، وازداد شرحه صعوبة.

فإن الحقيقة تُعرف بأمثلةٍ متنوعة مختلفة. فإمبراطورية آسيا، ولأكثر من مرة، تحوَّلت من قوة عظمى إلى قوى صغرى. والدول اليونانية التي كانت دولاً محاربةً، أرخت من قوتها، وتخلَّت عن الصعود الذي تنازعت عليه مع ملوك الشرق إلى قوى من منطقة غامضة، وصارت منيعة في سنواتٍ قليلة، وبرزت بقيادة رجل واحد. والإمبراطورية الرومانية التي وقفت وحدها لعصور، وأخضعت كل من نافسها، ولم تعرف قوة تخشى من منافستها، انهارت أخيراً أمام عدوٍ عديم الفنون ومحتقر، وبتحولها إلى

الداخل للنهب، وفي النهاية إلى الغزو على حدودها تداعت من جميع الأطراف، وتقلَّصت في كل جانب، وتقطَّعت أوصال أرضها، وتلاشت المناطق جميعها، مثل الأغصان المتساقطة مع الزمن، من دون أن تمزقها عنفياً قوة أكبر. والروح التي بها أربك ماريوس (Marius) هجومات البربريين وصدهم، في زمنٍ سابق، والقوى المدنية والعسكرية اللتان بهما تمكَّن القنصل وفيالقه من توسيع تلك الإمبراطورية، ليس لهما مثيل الآن. وكان مصير العظمة الرومانية الانحدار بقدر ما كان نصيبها الصعود في السابق، وذلك تمَّ بدرجات بطيئة، كما ضعفت في كل صدام. وتقلَّصت عائدة إلى أبعادها الأصيلة ضمن إطار مدينة واحدة. ولأنها اعتمدت من أجل بقائها على ما يجلبه الحصار من حظّ فقد مُحقت بضربة، والجمرة التي ملأت العالم بلهيبها سقطت مثل نور ضعيف في تجويف.

مثل هذه المظاهر أدّت إلى نشوء إدراك عام مفاده أن تقدّم المجتمعات إلى ما ندعوه ذرا العظمة القومية ليس طبيعياً أكثر مما هي عودتها إلى الضعف والظلمة ضرورية ولا يمكن تجنّبها. وإن صور الشباب والشيخوخة تنطبق على الأمم، فالمجتمعات مثل الأفراد من البشر لها مدة حياة، وطول خيطٍ تغزله المصائر بحيث يكون في جزء مستقيماً وقويّاً، وفي جزءٍ آخر واهياً وممزّقاً، لكي يقطع، عندما تستحق الحقبة الزمنية المعينة ويفسح المجال لتجديد الشعار عند الذين يتعاقبون. فقرطاجة التي كانت أقدم من روما شعرت بضعفها المبكّر، كما قال بوليبيوس (Polybius)، ورأى أن من بقي، أيضاً، حمل في صدرها بذور الفناء.

الواقع هو أن الصورة ملائمة وفي محلّها، وتاريخ البشر جعل

التطبيق يبدو مألوفاً. غير أنه لا بدَّ من أن يكون واضحاً، أن حالة الأمم وحالة الأفراد مختلفتان جداً. فالبنية الإنسانية لها مسلك عام: فلها في كل فرد سياق ضعيف ووقت محدود، فهي تتلف بالتمرين، وتنهك بتكرار وظائفها، لكن في مجتمع يتغيّر ويتجدَّد فيه أعضاؤه في كل جيل، وحيث يبدو الجنس البشري متمتعاً بشباب دائم وفوائد متراكمة، فإننا لا نستطيع بأي شبه عقلي أن نتوقّع أن نجد حماقات مرتبطة بالعمر وطول الأيام.

ليس الموضوع بجديد، والأفكار ستتجمع عند كل قارئ. والعقائد التي نحملها في نفس الوقت، وحتى عند التأمل في موضوع بتلك الأهمية، لا يمكن أن تكون من دون ثمارٍ للبشر. ومهما تكن قليلةً آثار التفكير على سلوك البشر، فإن أحد الأخطاء المغتفرة التي يمكن أن يرتكبها كاتب يتمثَّل في الاعتقاد بأنه على وشك أن ينجز مقداراً كبيراً من الخير. غير أننا، بعد أن نترك الاهتمام بالنتائج للآخرين، سنتابع النظر في أسس عدم الاتّساق بين البشر، ومصادر التآكل الداخلي، وظواهر الفساد المدمّر التي تتعرَّض لها الأمم في حالة اللطف المنجز.

الجزء الثاني

الجهود الوقتيّة وظواهر تراخي الروح القوميّة

سبق أن لاحظنا في ما يتعلّق بالخصائص العامة للطبيعة البشرية، أن الإنسان لم يخلق ليرتاح. ففيه كل صفةٍ محبوبةٍ ومحترمة هي قوة فاعلة، وكل موضوع ثناء هو مجهود. وإذا كانت أخطاؤه وجرائمه هي حركات كائن نشيط، فإن فضائله وسعادته تَمثُلُ في استخدام عقله. وكل البريق الذي ينشره حوله لاجتذاب أو لإشغال أقرانه من المخلوقات يشبه لهيب الشهاب الذي لا يلمع إلا إذا استمرت الحركة. فأوقات الراحة وعدم الشهرة متشابهة. ونحن نعرف أن المهمّات المعيّنة له قد تفوق في معظم الأحيان، وقواه قد تكون دونها. وأنه قد يقلق كثيراً، وقد يقلق قليلاً، لكنه لا يستطيع أن يحدِّد وسطاً دقيقاً بين الأوضاع التي يُضايق ويرهق، والأوضاع التي ينغمر فيها بالضنى الوهن. ونحن نعرف أنه قد يستخدم في عدد متنوِّع كثيراً من المواضيع التي تشغل عواطف ومشاعر مختلفة، وأنه نتيجة للاعتياد يحمِّل نفسه على الإذعان لمشاهد مختلفة. وكل ما نستطيع أن نحدّده بصورة عامةٍ، هو أنه مهما كانت المواضيع التي ينخرط بها، فإن نوع طبيعته يتطلَّب منه أن يكون منشغلاً، وسعادته تريده أن يكون عادلاً.

الآن علينا أن نبحث عن أسباب توقّف الأمم عن أن تكون متفوّقة، وأسباب انحدار المجتمعات التي جذبت انتباه البشر بأمثلة عظيمة عن الشهامة، والسلوك والنجاح القومي من أعالي ذرا احترامها وإجلالها، وتخلّت في عصر عن النصر الذي أنجزته في عصر سابق. قد تكون هناك أسباب عديدة، ويمكن أن نستمد أحدها من تقلّبات البشر وتناقضاتهم، الذين تعبوا من مساعيهم وجهودهم، حتى عندما استمرت المناسبات التي أدّت إلى تلك المساعي بمقدار ما. وسبب آخر نستمدّه من تغيّر الأوضاع، وزوال الأهداف التي عملت على إثارة روحهم.

السلامة العامة، والمصالح النسبية للدول، والمؤسسات السياسية، ومطالب الأحزاب ومزاعمها، والتجارة، والفنون، كل ذلك موضوعات جذبت انتباه الأمم. والفوائد المكتسبة في بعض تلك البنود تحدِّد درجة الازدهار القومي. ويشكّل الحماس والقوة اللتين بهما تطلب، في أي وقتٍ، مقياس الروح القومية. وعندما تتوقّف تلك الأشياء عن بعث الحيوية، يمكن القول، إن الأمم قد وهنت. وعندما تُهمل، لوقت طويل، فإن الدول تأفل، وشعوبها تنحطّ.

وفي أكثر الأمم تقدّماً إقداماً وإبداعاً وجهداً، نجد أن تلك الروح متقلّبة، وأن تلك إن استمرت لمدة أطول لكي تحصل على فوائد أو لتحفظها، كان لها فترات من الكسل ومن الحماسة. فكانت الرغبة في السلامة العامة في جميع الأزمنة، هي دافعاً قوياً للسلوك، لكنه يكون أكثر نشاطاً عندما يجتمع مع عواطف ظرفية، وعندما تشتعل المثيرات، وعندما تشجع الانتصارات، أو عندما تصل الإهانات إلى السخط.

كل الشعب هو مثل الأفراد الذين يتألف منهم، يعمل بتأثير دعابات وقتية، وآمال متفائلة، أو عداوات عنيفة. فهم معرَّضون، في مرةٍ، للدخول في صراعات قومية بعنفٍ، وفي مرة أخرى، للتخلي عنها، لتعبٍ وقرف. وفي مجادلاتهم المحلية ونزاعاتهم في الوطن، كانوا أحياناً متحمسين أو كسولين. والعواطف الوبائية المعدية تتفجَّر أو تخمد وفقاً لأسس تافهة، ومهمة أيضاً. والأطراف كانت مستعدة، مرة، أن تأخذ أسماءَها، ومزاعم معارضيها من نزوة أو من مجرّد حادث. وفي مرة أخرى، كانت تتحمّل أكثر المناسبات خطورةً، فتجعلها تمضي بهدوء. وإذا ظهرت مسحة من العبقرية الأدبية، عرضاً، أو بدا موضوع جديد لبحث، فإن اكتشافات حقيقية أو مزعومة سرعان ما تتضاعف، ويصير كل حديث متعلّقاً بالبحث ومنعماً بالحياة. وإذا وُجد مصدر جديد للثروة، أو عرض أمل في الغزو، فإن خيالات البشر تشتعل وتتأجَّج، وتنخرط أجزاء كاملة من الكرة الأرضية فجأةً في مغامرات مدمِّرة أو ناجحة.

إذا تمكّنا من استذكار الروح التي ظهرت، أو من التعرّف على وجهات النظر التي كانت لأجدادنا، عندما تفجّروا في طوفان وانطلقوا من مقاعدهم القديمة وتدفقوا في الإمبراطورية الرومانية، فقد نجد، بعد نجاحهم الأول على الأقل اهتياجاً في عقول الرجال، لا تبدو أي محاولة أمامه شاقّة، ولا صعوبات لا يمكن التغلّب عليها.

كانت العصور اللاحقة للمغامرة في أوروبا، تلك التي أطلقت فيها الحماس، وانطلق أتباع الصليب إلى غزو المشرق، لكي ينهبوا بلاداً ولاستعادة الذخائر والآثار المقدّسة، تلك التي من أجلها

تنازع الناس في دول مختلفة على الحرية، وهاجموا بنية الاغتصاب المدني والديني، بعد الحصول على وسائل لعبور المحيط الأطلسي والإبحار حول رأس الرجاء الصالح، صار سكان نصف العالم منفتحين على النصف الآخر، وصار البشر من كل فجٍّ عميق يخوضون في الدماء، وبكل جريمة، وبكل المخاطر صالوا وجالوا في العالم بحثاً عن الذهب.

والضعفاء والكسالى، حتى هؤلاء هبّوا للمغامرة نتيجةً لعدوى مثل تلك العصور اللافتة. والدول التي لم يشتمل شكلها على مبادئ الجهد الذي لا يتوقَّف، لصالح مصلحة البشر أو ضدّها، قد تكون أظهرت مؤقت للقوة القومية. وفي حالة مثل هذه الأمم، لم تكن عائدات الاعتدال إلّا العودة إلى الظلمة، وتحوَّلت جراءة عصر إلى اكتئاب في العصر الذي أعقبه.

غير أننا نقول، إنه، في حالة الدول المحظوظة بسياستها المحلية، قد يخمد الجنون نفسه، نتيجةً للاضطرابات العنيفة، ويتحوَّل إلى حكمة. ويعود الناس إلى مزاجهم العادي، معافين من الحماقات، وحكماء بالخبرة، أو يعودون بمواهب محسَّنة، في إدارة المشاهد التي صنعتها نوبات الجنون، فيبدون مؤهّلين خير تأهيل، للسعي بنجاح وراء هدف الأمم. ومثل الجمهوريات القديمة مباشرة بعد فتنة أو عصيان، أو مثل مملكة بريطانيا العظمى في خاتمة حروبها الأهلية يستعيدون روح النشاط التي أوقظت حديثاً، ويكونون أقوياء في كل مسعى، سواء اختص بالسياسة، أم بالتعليم أم بالفنون. فمن مشهدهم الذي على حافظ الدمار نراهن يتحوّلون إلى أعظم ازدهار.

ينخرط الناس في حِرفٍ بدرجات من الحماس لا تتناسب مع أهمية هدفهم. وعندما يتعارضون أو يتحدّون، فكل ما يرغبون فيه يقتصر على مظاهر ومزاعم العمل. فهم ينسون، في حمّى عدواتهم موضوع نزاعاتهم، أو لا يطلبون عبر الأفكار الرسمية المتعلقة به إلا إخفاء عواطفهم. فعندما يلتهب القلب لا يقدر أي تفكير أن يخمد حماسته، وعندما تخمد حماسته لا يقدر أي تفكير أن يثيرها، ولا تقدر أي بلاغة أن توقظ عواطفه السابقة.

ولا بدَّ من أن يعتمد استمرار المنافسة بين الدول على درجة المساواة التي تُوازن قواها، أو على الدوافع التي تدفع أي فريق، أو الجميع للاستمرار بصراعاته. والتوقّفات الطويلة للحرب تجعل في كل مرحلة من مراحل المجتمع المدني، والروحَ العسكرية تهن. فإضعاف ليساندر (Lysander) لمدينة أثينا كان ضربةً قاتلةً لمؤسسات ليكرغوس. والحيازة الهادئة على إيطاليا، ولسعادة البشر، وضعت نهايةً لتقدّم الرومان العسكري. وبعد استراحة لبعض السنين، وجد هنيبعل إيطاليا غير جاهزة لهجومه، والرومان في وضع مائل إلى السقوط، على ضفاف نهر بو (Po)، لكن ذلك الطموح العسكري بعد إثارته بالشعور بخطر جديد لاحقاً، أوصلهم إلى ضفاف نهري الراين والفرات.

الدول كلها، حتى الممتازة ببسالتها وبراعتها العسكرية، تضع أحياناً سلاحها جانباً للكسل أو التراخي، وتكون منهكة من النزاعات العقيمة. غير أنها إذا حافظت على وضعية المجتمعات المستقلة، فسيكون لها مناسبات متعدّدة لاستعادة قوّتها وبذلها. وحتى في ظلّ أنظمة الحكم الشعبية، نجد الناس لا يعودون يحترمون حقوقهم

السياسية، ويبدون أحياناً مهملين وكسولين. غير أنهم إذا حافظوا على قوّة الدفاع عن أنفسهم فإن فترة ممارستها لا تكون طويلة. وعندما تُهمل الحقوق السياسية، فإنها تتعرّض للغزو دائماً. ولا بدَّ من أن تصدر الإنذارات عن هذا الجانب بشكل دائم لتجديد وإحياء انتباه الأطراف، وحب المعرفة والفنون قد يغيّر أهدافه، أو يضعف لفصل من الفصول، لكن، ما دام الناس أحراراً، وما دامت ممارسة العبقرية لم يعقبها شيء، فيمكن للشعب أن يتابع سيره في أوقات مختلفة بحماسة مختلفة، لكن تقدّمه قلّما يتوقّف توقّفاً كلياً، ولا تضيع الفوائد المكتسبة في العصر الذي يليه. وإن أردنا أن نقع على أسباب الفساد النهائي علينا أن ندرس تلك الثورات الدولية التي أزاحت أو منعت أهداف كل بحث عبقري أو مسعى ليبرالي، والتي حرمت المواطن من فرص التصرّف كعضوٍ في مجتمع، وسحقت روحه، وحقَّرت مشاعره، ولم تؤهّل عقله للنظر في الأمور.

الجزء الثالث

ظواهر تراخي الروح القوميّة التابعة للأمم الثقافيّة المصقولة

كان على الأمم المتحسّنة في طريق تقدّمها أن تتصارع مع الأعداء الخارجيين، الذين كانت تكنّ لهم عداوة قصوى، الذين قاتلتهم في نزاعات وحروب كثيرة من أجل وجودها كشعوب. وفي فترات زمنية معيّنة أيضاً شعرت بوجود إزعاجات ومظالم ولَّدت نفاد صبرٍ قوي، فوضعوا إصلاحات ومؤسسات جديدة علّقوا عليها آمالًا متفائلة في السعادة القومية. وكان كل فن في الأزمنة الأولى غير كامل وقابل لتحسينات عديدة. وكانت المبادئ الأولى لكل علم ما تزال أسراراً يُراد الكشف عنها ونشرها بشكل متتابع باستحسان وبنصر.

يمكننا أن نتخيّل أن الجنس البشري في عصور التقدّم كان مثل المستكشفين الذين يخرجون لاكتشاف أراضٍ خصبة، والعالم مفتوح أمامهم، وقد عرض لهم في كل خطوة شيء جديد. فهم يدخلون كل أرض جديدة بتوقّع شيء وبفرح. ويشاركون في كل مغامرة حماس الناس، ويعتقدون أنهم سيبلغون السعادة القومية، والمجد

الذي لا يزول، فينسون الخيبات السابقة في غمرة الآمال بالنجاح المستقبلي. أما العقول البدائية الثَّملة بكل عاطفة، والمنحازة إلى حالها، ومساعيها، انطلاقاً من الجهل فإنها تظن أن كل مشهد هو أدنى من المشهد الموجودة فيه. وهم يُثارون بالنجاح وبسوء الحظ سواء بسواء، ويكونون متفائلين، ومتحمسين ومندفعين، ويتركون للأجيال العارفة التي ستعقبهم تذكارات عن مهارة ناقصة، وعن تطبيق بدائي لكل فن، لكنهم يتركون أيضاً علامات عن روحٍ قوية ومتحمّسة لا يكون الذين سيخلفونهم مؤهلين دائماً للاحتفاظ بها أو محاكاتها.

يمكن القبول بذلك كوصف منصف لمجتمعات ناجحة في فترات معيّنة من تقدّمها هذا على الأقلّ. وقد تكون الروح التي بها يتقدّمون غير متساوية في أزمنة مختلفة، وقد يكون لها نوبات وتقطعات ناشئة من تناقض العواطف الإنسانية، ومن الظهور العَرَضي أو إبعاد المناسبات التي تثيرها. غير أن السؤال هو: هل تجد تلك الروح التي تظلّ لوقتٍ تحمل مشروع الفنون المدنية والتجارية توقفاً طبيعياً في نهاية مساعيها الخاصة؟ وهل يتحقّق وينتهي عمل المجتمع المدني، وهل يمكن التخلّي عن فرصة بذل مجهود إضافي؟ وهل خيبات الأمل المستمرة تُنقص من الآمال المتفائلة ومألوفية المواضيع تكسر مضاء الجدّة؟ وهل التجربة ذاتها تلطّف حماسة العقل؟ وهل يمكن من جديد مقارنة المجتمع بالفرد؟ ومع أن قوة الأمة مثل قوة الجسم الطبيعي لا تتبدّد بتآكلٍ فيزيائي، فهل يمكن الارتياب والقول، إنها قد تهن لنقصٍ في التدريب، وتفنى في آخر جهودها؟ وهل تصير المجتمعات بعد إتمامها كل تصاميمها مثل الرجال بعد سنوات الذين يهملون التسليات ويكونون لامبالين

بعواطف الشباب، الباردةً ولا المباليةً بأشياء اعتادت بعث الحياة فيها في عصرٍ بدائي؟ وهل يمكن مقارنة مجتمع مصقول ومثقَّف برجل نفَّذ خطته فبنى بيته واستقر، وباختصار بعد أن عرف مفاتن كل موضوع، وبدَّد حماسته، وهوى إلى الكسل واللامبالاة غير المقيَّدة؟ فإذا كان الأمر كذلك، نكون قد وجدنا على الأقل تشبيهاً آخر لهدفنا. غير أنه من المحتمل هنا أيضاً، أن يكون التشابه ناقصاً، وأن الاستدلال الذي نجم هو مثل معظم الحُجج المستمدّة من المماثلة، فهي تلي المخيّلة، ولا تقدّم أي معلومات حقيقية عن الموضوع الذي تشير إليه.

مواد الفن الإنساني لا يمكن استنفادها، وتطبيقات الصناعة ليس لها نهاية. ولا تُقاس الحماسة القومية في أي وقت بالفرص الموجودة لنشاطها. ولا يُقاس حبّ استطلاع العلماء بمقدار الموضوع الذي بقي للبحث.

الجهلة وعديمو الفنون الذين تبدو لهم مواضيع العلم جديدة، والذين يكون أسلوب حياتهم بسيطاً جداً نجدهم هامدين وفضوليين أكثر من المجهَّزين بمعرفةوسائل الحياة، عوضاً عن أن يكونوا نشطاء ومحبين للاستطلاع. وعندما نقارن الجزئيات التي شَغَلت البشر في البداية وفي العصور المتقدمة، وعصر الفنون التجارية، فسوف نجد أن تلك الجزئيات قد تضاعفت وتوسَّعت أخيراً. وعلى أية حال إن الأسئلة التي طرحناها تستحق الإجابة. وإذا لم نجد في نتيجة التجارة مواضيع المساعي البشرية مبعدةً، أو مصغَّرة بمقدار كبير، فإننا سنجدها متغيّرة على الأقل. وفي تقديرنا للروح القومية، قد نقع على إهمال في قسمٍ، ولكنه عُوِّض بانتباه متنامٍ في قسم آخر.

صحيح، وبشكل عام، أنه يوجد في مساعينا جميعها نهاية لما يُقلق، وموضع راحة نطمح إليه. ونحن نقوم بإزالة ذلك الذي لا يلائمنا أو نكسب فوائده لصالحنا، عندما تتوقف أعمالنا. فقد قال بيروس (Pyrrhus)، عندما استولى على إيطاليا وصقلية، حينئذٍ، سأتمتع براحتي. هذه النهاية نفكر بها في جهودنا القومية والشخصية. وبالرغم من التجارب المعاكسة المتكررة، فإنها تُعتبر إذا نظر إليها جيداً بأنها ذروة السعادة أو الهناءة. غير أن الطبيعة بحكمةٍ وفي أكثر الأمور الجزئية، عملت على إعاقة مشروعنا، فلم توفِّر لنا في أي مكان نصل إليه تلك النعمة الرؤوية، نعمة الراحة المطلقة. فبلوغ غاية ليس إلّا بداية لمسعى جديد. واكتشاف أحد الفنون ليس إلّا إطالة للخيط الذي نستعمله في بحوث إضافية، وفي حين نأمل في التخلّص من متاهة، نُقاد إلى أكثر ممرّاتها تعقيداً.

ومن بين المهن التي يمكن تعدادها، والرامية إلى ممارسة الإبداع وصقل مواهب الرجال كانت هناك حِرف ووسائل الثروة، بما في ذلك جميع الوسائل المختلفة التي تُفيد في زيادة الصناعات، وفي تحسين الفنون الميكانيكية. غير أنه لا بدَّ من الاعتراف بأنه، مثل المواد التجارية قد تستمر في التراكم من دون حدّ، كذلك فإن الفنون المعمول بها لتحسينها قد تسمح بتحسينات دائمة. ولا وجود لمقدارٍ من الثروة، أو لدرجةٍ من المهارة يمكن أن تنقص ضرورات الحياة الإنسانية المعروفة. فالتحسين والكثرة ينشئان رغبات جديدة، عندما يوفران الوسائل، أو يطبّقان الطرق لإشباعها.

ونتيجة للفنون التجارية يزداد عدم المساواة في الثروة زيادة كبيرة، وتضطر أكثرية كل شعب، أو تُثار بقوة وبجشع لاستخدام

كل موهبة تملكها. فبعد تاريخ مؤلف منذ بضعة آلافٍ من السنين، وظِّف في الصناعة وفي التجارة، ما يزال سكان الصين العاملين بكدٍّ أكثر من أي شعبٍ على وجه الأرض.

جزء من تلك الملاحظة يمكن تطبيقه على الفنون الممتازة والأدبية. فهي أيضاً تشمل موادّ لا يمكن حصرها، وتنطلق من رغبات لا يمكن إشباعها. غير أن الاحترام الخاص بالجدارة الأدبية غير ثابت ومتقلِّب، وهو يتعلّق بالزيّ المتحوّل. فعندما تتراكم المنتوجات العلمية، فإن اكتساب المعرفة يشغل الوقت الذي يمكن تخصيصه للإبداع. ويتمّ الحصول على هدف العلم أو موضوعه بمواهب معتدلة أو دنيا، أما القائمة المتزايدة من المدّعين فتخفف من بريق القلّة البارزة. وعندما لا نقصد إلّا أن نتعلَّم ما علَّمه الآخرون، فمن المحتمل أن تكون معرفتنا أقل من معرفة معلّمينا. ويستمر تكرار الأسماء الكبرى بإعجاب، بعد أن نتوقف عن النظر في أسس مديحنا. ويُرفض مدَّعون جدد، لا لأنهم أقل من سابقيهم، وإنما لأنهم لم يتفوَّقوا عليهم، أو لأننا في الواقع سلَّمنا من دون بحث وفحص في جدارة الأوّلين، وعاجزون عن الحكم على أيّ منهما.

بعد إقامة المكتبات وتجهيزها، وبعد إشغال كل ممرّ من ممرّات العبقرية صرنا نسبةً لإعجابنا بما سبق أن أنجز، متحيّزين ضدّ محاولات إضافية. صرنا تلاميذ ومعجبين عوضاً عن منافسين، واستعضنا بمعرفة الكتب بدلاً من الروح الباحثة عن المعرفة أو الزاخرة بالحياة، التي كُتبت بها.

قد تكون الفنون التجارية والمريحة تابعت نجاحها، لكنها

صعدت على حساب حِرفٍ أخرى. هذه الرغبة في الربح تخنق روح الكمال. فالمنفعة تبرّد الخيال، وتصلّب القلب، وإن أخذ الوظائف بالاعتبار، بقدر ما تكون مربحة، وأرباحها مضمونة، يقود العبقرية والطموح نفسه إلى ورشة العمل. إنه بمعزلٍ عن تلك الاعتبارات، صار فصل المهن، في الوقت الذي بدا أنه يعِد بالتحسّن في المهارة، هو فعلياً سبب صيرورة إنتاج كل فنّ أكثر كمالاً مع تقدّم التجارة. ومع ذلك في نهايته وعند آثاره الأخيرة خدم بمقدار ما في تحطيم عصابات المجتمع، واستبدل مجرد أشكال الفن وقواعده ووضعها محلّ العبقرية، وأبعد الأفراد عن المشهد العام، مشهد الوظيفة، الذي فيه تنشغل بسعادة مشاعر القلب والعقل.

بالتمييز (Distinction) بين الحِرف، التي فصلت أعضاء المجتمع المصقول المثقّف، واحدهم عن الآخر، صار كل فردٍ حائزاً نوع موهبته، أو مهارته الخاصة، التي يجهلها الآخرون، وصار المجتمع مؤلفاً من أجزاء لا تشيع فيها الروح التي يجب أن تشيع في سلوك الأمم. فقد قال بيركليس: «ترى في الأشخاص أنفسهم انتباهاً للأمور الخاصة والعامة، ونرى في الرجال ذوي الحرف المنفصلة معرفةً كافية بما يخصّ المجتمع، لأننا وحدنا نعتبر الذين لا يهتمون بالدولة تافهين». قد يكون هذا المديح للأثينيين قد قُدِّم استناداً إلى المعرفة بإمكانية أن تتعرَّض البلاد لهجومٍ من أعدائها، أو أنه سيحصل بسرعة. وطبقاً لذلك حدث أن صارت أعمال الدولة والحرب تُدار بشكل سيىء في مدينة أثينا، عندما صارت هذه، وتطبيقات أخرى أهدافاً لحرفٍ منفصلة. كما بيّن تاريخ ذلك الشعب وبغزارة أن الرجال لم يعودوا مواطنين، ولا شعراء جيّدين

ولا خطباء منوّهين نسبةً لما كانوا يتميّزون به في تلك المهن، والحرف المنفصلة الأخرى.

الحيوانات الأقل اعتباراً منّا لها من الذكاء ما يكفيها للحصول على طعامها، ولإيجاد وسائل لمتعها المنفردة. غير أنه تُرك للإنسان أخذ المشورة للإقناع، وللاعتراض، ويثير في مجتمع أقرانه من البشر، ويفقد الشعور بمصلحته الشخصية أو بسلامته في غمرة حماسته في حالة الصداقة وفي حالة المعارضة.

عندما ينخرط الإنسان في أي واحدٍ من الانقسامات التي تفصل البشر عن تسميات القطر، والقبيلة، أو عبر أي نظام للبشر، متأثراً بالمصالح، يدرك موقعه الطبيعي، وتجد مشاعر القلب ومواهب الإدراك، ممارستها الطبيعية. فالحكمة، واليقظة، والإخلاص والثبات هي الخصال المطلوبة في مثل ذلك المشهد، والصفات التي يريد تحسينها.

في العصور البسيطة أو البربرية، وعندما كانت الأمم ضعيفة، كانت ظواهر إزعاج الأعداء، وحبّ البلاد، والحزب، أو العصبة هي ذاتها. وكان الشعب مجموعة من الأصدقاء، وبقية البشر بمنزلة أعدائه. وكان الموت والعبودية هما الشرّان المعروفان اللذان اهتموا بإبعادهما. وكان النصر والسيطرة هما الهدفان اللذان يشكّلان طموحهم. وبداعي الشعور بما يمكن أن يعانوا من الغزوات الخارجية، كان أحد أهداف كل مجتمع مزدهر، أن يزيد من قوته، وأن يوسِّع حدوده. وبقدر ما يتحقق هذا الهدف يزداد الأمن. والذين كانوا يملكون المناطق الداخلية البعيدة عن الحدود، لم يكونوا معتادين على المخاطر من الخارج. والذين كانوا على الأطراف

بعيدين عن مراكز الحكم لم يألفوا سماح ما يُدعى بالمصالح السياسية، والشعب صار هدفاً أبعد من أن يفهمه أيّ طرف منهما. فهم يتمتعون بحماية القوانين أو جيوش الحكم، ويفاخرون بروعته وقوته، لكن المشاعر المتوهّجة، ومشاعر المحبّة العامة، التي تمتزج في الدول الصغيرة مع حنان الوالد والوالدة والمحب، والصديق والرفيق فقدت جزءاً كبيراً من قوتها بمجرد توسيع أهدافهم.

إن أساليب حياة الأمم البدائية تتطلّب إصلاحاً. فالنزاعات الخارجية والشجارات المحليّة، هما أعمال عواطف متطرفة ومتفائلة. فالدولة ذات الهدوء الواسع لها نتائج سعيدة كثيرة. غير أنه إذا طبَّقت الأمم خطة التوسّع والهدوء إلى أن لا يعود أفرادها يفهمون روابط المجتمع المشتركة ولا تجمعهم محبة قضية بلادهم، فلا بدَّ من أن يخطئوا في الجانب الآخر، وبتركها النزر القليل مما يثير أرواح الرجال فإنها تجلب عصور الكسل إن لم يكن التآكل.

يمكن لأعضاء مجتمع بذلك الأسلوب أن يكونوا مثل سكّان مقاطعة محتلَّة، وأن يفقدوا الشعور بكل رابطة، سوى رابطة القرابة أو الجوار، وأن لا يكون لديهم شؤون عامة للتعاقد سوى ما يتعلّق بالروابط التجارية، نعني: روابط، وتعاقدات تظلّ فيها الأمانة والصداقة حاصلتين، لكن الروح القومية فيها، التي نفكّر فيها الآن لا يمكن ممارستها.

على كل حال نقول، إن ما ذكرناه عن إضعاف التوسّع لروابط الاتحاد السياسي، لا يمكن تطبيقه على الأمم الضيّقة أصلاً، التي لم تغيّر حدودها، ولا على تلك التي هي في حالتها البدائية، متوسّعة مثل مملكة عظيمة.

في الأراضي ذات الاتّساع الكبير، والخاضعة لحكم واحد، والحاصلة على الحرية، تكون الوحدة القومية في العصور البدائية غير كاملة أبداً. وكل منطقة تشكّل طرفاً منفصلاً، وأبناء الأسر المختلفة يكونون متعارضين، كقبائل وعشائر، ويندر أن يعملوا بتوافق ثابت. وصراعاتهم ونزاعاتهم غالباً ما تظهرهم كأنهم أمم كثيرة في حالة حرب أكثر من شعب وحَّدته روابط خطة سياسية. على أية حال، إنهم يملكون روحاً بالرغم من أنها تكون في حال انقساماتهم، وفي غمرة الفوضى، مؤذيةً فإن قوتها في مناسبات عديدة تعزّز قوة الدولة وتضاف إليها.

ومهما تكن المساحة القومية يظلّ النظام المدني، والحكم المنتظم مفيدين ولهما أهمية عظيمة. غير أن هذا لا يعني أن كل ترتيب وُضِعَ لبلوغ هذين الهدفين، والذي يمكنه أن يستعمل ويصقل أفضل صفات الرجال، هو من طبيعة تنتج آثاراً باقية، وأنه يضمن المحافظة على تلك الروح القومية التي نشأ منها.

نحن معذورون إذا كنا نرهب الإصلاحات السياسية التي يقوم بها رجال عاديون عندما نفكّر بأن الراحة، أو عدم الفعل هو هدفهم الكبير. وأنهم في معظم الأحيان يقيمون حكوماتهم لمنع الهياج والاهتياج، لا لمنع الظلم والخطأ. والحواجز والقيود التي يقيمونها ضد الأعمال الشرّيرة للبشر، تمنعهم من العمل على نحوٍ مطلق. وكان هؤلاء السياسيون يرون أن كل نزاع يقوم به شعب حرّ معناه الفوضى وخرق السلام القومي. فما أعظم حرائق القلب؟ وما أعظم التأخير في الأمور؟ وما أعظم الافتقار إلى السرّية والسرعة في إنجاز الأمور؟ وما أعظم العيوب في الخطة السياسية؟ ويتخيّل

العباقرة، أحياناً، أن عامة الشعب لا حقّ لها في التصرّف، أو التفكير. وهناك أمير عظيم أسعده أن يسخر من احتراس قضاة في بلاد حرّة وحصرهم أنفسهم أو تقيّدهم بالتفسير الدقيق للقانون[1].

نحن، وبسهولة نطلق آراءنا حول ما يمكن الرجال أن يفعلوه، انسجاماً مع النظام العام. فاهتياجات الشعب وتفلّت أفراده قذفت الشخصيات المَلَكية بالنفور والاشمئزاز. فحرية الأوروبيين في أن يجوبوا الشوارع والميادين تبدو للصيني مقدّمة مؤكَّدة للاضطراب وللفوضى. «هل يستطيع الرجال أن ينظروا إلى رئيسهم دون أن يرتجفوا؟ وهل يستطيعون أن يتحدثوا دون طقوس دقيقة ومكتوبة؟ وما هي الآمال في السلام إذا لم تغلق الشوارع في ساعة؟ وما أعظم الفوضى، إنْ سمح للناس أن يفعلوا ما يشاؤون، في أي شيء؟».

إنْ كانت الاحتراسات التي يتَّخدها البشر، واحدهم ضد الآخر، ضروريةً لمنع جرائمهم، ولا تنشأ من طموح فاسد، أو من غيرة وخشية حكامهم، فإن العمل نفسه يجب أن يُستحسن بوصفه أفضل علاج يوافق رذائل البشر. فيجب إبعاد الأفعى السامة، ويجب ربط النمر بالسلاسل. غير أنه إذا كانت السياسة القوية المطبقة بقصد الاستعباد لا لمنع الجرائم، تميل إلى إفساد عادات الشعب وأساليب حياته، وإخماد روح الأمم، وإذا كانت قساوتها تطبق للقضاء على هياجانات شعب حرّ، لا لمعالجة الفساد فيه، وإذا تمّت الموافقة على الأشكال على أنها مفيدة، لأنها تسكت صوت البشر، أو تُدان على أنها ضارة، لأنها تسمح لذلك الصوت بأن يُسمع، عندئذٍ قد نتوقّع أن يكون الكثير من التحسينات المفتخر بها

(1) Memoirs of Brandenburg.

والخاصة بالمجتمع المدني مجرّد وسائل لإخماد الروح السياسية، وسوف تحجز الفضائل الفاعلة كثيراً من فوضى البشر التي لا تهدأ.

إذا كان هدف السياسة المعلنة عند أي شعب والمتعلقة بجميع إصلاحاته الداخلية يتمثَّل في تأمين الشخص وما يملكه من دون أي اعتبار لشخصيته السياسية فقط، حينئذٍ نقول إن الدستور قد يكون حراً، لكن الأعضاء قد لا يستحقون الحرية التي حازوها، وغير ملائمين للحفاظ عليها. قد تكون نتائج مثل هذا الدستور إغراق الرجال جميعاً على اختلاف مرتباتهم في مساعٍ منفصلة تطلب اللذة أو المتعة التي قد ينالونها، استناداً إلى ذلكَ الافتراض من دون إزعاج أو يسعون وراء الربح الذي قد يحصلون عليه من دون أي اهتمام بالحكم.

فإذا كانت تلك هي غاية الصراعات السياسية، فإن التصميم عندما يُنفَّذ لتأمين ممتلكات الفرد، ووسائل عيشه، قد يضع حداً لممارسة تلك الفضائل المطلوبة لتنفيذه. فالإنسان الذي يدافع، وبالتنسيق مع زملائه، عن ممتلكاته أو عن شخصه، قد يجد في ذلك المجهود كرماً عظيماً وروحاً قوية. غير أن الذي يكون معزّزاً في مؤسسات سياسية يلجأ - لأنه آمن - إلى مجرّد التمتّع بالثروة، فإنه حُوِّل إلى مصدر فساد الفوائد التي سببتها فضائل الآخر. وفي بعض العصور، يستمد الأفراد حمايتهم بشكل رئيسي من قوّة الحزب الذي يتبعونه، ولكن في حالة الفساد يوهمون أنفسهم بأنهم يمكنهم أن يستمرّوا قادرين على أن يستمدوا من الشعب، تلك السلامة، التي في العصور السابقة كانوا يحصلون عليها من طريق احتراسهم وروحهم، ومن طريق علاقتهم الحميمة بأصدقائهم، وعبر ممارسة

كل موهبة تجعلهم محترمين، ومهابين، أو محبوبين. لذلك فإنه في فترة ما كانت الظروف تفيد في إثارة الروح، وفي الحفاظ على عادات الناس وأساليب حياتهم، وفي فترة أخرى، كانت الحكمة الكبيرة والحماسة لخير البشر من قبل قادتهم، هما المطلوبان للأغراض ذاتها.

يمكن التفكير بأن روما لم تمُت من السبات والكسل، ولم تهلك بالتخلّي عن حماستها السياسية في الداخل. فقد كان اضطرابها الاجتماعي والسياسي عنيفين وحادّين. ومع ذلك نقول، لو مورست فضائل كاتو وبروتوس في ساعة الاحتضار الأخيرة للجمهورية، لكان الحياد والانعزال الحذر عند أتيكوس (Atticus) قد وجدا أماناً في الفصل العاصف ذاته، وظل الجسم الشعبي الكبير مرتاحاً ومن دون إزعاج أمام تيّار العاصفة الذي حطّم مراتب الرجال العليا. ففي عقول الناس اختفى الشعور بالشأن العام، والعداوات الحزبية ذاتها أخمدت، فهم لا يقدرون على المشاركة إلّا في الاهتياج الذي يقوم به جنود فرقةٍ، أو محازبون لقائد. غير أن هذه الدولة سقطت في الظلمة لافتقارها لرجالٍ بارزين. وإذا بحثنا في الوقت الذي نتكلم عنه عن أسماء قليلة فقط مميَّزة في تاريخ البشر، فإننا لن نقع على فترة احتوت على قائمة أسماء أكثر مما احتوت قائمتها. غير أن تلك الأسماء صارت متميّزة في الصراع للسيطرة، لا في ممارسة الحقوق المتساوية، نعني: الشعب كان مفسداً، وكانت إمبراطورية بتلك العظمة بحاجةٍ إلى قائد.

أما أنظمة الحكم الديمقراطي بشكل عام فقد كانت في حالة خطر من الدمار بسبب صعود بعض الزمر، وبسبب روح التمرّد عند

الشعب، ولكونه مفسداً لم يعد ملائماً للمشاركة في إدارة الدولة. غير أنه، في مؤسسات أخرى، حيث يمكن الحصول على الحرية بنجاحٍ، نجد أنه، إذا كان الرجال فاسدين، فإن القوة القومية تبتعد عن إساءة استعمال ذلك الأمن ذاته الذي سبّبه الكمال الموجود في النظام العام.

إن توزيع السلطة والمراكز، وتطبيق القانون الذي به يوضع حدّ للتعدّيات والمضايقات المتبادلة، وبه تؤمن للأفراد ولممتلكاتهم، ومن دون الحاجة إلى أصدقاء أو عصابات سرّية ومن دون إلزام، كل ذلك يعود لعبقرية الأمة ويشرّفها، ولا يكون ممكناً تحقيقها بشكل كامل من دون جهود الفهم والكرامة، ومحاولات روح مصمّمة وقوية تزيّن حوليّات الشعب وسجلّات تاريخه، ولا تترك عصور المستقبل مجرّد موضوع إعجابٍ واستحسان. غير أننا إذا اعتبرنا أن الغاية تحققت، وأن البشر لم يعودوا ينشطون في التمتّع بالحرية انطلاقاً من المشاعر الليبرالية، أو بنظرة للحفاظ على العادات العامة، وإذا كان الأفراد يظنون أنفسهم آمنين من دون أي انتباه أو مجهود منهم، فإنه سيكتشف أن تلك الميزة المفتخر بها لا توفّر لهم سوى فرصة للتمتّع في وقت الفراغ بوسائل الراحة وبضروريات الحياة، أو نقول، بلغة كاتو: تعلمهم الافتخار بمنازلهم، وفيلّاتهم، وتماثيلهم وصورهم وتقييمها تقييماً أعلى مما تفعل الجمهورية. وقد يزداد ضجرهم من دستورهم الذي لم يتوقفوا عن الافتخار به في أحاديثهم، وأهملوه دائماً في سلوكهم.

ليست أخطار الحرية موضوع بحثنا الحالي، لكنها لا تكون أقوى من أي سبب أكثر من - على سبيل المثال - إهمالات الشعب الذي قوته مدينٌ لها كل دستور، كما كل مؤسسة، وكذلك المحافظة

عليهما. كما أن هذه النعمة ليست أقل أماناً من الرجال الذين يظنون أنهم في سلام، والذين هم لا يعتبرون الشعب إلا كما يبدو مجرد عددٍ من الخدمات المربحة، التي من أجلها قد يُضحّون تلك الحقوق ذاتها التي تجعلهم مواضيع إدارة أو اعتبار.

إذن لا بدَّ من أن يبدو من ميل تلك الأفكار أن الروح القومية عابرة استناداً إلى الإهمالات الطوعية وظواهر الفساد الموجودة في طبيعة البشر، لا من تقلّب مزاج لا يمكن شفاؤه. وقد تكون تلك الروح قد بقيت في تنفيذ مشاريع قليلة فحسب، ودخلت في اكتساب الأرض أو الثروة، وصارت مثل سلاح عديم النفع مصيره أن يُلقى جانباً بعد تحقيق غايته.

تنتهي المؤسسات العادية بتراخي القوة، وتكون غير فاعلة في المحافظة على الدول، لأنها تؤدّي بالبشر إلى الاعتماد على فنونهم، بدلاً من فضائلهم، وبدلاً من تحسين الطبيعة البشرية تؤدي إلى الوصول إلى وسائل الراحة أو الثراء[2].

المؤسسات التي تقوّي العقل، وتوحي بالشجاعة وتعزِّز السعادة القومية لا يمكن أن تجنح للخراب القومي. ألا يمكن، في غمرة الإعجاب بالفنون أن نجد محلاً لتلك المؤسسات؟ لندع رجال الدولة الموكل إليهم حكم الأمم أن يجيبوا أنفسهم. فهي مهمتهم أن يبيّنوا أنهم تسلّقوا مراكز البروز لمجرّد إظهار عاطفة منفعة، والأفضل لهم أن يتخلّوا عنها، أو أنهم يملكون القدرة على فهم سعادة الشعب، وأنهم راغبون في إدارة شؤونه.

---

(2) Adeo in quae laboramus sola crevimus Divitias luxuriamque Liv. Lib. Vii. C. 25

الجزء الرابع

متابعة الموضوع ذاته
(ظواهر تراخي الروح القوميّة)

غالباً ما يهمل الناس نفوسهم، عندما يكونون منشغلين في ما يعتبر أكثر المساعي أنانيةً، وفي تحسين ثرواتهم. وعندما يفكرون ببلادهم ينسون تقدير ذلك الذي يستحقّه أكثر من سواه، ومن انتباههم. لا شك في أن الأعداد، والثروات، والمصادر الأخرى للحرب مهمة جداً، لكن الأمم تتألّف من بشر، والأمة التي تتألّف من رجال منحطين وجبناء أمة ضعيفة، أما الأمة المؤلفة من رجالٍ أقوياء ذوي روح عامة وذوي إرادة وتصميم فهي أمة قوية. قد تقرّر مصادر الحرب، حيث تكون الفوائد الأخرى متكافئة، نتيجة نزاعٍ، لكن مصادر الحرب التي تكون في أيدٍ لا تستطيع توظيفها، لا نفعَ منها.

الفضيلة مكوِّن ضروري من مكوِّنات القوة القومية، والقدرة والفهم القوي لا يقلاّن أهمية للحفاظ على حظوظ الدول. والنظام التهذيبي يحسِّن كليهما، وكذلك التمارين التي يمارسها البشر. ونحن نزدري، أو نشفق على البشر وهم يعيشون في مؤسسات غير

ثابتة تضطر أن تبقي في ذات الشخص صفة عضو مجلس الشيوخ، ورجل الدولة والجندي. وقد اكتشفت الأمم التجارية أن أي واحدة من تلك الغايات كافية في شخص واحد، وأن غايات كل واحدة منها عندما تفصل تتحقّق بسهولة. فالأولى هي الظروف التي في ظلّها تتقدّم الأمم وتزدهر، والثانية هي تلك التي تتراخى فيها الروح، وتتآكل الأمة.

يمكننا لسبب وجيه أن نهنّئ أفراد نوعنا البشري لخلّوهم من حالة الفوضى والعنف البربريين، ودخولهم في حالة سلام أهلي وسياسة منظمة، وعندما وضعوا الخنجر في غمده وأبعدوا السلاح عن عداوات النزاعات الأهلية، وعندما صار سلاح نزاعاتهم متمثّلاً في أفكار الحكماء وفي لسان المتكلّم الفصيح. غير أننا لا نستطيع في ذات الوقت إلا أن نأسف لأنهم في سياق بحثهم عن الكمال، تخلّوا عن كل فرع إداري، وبدلاً من رجل الدولة والمحارب وظّفوا الكاتب والمحاسب.

وبتطبيق ذلك النظام إلى أقصى ما يمكن، صار الناس متعلّمين وقادرين على أن ينسخوا للقيصر أوامره العسكرية، وتنفيذ جزء من خططه أيضاً، لكن لا يوجد أحد يستطيع أن يعمل في المشاهد المختلفة التي لا بدَّ من أن يؤهِّل القائد نفسه للقيام بها، في الدولة وفي الميدان، وفي أوقات النظام أو الشغب، والانقسام أو الإجماع، فلا يوجد أحد ينفخ الحيوية في المجلس حين البحث في الشؤون الأهلية، أو عندما يُنبَّه وينذر بوجود هجوم من الخارج.

إن خطة الصين السياسية هي أكمل نموذج من الترتيب الذي استهدفته التحسينات المألوفة للحكم. وإن السكان في تلك

الإمبراطورية حازوا درجةً عالية من تلك الفنون التي عليها - كما تقول العقول العادية - تعتمد سعادة وعظمة الأمم. فقد كان في الدولة بمقدار لا يساويه مقدار، في تاريخ البشر، أعدادٌ من البشر، وكذلك مصادر خاصة بالحرب. لقد فعل الصينيون ما نُعجب به، ونزلوا بالشؤون القومية إلى مستوى أقلّ قدرة، وقسّموها إلى أقسام ووزّعوها في دوائر منفصلة، وألبسوا كل دعوى احتفالاتٍ رائعة وأشكالاً جليلة، وحيث لا يقدر الاحترام على إخماد الفوضى، يقوم رجال شرطة أقوياء، ومسلحون بكل نوع من أنواع العقاب الجسدي، بتحقيق ذلك الهدف. وكان السوط والنبّوت يستعملان ضد مراتب الرجال جميعها. فهم كانوا موظفين وكانوا مروَّعين من قِبَل كل حاكم أو قاضٍ. وكان الماندرين[1] (Mandarine) يُجلد لأنه أمر نشّالاً بأن يُضرب ضربات قليلة جداً أو كثيرة جداً.

وخُصِّصت لكل حرفة دائرة من دوائر الدولة، وكان على كل مرشّح لوظيفة أن يجتاز مرحلة تعليم منظّم، ومثل التخرّج من الجامعة عليه أن يحصل، بفاعليته أو بمركزه على الدرجة التي طمح إليها. ومحاكم الدولة، والحرب، والدخل، والأدب أيضاً كان يديرها متخرّجون في دراسات مختلفة، ومع أن التعلّم هو الطريق المؤدّي إلى الترقية، فإنه كان ينتهي بالقدرة على القراءة والكتابة. وكان الهدف العظيم للحكم متمثِّلاً في زيادة ثمار الأرض وفي استهلاكها. ومع كل تلك المصادر، وكل ذلك الإعداد التعليمي، الذي كان لتحويل تلك المصادر إلى استعمال لها، ظلَّت الدولة في الواقع ضعيفة، وقدَّمت المثل الذي سعينا لشرحه. ومن بين الملايين الذين خُصّصوا للمهنة العسكرية، لم نجد واحداً من أفرادها ملائماً

(1) الموظّف الكبير في الإمبراطورية الصينية القديمة (المترجم).

للوقوف والتصدّي لمخاطر بلاده، أو تشكيل دفاع ضدّ الغزوات المتكرّرة لعدوّ عُرِف بأنه عديم الفن وحقير.

يصعب تحديد الزمن الذي يمكن خلاله تعليق تآكل الدول عبر التثقّف بالفنون التي تعتمد عليها سعادتهم وقوتهم الحقيقيتان، وعبر تثقيف تلك المواهب الخاصة بالمجلس وبالميدان الموجود في المراتب العليا، التي يمكن فصلها من دون إحداث ضرر كبير، وذلك الحماس للبلاد الموجود في أفراد الشعب، وتلك الصفقة العسكرية التي مكّنتهم من المشاركة في الدفاع عن حقوقها.

قد يأتي الوقت الذي يضطر فيه كل مالكٍ أن يدافع عن ممتلكاته، وكل شعب حرّ أن يحافظ على استقلاله. وقد نتصوَّر أنه ضد مثل هذا الاحتمال المتطرّف، يكفي وجود جيش مؤلّف من فرق عسكرية مأجورة، لكن هذه الفرق هي العدو ذاته الذي اضطر الشعب أحياناً لقتاله. وقد تغترّ حالات متطرّفة من ذلك النوع، وفي أي حالة جزئية، نائية. غير أننا لا نستطيع، ونحن نفكر بالحظوظ العامة للبشر أن نتجنَّب طرحَ القضية، والإشارة إلى أمثلتها التي حصلت. فقد حدثت في كل حالةٍ سقط فيها المثقّفون ضحايا للبدائيين، وحيث أُخضع المقيم المسالم بالقوة العسكرية.

وإذا اعتمد شعب وحكمه على قلّةٍ جعلت إدارة الدولة أو الحرب مهنتها، سواء أكانت هذه القلّة مؤلفةً من أجانب أم محليين، وسواء أرسلوا فجأة، مثل الفرقة الرومانية من بريطانيا، وسواء تحوّلوا ضد موظفيهم مثل جيش قرطاجة، أم غُلبوا وبُعثروا بضربة من مصير، فإن جمهور شعب جبان وغير منظَّم ولا مهذَّب، لا بدَّ من أن يتلقّى عدواً خارجياً أو داخلياً، كما لو كان طاعوناً أو زلزالاً،

بذهول لا رجاء فيه وبرعب، وبأعداده لا يزيد إلا انتصارات الغازي وزيادة نهبه.

رجال الدولة وقادة الجيوش الذين اعتادوا مجرّد الإشراف على الأشكال، يربكهم تعليق القواعد المألوفة، ولأبسط الأسباب ييأسون من بلادهم. فهم غير مؤهلين إلّا للدوران في طريق محدَّد، وعندما يبعدون عن وظائفهم، يصيرون عاجزين عن العمل مع الناس. وهم لا يشتركون إلّا بالرسميّات ولا يفهمون منها إلّا ميلها، ويدركون أن هذا من أنماط الإجراءات، والدولة ذاتها أيضاً لم تعد موجودة. ويرون أن أعداد، وممتلكات ومصادر شعب عظيم لا تنفع إلّا في تشكيل مشهد فوضى لا رجاء فيها ومرعبة.

وفي الأزمنة البدائية، كان يُفهم من التسميات: مجتمع (Community)، وشعب (People) أو أمة (Nation) أنها أعداد الرجال، وعندما يظلّ أعضاء الدولة باقين، فإنها تعتبر باقية بكليّتها. فالسيكيثون، وهم هاربون من داريوس (Darius)، سخروا من محاولته الطفولية. كما أن أثينا بقيت بعد تدميرات زركسيس (Xerxes)، وروما بقيت بعد تدميرات الغول، في حالتها البدائية. وقد انعكست الحالة مع الدول المصقولة المثقّفة والتجارية. فصارت الأمة أرضاً ومحسنَّةً من مالكيها. فبتحكيم الممتلكات تزول الدولة، حتى لو بقي السيّد الحاكم.

وقد يكون محلّ الضعف والتخنّث اللذين تُتهم بهما الأمم المصقولة المثقفة أحياناً في العقل فحسب، فقوة الحيوانات وقوة الإنسان خاصة تعمد على مشاعره، ونوع العمل الذي أَلِفَه. فالطعام الصحي، والعمل الشديد، وقسم من كثيرين في كل أمة مصقولة

مثقّفة وتجارية يؤمِّن للشعب عدداً من الرجال الممنوحين قوةً جسدية، والممرسين والمعتادين علىٰ الصعوبات والعمل الشاق.

والعيش الجيّد الهانئ ووسائل الراحة الجيّدة، حتى هذين لم يوهنا الجسد. فقد اضطرت جيوش أوروبا للقيام بهذا الاختبار، عندما جُعِلَ صغار الأسر الغنية، الذين تربّوا على التخنّث، أو ترعرعوا بعناية لطيفة، يقاتلون المتوحّشين. وبمحاكاة فنونه تعلّموا، مثله أن يجولوا في الغابة، وفي كل فصل أن يعيشوا في الصحراء. وقد حفظوا درساً كلَّف الأمم المتمدّنة عصوراً لكي تنساه، وهو أن حظّ الإنسان لا ينقص ما دام ممتلكاً نفسه.

وعلى كل حال قد يعتبر أن عدداً قليلاً من الأمم الشهيرة في الزمن القديم، التي ولَّد مصيرها مقداراً كبيراً من التفكير حول تقلّبات الشؤون الإنسانية، تقدَّم تقدّماً كبيراً في تلك الفنون الموهنة التي ذكرناها، أو وضعت الترتيبات التي يمكن أن يُفترض أن الخطر المذكور قد نشأ منها. فاليونانيون خاصة في الزمن الذي تلقوا فيه النير المقدوني، لم يرتفعوا بالفنون التجارية إلى ذروة عالية كما هو المعروف عن الأمم الأوروبية المزدهرة والناجحة. فظلّوا مستبقين شكل جمهوريات مستقلّة، وسمح للشعب بصورة عامة بالاشتراك في الحكم. ولأنهم عجزوا عن استئجار جيوش اضطروا بحكم الضرورة أن يتحمّلوا قسطاً من الدفاع عن بلادهم. وبحروبهم التي لم تتوقَّف وظواهر الشغب المحلية اعتادوا على الخطر، وألفوا المواقف المنذرة بالخطر، ومع ذلك ظلّوا يعتبرون أفضل جنود وأفضل سياسيين في العالم المعروف. فالشاب كورش (Cyrus) وعد نفسه بإمبراطورية آسيا عبر مساعدتهم، وبعد سقوطه تمكّنت مجموعة من عشرة آلاف محرومة من قيادتها، من أن يعيقوا

ويصدّوا، عند تراجعهم كل القوة العسكرية للإمبراطورية الفارسية. والمنتصر الآسيوي لم يظنّ أنه مستعد لذلك الغزو، إلى أن شكَّل جيشاً من الجمهوريات اليونانية المخضعة.

وعلى كل حال، صحيح القول، إنه في عصر فيليب، كانت الروح العسكرية والسياسية لتلك الأمم قد ضعفت وفسدت بمقدار كبير، وعانت من عدد متنوّع من الاهتمامات والحرف، ومن الملذّات أيضاً، التي انهمك فيها أفرادها، وبلغوا حدّ الفصل بين الصفة المدنية والصفة العسكرية. وقد نقل إلينا بلوتارخ أن فوكيون (Phocion) بعد أن لاحظ أن قادة زمانه سلكوا مسالك مختلفة، وأن بعضهم مارس الشؤون المدنية وآخرين الشؤون العسكرية، قرَّر أن يقتدي بـ ثيميستوكليس، أرستيدس وبيركليس قادة عصر سابق، الذين كانوا جاهزين للقيام بما قام به أي فريق منهم.

ونحن نجد في خطب ديموستيني (Demosthenes) إشارة دائمة لحالة أسلوب الحياة تلك. نجده لا يكتفي بنصح الأثينيين وحضّهم على إعلان الحب، وإنما أن يسلّحوا أنفسهم لتنفيذ خططهم العسكرية الخاصة. وقد عرفنا بوجود نظام للعسكريين الذين كانوا ينتقلون بسهولة من خدمة دولة إلى خدمة دولة أخرى، وعندما كانوا يُهملون في وطنهم، يتحوّلون إلى مشاريع لحسابهم هم. وقد لا يكون وُجد محاربون في أي عصر سابق أفضل منهم، لكن هؤلاء المحاربين لم يكونوا مرتبطين بأي دولة. وكان السكان المقيمون في كل مدينة يعتبرون أنفسهم غير مؤهّلين للخدمة العسكرية. وقد يكون نظام الجيوش قد تحسّن، لكن قوة الأمم تآكلت. وعندما هزم فيليب أو أليكسندر (Alexander) الجيوش اليونانية التي كانت تتألف، وبشكل رئيسي من جنود مرتزقة، كان

غزوه للسكان الآخرين سهلاً، وعندما دعم هؤلاء السكان لاحقاً من قِبَل هؤلاء الجنود عند غزوهم الإمبراطورية الفارسية، بدا أنه لم يترك روحاً عسكرية وراءه، وبإبعاده العسكريين كان يتخذ احتراساً كافياً في حال غيابه، لضمان سيادته على ذلك الشعب المشاغب العنيد.

إن تقسيم الفنون والحرف في بعض الأمثلة يحسِّن ممارساتها ويعزّز غاياتها. فبفصلنا فنّي القمّاش والدبّاغ تحسَّن تموينا بالأحذية وبالقماش. غير أن فصل الفنون التي تكوّن المواطن ورجل الدولة، فنون السياسة والحرب، ما هو إلّا محاولة لتمزيق الشخصية الإنسانية، وتحطيم الفنون ذاتها التي تقصد تحسينها. وبذلك الفصل نحرم أفراد شعب حرّ مما هو ضروري لسلامتهم، أو نعدّ دفاعاً ضد الغزوات الخارجية يوفّر أملاً في اغتصاب العرش، ويهدِّد مؤسسة الحكم العسكري في الوطن.

قد نُفاجَأ وندهش بأن نجد بداية تعليمات عسكرية في روما تعود إلى زمنٍ ليس بأسبق من زمن حرب كمبريس (Cimbric). فقد ذكر لنا فاليريوس مكسيموس (Valerius Maximus) أن الجنود الرومان، زمانئذٍ، علَّموا المجالدين[2] (Gladiators) استعمال السيف، بينما خصوم بيروس وهنيبعل، كانوا، وفقاً لوصف ذلك الكاتب، بحاجة لتعلّم المبادئ الأولى لمهنتهم. فقد سبق لهم أن أُدهشوا بنظام مخيماتهم وكيفية اختيارها الغازي اليوناني وجعلوه يرهب ويحترم. وسبق لهم أن جعلوه يتوسَّل السلام، بواسطة

---

(2) المجالِد (Gladiator) هو الشخص، العبد أو الأسير الذي يُقاتل حتى الموت لإمتاع الناس في روما القديمة (المترجم).

انتصاراتهم، وقوتهم القومية وثباتهم في هزائم متكرّرة. غير أن الروماني المتغطرس عرف فائدة النظام والاتحاد، من دون أن ينحدر إلى فنون الجندي المرتزق الدنيا، وكانت لديه الشجاعة لمواجهة أعداء بلاده، من دون أن يمارس استعمال سلاحه خوفاً من الجَلْد. وكان يمكن إقناعه أن زمناً قد يأتي عندما تجعل الأمم المصقولة والذكية فنّ الحرب ماثلاً في أشكال تقنية قليلة، وأن المواطنين والجنود سيميّزون مثلما تُميّز النساء عن الرجال، وأن المواطن سيحوز ملكيةً لن يكون قادراً على الدفاع عنها، أو يتطلّب الدفاع عنها، وأن الجندي سيوظَّف ليحفظ للآخر ما كان قد تعلَّم بأن يرغبه، وما جعله وحده قادراً على الحصول عليه وأخذه، وباختصار نقول، مجموعة من الرجال لها مصلحة في المحافظة على المؤسسات المدنية من دون الحاجة إلى قوة للدفاع عنها، وأن الآخرين يملكون القوة من غير الميل إليها أو الاهتمام بها.

أفراد ذلك الشعب وصلوا، درجةً درجةً، إلى وضع قوتهم العسكرية في المنزلة ذاتها التي أشار إليها ذلك الوصف.

وقد أجرى ماريوس تغييراً رئيسياً في أسلوب تجنيد الجنود في روما. فقد عبّأ فرقه بالعاديين والفقراء الذين اعتمدوا على الراتب العسكري للعيش. وخلق قوةً قامت على النظام وحده وعلى مهارة المجالِد. وعلَّم فرقه العسكرية استخدام السيوف ضدّ دستور بلادهم، ووضع مثلاً لممارسةٍ ما تبنّاه وحسَّنه خلفاؤه.

ولم يقصد الرومان من جيوشهم إلّا التعدّي على حرية الأمم الأخرى والاحتفاظ بحريتهم. فقد نسوا أنهم بتجميعهم جنوداً مرتزقة، وبفرض أي قائد ليكون سيداً لجيش منظَّم، كانوا يتخلّون

عن حقوقهم السياسية ويسمحون لسيّد أن يرأس الدولة. وباختصار إن ذلك الشعب الذي تمثَّلت عاطفته الحاكمة في السلب والنهب والفتوح انتهى بأن يهلك بارتداد الماكنة التي صنعوها ضد البشر.

إذن لم تكن التحسينات المفتخر بها في العصر المصقول الثقافي مجردة من الخطر. فقد فتحت الباب واسعاً وممكناً للكارثة مثل الأبواب التي أغلقتها. وإذا كانوا قد بنوا أسواراً ومتاريس، فإنهم أضعفوا، الروح العسكرية لأمم بكاملها، وبوضعهم السيف حيث كرهوا المؤسسات المدنية، وأعدّوا للبشر حكم القوة.

ولحسن حظ الأمم الأوروبية أن التفاوت بين الجندي والمواطن العادي لم يكن عظيماً مثلما صار بين اليونانيين والرومان. ففي استعمال الأسلحة الحديثة، يُعلَّم المبتدئ ويمارس على مهل جميع ما يعرفه المحارب القديم المحنَّك. وإذا كان التعليم صعباً، فسيكون أولئك الذين لم تمنعهم مثل تلك الصعوبات سعداء، وكذلك الذين أمكنهم أن يكتشفوا الفنون التي تعزِّز وتحفظ، ولا تضعف بلادهم وتدمّرها.

الجزء الخامس

الهدر القومي

تكمن قوة الأمم في ثروتها، وعدد أفرادها وصفات شعبها. وإن تاريخ صراعها بدءاً من الحالة البدائية هو في معظمه تفصيل عن صراعات أفرادها والفنون التي مارسوها، لتقوية نفوسهم أو لتأمينها. فغزواتها وفتوحاتها، وشعبها، وتجارتهم، وترتيباتهم المدنية والعسكرية، ومهارتهم في صناعة الأسلحة، وفي طرق الهجوم والدفاع، وتوزيع الأعمال ذاته سواء في الشؤون الخاصة أم في الشؤون العامة، كل ذلك يميل إلى منح مكوّنات القوة القومية ومصادر الحرب أملاً بتوظيفه بفائدة وبأفضلية.

وإذا افترضنا أنه بتلك الفوائد والأفضلية تُحفظ شخصية الشعب وصفاته أو تُحسّن، فلا بدَّ من أن يتبع ذلك القول، إن ما يكتسب من المدنيّة، هو زيادة في القوة حقيقية، وأن دمار الأمم لا يمكن أن ينزع عن أفراد الأمة صعودها. وحيث تتوقّف الدول عن تقدّمها، أو تتآكل فعلياً، مهما كانت قابلةً للتقدم فإنها وصلت إلى حدٍّ لا تستطيع أن تتعدّاه، أو تكون عاجزةً عن الاستفادة القصوى من مصادرها ومزاياها الطبيعية، أو لنقص في الروح القومية وضعف في

الشخصية. واستناداً إلى هذا الافتراض، فإنها بدءاً من كونها ساكنة قد تشرع بالتراجع وبالانتكاس في عصور متعاقبة تصل إلى حالة من الضعف أكبر من ذلك الذي تخلّت عنه في بداية تقدّمها، ومع ظهور فنون أفضل وسلوك أعلى، تعرّض نفسها لأن تصير ضحيةً للبرابرة الذين صدّوهم في زمن الإنجاز أو في ذروة مجدها.

ومهما كانت ثروة الشعب الطبيعية، ومهما كانت حدود تحسين مخزونهم، فإنه لم توجد أمة بلغت تلك الحدود، أو كانت قادرةً على تأخير بلاياها وآثار سلوكها السيىء إلى أن يتمّ استهلاك ما تملكه من مواد وتنتهي خصوبة الأرض، أو تتناقص أعداد شعبها بشكل كبير. ونفس الأخطار السياسية، وضعف الأخلاق الذي يمنع الاستفادة الصحيحة من المصادر أيضاً، يوقفان زيادة هذه المصادر أو تحسّنها. ثروة الدولة في ثروة أعضائها. والدخل الفعلي للدولة يتألّف من حصة كل ثروة خاصة اعتادت المصلحة العامة أن تطلبها لأهداف قومية. وهذا الدخل لا يكون دائماً متناسباً مع ما يمكن أن يكون فائضاً أو وافراً في الممتلكات الخاصة، وإنما مع ما يظنه المالك، وما يوفّره من دون انتهاكٍ لأسلوب حياته، ومن دون توقيف مشاريع إنفاقه وتجارته. لذلك، يجب أن يكون واضحاً أن أي زيادة غير معتدلة في الإنفاق الخصوصي هي مقدّمة لضعف قومي، نعني: أن الحكم، حتى عندما يستهلك كل واحد من رعاياه أملاكاً أميرية، يمكن أن يضيق دخلها ويمكن شرح المفارقة بالأمثلة، وتتمثّل في أن الشعب يكون فقيراً، بينما أفراده أغنياء.

غالباً ما نخطئ بالخلط بين المال والثروة، فنعتقد أن الشعب لا يفتقر عبر هدر المال الذي يصرف في ما بينهم. والحقيقة هي

أن البشر لا يصيرون فقراء إلّا بطريقين، هما: توقّف أرباحهم، أو نفاد موادهم عبر الاستهلاك، وأن لا يعود المال المعروف في البلاد، والمتبادل، ولا المستهلك، أكثر من تبادل عصا الحساب(*) (Tally) أو قطعة نقدية بين عددٍ من الأيدي، مما ينقص ثروة الشركة أو الجماعة التي يحصل التداول فيها، غير أنه في حين يكون المال متداولاً في الوطن، فإن ضروريات الحياة التي هي المؤلِّف الحقيقي للثروة تكون في حالة استهلاك بطيء، والصناعة التي قد توظَّف لزيادة مخزون الشعب، قد تتوقَّف أو يُساء استعمالها.

الجيوش الكبيرة الباقية في الوطن أو في الخارج، من دون أي هدف قومي، تكون لشهور كثيرة بشكل لا لزوم له، عاملةً على تبذير مخازن الشعب، كما تتوقّف أيدٍ كثيرة عن العمل في الفنون التي منها تصنع أرباحه. والمشاريع غير الضرورية تضيع في المضاربات الكثيرة، والخسائر تبقى وتكون متناسبةً مع الرأسمال المستخدم في المشروع. فالهلفيتي (Helvettii)، لكي يغزوا منطقة الغول الرومانية، أحرقوا مساكنهم، وتخلّوا عن أدوات زراعتهم، وصرفوا في سنة واحدة ما وفّروه في سنين، وقد أخفق المشروع في تحقيق النجاح وتفكّكت الأمة.

وقد حاولت الدول أحياناً عبر الإمساك بقوة برصيدها، بدلاً من توظيف رأسمالها، أن تخُفي المخاطر التي تعرَّضت لها. فقد وجدت في الديون التي أقامتها مصدراً طارئاً شجّع مشاريعها. وبأسلوبها في وضع المبالغ المالية المنقولة تركت الرأسمال لأغراض التجارة

(*) عبارة عن عصا ذات أسنان أو أثلام تمثّل أعداداً تبيّن مقدار الدَّين أو المبالغ المدفوعة (المترجم).

في أيدي المواطن، في حين أنه كان يُصرف فعلياً من قِبَل الحكومة. وبهذه الوسائل والطرق تابعت تنفيذ المشاريع القومية الكبيرة من دون توقيف الصناعة الخاصة، وتركت للمستقبل التسديد الجزئي للديون التي حصلت بعقود أجورها مستقبلية. وإلى هذا الحدّ كان ما هو ملائم مقبولاً ومعقولاً، وبدا عادلاً. وهكذا، أُنزل الحمل المتزايد أيضاً، وإذا غرقت أمة في زمن ما في المستقبل، فإن كل وزير يأمل بأن تظلّ ذات اكتفاء ذاتي. غير أن المقياس لذلك السبب بكل فوائده هو خطر جداً، فهو في أيدي إدارة متهوّرة وطموحة لا تفكّر إلّا بالحالة الراهنة، وتتصوَّر أن تكون الدولة لا تُنهك، عندما يُفترض الرأسمال وتدفع الفائدة.

ويحدّثوننا عن أمةٍ نافست في فترة من الفترات أمجاد وعظمة العالم القديم، وأزاحت سيطرة سيّد كان مسلَّحاً ضدّها بقوى مملكة عظيمة، وحطَّمت النير الذي به اضطهدت، وفي قرنٍ من الزمان تمكّنت، بصناعتها وقوتها القومية من أن تنشئ قوّة جديدة ومنيعة ضربت ملوك أوروبا وحكامها بالخوف والقلق المترقّب، وحوَّلت شارات الفقر التي كانوا يبروزنها إلى علامات حربٍ وسيطرة. وقد تحققت تلك الغاية بالجهود العظيمة لروح أيقظها القمع والاضطهاد، والسعي الناجح للثروة القومية، وبالتوقّع السريع بمداخيل مستقبلية. غير أن هذه الدولة الرائعة، وبلغة الجزء السابق، لم تقتصر على الانشغال في الأعمال، بل صادرت إرث أجيالٍ كثيرة آتية.

وعلى كل حال فإن النفقات القومية الكبرى لا تتضمّن بالضرورة أي معاناة قومية. فما دام الدخل مطبقاً بنجاحٍ للحصول

على غايات ذات قيمة، فإن مكاسب كل مغامرة، تزيد على نفقاتها، والشعب لا بدَّ من أن يكون كاسباً، وموارده لا بدَّ من أن تتزايد. غير أن النفقات، سواء أبقيت في الوطن أم في الخارج، وسواء أكانت هدراً للدخل الحاضر أم توقّعاً لدخل المستقبل، فيجب اعتبارها من أسباب الدمار القومي، إن لم تجلب عائدات ملائمة وصحيحة.

القسم السادس

الفساد والعبودية السياسية

الجزء الأول

الفساد بصورة عامة

إذا كانت حظوظ الأمم وميلها للعظمة أو للدمار يقدَّران بمجرد إنشاء موازنة، استناداً إلى مبادئ الجزء الأخير بين مواد الربح ومواد الخسارة، فإن كل نقاش سياسي سيقوم على مقارنةٍ بين النفقات القومية والكسب القومي، وعلى مقارنة بين الأعداد التي تستهلك والأعداد التي تنتج أو تجمع وتكدّس ضروريات الحياة. فأرتال العاملين بجدّ وكدّ، وأرتال الكسالى تشمل مراتب الرجال جميعها. والدولة، وقد سمح لها بأن يكون لها الكثير من القضاة، والسياسيين، والمحاربين الذين لم يكونوا كافين للدفاع عنها وعن حكومتها، كان عليها في حالة خسارتها أن تضع كل اسم زائد على العدد المطلوب في القائمة المدنية أو القائمة العسكرية وجميع هؤلاء الرجال من ذوي المراتب المختلفة كان يتطلَّب، عبر حيازتهم الثروة، وعيشهم على مكاسب الآخرين، ودقة اختيارهم، صرفاً كبيراً للوقت وللعمل لتأمين استهلاكهم. وجميع الذين استُخدموا في صفّ أشخاص الرتب، وجميع الذين عملوا في مهن القانون، والفيزياء أو اللاهوت مع جميع العلماء الذين لم يرقّوا

أو يحسّنوا بأبحاثهم ممارسة بعد الحرف المربحة. فقيمة كل شخص حسابها في عمله، وقيمة عمله حسابها في ميلها لإحداث وسائل العيش وإكثارها. أما الفنون التي تكون لإنتاج التوافه فيجب حظرها، إلّا عندما يمكن تبادل إنتاجها مع أممٍ أجنبية، مقابل سلع يمكن استخدامها للحفاظ على الرجال النافعين للشعب.

تلكم هي القواعد التي بها يمكن أن يفحص البخيل حالة شؤونه أو شؤون بلاده، لكن مشاريع الفساد الكامل هي على الأقلّ غير عملية مثل مشاريع الفضيلة الكاملة. فالناس ليسوا بخلاء، على نحو مطلق، فهم لا يكتفون بمتعة الادّخار، فلا بدَّ من أن يعانوا لكي يتمتّعوا بثرواتهم، ولكي يتحمّلوا المشقات لكي يصيروا أثرياء. فالملكية بالمعنى العام المستعمل في الشؤون الإنسانية، موزَّعة توزيعاً غير متساوٍ، لذا علينا أن نتحمّل الأثرياء الذين يبدّدون، حتى يرتزق الفقراء. ونحن مضطرون للتساهل مع بعض مراتب الرجال، الذين لا يحتاجون للعمل لكي يمكن أن يكون هناك موضوع طموح، ومرتبة يطمح إليها العاملون بجدّ. ولسنا مجبرين فحسب بأن نقبل أعداداً يمكن حسبانهم في الاقتصاد الدقيق، ونضعهم في القوائم المدنية، والعسكرية والسياسية. غير أن كوننا رجالاً، ونفضّل وظيفتنا الطبيعية، وتحسينها، وسعادتها، على مجرّد وجودها، علينا أن نرغب في أن يُقبل ما أمكن من الأعضاء في كل مجتمع للمشاركة في دفاعه وحكمه.

والواقع هو أن الرجال وهم يمارسون في المجتمع وظائف مختلفة، أو وجهات نظر منفصلة، يحدثون توزيعاً واسعاً للقوة، ويصلون عبر نوع من الحظ إلى حالة من الانخراطات المدنية، تفضّلها الطبيعة الإنسانية أكثر مما يمكن الحكمة البشرية أن تبتدعه بهدوء.

في الوقت نفسه، إن كانت قوة الأمة متمثّلةً في رجالٍ يمكنها أن تعتمد عليهم ويكونون موحَّدين صدفةً أو بالحكمة للمحافظة عليها، ستكون الأخلاق مهمةً مثل الأعداد أو الثروة، ويجب اعتبار الفساد سبباً رئيسياً للانحطاط والدمار اليوميين.

ومن يدرك صفات الإنسان في حالة تفوّقه يمكنه بسهولة بذلك المعيار أن يميّز عيوبه أو مفاسده. فإذا كان الذكاء، والشجاعة والعقل والحبّ تؤلف كمال طبيعته فإن الإخفاق المهم في أي واحد منها لا بدَّ من أن ينحدر بشخصيته أو يحطّ بها.

لقد لاحظنا أن سعادة الفرد تكون في اختياره الصحيح لسلوكه، وأن هذا الاختيار سيؤدّي به إلى أن يخسر في مجتمعه، والشعور بالمصلحة الشخصية في تقديره لما يخصّ الكلّ سيؤدي إلى إخماد ظواهر قلقة تتعلق به كجزء.

إن الميل الطبيعي للإنسان نحو الإنسانية، ودفء طبعه، يمكن أن يرفع شخصيته إلى هذا المستوى السعيد، أما ارتفاعه بمقدار كبير فيعتمد على شكل مجتمعه. غير أنه من دون اعتبار تهمة الفساد يلائم نفسه مع تغييرات كبيرة في مؤسسات الحكم. الكرامة نفسها والروح القوية اللتان تجعلانه في الدول الديمقراطية متمسّكاً بمساواته، قد تؤدّيان به في ظلّ النظامين الأرستقراطي والملكي، إلى المحافظة على ظواهر التبعية القائمة. فقد يمارس تجاه الرتب المختلفة من الرجال المرتبط بهم في الدولة، قواعد الاحترام والإخلاص، ويمكنه عند اختياره أفعاله أن يطبّق مبدأ عدالة وشرف لا يمكن لاعتبارات السلامة والترقية أو الربح أن تمحوها.

ولا بدَّ من أن يبدو من تشكّياتنا المتعلقة بالفساد القومي، أن

كتلاً من الرجال يصابون أحياناً بضعفٍ وبائي في الرأس، أو عطل في القلب، فيصيرون غير ملائمين للمراكز التي يحتلّونها، ويهدّدون الدول التي يتألّفون منها، مهما كانت مزدهرة بالتآكل والدمار.

قد يحصل تغيّر في أساليب الحياة القومية نحو ما هو أسوأ من توقّف المشاهد التي فيها صُقِلتْ مواهب الرجال بسعادة، ومورست أو من تغيّر في الآراء السائدة المتعلّقة بمكوّنات الإجلال أو السعادة. وعندما يكون مجرّد الثروة، أو عطف البلاد الملكي هما اللذان يؤلّفان المرتبة، فإن العقل يكون مضلَّلاً من اعتبار الصفات التي عليه أن يعتمد عليها. فصفات الشهامة، والشجاعة وحبّ الناس يُضحّى بها ليحلّ الجشع والغرور محلّها، أو تطمس بشعور بالتبعية. فالفرد لا يعتبر مجتمعه إلّا بمقدار ما يخدم تقدّمه أو ربحه الشخصيين. فهو ينافس زملاءه من البشر، ويطبّق، وهو مدفوع بعواطف المنافسة، والخوف والحسد والأذى، قواعد حيوانٍ مصمّم على الحفاظ على وجود المنفصل، وممارسة نزواته أو شهواته على حساب جنسه البشري.

وعلى ذلك الأساس الفاسد، يصير الرجال جشعين سلّابين، مخادعين وعنيفين ومستعدّين للاعتداء على حقوق الآخرين، أو يصيرون متذلّلين كالعبيد، ومرتزقة، وسَفَلة ومستعدين أن يتخلّوا عن حقوقهم. فمواهب العقل، وطاقته وقوته التي يحوزها شخص من الطراز الأول، تجعله يزداد غرقاً في التعاسة وتزيد من شدّة الصراع العنيف لعواطفه القاسية، مما يؤدّي به إلى إنزال العذاب الذي ينهشه بأقرانه من المخلوقات. وبالنسبة إلى شخص من النوع الثاني، فإن الخيال والعقل نفسه لا يخدمان إلّا إبراز موضوعات

الخوف والرغبة الزائفة، وزيادة خيبات الأمل والمتعة العابرة. ونقول إنه سواء أكان الذي حثَّ الرجال الفاسدين هو اشتهاء ما عند غيرهم، أو كانوا مضلَّلين من الخوف من دون تحديد للجرائم التي كانوا مستعدين لاقترافها، يمكننا أن نؤكد، ومن دون خطأ، قول سقراط: «على كل سيّد أن يصلّي لكي لا يلتقي بمثل هذا العبد، وكل شخص لا يكون ملائماً للحرية، عليه أن يلاقي سيّداً رحيماً».

ومع أن الإنسان قد يُشترى كعبدٍ ممن يعرفون كيف يستفيدون من قدراته وعمله للحصول على الربح، ومع أنه عندما يكون خاضعاً لقيود وكوابح ملائمة قد تصير جيرته ملائمة أو مفيدة، فإنه غير ملائم للعمل على أساس ليبرالي أو انسجام مع زملائه من المخلوقات، فعقله لم يتعوَّد على الصداقة أو الثقة، وهو لا يكون راغباً في العمل للحفاظ على الآخرين، ولا يستحق أن يجازف أي إنسان آخر بسلامته من أجل سلامته.

في ذات الوقت نقول، إن شخصية البشر الفعلية في الحالات غير الملائمة والحالات الحسنة، هي مزيج. فالأمم ذات الوصف الأفضل لا يعود حفاظها على نفسها للتصرّف الجيّد لأعضائها فحسب، ولكن أيضاً للمؤسسات السياسية التي تكبح العنيفين عن ارتكاب الجرائم، وتلزم الجبناء أو الأنانيين أن يشاركوا في الدفاع العام أو الازدهار. وبفضل مثل هذه المؤسسات والاحتياطات الحكيمة التي يتخذها الحكم، تمكَّنت الأمم من الديمومة حتى الازدهار في ظلّ درجات مختلفة من الفساد، أو السلامة العامة.

وما فتئت أكثرية الشعب تعمل بقواعد الاستقامة، فإن مَثَل الصالحين وحتى حذر السيئين يخلقان مظهراً عاماً عن السلامة

والبراءة. وعندما يكون الرجال على علاقة من المحبة والثقة، وعندما لا ينزعون إلى الإساءة، فإن الحكم يكون رخواً وليّناً، ويعتبر كل شخص بريئاً إلى أن يقترف ذنباً. وكما أن الإنسان، في هذه الحالة لا يتحمّل مسؤولية الجرائم، كذلك لا يحتاج لأن يُخبر عن عقوبات فرضت على أشخاص ذوي طباع مختلفة. غير أنه، عندما تتغيّر أساليب حياة البشر وعاداتهم بمقدار كبير في اتجاه السوء على كل شخص أن يحترس، وعلى الحكم نفسه أن يتصرَّف استناداً إلى قواعد مناسبة من الخوف وعدم الثقة. والفرد الذي لم يعد ملائماً ليخوض في مطالبه الخاصة بالاعتبار الشخصي، والاستقلال أو الحرية، التي سيسيء استعمال كل واحد منها، يجب أن يُعلَّم بقوة خارجية، وبدوافع الخوف أن يشبه آثار البراءة، والواجب التي لم يكن ميّالاً إليها فيجب تحويله إلى السوط أو إلى المشنقة دعماً للحذر الذي تتطلّبه الدولة منه، استناداً للافتراض المفيد أنه لا يشعر بالدوافع التي توصي بممارسة الفضيلة.

وقد جعلت قواعد الدكتاتورية لحكم الفاسدين من البشر. وقد أطلقت في مناسبات لافتة، حتى أثناء الحكم الروماني، فوضعت الفأس الدموية في يد الدكتاتور وإرادته الاعتباطية لترويع المواطنين بجرائمه ولكبح الظواهر العَرَضية والمؤقتة للرذيلة. وقد تمَّ تأسيسها بصورة نهائية على أطلال الجمهورية نفسها، عندما ازداد فساد الشعب في الحريّة، أو عندما صار الحاكم متطرّفاً في فساده فلم يعد راضياً بالتخلّي عن سلطته الدكتاتورية. ويجيء هذا النوع من الحكم بشكل طبيعي في خاتمة فساد مستمرّ ومتزايد، ولكن قد يأتي مبكّراً جداً في بعض الحالات، ويقضي على ما تبقّى من فضائل تستحقّ مصيراً أفضل، بسبب حسد الطغاة المستعجلين

لزيادة سلطتهم. وهذه الطريقة في الحكم لا تخفق في مثل تلك الحالات بإدخال ذلك المقدار من الفساد الذي يُراد منه أن يكون علاجاً مقابل آثاره الخارجية. وعندما يكون الخوف هو الدافع الوحيد للواجب يصير كل فنٍ جشعاً سلّاباً أو وضيعاً. وعندما يُطبق هذا الدواء على جسم معافى، فإنه من دون شك سيخلق اختلالاً، هو مخصَّص لعلاجه.

ذلكم هو أسلوب الحكم الذي فيه يدفع المشتهون ما عند غيرهم والمتعجرفون زملاءهم من المواطنين بغية إشباع رغباتهم التعيسة. فهو أسلوب حكم يخضع فيه الجبان والعبد بحذر وتعقّل. وعندما يقسم النهّابون والجبناء البشر، فإن فضائل أنطونينيوس أو الفضائل الطروادية لا تقدر أن تفعل أكثر من أن تُعمل السوط والسيف بصراحةٍ وبشدّة، وتحاول بأملٍ في الجزاء والمكافأة، أو الخشية من العقاب، أن تجد علاجاً سريعاً ومؤقتاً للجرائم أو لبلاهات الرجال.

وهناك أمم أخرى قد تكون مفسدةً بمقدار كبير أو قليل وهذه فسادها في أساسها. وقد يمكن العدالة أن توجّه ذراع الحاكم المستبد، لكن اسم العدالة غالباً ما يستخدم للدلالة على نزوة السلطة الحاكمة. والمجتمع الإنساني القابل بمثل هذا التنوّع من الأشكال، يجد هنا أبسطها. فكدح وممتلكات الكثيرين يلطّفان من عواطف واحدٍ أو أقليّة. والفريقان اللذان يبقيان هما المضطهِد الذي يطلب، والمضطهَد الذي لا يجرأ على الرفض.

والأمم التي تستحق مصيراً أرحم، كما في حالة اليونانيين الذين تعرّضوا للغزو تكراراً، أنزلوا إلى تلك الحالة بالقوة

العسكرية، كما بلغوها في حالة نضج فسادهم الأخلاقي، عندما فعلوا مثل الرومان، بعد عودتهم من الغزو محمَّلين بما سلبوه من العالم، وأطلقوا العنان للتحزُّب، وصارت الجرائم تتجرّأ وتتكرّر مما صعّب تصويب الحكم العادي، وعندما لم يقدر أن ينتظر سيف العدالة تأخّر مع تحذيرات الإدارة المغلولة بالقوانين[1].

على أية حال إنه لأمر معروف في تاريخ البشر أن فساداً بهذا المقدار، أو بأي مقدار آخر، لا يخصّ أمماً في حالة انحدارها، أو هو نتيجة لازدهار رائع، وتقدّم كبير في فنون التجارة. فالحقيقة هي أن عصابات المجتمع، في المؤسسات الصغيرة والطفولية، تكون قوية بصورة عامة، وأفرادها مؤهلون بتكريسهم المتحمّس لقبيلتهم أو لعداوتهم الشديدة وحقدهم على الأعداء، وشجاعتهم القوية المبنية، وعليهم أن يزيدوا أو يحفظوا ثروة مجتمع نام. غير أن المتوحّش والبربري قدَّما في مسألة الأمم كلها بعض الأمثلة عن شخصية ضعيفة وجبانة[2]. فقد سقطت، وفي حالات كثيرة، في نوع من الفساد كنا قد وصفناه عندما بحثنا في الأمم البربرية. فقد جعلوا تجارتهم سلباً ونهباً، لا نوعاً من المصلحة العامة، أو من اعتبارٍ لإغناء مجتمعهم، وإنما جعلوها تتمثَّل في الحيازة، وفي تملّك ما تعلّموا أن يفضّلوه على روابط المحبّة أو الدم.

وفي حالة الفنون التجارية الدنيا، عرضت عواطف الثروة وعواطف السيطرة مشاهد قمع وعبوديّة أقامها فساد المتعجرف، والجبان، والمرتزق على الرغبة في إحداث ثروة أو الخوف من خسرانها، وعدم القدرة على تجاوزها. وفي مثل هذه الحالات،

(1) Sallust. Bell Catalinarium.

(2) الأمم البربرية في سيبريا (Siberia) بصورة عامة مستعبدة وجبانة.

تكون رذائل الرجال، غير المكبوحة من الأشكال التي لا تخشى الشرطة، مسموحاً لها بالعربدة، على نطاق واسع، وبإنتاج آثارها كلها. وطبقاً لذلك، تتوحَّد الأحزاب أو تتفرَّق استناداً إلى قواعد عصابات النّهابين، وتضحّي من أجل المنفعة بأرقّ عواطف الطبيعة الإنسانية. فالمصدر أو الأب يوفِّر للسوق العبيد، حتى من طريق بيع أولاده. ويتوقَّف الكوخ عن أن يكون ملجأ الضعفاء والغرباء الذين لا حول لهم ولا قوة. وحقوق الضيافة التي كانت مقدَّسة عند الأمم في حالتها البدائية تكون منتهكةً، مثل أي رابطة أخرى من روابط الإنسانية، من دون خوف أو ندامة[3].

والأمم التي، في الفترات اللاحقة من تاريخها، صارت مشهورة بحكمتها المدنية وعدالتها، تعرّضت في عصر سابق لنوبات من الاضطراب والفوضى ينطبق عليها جزئياً هذا الوصف. والسياسة ذاتها التي بلغت درجتها من السعادة القومية، ابتدعت كعلاجٍ للتعدّي المفرط وغير المكبوح. وبدأت إقامة النظام بدءاً من ارتكابِ الاغتصاب واقتراف الجرائم. وكان السخط والانتقام الخاص هما المبدآن اللذان منهما انطلقت الأمم للتخلّص من الطغاة لتحرير البشر والشرح الكامل لحقوقهم السياسية.

يمكن اعتبار نواقص وعيوب الحكم والقانون في بعض الحالات علامةَ براءة وفضيلة. غير أنه، عندما تتأسس السلطة، وعندما لا يريد الأقوياء أن يسمحوا بالانضباط، ويكون الضعفاء عاجزين عن الحصول على حماية، حينذاك تصير نواقص الحكم وعيوبه علامات فساد بَلْ أعظم فساد.

(3) أسفار شاردان (Chardin) في مينغريليا (Mingrelia) إلى بلاد فارس (Persia).

غالباً ما تكون أنظمة الحكم في الأمم البدائية ناقصة وذات عيوب، وذلك لأن الرجال لم يتعرّفوا بعد على الشرور التي حاولت الأمم المصقولة المثقفة تقويمها وإصلاحها، ولأنه عندما عكّرت الشرور الفظيعة جداً سلام المجتمع، لم يكونوا قادرين على تطبيق علاج. ففي تقدّم المدنية تحصل اختلالات جديدة في النظام. وتُطبَّق علاجات جديدة، لكن العلاج لا يُطبَّق دائماً لحظةَ ظهور الاختلال، والقوانين التي تعتبر عند اقتراف الجرائم، ليست علامة فساد حديث، وإنما هي من رغبةٍ في إيجاد علاجٍ يمكنه أن يشفي ويخلّص من شرٍّ متأصّلٍ أصاب الدولة من زمنٍ طويل.

ومهما يكن من أمرٍ فهناك ظواهر فسادٍ، وما يزال الرجال يملكون القوة والتصميم للقضاء عليها بأنفسهم. مثل ذلك هو العنف والهيجان اللذان يرافقان تصادم الأرواح العنيفة والجريئة المنشغلة في صراعات تسبق أحياناً ظهور تحسينات مدنية وتجارية. في مثل هذه الحالات غالباً ما كان الرجال يكتشفون علاجاً للشرور تمثّلت أسبابها الرئيسية في اندفاعهم وقوّتهم العقلية غير المرشدين. غير أننا نقول، إذا أضفنا إلى ميلٍ متهوّر ضعفاً في الروح، وأضفنا للإعجاب والرغبة بالثروة نفوراً من الخطر أو العمل، وكانت تلك المراتب من الرجال الذين شجاعتهم مطلوبة من الشعب، توقّفوا عن أن يكونوا شجعاناً وإذا لم يكن أعضاء المجتمع عامةً حائزين تلك الصفات الشخصية المطلوبة لملء مواقع المساواة، أو إذا كانت السمعة الحسنة التي تطلبها أشكال الدولة، فلا بدَّ من ينزلوا إلى غور، تمنعهم بلاهتهم أكثر من ميولهم الطائشة المتهوّرة عن الخروج منه.

الجزء الثاني

الرفاهية

لم نتفق بمقدار كبير على تطبيق مصطلح الرفاهية (Luxury)، أو على تلك الدرجة من معناه المتّسق مع الازدهار القومي أو مع الاستقامة الأخلاقية لطبيعتنا. فأحياناً، هو يوظَّف ليدلّ على أسلوب حياةٍ نعتقد أنه ضروري للمدنية، وأيضاً للسعادة. فهو يبدو في ضوء مديحنا للعصور المصقولة الثقافية، والأب للفنون، والداعم للتجارة، والخادم للعظمة السياسية والثروة الوافرة. واستناداً إلى نقدنا واستهجاننا لأساليب الحياة المنحطّة، هو مصدر الفساد، ونذير الانحطاط القومي والخراب. فهو يبعث على الإعجاب وهو يخضع للوم، ويعامل بوصفه تزيينيّاً ومفيداً، وهو محرَّم بوصفه رذيلة.

ومع كل ذلك التنوّع في أحكامنا، نحن بصورة عامة ثابتون على توظيف المصطلح للدلالة على ذلك الجهاز المعقَّد الذي ابتدعه البشر لجعل الحياة مريحة وملائمة. فنذكر البيانات، والأثاث، والمتاع، والثياب، والعديد من الوسائل المنزلية، وتحسين الطاولة، بصورة عامة نذكر كل ذلك الحشد من الأشياء التي هدفها إبهاج

المخيّلة أكثر من تجنّب الحاجات التي هي تزيينية أكثر منها نافعة.

لذلك نقول، عندما نميل إلى اعتبار التمتّع بتلك الأشياء في عداد الرذيلة، استناداً إلى التسمية بالترف (Luxury)، فإننا نكون إمّا ضمنياً مشيرين إلى العادات الشهوانية، والفسوق، والتبذير، والخيلاء والغطرسة، التي تترافق معها أحياناً، وحيازة ثروة كبيرة، أو يكون لدينا معرفة بمقدار معيّن مما هو ضروري للحياة الإنسانية، وتكون جميع المتع التي تتعدّاه متطرّفة ومرذولة. ونقيض ذلك يكون الحال، عندما يعتبر الترف مادةً للشهرة والسعادة القوميتين، وطريقةً تجعل المراتب المختلفة متساندة وذات نفع متبادل. فيتحوّل الفقراء إلى ممارسة الفنون، والأغنياء يكافئونهم. والشعب يكون رابحاً عبر ما يبدو هدراً لمخزونه ورأسماله، ويحصل على زيادة دائمة من الثروة نتيجة لتلك الشهوات المتنامية، والأذواق اللطيفة التي تبدو معرِّضةً الاستهلاك للخطر والدمار.

من المؤكّد أن علينا، إمّا أن نسمح مع الفنون التجارية بالتمتّع بتلك الثمار وبالإعجاب بها بمقدار ما، أو نفعل مثل السبارطيين فنمنع الفن نفسه عندما نخشى عواقبه أو نعتقد أن الراحة التي يوفّرها تتعدّى ما تتطلبه الطبيعة. غير أنه يمكننا أن نفكّر بوقف تقدّم الفنون في أي مرحلةٍ من مراحل تقدّمها ونظلّ نتعرّض لنقد واستهجان الترف من الذين لم يتقدّموا ويبلغوا ذلك الحدّ. فالبنّاء والنجّار استعملا الفأس والمنشار، لكن الكوخ السبارطي تحوّل إلى قصر في تراقيا. وإذا تحوّل النزاع حول معرفة ما هو ضروري فيزيائياً، لحفظ الحياة الإنسانية، بوصفها مقياس ما هو مشروع أخلاقياً، فإن كلّيات الفيزياء والأخلاق في الجامعات قد تختلف

حول الموضوع، وتترك كل فردٍ - كما هو الحال في الوقت الحاضر - أن يجد قاعدةً لنفسه. فالمفتي في قضايا الضمير والسلوك يعتبر ممارسة عمره وحالته مقياساً للبشر. فإذا أدان في عصر أو حالة استعمال مركبة كبيرة، فلن يقلّ نقده واستهجانه في عصر آخر، ولبس الأحذية للشخص ذاته الذي صرخ ضد المثل الأول لن يوفّر الثاني إذا لم يكن سبق أن كان مألوفاً قبل عصره. فالناقد المراقب الموجود في كوخ، والذي اعتاد النوم على القشّ، لا يرى أن يعود البشر إلى الغابات والكهوف طلباً لملاجئ. فهو يقبل بمعقولية ما صار مألوفاً وبنفعه، ولا يدرك تطرّفاً وفساداً إلّا في التحسينات الجديدة للجيل الصاعد.

ولم يتوقَّف رجال الدين في أوروبا عن الوعظ ضد كل زيّ جديد، وطريقة جديدة أو إبداع في اللباس. فقد كانت أساليب وأزياء الشباب موضع نقدٍ واستهجان عند الكبار، وكانت أساليب وأزياء العصر الأخير بدورها موضع سخرية عند الوقحين الثرثارين، وعند الصغار. وحول هذا الموضوع لا يوجد وصف أفضل من القول، إن كبار السن قابلون لأن يكونوا قساة، والصغار مرحون.

الحجة ضد الكثير من وسائل الراحة في الحياة والمستمدة من مجرد اعتبارها غير ضرورية، كانت ملائمةً للمتوحّشين الذين أُبعدوا عن الطبيقات الأولى للصناعة والتجارة، كما كانت ملائمةً للأخلاقي الذي يؤكِّد تفاهتها. فقد يقول: «أجدادنا سكنوا تحت الصخرة، وجمعوا طعامهم من الغابة، ولطَّفوا عطشهم من الينبوع، وليسوا ما نزعوه من الوحش الذي ذبحوه. فلماذا نتناول طعاماً غير حقيقي، أو نطلب من الأرض فواكه لم تتعوّد على تقديمها؟ فقوس

آبائنا كان يفوق بقوته أسلحتنا، والحيوان الوحشي بدأ يُطغى عليه في الغابات».

وهكذا قد يكون الأخلاقي قد وجد في مجريات كل عصر تلك المواضيع التي يصبّ عليها لومه، والتي بها هو ميّال لأن يهتم بعاداته، وإن ارتباكنا المتعلّق بالموضوع ليس إلّا جزءاً من ذلك الارتباك الذي نعاني منه في محاولة تعريف الصفات الأخلاقية من طريق الظروف الخارجية، التي قد تكون أو لا تكون رافقتها أغلاط في العقل وفي القلب. فقد يجد رجلٌ رذيلةً في لبس الكتّان لا يجدها آخر، إلّا إذا كان النسيج رقيقاً، وفي الوقت نفسه، صحَّ أن الشخص قد يلبس ما هو مصنوع خشناً أو رقيقاً، حتى يمكنه أن ينام في الحقول أو يقيم في قصر، ويدوس على سجّادة أو يغرس قدمه في الأرض بينما يكون العقل متذكّراً أو فاقداً قدرته وقوته، والعقل يكون فاقداً محبته للبشر، فمن العبث في ظلّ هذه الظروف أن نبحث عن ما يفرِّق الفضيلة عن الرذيلة، أو أن تتهم المواطن المصقول المثقَّف بالضعف الذي يتعلّق بأي جزء من متاعه، أو للبسه فرواً كان متوحش قد لبسه قبله. فليس يميّز الخيلاء أي نوعٍ من الثياب. فالهندي يظهرها في التناسق الرائع لريشه، ولأصدافه، والفرو الملوّن لحزبه، والوقت الذي يصرفه أمام المرآة في التزيّن. وفي مشاريع الغابات وفي المدينة نجد الحال نفسها: ففي أحدها يسعى بمظهرٍ مثقلٍ بالزينة، وأسنان مصبوغة اصطناعياً للحصول على ذلك الإعجاب، الذي في الآخر يغري بالعدّة المطليّة بالذهب والبزّات أو الأزياء المميّزة للدولة.

فغالباً ما تتجاوز الأمم المصقولة الثقافية في تقدّمها الأمم

البدائية بالاعتدال وبقساوة أو خشونة أساليب الحياة والعادات. وقد قال ثوسيديدس: «كان اليونانيون، ومنذ زمنٍ ليس ببعيد، يرصّعون شعرهم بلُمَعٍ صغيرة من المعدن، ويحملون السلاح في أوقات السلام». فالبساطة في اللباس عند ذلك الشعب صارت علامة التهذيب، وزيادة المواد التي يُغذّى بها الجسم أو يُكسى بها لم يكن لها أثر في أي شعب. فعلينا أن نبحث عن صفات الرجال المتمثّلة في صفات العقل، لا في نوع طعامهم، أو نوع مظهرهم التجميلي. فما نعتبره الآن تزيينات الوقورين الرزينين وما كان يُعرف بأنه وسيلة راحة حقيقية، كان حماقة الشبان أو ابتدع لإبهاج المخنّثين. وغالباً ما يكون الزيّ الجديد علامة الأحمق المغرور. غير أننا غالباً ما نغيّر أزياءنا من دون زيادة أعداد الحمقى المغرورين، أو زيادة مقادير البلاهة والحماقة.

فهل إدراكات المتزمّت القاسي في كل عصر لا أساس لها وغير معقولة؟ وهل علينا أن لا نخشى أي خطأ في مواد التحسين في وسائل مصادر العيش، أو في وسائل الراحة في الحياة؟ الواقع هو أن البشر معرَّضون دائماً لاقتراف الخطأ في هذا الصنف، ولا يكون ذلك لمجرد أنهم ألفوا درجات عالية من الراحة أو لنوع خاص من الطعام، وإنما بشكل عام عندما يفضّلون تلك الأشياء نسبةً لشخصيتهم، ونسبة لبلادهم، أو بالنسبة للبشر عموماً، فإنهم يرتكبون عملياً مثل ذلك الخطأ عندما تبهرهم التمييزات التافهة أو المنافع العبثية، وعندما يحجمون عن الإزعاجات الصغيرة ويصيرون عاجزين عن القيام بواجباتهم بقوة. وإن وظيفة الأخلاق المتعلّقة بهذا الموضوع ليست حصر البشر بأي نوعٍ خاص من المسكن، الطعام، أو الملبس، وإنما لمنعهم من اعتبار وسائل الراحة

هذه الأهداف الرئيسية للحياة الإنسانية. وإذا طرح علينا السؤال: أين يجب أن يتوقَّف السعي وراء وسائل الراحة التافهة لكي يمكن للإنسان أن يكرّس نفسه كلياً لمشاغل الحياة العليا؟ يمكننا الإجابة بالقول، إنه يجب أن يتوقَّف حيث هو. تلكم كانت القاعدة التي اتّبعت في إسبارطة: هدف القاعدة كان إبقاء القلب كلّه لمصلحة العامة، وجعل الناس ينغشلون في صقل وتثقيف طبيعتهم الخاصة، لا في جمع الثروة وتكديسها، وفي ظواهر الراحة الخارجية. ولم يكن يتوقع أن يترافق الفأس والمنشار مع فائدة سياسية أكبر من فائدة فأرة النجّار وإزميله. فعندما مشى كاتو في شوارع روما من دون رداء، ومن دون حذاء، فقد فعل ذلك ازدراءً بما كان زملاؤه المواطنون ميالين للإعجاب به، لا بأمل تفضيل نوع من الثياب، أو رذيلة في نوع آخر.

لذلك نقول، إن الترف بوصفه ميلاً وولعاً بالأشياء التافهة التي تبعث على الغرور والخيلاء، ومواد المتعة الباهظة الثمن، هو مدمِّر للشخصية الإنسانية، عندما يكون مجرّد استعمال لوسائل الراحة التي أحدثها العصر لا على التقدّم الذي حققته الفنون اليدوية، وعلى الدرجة التي بها توزَّعت ثروات البشر بشكل غير متساوٍ، وإنما على ميول البشر من نوع خاص نحو الرذيلة أو نحو الفضيلة.

على كل حال إن مقادير من الترف مختلفة تلائم مؤسسات مختلفة من الحكم. فتقدّم الفنون يفترض وجود توزيع غير متساوٍ للثروة، ووسائل الامتياز التي تأتي معها تفيد في جعل الفصل بين الرتب أكثر معقولية. وبمعزلٍ عن آثار الترف الأخلاقية، فإنه في ضوء هذا الوصف نرى أنه غير ملائم لشكل الحكم الديمقراطي

ومعادٍ له. وفي أي حالة من حالات المجتمع، لا يمكن القول به والسماح له بتلك الدرجة، إلّا إذا كان أعضاء المجتمع من ذوي الرتب غير المتساوية يؤلفون النظام العام عبر علاقات الرئيس والتابع الخانع الذليل. ويبدو وجود درجات عالية منه، وربما يكون وجودها لازماً، في أشكال الحكم الملكي والخليط، حيث يفيد بالإضافة إلى تشجيع الفنون والتجارة في إضفاء بريق على الشخصيات ذات السموّ الوراثي أو المؤسَّسي، التي لها مواقع مهمة في النظام السياسي. وحتى هنا نقول، إن مسألة ما إذا كان الترف يؤدي إلى إفساد أزمنة ذات تحسينٍ عالٍ ووفرة، فإننا سننظر فيها في الأجزاء الآتية.

الجزء الثالث

ظواهر فساد الروح القوميّة

غالباً ما يُجمع بين الترف والفساد، ويعتبران مترادفين بالمعنى أيضاً. ولكن لكي نتجنّب أي خلاف حول الكلمات ومعانيها، فإننا نفهم من الكلمة الأولى ذلك التراكم للثروة، وذلك التحسين في طرق التمتّع بها، التي هي أهداف الصناعة، أو ثمار الفنون اليدوية والتجارية، ومن الكلمة الثانية، نفهم وهناً حقيقياً، أو فساداً في الشخصية الإنسانية يصحب أي حالة من حالات تلك الفنون، ويمكن أن توجد في أي ظروف أو أحوال خارجية من أي نوع. ويبقى أن نبحث في ظواهر الفساد التي تطرأ على الأمم الثقافية المصقولة، التي حقّقت مقادير معينة من الترف، وحازت على فوائد معينة تفوّقت بها.

نحن لا نحتاج إلى أن نلجأ إلى إنشاء موازاة بين أساليب أمم بكاملها، وهي في حالات التطرّف في المدينة والبدائية، لكي نقنع بأن رذائل الرجال ليست متناسبةً مع ثرواتهم، أو أن عادات الجشع، أو الشهوانيّة ليست قائمة على أي مقدار من الثروة، أو هي تحدِّد نوع المتعة. فحيث تكون أوضاع الرجال مختلفة بداعي مواقعهم

الشخصية، كما يمكن أن تكون بداعي حالة التحسينات القومية، فإن العواطف ذاتها المتعلقة بالمنفعة، أو اللذّة، تسود في كل حالة. فهي تنشأ من المزاج، أو من إعجاب مكتسب بالمِلْكية، لا من أي أسلوب حياة خاص للأطراف، ولا من أي نوع خاص من المِلْكية شَغَل اهتمامهم ورغباتهم.

الاعتدال وضبط النفس شائعان في أوساط الذين ندعوهم طبقة عليا مثل شيوعهما في الطبقات الدنيا. ومهما ألحقنا صفة الاعتدال أو الرصانة بكون الطعام رخيصاً وسواه من وسائل الراحة التي اقتنع بها أي زمان، أو مرتبة من مراتب الرجال، فإن ما هو معروف بصورة جيّدة هو أن المواد الباهظة الثمن لا تشكّل بالضرورة فسوقاً أو انغماساً في اللذّات الحسية، ولا يكون التهتّك تحت السقف المصنوع من القشّ أقل منه تحت الشاهق العالي. فالبشر ألفوا الظروف المختلفة سواء بسواء، وتلقوا لذّات متساوية، وهم متساوون في انجذابهم للذات الحسية في القصر وفي الكهف. واكتسابهم في أيّ واحد منهما عادات عدم الاعتدال وعدم ضبط النفس أو الكسل يعتمد على إلغاء مساعٍ أخرى، وعلى نفور العقل من اهتمامات أخرى. وإذا أمكن إيقاظُ عواطف القلب والحبّ، والإعجاب، أو الغضب، فإن الأثاث الغالي في القصر ووسائل الراحة المنزلية في الكوخ، سوف يُهملان، وعندما يصير الرجال فإنهم سيرفضون الراحة، أو يقبلونها عندما يتعبون على سرير من حرير، أو على سرير من قش.

على كل حال لن نستنتج من هنا ما يفيد أن الترف مع كل ظروفه المصاحبة، التي قد تكون لصالحه، أو تشعه كنتائج، في

ترتيبات المجتمع المدني لا تأثير لها في عيوب العادات القومية. فإذا استمر ذلك الإرجاء عن الأخطار والمشاكل الذي يوفِّر وقتاً لممارسة الفنون التجارية أو ازداد في اتجاه إساءة استعمال الجهود القومية، وإذا لم يُدع الفرد ليتوحَّد مع بلاده، وتُرك ليلحق مصلحته الخاصة، حينذاك قد نجد تحوَّلاً مخنَّثاً، ومرتزقاً وشهوانياً فاسقاً، ولا يعود ذلك لأن المتع الحسية والأرباح ازداد إغراؤها، وإنما لأنه لم يُدعَ إلى الاهتمام بمواضيع أخرى، ولأنه شُجِّع على النظر في منافعه الشخصية واللحاق باهتماماته المنفصلة.

إذا كانت ظواهر التفاوت في الرتبة وفي الثروة، لا بدَّ منها للسعي وراء متعة الترف، تقدِّم أسساً غير صحيحة للتصدّر والتقدير، وإذا كان مجرد اعتبار الغنى أو الفقر يرفع بعض الرجال بحسب مفهومهم، ويحُطّ ببعضهم الآخر، وإذا كان أحدهم يفتخر بجرمه، وآخر يُغمّ وتوهن عزيمته، وإذا كل ذي مقام رفيع مثل الطاغية يظن أن الأمم وُجَدت له ويكون ميّالاً لاغتصاب حقوق البشر بالرغم من أنه بالمقارنة تكون الطبقة العليا هي الأقل فساداً، أو تبقى لها أفضل الصفات نتيجةً للتربية والتعليم وللشعور بالكرامة الشخصية، ومع ذلك يصير واحدهم مرتزقاً ومستعبداً، والآخر يصير ملوكياً ومتعجرفاً، وبغضّ النظر عن العدالة والاستحقاق يكون الجسم الاجتماعي كله فاسداً، وتسوء أساليب حياة المجتمع بشكل يتناسب مع توقّف أعضائه عن تطبيق مبادئ المساواة، والاستقلال، أو الحرية.

استناداً إلى هذه النظرة، واعتباراً لجدارات الرجال على نحوٍ تجريدي، يكون الانتقال من عادات الجمهورية إلى عادات النظام

الملكي من محبة المساواة إلى الشعور بالتبعيّة القائمة على المولد، والألقاب، والثروة، نوعاً من إفساد البشر. غير أن هذه الدرجة من الفساد تظلّ متَّسقةً مع سلامة وازدهار بعض الأمم، فهي تسمح بشجاعة قوية، بها يمكن حفظ حقوق الأفراد والممالك لمدة طويلة.

وفي ظلّ النظام الملكي، وعندما يكون في عنفوانه، تكون الثروة الكبيرة إحدى مميّزات رتب الرجال المختلفة، لكن توجد مكوِّنات أخرى، من دونها لا تعتبر الثروة أساساً للتصدّرية، التي غالباً ما تكون محتقرة ومبدَّدة. من أمثلتها نذكر المولد والألقاب، وشهرة الشجاعة، والصفات الملوكية، وسموّ العقل. وإذا افترضنا أن تلك التمييزات غير موجودة، ولا تُعرف النبالة إلّا عبر حاشية الأمير أو الملك السخيّة المترفة، التي لا يسببها إلا المال وحده، وعبر الإنفاق المسرف الذي يمكن أن تتحمّله الثروات الحديثة على أفضل وجه، حينذاك يمكن للترف أن يفسد النظام الملكي والدولة الجمهورية، ويولِّد انحلالاً مميتاً للأخلاق وأساليب الحياة، وفي ظلّه لا يبقى للرجال من جميع الحالات، وبالرغم من توقهم لاكتساب ثروة، أو لعرض ثروتهم، بقايا طموح حقيقي. حينئذٍ، لا يتمتعون بسموّ النبلاء، ولا بإخلاص الرعايا، فقد تحوَّلوا إلى خيلاء مخنَّثة وإلى ذلك الشعور بالنبالة الذي يضع قواعد الشجاعة الشخصية، وتحوّلوا إلى حقارة عبودية والإخلاص الذي يربط كل واحدٍ، وهو في موضعه، برئيسه المباشر، ويربط الكلّ بالعرش.

تتعرَّض الأمم، أكثر ما تتعرَّض للفساد من ذلك المكان، عندما تتقدَّم الفنون اليدوية، وقد تقدَّمت تقدّماً كبيراً، مواد لا حصر لها لتزيين الشخص، في أثاث منزله، وتسليته، أو عدّته، وعندما تكون

مثل تلك المواد، التي لا يستطيع إلّا الأثرياء أن يحصلوا عليها، موضعَ إعجاب، وعندما يُجعل الاعتبار، والتصدّرية والمرتبة تعتمد على الثروة.

في الحالة البدائية للفنون، وبالرغم من التوزّع غير المتساوي للثروة، لا يستطيع الأغنياء أن يجمعوا ويكدّسوا إلّا وسائل العيش البسيطة، فهم يقدرون على ملء مخازن القمح ويعدّون مربط الحيوان، والجواد أو سواه في الإسطبل أو في الحظيرة، ويحصدون من الحقول الواسعة، ويسوقون قطعانهم إلى مرعى واسع. ولكي يتمتّعوا سمّوهم كان عليهم أن يعيشوا معاً كجمهور، ولحماية ممتلكاتهم لا بدَّ من أن يكونوا محاطين بأصدقاء يناصرونهم في نزاعاتهم. واحترامهم وسلامتهم هما في أعدادهم التي تحافظ عليهما. وامتيازاتهم الشخصية مستمدة من حريتهم وسموّ عقلهم. وفي هذا الأسلوب من الحياة لا تخدم حيازة الثروة إلّا جعل المالك شهماً، وحامياً للأعداد، أو موضع الاحترام والمحبة الشعبيين. غير أنه عندما تحلّ محلّ المكوّنات الكبرى للثروة والسموّ الأخرق، والتحسينات، وعندما تحوّل منتوجات التربة إلى أجهزة ومعدّات ومجرّد تزيينات، وعندما لا يعود جمع الكثيرين ضرورياً للسلامة الشخصية، فإن السيّد قد يصير المستهلك الوحيد لمقاطعته، وقد ينسب استعمال كل موضوع لنفسه، ويمكنه أن يستخدم مواد الكرم لكي يُشبع الخيلاء الشخصية، أو الانشغال بخيال مريض ومخنَّث تعلَّم أن يعدِّد ويحسب زخارف الضعف أو الحماقة المتعلّقة بالأمور الضرورية للحياة.

قد نُقل إلينا أن المرزبان(*) (Satrap) الفارسي عندما رأى ملك إسبارطة في مكان مؤتمرهم جالساً على العشب مع جنوده، خجل من الإعدادات التي وضعها لراحة شخصه هو، فأمر بسحب الأشياء المصنوعة من الفرو وكذلك السجّاد، وشعر بضآلته، وتذكَّر أنه يتعامل مع رجل، ولا يتنافس مع موكب يمتّع بملابس فاخرة ومزيّنة، وذي فخامة.

عندما نكون قد ألفنا في وسط ظروف لم تحكم على فصائل أو مواهب الرجال، مظهر العلوّ الذي يستمده مالكو الثروة من حاشيتهم أو بطانتهم، فإننا نكون قابلين لفقدان كلِ حسّ بالامتياز ينشأ من الجدارة، أو من القدرات أيضاً. فنحن نحدِّد مركز زملائنا المواطنين بالشكل القادرين على صنعه، وبعماراتهم، وثيابهم، وعدّتهم وحاشيتهم وقافلة أتباعهم. فجميع هذه الظروف تشكّل جزءاً من تقديرنا لما هو ممتاز. وإذا عُرف السيد أنه ذو أبّهة في وسط ثروته، فإننا نتملّقه لمركزه، وننظر إليه بعقلٍ حسود، وتابع أو مغتمّ، وإلى ما يندر في حدّ ذاته، أن يناسب تسليَة الصغار، بالرغم من أنه عندما يُلْبس كشعار امتياز، فإنه يلهب طموح الذين ندعوهم العظماء، ويصدع الجمهور بالرهبة والاحترام.

فنحن نحكم على أممٍ بكاملها عبر إنتاج عدد قليل من الفنون اليدوية، ونظنّ أننا نتحدّث عن الرجال، في حين أننا نفاخر بمقاطعاتهم وأننا نتحدث عن الرجال في حين أننا نفاخر بمقاطعاتهم التي يملكونها، وثيابهم وقصورهم، فالمعاني التي نطبقها على الكلمات، عقم، نبيل، مرتبة عالية وحياة عالية، تبيّن

(*) حاكم ولاية فارسية قديمة (المترجم).

أننا في مثل هذه المناسبات، نقلنا فكرة الكمال من الشخصية إلى البطانة أو الحاشية، وأن الامتياز نفسه بحسب تقديرنا هو مهرجان أو موكب مزيَّن بنفقات عالية من قِبَل الكثير من العمال.

بما أن الثروة لا تنفع إلا بتوفير وسائل العيش، وشراء الملذّات الحيوانية، قد يبدو عند الذين يغفلون التحوّلات الدقيقة للخيال أن اشتهاء ما يملكه الآخرون وقابلية الرشوة ذاتها لا بدَّ من أن يترافقا مع مخاوفنا من الفاقة، أو مع شهيتنا للمتع الحسّية، وأنه عندما يتمّ إشباع الشهية، ويستبعد الخوف من الفاقة، فإن العقل لن يقلق موضوع الثروة، ومن أنها لن تكون الملذات التي تحدثها الثروة، ولا الخيار المتعلق بالأطعمة التي تملأ طاولة الأثرياء، اللذين يلهبان عواطف الذين يشتهون ما عند غيرهم، والمرتزقة. فما أسهل إشباع الطبيعة وإرضاءها في جميع متعها. فالمسألة مسألة رأي في البروز المرتبط بالثروة، وهي مسألة شعور بالحظّ من القدر المرتبط بالفقر، وهما المسألتان اللتان تعميانا عن كل فائدة، سوى فائدة الأغنياء، وتفقدنا الشعور بكل خزي سوى خزي الفقراء. ذلك هو الإدراك المقلق الذي يعدِّنا أحياناً للتخلّي عن كل واجب، والخضوع لكل إهانة، وارتكاب كل جريمة يمكن القيام بها بسلامة.

لم يكنِ أورنكزيب (Aurangzeb) مشهوراً بالرصانة والاعتدال في تناول الطعام والشراب، وفي سلوكه المخادع الذي يخفي طموحه المستهدف سلطة السيادة أكثر مما كان، حتى وهو على عرش إندوستن (Indostan). ومع بساطته في طعامه، وتقشّفه وقساوته فيه، وفي ملذّات أخرى، فإنه ظلّ يعيش حياة

ناسك، ويملأ وقته بتطبيقات مؤلمة لشؤون إمبراطورية عظيمة[1]. وتخلّى عن مركزه الذي لو كان هدفه هو اللذّة، لكان أغرق فيها شهوانيته، من دون تحفظ. ومضى إلى مشهد قلقٍ وهمّ، واستهدف ذروة العظمة الإنسانية، في حيازة الثروة الإمبراطورية، لا لإشباع الشهوات الحيوانية، أو التمتّع بالطمأنينة وراحة البال. وانطلاقاً من ترفّعه عن اللذة الحسّية، والمشاعر الطبيعية، خلع والده عن العرش، وقتل أشقاءه، لكي يركب عربةً ملبّسة بأغطية من الماس واللؤلؤ، ولكي تشكّل أفياله وجِماله وخيوله في المسيرة، خطّاً يمتد لفراسخ(*) (leagues) عديدة. ولكي يتمكّن من عرض عدةٍ برّاقة في عين الشمس، وتكون العربة محمَّلةً بكنوزٍ معروضة ليراها جمهور ذليل ومعجب، يضع أفراده جباههم على الأرض أمام تلك الجلالة المخيفة، ويكونون مسحوقين بحسّ عظمته وبوضاعتهم.

كما تحضّ تلك الأهداف على الرغبة من السيادة وتثير الطامحين لاستهداف للسيطرة على أقرانهم من المخلوقات، فإنها للعاديين من البشر بالشعور بالعجز والحقارة يجعلهم يعانون من الإهانة، والصيرورة مملوكين لأشخاص يعتبرونهم أعلى منهم مرتبةً وطبيعةً. لذا، بدا أن أغلال العبودية الدائمة قد وضعت بإحكام في المشرق بمقدارٍ لا يقلّ عن مظاهر المواكب، التي كانت ترافق الحاصلين على السلطة عن الخوف من السيف، ومن ظواهر الرعب الخاصة بالإعدام العسكري. في الغرب كما في الشرق كنا راغبين في الانحناء للعربة البهيّة، والوقوف على مسافة من أبّهة المنطقة

---

(1) Gemelli Careri.

(*) الفرسخ (league) قياس للطول يتراوح بين 2,4 و4,6 من الميل. والميل يساوي 8/5 كيلومتراً (أي 1600 متر) (المترجم).

الأميرية. وكانت تروّعنا ظواهر العبوس، أو نفرح بابتسامات الذين يفضَلون الثروات وظواهر الإجلال، ويكرهون الفقر والإهمال. ونحن أيضاً قد نراقب ظواهر الإجلال للروح الإنسانية من إعجابٍ بالموكب الذي يرافق الثروة. وموكب الأفيال المجهّزة بالذهب قد تحوّل بما يبهره إلى عبيد الأفراد، الذين يستمدون فسادهم وضعفهم من آثار فنونهم ومبتدعاتهم، ومن الذين ورثوا من أجدادهم، وأضعفهم مزاجهم الطبيعي، وظواهر الجاذبية والسحر لترتبهم ومناخهم.

لذلك يبدو أنه، بالرغم من أن مجرّد استعمال المواد التي تؤلف الترف يمكن تمييزه عن الرذيلة الفعلية، فإن الأمم في ظلّ حاليةٍ عاليةٍ للفنون التجارية، هي معرَّضة للفساد بسماحهم للثروة غير المدعومة بسموّ شخصي وفضيلة شخصية بوصفهما الأساس العظيم للتمييز، وبتحويل انتباههم للمنفعة بوصفها الطريق إلى الاعتبار والتبجيل.

بهذا الأثر، إن الترف قد يفيد في إفساد الدول الديمقراطية، عبر إدخاله نوعاً من التبعية الملكية، من دون حسّ بالمولد العالي وبظواهر التبجيل الوراثية التي تثبِّت حدود المرتبة وتعيّنها، والتي تعلِّم البشر أن يتصرّفوا في مواقعهم بقوةٍ وبأدبٍ، وقد يثبت حصول الفساد السياسي حتى في أنظمة الحكم الملكي عبر جعل الاحترام للثروة وحدها، وبالتعتيم على بريق الصفات الشخصية، أو الامتيازات الأسرية، بإصابة جميع مراتب الرجال بالفساد كالقابلية للرشوة، والعبودية، والجبن.

الجزء الرابع

متابعة الموضوع ذاته

(ظواهر فساد الروح القوميّة)

إن زيادة الاعتبار الذي يبديه الناس في مجال تقدّم الفنون التجارية، لدرس أرباحهم أو الدقّة التي بها يحسّنون ملذاتهم، وحتى الصناعة ذاتها، أو عادة التطبيق على وظيفة مملّة، لا مكسب للإجلال فيها، كل ذلك يمكن اعتباره دلالات على العناية المتنامية بالمصلحة، أو بالتخنّث المرتبط بمتع الراحة ووسائلها. وكل فن يعقب، وبه يُعلَّم الفرد أن يحسِّن من حظّه هو، وفي الواقع إضافة إلى انشغالاته الخاصة، وهواية جديدة لعقله من الشعب.

على كل حال، إن الفساد لا ينشأ من إساءة استعمال الفنون التجارية وحدها، فهو يتطلَّب عوناً من الوضع السياسي، وهو لا ينشأ من الأشياء التي تشغل الروح القذرة والمرتزقة، من دون عونٍ من الظروف التي تمكِّن الرجال من إطلاق العنان لأي ميل حقير اكتسبوه. فالعناية الإلهية لاءمت البشر ليقوموا بالأعمال وهم مجبرون أحياناً على القيام بها، وفي غمرة مثل هذه الأعمال يكتسبون فضائلهم أو يحافظون عليها. فعادات العقل القوي تتشكل

عبر العراك مع الصعوبات، لا بالتمتع براحة في موقع آمن. والقدرة على التمييز والحكمة هما من ثمار الخبرة، وليسا من دروس التقاعد ووقت الفراغ، والحماسة والكرم صفتان لعقل يقظ ونشيط في إدارة المشاهد التي تشغل القلب، لا مواهب تفكير أو معرفة. وبالرغم من ذلك فإن تقطّع الجهود القومية والسياسية، يخطئ أحياناً المصلحة العامة، ولا يوجد خطأ أكثر من ذلك يدعم ويعزّز الرذائل، أو يتملّق ضعف الرجال الضعفاء والمهتمين.

وإذا شاعت الفنون المألوفة للسياسة، أو اللامبالاة بمواضيع ذات طبيعة عامة، ووضعت نهاية في ظلّ أي دستور حرّ للنزاعات والخصومات الحزبية، وقُضي على فرجة الشقاق التي ترافق ممارسة الحرية، يمكننا أن نتكهّن بفساد يحلّ بأساليب الحياة القومية وعاداتها، وبإهمالٍ للروح القومية. لقد يصبح الأوان مناسباً عندما لا يعود الانخراط المتبقّي عند الشعب، والمنفعة الخاصة، واللذّة الحيوانية، هي المواضيع السائدة للاهتمام، وعندما يتحرَّر الرجال من ضغط المناسبات الكبرى، ويوجّهون انتباههم للأمور التافهة، ويطبقون ما أسعدهم تسميته الحساسية (Sensibility) والرقّة (Delicacy) على موضوع الراحة أو الإزعاج، بقدر ما يسمح الضعف والحماقة الواقعيين، ويعودون الى المحبّة لتعزيز المطالب الزعومة، وجمع ظواهر القلق الخاصة بخيالٍ مريض وعقل ضعيف.

في مثل تلك الحالة يتملّق البشر بصورة عامة بغباوتهم وبالإضفاء عليها اسم التهذيب (Politness). فقد كانوا مقتنعين أن الحماسة المشهورة، والكرم والجَلد أو ثبات العصور السابقة بلغت حدّ الجنون المؤقّت، أو كانت نتائج لا مهرب منها للرجال

الذين لم يملكوا وسائل للتمتع براحتهم، أو بملذاتهم. فهم يهنئون نفوسهم لأنهم تخلّصوا من العاصفة التي تطلّبت ممارسة مثل تلك الفضائل القاسية، وبتلك الخيلاء التي ترافق النوع الإنساني في أحقر حالاتهم نراهم يفخرون بمشهد تظاهر، وبوهنٍ أو ببلاهة، بوصفها مقياس السعادة الإنسانية، وبوصفها تجهِّز أفضل تمرين للطبيعة القومية.

لا عَرَض من العوارض يهدِّد بالخطر لعصر معرض للانحلال والتفسّخ، وصيرورة عقول الناس مرتبكة في إدراك الجدارة، مثل صيرورة الروح ضعيفة السلوك، والقلب مضلَّلٌ في اختيار أهدافه. فالاهتمام بالثروة، من المفترض أن يؤلف الحكمة، والخروج من الحياة العامة، وعدم المبالاة بالبشر ينال استحسان الاعتدال والفضيلة.

فالثبات العظيم وسموّ العقل لم يوظَّفا دائماً في الحصول على غايات ذات قيمة، لكنهما كانا دائماً محترمين، وكانا دائماً لازمين عندما نعمل لخير البشر في أي موقع من مواقع الحياة الشاقّة. لذلك، عندما نلوم إساءة تطبيقها، علينا أن نحاذر التقليل من أهميتهما. فالرجال ذوو الأخلاق القاسية الجامعة المانعة لم يمارسوا دائماً هذا الحذر، كما لم يكونوا واعين وعياً مستحقاً لظواهر الفساد التي يمدحونها بالهجاء الذي يوظفونه ضد ما يكون طامحاً وبارزاً في صفات الروح الإنسانية.

ومن الممكن أن يكون حصل توقّع يفيد أنه في زمن الحطّ من قدر المواهب، وزمن اليأس، قد نجت مواهب ديموستيني وتللي (Tully)، وحتى الشهامة غير المنضبطة للمقدوني، أو المغامرة

الجريئة التي قام بها قائد قرطاجي من قسوة الهجّاء[1] الذي عنده تصويبات، والذي يحوز فنون الخطابة، وبدرجة عالية.

I demens et saevas curre per Alpes, Ut pueris placeas, et declamation of fias(*)

هو جزء من النقد أو الاستهجان الليبرالي قذف به ذلك الشاعر على شخص وعمل قائد، تمكن بشجاعته وسلوكه، عبر الخدمة التي أشار إليها الهجّاء من إنقاذ بلاده من الدّمار الذي حلَّ بها، في نهاية المطاف.

الأبطال متشابهون، تلكم هي الفكرة المتَّفق عليها

بدءاً من مجنون مقدونيا إلى السويد(**).

هذان بيتان من الشعر، حاول، بهما، شاعر آخر، أن ينقص من قدر اسم لا يرتفع إلى مستواه إلّا القليل من قرائه.

وإنْ كان لا بدَّ من أن يخطئ الرجال فلديهم خيارات في الخطأ، وفي مجال الفضائل فالطموح ومحبّة البروز الشخصي، والرغبة في الشهرة، بالرغم من أنها تؤدّي أحياناً إلى ارتكاب الجرائم، هي، دائماً تدخل الرجال في مساعٍ لأهدافٍ تتطلَّب أن تدعمها صفات عظيمة للروح الإنسانية. وإذا كان البروز أو السموّ هو الهدف الرئيسي للمسعى، فهناك احتمال على الأقل بأن تُدرس تلك الصفات التي بها يرقى العقل بشكل حقيقي. غير أنه عندما

---

(1) Juvenal's tenth satire.

(*) شعر باللغة الإنجليزية (المترجم).

(**) شعر باللغة الإنجليزية (المترجم).

يتوقَّف الإنذار بالخطر العام، ويمتدح احتقار المجد كمادة من مواد الحكمة، فإن العادات القذرة، والميول للارتزاقية، التي يتعرَّض لها أعضاء دولة مصقولة مثقَّفة أو تجارية في ظلّ لا مبالاةٍ عامة بالأهداف القومية، لا بدَّ لها من أن تبرهن حالاً على أنها أكثر قمعٍ فاعلٍ لكل شعور ليبرالي، والمناقض القاتل للمبادئ التي منها تستمد المجتمعات قوتها وآمالها في البقاء.

إنها لنبالة وبروز أن يحوز الإنسان السعادة والاستقلال، في حالة تقاعده، أو في الحياة العامة. وما يميّز السعداء يتمثَّل في أنهم يبلون بلاءً حسناً، في كل حالة، سواء أكانت في البلاط الملكي، أم في القرية، وفي مجلس الشيوخ أم في العزلة الخاصة. غير أنهم إذا أحبّوا أي منزلة اجتماعية، فمردّ ذلك إلى أنها تكون مفيدةً، وبمقدار كبير. لذلك، فإن اعتبارنا مجرد التقاعد علامة اعتدال وفضيلة هو إمّا بقيّة من ذلك النظام الذي فيه كان الرهبان والنسّاك في العصور السابقة يطوَّبون أي يُضمون إلى طائفة القدّيسين، أو هو صادر عن عادة من التفكير تبدو محفوفةً ومملوءةً بالفساد الأخلاقي، أو صادر عن اعتبار الحياة العامة مشهداً لإشباع الخيلاء، والجشع والطموح، لا كمصدر يوفِّر أفضل الفرص للاشتغال العادل والسعيد لكلّ من العقل والقلب.

المنافسة والرغبة في السلطة ليستا إلّا دافعين مؤسفين للسلوك العام. غير أنه إذا كانا في أي حالة، الدافعين الرئيسين لدفع الرجال إلى المشاركة في خدمة بلادهم، فإن أي إنقاص من شيوعهما أو قوتهما يمثِّل إفساداً حقيقياً لأساليب الحياة القومية وعاداتها، ويكون للاعتدال الظاهري الذي تدّعيه مراتب الرجال العليا، أثرٌ مميت في الدولة. فالحب النزيه لشعب مبدأ، من دونه لا تقوم بعض

دساتير الحكم. غير أننا عندما نفكّر بندرة ظهوره كعاطفة مسيطرة، فإننا لا نعزو ازدهار الأمم وبقاءها في كل حالة لتأثيره.

قد يكون كافياً في ظلّ واحدٍ من أشكال الحكم، أن يكون الرجال مغرمين باستقلالهم، وأنه عليهم أن يكونوا جاهزين لمعارضة اغتصاب العرش، ورفض الإهانات الشخصية. وفي ظلّ شكل آخر من أشكال الحكم يكفي أن يكونوا متمسّكين برتبتهم، وبامتيازاتهم، وعوضاً عن الحماسة للشعب، يمارسون غيرة محترسة على الحقوق التي تعود إليهم. وعندما تحتفظ أعداد معينة من الرجال بدرجة معينة من السموّ والثبات، فسيكونون مؤهّلين للتدقيق بأخطائهم العديدة، ويكونون قادرين على التصّرف في الأوضاع المختلفة التي أعدّتها الدساتير المختلفة لأنظمة الحكم، وأعضائها. غير أنه، في ظلّ الأضرار التي تسبّبها الروح الضعيفة، مهما كان توجيهها، ومهما كانت معلوماتها، لا يسلم أي دستور قومي، ولا تقدر أي درجةٍ من التوسّع بلغتها الدولة، أن تؤمن مصلحتها السياسية.

وفي الدول حيث تُرمى الملْكية، والامتياز، والمتعة بوصفها إغراءات للخيال، ومثيرات للعاطفة، يبدو أن أفراد الشعب يعتمدون من أجل الحفاظ على الحياة السياسية على درجة المنافسة والغيرة اللتين بهما تتعارض الأحزاب ويكبح واحدهما الآخر. وتكون الرغبات في الترقية والتقديم والربح في صدر المواطن هي الدوافع التي تدفعه للدخول في الشؤون العامة، وهي الأفكار التي توجّه سلوكه السياسي. لذلك، فإن قمع الطموح، والخصومات الحزبية، والحسد الشعبي، كل ذلك، قد لا يكون في كل حالة إصلاحاً، وإنما علامة ضعف ومقدِّمة لأعمال قذرة وتسليات مدمِّرة.

وفي مساء مثل تلك الثورة في أساليب الحياة، احتاج ذوو الرتب العالية في كل نظام للحكم مختلط أو ملكي، أن يهتموا بأنفسهم. فرجال الأعمال والصناعة والتجارة في مواقع الحياة الدنيا حافظوا على حِرفهم، وكانوا مؤمّنين بنوعٍ من الضرورة على حيازتهم لتلك العادات التي اعتمدوها لحياتهم الهادئة، وللاستمتاع المعتدل بالحياة. غير أن الرجال من ذوي الرتب العليا، إذا تخلّوا عن الدولة، وتوقفوا عن امتلاك شجاعة العقل وسموّه، وعن ممارسة تلك المواهب التي توظَّف للدفاع عنها وعن حكمها يصيرون والفوائد الظاهرية لمواقعهم حُثالة ذلك المجتمع الذين كانوا زينته، ويصيرون الأتعس والأكثر فساداً بين البشر، بعد أن كانوا الأكثر احتراماً والأسعد وأكثر أعضائه سعادةً يصير الأشقى والأكثر حظاً. وفي قربهم من هذه الحالة، وفي حال غياب كل انشغال رجولي يشعرون بانزعاج ووهن لا يتمكنون من شرحهما: فهم ينحلّون في غمرة المتعة الظاهرة، أو يعرضون حالةً من الاهتياج عبر أنواع من نزوات مساعيهم وحرفهم المختلفة وتسلياتهم المتنوعة، حالة تشبه مقاومة المرض، وكل هذا ليس برهاناً على التمتع بلذّة، وإنما هو برهان على المعاناة والألم. فواحدهم يظهر عنايته ببناياته، ومعدّاته وأجهزته، أو طاولته، والآخر يهتم بالتسلية الأدبية أو بدراسة تافهة. وإن أنواع الرياضة في البلاد، وانحرافات المدينة، وطاولة القمار[2]، والكلاب، والخيول، والنبيذ، كلها وظِّف لملء فراغات الحياة غير المفيدة. فهي تتحدَّث عن الحرف الإنسانية، كما لو أن الصعوبة كانت في إيجاد عمل. وهي تركِّز على مهنة تافهة، كما لو أنه لا

(2) هذه المشاغل أو الحرف المختلفة تختلف، من ناحية كرامتها وبراءتها، لكن لم تكن أيٌّ منها مدرسةً تعلِّم فيها الرجال على المحافظة على الحظ المترنّح للأمم. فهي كانت هوايات مستمدة من ما يجب أن تكون الحرفة الرئيسية للإنسان، نعني خير البشر.

يوجد شيء يستحق العمل. ويحسبون ما يكون لخير زملائهم من المخلوقات ضرراً أو عائقاً لهم. وهم يهربون من كل مشهد يتطلّب جهود قوة، أو يقتضي منهم أن يقوموا بأي خدمة لبلادهم. ونحن نخطئ تطبيق تعاطفنا عندما نشفق على الفقراء، فتطبيقه يكون أكثر عدلاً على الأغنياء، الذين صاروا الضحايا الأُول لتلك التفاهة التي أغرق فيها بسرعة أعضاء كل دولة فاسدة بضعفهم ورذائلهم.

في مثل هذه الحالة، يبدع ما هو حسّي جميع التحسينات المتعلقة بالملذّات، والدوافع لشهيّة مشبعة تميل لتعزيز مفاسد عصر منحلّ. وقد تكون آثار الشهيّة الوحشية والفسوق أشدّ إثماً وأعنف في العصور البدائية منها في الحقب الزمنية الأخيرة للتجارة والترف. غير أن تلك العادة الدائمة، وعادة البحث عن اللذة الحيوانية حيث لا توجد، وطلبها لإشباع شهية متخمة، ووسط خرائب الجسم الحيواني، ليسا بقاتلين لفضائل الروح أكثر من التمتّع بالكسل أو باللذّة. فهي ليست من مهن الشؤون العامة، أو مقدِّمة مؤكَّدة للتآكل القومي، أكثر من كونها خيبة لآمالنا بالسعادة الخصوصية.

في تلك الأفكار، كان الهدف أن لا نحدِّد مقداراً دقيقاً بلغة الفساد، في أي أمةٍ حقَّقت البروز، أو تآكلت، وإنما الهدف كان متمثِّلاً في وصف النقص بحدّة الروح، وذلك الضعف الذي أصاب النفس، وتلك الحالة من الوهن القومي، التي قد تنتهي بالعبودية السياسية، وهو الشرّ الذي بقي علينا أن ننظر فيه كتحذير أخير، وبعده لا وجود لموضوع لمقالة أو بحث في الخطوط القاتلة للأمم.

الجزء الخامس

الفساد وهو يجنح نحو العبوديّة السياسيّة

تبدو الحرية بأحد معانيها من نصيب الأمم المصقولة الثقافية وحدها. والمتوحش هو حر شخصياً، لأنه يعيش غير مكبوح، ويتعامل مع أعضاء قبيلته على أساس المساواة. والبربري غالباً يكون مستقلاً لاستمرار الظروف ذاتها، أو لأنه يملك شجاعةً وسيفاً. غير أن السياسة الجيّدة وحدها يمكنها أن توفّر ما يضمن الإدارة المنتظمة للعدالة، أو تؤلف قوةً في الدولة تكون جاهزةً في كل مناسبة للدفاع عن حقوق أعضائها.

لقد تبيّن أن الفنون التجارية والفنون السياسية تقدمتا معاً، باستثناء حالات قليلة فريدة. وفي أوروبا الحديثة كانت هذه الفنون متداخلة، حتى يستطيع أي واحد منها كان سابقاً زمنياً أن يستمد أكبر نفعٍ من التأثيرات المتبادلة بينها. فقد لوحظ أن روح التجارة عند بعضِ الأمم، التي نحت نحو تأمين أرباحها أدّت إلى الحكمة السياسية. فالشعب الذي يملك ثروة، ويثور غيوراً على أملاكه، شكَّل مشروع الانعتاق، واستمر مستفيداً من أهمية اكتُسبت حديثاً، يظلّ أفراده مريدين بأن يزيدوا من مطالبهم والنزاع حول الامتيازات التي اعتاد رئيسهم صاحب السيادة أن يستعملها. غير أنه من العبث

أن نتوقَّع في عصرٍ الثمار التي يُقال إنها أنتجها عصر سابق من حيازة الثروة. وإن التكاثر العظيم للثروة خاصةً عندما تكون حديثة، وعندما يرافقها اقتصاد في الإنفاق مع شعور بالاستقلال، كل ذلك، قد يجعل المالك واثقاً في قوّته، ومستعداً لمقاومة القمع ورفضه بازدراء. فكيس الدراهم المفتوح لا للانفاق الشخصي أو للانغماس في توافه الأمور، وإنما لدعم مصالح حزب أو جماعة، ولإشباع العواطف السامية لحزب، تجعل المواطن الثري منيعاً وحصيناً أمام من يدّعي السيادة. غير أن هذا لا يفيد المقادير المساوية أو الأعظم من الثروة في زمن الفساد، تعمل وتؤدّي إلى ذات النتيجة ويكون لها الأثر ذاته.

على النقيض، عندما لا تتجمع الثروة إلّا في أيدي البخلاء ويهدرها المبذّرون، وعندما يجد أبناء الأُسر أنفسهم في حالة ضيق، ومحصورين، وفقراء في وسط الوفرة، وعندما تُسكِتْ الرغبات القوية في الترف صوتَ الحزب والعصبة، وعندما تتعاظم الآمال بالحصول على جوائز المطاوعة والإذعان، أو الخوف من خسران ما اعتبر تعقّلاً، كل ذلك يجعل الرجال في حالة من الحيرة والقلق، وعندما الثروة، عوضاً عن أن تعتبر وسيلة لروح قويّة تصير معبوداً لعقلٍ مشتهٍ ما عند غيره، أو لعقل مسرف، ونهّاب أو جبان، فإن الأسس التي تقوم عليها الحرية قد تخدم الطغيان. وما كان قد رفع في عصرٍ، المطالب، وعزّز المواطن قد يجنح به في عصرٍ آخر نحو العبودية، ويعدّ الثمن الذي سيدفع مقابل بغائه. وحتى هؤلاء الذين قدَّموا، في عصر قويّ، المثل عن الثروة، في أيدي الشعب، في مناسبة الحرية، قد يثبتون في أزمنة الانحلال والتفسّخ قاعدة

تاسيتوس المفيدة أن الإعجاب بالثروة يؤدي إلى حكم الطغيان[1].

والرجال الذين تذوَّقوا طعم الحرية، وشعروا بحقوقهم الشخصية ليس من السهل تعليمهم أن يتحمّلوا التعدّي على أيٍّ منهما، ولا يستطيعون الخضوع للظلم من دون بعض الإعداد. فقد يتلقّون مثل هذا الإعداد غير السعيد في ظلّ أشكال مختلفة من الحكم وبأيدٍ مختلفة، ويبلغون النهاية ذاتها بطرق مختلفة. فهم يتبعون وجهة واحدة في الأنظمة الجمهورية، ووجهة أخرى في الأنظمة الملكية وفي أنظمة الحكم المختلطة. غير أنه مهما كان ما لدى الدولة من الوسائل التي لا تحافظ على فضيلة المواطن، فإنها تحفظ سلامته، وبفاعلية. ويتبع ذلك إلغاء الشعب وإهماله. ويبدو أن الأمم المصقولة المثقَّفة، من كل نوع، تواجه الخطر، في هذا الموقع، مواجهةً متناسبةً مع الدرجة التي بها، خلال أي استمرار، تمتّعوا بحيازة السلام والازدهار غير المتقطّعين.

وكما نقول، إن الحرية نتيجة حكم القوانين. ونحن قابلون لأن نعتبر التشريعات قوةً وضعت لحماية الشعب، وكحاجز لا تستطيع أن تتعدّاه نزوة الإنسان، لا مجرد قرارات وقواعد سلوك لشعبٍ صمَّم أن يكون حرّاً، ولا كتابات حُفظت بها حقوقهم في السجلّات.

فعندما يدّعي الباشا أنه يبتّ في كل نزاع وفقاً لقواعد المساواة الطبيعية، نسلِّم بأنه مسيطر على سلطات تمنحه حرية التصرّف. وعندما يترك القاضي في أوروبا لكي يقرِّر وفقاً لتأويله للقوانين

---

(1) Est apud illos et opibus honos; eoque unus imperitat, nullis jam exceptionibus, non precario jure parendi. Nec arms ut apud ceteros Germanos in promiscuo sed clausa sub custode et quidem servo, &c. TACITUS de Mor. Ger. C.44.

المكتوبة، فهل يكون مقيَّداً أكثر من الأول، بمعنى من المعاني؟ وهل للكلمات الكثيرة التي تنصّ على القانون أو المرسوم تأثير في الضمير والقلب، أقوى منه في العقل والطبيعة؟ وهل يتمتّع الفريق في أي دعوى قضائية بدرجة من السلامة، عندما تُناقش حقوقه على أساس قاعدة خاضعة لمفاهيم البشر، تكون أقلّ مما يكون عندما يُرجعون إلى نظام معقَّد، صار موضوعاً لمهنة دراسية مفصّلة؟

إذا توقّف تطبيق أشكال الدعاوى القضائية، والمراسيم المكتوبة، أو أي مكوِّنات قانونية من قِبَل الروح التي نشأت منها، فإنها لا تنفع إلا في تغطية، لا في كبح، مظالم السلطة، وقد يحترمها الحاكم أو القاضي الفاسد عندما تكون لصالح هدفه، لكنها تُحتقر أو تُبعد عندما تقف في طريقه. وتأثير القوانين، إن كان لها أي أثر حقيقي في صون الحرية، لا بالقوة السحرية هبطت من الرفوف المحمَّلة بالكتب، بل في الواقع في نفوذ الرجال المصممين على أن يكونوا أحراراً، ورجالاً، بعد أن عدَّلوا كتابة الشروط التي عليهم أن يقيموا حياتهم عليها مع الدولة، ومع زملائهم من المواطنين، صمّموا، باحتراسهم وروحهم أن يحققوها.

لقد تعلمنا أن نفهم، في ظلّ أي شكل من أشكال الحكم، ظواهر الاغتصاب الناشئة من إساءة استعمالها، أو من تمديد وتوسيع السلطة التنفيذية. في الأنظمة الملكية تكون هذه السلطة وراثية، وتُتوارث بطريقة محدَّدة. أما في الأنظمة الملكية الانتخابية فهي لمدى الحياة. في الأنظمة الجمهورية تُمارس لزمنٍ محدود. فعندما يُدعى الرجال أو الأُسر، عبر الانتخاب للحصول على درجات شرف موقتة، فذلك يمثِّل طموحاً للاستمرار، لا لتوسيع

أو تمديد سلطاتهم أو سلطاتها. وفي الأنظمة الملكية الوراثية تكون السيادة دائمة، ويكون هدف كل أمير طامح توسيع امتيازاته وتفوّقه. فالأنظمة الجمهورية في أوقات الاضطرابات السياسية والفتن تذكر أيضاً المجتمعات من كل شكل، وتكون معرَّضة للمخاطرة أو المجازفة، ولا يكون ذلك فحسب من الذين رفعوا إلى مراكز الثقة، وإنما من كل شخص مهما يكن أثاره الطموح ومدعوماً من حزب أو عصبة.

ليس من مصلحة الأمير أو حاكم أو قاضٍ آخر، أن يتمتع بسلطة تزيد على ما هو متَّسِق مع خير البشر، وليس ينفع رجلاً أن يكون ظالماً، لكن هذه القواعد تشكل أماناً ضعيفاً ضد عواطف الرجال وبلاهاتهم. والذين يمسكون بالسلطة، مهما كانت درجتها، يكونون ميّالين لإبعاد المعارضة، لمجرد كراهيتهم للتقييد. ولا يقتصر الولع بالمنصب والجلال على الملك المتوَّج وراثياً، بل يشمل الحاكم أو القاضي الذي هو موظَّف لوقتٍ محدود. والوزير نفسه الذي يعتمد مركزه على الإرادة الموقتة لأميره، والذي تكون مصالحه الشخصية من كل ناحية هي مصالح المواطن، يظل يعاني من ضعفٍ متمثِّلٍ في الاهتمام بزيادة امتيازاته، واعتباره انتهاكاته لحقوق الشعب مكاسب له، فالشعب الذي هو نفسه وأسرته سيخضعان.

وأفضل النوايا تجاه البشر، حتى مع وجود هذه، نحن نميل إلى الاعتقاد أن مصلحتهم لا تعتمد، فقط، على إرضاء ميولهم وسعادتهم، أو على الاستخدام السعيد لمواهبهم، وإنما على الإذعان المباشر لما ابتدعناه لخيرهم. وطبقاً لذلك نقول، إن أعظم فضيلة مثَّلها كل صاحب سيادة، إلى الآن ليس في تدليله، وفي

شعبه، وروح الحرية والاستقلال، وإنما في ما يكون نادراً ومستحقاً التقدير، والاحترام الذي لا يتزعزع لتوزيع الملْكية العادلة، والميل للحماية والإلزام بإصلاح وتقويم المظالم، وتعزيز مصلحة الرعايا. وانطلاقاً من الرجوع لتلك الأمور، يحسب Titus قيمة وقته، وقت تطبيقه. غير أن السيف الذي استلّته تلك اليد الكريمة لحماية المواطن، ولإحداث توزيع للعدالة سريع وفاعل، كانت كافية أيضاً في يدّ المستبد لسفك دماء الأبرياء، والقضاء على حقوق الناس. وبالرغم من توقيف الأحداث المؤقتة للإنسانية ممارسة الظلم، فإنها لم تحطم الأغلال القومية، فالأمير صار أقدر على إحداث ذلك النوع من الخير الذي تعلّمه، وذلك لعدم وجود حرية وقوة لمنازعة مراسيمه، أو لوقف تنفيذها.

أكان تعرّف أنطونينيوس عبثاً على شخصيات ثراسيا، وهلفيديوس، وكاتو وديون (Dion) وبروتوس؟ أكان عبثاً تعلّمه أن يفهم شكل المجتمع الحرّ، المشاد على أساس المساواة والعدالة، أو يفهم النظام الملكي الذي في ظلّه تكون حرّيات المواطن أقدس أهداف الإدارة؟[2]. هل أخطأ في استعمال الوسائل التي تحدث للبشر ما اعتبره نعمة؟ أو، هل أضعفته السلطة المطلقة التي جُهِّز بها في إمبراطورية قوية عن تنفيذ ما اعتبره عقله خيراً قومياً؟ في مثل هذه الحالة، من العبث تملّق الملك أو شعبه. فالأول لا يستطيع أن يمنح الحرية من دون الارتقاء بالروح، التي قد تكون أحياناً معارضةً لمخططاته، والفريق الثاني لا يتلقّى تلك النعمة عندما يعرف أفراده أنه من حق السيّد أن يمنحها أو يمنعها. فحقّ العدالة ثابت. فنحن نتلقّى أشياء لصالحنا بشعور بالفضل والمنّة، لكننا نودّ أن نفرض

(2) M. Antoninus, lib. I.

حقوقنا، وروح الحرية، في هذا المجهود لها نبرة التضرّع أو الشكر، من دون تناقض. قال بروتوس لـ شيشرون: «لقد توسَّلت أوكتافيوس أن يوفِّر الذين كانوا أول من وقف من بين المواطنين في روما. فما يكون إن لم يستجبْ؟ هل علينا أن نهلك؟ بلى، نهلك، ولا نكون مدينين بسلامتنا له».

الحرية هي حق يجب على كل فرد أن يدّعيه لنفسه ويدافع عنه، ومن يدّعي أنه يمنحه كمنّة له، وبحقه ذاته عليه أن يلغيه. والمؤسسات السياسية، حتى هذه، بالرغم من أنها مستقلّة عن إرادات الرجال وقراراتهم، لا يمكن الاعتماد عليها للحفاظ على الحرية، فيمكن أن ترعى تلك الروح الثابتة والمصممة، التي بها يكون العقل الليبرالي مستعداً دائماً لمقاومة المعاملات المهينة، وردّ سلامته لنفسه، وكل ذلك يكون من دون تجاوز تلك الروح الثابتة والمصممة.

لذلك إذا كان الحاكم السيد هو الذي يقولب الأمة، كما يشكّل الخزّاف الطين بيديه، فإن مشروع منح الحرية لشعبٍ مستعبد هو من أصعب المشاريع، ويتطلب كثيرين لتنفيذه بصمت ومع الحذر العميق. فالبشر ليسوا مؤهلين لتلقّي هذه النعمة إلّا بمقدار ما يفهمون حقوقهم، ويحترمون المطالب العادلة للإنسانية، وبمقدار ما يكونون راغبين في أن يتحملوا بأشخاصهم عبء الحكم، والدفاع القومي، ويرغبون في تفضيل انشغالات العقل الليبرالي على متع الكسل أو الآمال المخادعة المتعلقة بسلامة مشتراة بالخضوع والخوف.

أنا أتكلم من ناحية، وإذا سُمح لي بالتعبير الآتي، فإني أقول

إني أتكلم بتساهل عن الحاصلين على امتيازات عالية في نظام الأمم السياسي. والحق يُقال، إنه يندر أن يكون استعباد الدول من أغلاهم. فما يجب أن يُتوقَّع منهم باستثناء تحريكهم بالرغبات الإنسانية هو وجوب أن يكونوا كارهين خيبات الأمل، والتأجيل أيضاً. وأن عليهم بالحماسة التي بها يسعون وراء هدفهم، أن يجتازوا الحواجز التي تحول بينهم وبين حياتهم. فإذا تراجعت الملايين أمام رجال مفردين، وكان أعضاء مجلس الشيوخ غير فاعلين، كما لو أنه مؤلف من أعضاء لا رأي ولا شعور لهم، فعلى أي فريق صارت الدفاعات عن الحرية، أو لأي فريق سنعزو فشلها؟ أعلى المواطن الذي تخلّى عن موقعه، أو على الحاكم السيّد، الذي ظلَّ في موقعه، والذي إن توقَّف أعضاء الحكم الملازمين أو التابعين عن الشك في سلطته، فيستمر في الحكم من دون عائق؟

من المعروف أن الدساتير المصاغة للحفاظ على الحرية، يجب أن تتألّف من أقسام عدّة، وأن مجالس الشيوخ، ومجالس النواب، ومحاكم العدل، وحكّام مناطق مختلفة يجب أن يوازن واحدها الآخر، وهي تمارس، وتحافظ على، أو تراقب السلطة التنفيذية وتشرف عليها. فإذا أُلغي أي قسم، فإن المبنى يتداعى، أو يسقط. وإذا أُهمل أي عضو، فلا بدَّ من أن ينتهك الآخرون بتجاوز حدودهم. ففي المجتمعات المؤلفة من رجالٍ من ذوي المواهب المختلفة، والعادات المختلفة والإدراكات المختلفة، هناك شيء أكثر من إنساني يجعلهم يتفقون على كل مسألة ذات أهمية. فإذا كانوا ذوي آراء مختلفة، فالحاجة تكون إلى الوحدة للابتعاد عن النزاعات. لذلك، فإن مديحنا للإجماع ذاته يجب اعتباره خطراً على الحرية. ونحن نرغبه ونطلبه مخافة أن يحلّ محلّه إهمال وكسل

رجال نشؤوا غير مبالين بالشعب، وفساد وقابلية رشوة الذين باعوا حقوق بلادهم، أو عبودية آخرين أطاعوا القائد ضمنياً وبه أخضعت عقولهم. فمحبة الشعب، واحترام قوانينه مسألتان يجب أن يتفق البشر عليهما. غير أنه في مسأل النزاع الجدلي، حصل اتّباع لشعور أي فردٍ أو حزب على نحو ثابت، فإن قضية الحرية تكون قد خدعت.

إن الذي يقضي مركزه بأن يحكم شعباً كسولاً أو خسيساً ولو للحظة، يتوقّف عن توسيع سلطاته. فكل تنفيذٍ للقانون، وكل حركة من حركات الدولة، وكل عملية مدنية وعسكرية، فيها يمارس سلطته، يجب أن تفيد في تأكيد سلطته، وتقديمه أمام الشعب كموضوع وحيد للتقدير، والخوف، والاحترام. وتلك المؤسسات ذاتها، التي ابتدعت في عصر ما بغية تحديد ممارسة السلطة التنفيذية وتوجيهها، ستنفع في عصر آخر في إزالة العقبات والعوائق، وتمهيد الطريق. وسوف تبرز الأقنية التي يمكن أن تجري فيها من دون خلق إساءةٍ، ومن دون إثارة إنذارات بالخطر، والمجالس نفسها التي تأسّست لكي تراقب وتضبط انتهاكاتها، سوف تساعد على صلابتها في زمن الفساد.

غالباً ما تنشأ عاطفة الاستقلال، ومحبة السيطرة من مصدر مشترك: ففي كليهما نفور من السيطرة، ومن لا يتحمَّل في وضع من الأوضاع رئيساً أعلى منه، فإنه في وضع آخر يمقت أن يشاركه من يساويه.

فما يكوّنه الأمير في ظلّ نظام ملكي محض أو محدود، يصيّره بحسب دستور بلاده قائد حزب أو عصبة في أنظمة الحكم الجمهورية. فإذا حصل على هذه الحالة المحسودة، فإن ميله الخاص، أو ميل الأمور الإنسانية، تفتح أمامه حياة طموح ملكي. غير أن الظروف التي

كان مصيره أن يعمل فيها مختلفة جداً عن ظروف ملك. فهو يواجه رجالاً لم يألفوا التباين، وهو مضطر لسلامته الخاصة أن يمسك بالخنجر ويبقيه مسلولاً، وعندما يأمل بأن يكون سالماً، فإنه قد يعني أنه عادل، لكنه يسرع، ومنذ اللحظة الأولى لاغتصابه السلطة، إلى ممارسة كل عمل يحض السلطة الاستبدادية. أما وريث العرش فلا يمارس شجارات ليبقى مع راعياه: فوضعه تملّقي. والقلب لا بدَّ من أن يكون سيئاً على نحو غير مألوف إن لم يتوهّج بمحبة لأفراد الشعب الذين هم المعجبون به، وسنده، وزينة هذا الحكم. فعنده، لا يوجد تصميم أو خطة تنتهك حقوق رعاياه، لكن الأشكال المقصود منها الحفاظ على حريتهم ليست سالمة دائماً بين يديه، في ضوء هذا الشرح.

لقد فرضت العبودية على البشر في حالة الإفراط في الطموح الفاسد، كما ارتكبت ظواهر وحشية في الساعات القائمة والكئيبة للغيرة والرعب، ومع ذلك فإن هذه الشياطين لم تكن ضرورية للخلق، أو لدعم سلطة اعتباطية. وبالرغم من عدم وجود خطة سياسية أكثر نجاحاً من خطة الجمهورية الرومانية في محافظتها على الثروة القومية، فإن الرعايا وكذلك أمراؤهم غالباً ما تصوّروا الحرية عائقاً لأعمال الحكم. فقد تصوَّروا أن السلطة الاستبدادية تلائم ملائمةً أفضل من حيث الإنجاز الأسرع في تنفيذ المجالس الشعبية وفي سرّية التنفيذ، والحفاظ على ما يسعدهم دعوته النظام السياسي[3] (Political Order)، وتقديم إصلاح سريع ومنصف

(3) فكرتنا عن النظام في المجتمع المدني، لكونها مستمدة من مماثلة مع أشخاص غير أحياء وأموات، وهي غالباً ما تكون خاطئة، فنحن نعتبر الاضطراب السيامي والعمل مضادّين لطبيعتها، ونعتقد أن الطاعة، والسريّة، والتنفيذ الصامت للأمور من طريق قلّة، تؤلف مكوّناتها الحقيقية. فالنظام الجيّد للحجارة في الجدار يعني وضعها في الأمكنة المناسبة التي من أجلها نُحِتتْ، فإذا حُرِّكت فلا بدَّ من أن تنهار البناية. غير أن النظام =

للشكاوى. وأحياناً يقرّون بالقول، إذا وجد تعاقب أمراء صالحين، فإن الحكم الاستبدادي يحسب الأفضل لسعادة البشر. وإذا فكّروا على ذلك النحو، فإنهم لا يستطيعون أن يلوموا حاكماً سيّداً، يحاول عبر ثقته في أنه يستخدم سلطته لأهداف صالحة أن يوسّع حدودها، وأنه بحسب فهمه لا يناضل إلّا لإزالة القيود التي تقف في طريق العقل، والتي تمنع تأثير نواياه الودّيّة.

وإذا كان جاهزاً لاغتصاب السلطة لنتركه يوظِّف وهو على رأس دولة حرّة القوة المسلَّح بها، لكي يسحق بذور الفوضى التي تظهر في كل زاوية من زوايا مناطق حكمه. ولندعه يكبح، روح الشقاق والتباين في شعبه، ولندعه يزيل ويقضي على ظواهر مقاطعات أعمال الحكم التي تنشأ من فكاهات منحرفة ومنافع خاصة عند رعاياه، لندعه يجمع قوة الدولة ضد أعدائها عبر استفادته من كل ما يمكنها أن تقدّمه من ضرائب وخدمات شخصية. ومن المحتمل جداً أن يعمل في ظلّ توجّه رغبات الخير للبشر على أن يتجاوز كل حاجز من حواجز الحرية، ويقيم نظاماً دكتاتورياً، وهو في نفس الوقت يتملَّق نفسه بالقول، إنه لم يفعل سوى تطبيق ما يمليه الوعي الصائب والأدب.

وعندما نفكر بحكم منح درجةٍ من الهدوء الذي نرجو، أحياناً، أن نحصل عليها منه، بوصفها أفضل ثماره، وبشؤون عامة مستمرة في دوائر متعدِّدة خاصة بالتشريع وبالتنفيذ، مع أقل مقاطعة ممكنة من التجارة والفنون المربحة، فإن مثل هذه الدولة، كدولة الصين،

= الصالح للرجال في المجتمع يَمْثُلُ في وضعهم في المواضع التي هم مؤهلون، وبشكل مناسب للعمل فيها. فالنظام الأول عبارة عن بنية مؤلفة أجزاء مَيْتة ولا حياة فيها، والنظام الثاني مؤلف من أعضاء أحياء وفاعلين. وعندما ننْشُدُ في المجتمع نظام عطالةٍ وهدوء، فإننا ننسى طبيعة موضوعنا فنقع على نظام عبيد لا أحرار.

تكون عبر توزيعها الشؤون على مكاتب منفصلة، حيث يكون السلوك مفصَّلاً، وعبر الإشراف على الأشكال، وبتجاوزِ لجميع جهود عقل كبير أو ليبرالي، نقول، عندما نفكّر بمثل هذا الحكم نجده أقرب إلى الدكتاتورية والطغيان أكثر مما يمكن أن نتصوَّر.

سواء أكان هناك اضطهاد، وظلم ووحشية وكانت هذه هي الشرور الوحيدة التي ترافق الحكم الدكتاتوري، فإنه يمكن النظر فيها منفصلة. وفي ذات الوقت، يكفي أن نلاحظ أن الحرية لا تكون أكثر ما تكون إلّا عندما نقيس السعادة القومية من طريق النعم أو العطايا التي قد يمنحها الأمير، أو بمجرد الهدوء الذي يرافق إدارة عادلة. فقد يدهش الحاكم بصفاته البطولية، وقد يحمي رعاياه عندما يتمتعون بكل متعة حيوانية أو لذّة، لكن الفوائد التي تنشأ من الحرية هي من نوعٍ مختلف. فهي ليست ثماراً لفضيلة، ولخير يتحركان في صدر إنسانٍ واحد، وإنما هي في انتقال الفضيلة ذاتها إلى كثيرين، ومثل هذا التوزيع للوظائف في المجتمع المدني يوفِّر للأعداد التمارينَ والوظائفَ اللذين هما من طبيعتهم.

أفضل دساتير الحكم يرافقه ما يُقلق، وممارسة الحرية قد تثير شكاوى، في مناسبات كثيرة، وقد لا تثير. وعندما نعزم على إصلاح المفاسد والتعسّفات، فإن مفاسد وتعسّفات الحرية قد تؤدي بنا إلى التعدّي على يملكه الشخص الذي افترض أنها صدرت عنه. وللطغيان ذاته بعض الفوائد، أو نقول، قد يمضي على الأقل في أوقات اللطف والاعتدال من دون إساءة تسبّب إنذاراً عاماً بالخطر. وقد تؤدّي هذه الظروف إلى أن يتأثر البشر بروح الإصلاح ذاتها، أو بمجرد الإهمال أو الغفلة إلى

تطبيق تجديدات خطرة في خطتهم السياسية أو القبول بها.

على كل حال إن العبودية لا تدخل دائماً من طريق الخطأ، فهي تفرض أحياناً بروح العنف والنهب. فالأمراء يفسدون وكذلك شعوبهم، ومهما يكن أصل حكم الطغيان، فإن مطالبه، عندما تعلن بشكل كامل، تولِّد بين الحاكم ورعاياه نزاعاً لا تحسمه إلّا القوة. وللمطالب تلك ناحية مؤذية للشخص، المِلْكية أو حياة كل شخص، فهي تنبّه كل عاطفةٍ في الصدر الإنساني، وهي تزعج الكسول الفاتر الهمّة، وهي تحرم القائم على الرشوة من أجره، وهي تُعلن الحرب على الفاسدين وعلى رجال الفضيلة، والجمهور يقبلها بالاعتياد فحسب. غير أنها بالنسبة إليه يجب أن تكون مدعومةً بالقوة التي تخفّف من مخاوفه. مثل هذه القوة يجلبها الغازي المحتل من الخارج، ويحاول مغتصب السلطة المحلّي أن يجدها في حزبه في الوطن.

عندما يعتاد شعب على السلاح، فإنه يصعب على جزء أن يخضع الكلّ، وإنه قبل إنشاء الجيوش النظامية، كان يصعب على أيّ مغتصبٍ للسلطة أن يحكم الكثرة بالقلّة. وعلى كل حال نقول، إن هذه الصعوبات أُزيلت أحياناً مهما كانت الخطة السياسية للأمم المتمدّنة والتجارية. وعبر إقامة تمييز بين المهن المدنية والمهن العسكرية، وبوضع الحفاظ على الحرية والتمتّع بها بأيدٍ مختلفة تمهَّد الطريق لتحالف خطر بين الحزب أو العصبة والقوة العسكرية في مواجهة الأشكال السياسية وحقوق البشر.

والشعب الذي نُزِع سلاحه إذعاناً لهذا التحسين الأخير أقام سلامته على محاجّات العقل والعدالة في محكمة الطموح والقوة.

في مثل هذه الحالة المتطرفة، كانت القوانين تُتْلى وأعضاء مجلس الشيوخ يجتمعون، لكن عبثاً. والذين كانوا يؤلفون المجلس التشريعي، أو الذين شغلوا الدوائر المدنية في الدولة، قد ينظرون في الرسائل التي يتلقونها من المعسكر أو من المحكمة، لكن إذا كان الحامل هو مثل قائد المئة عند الرومان الذي جلب مطلب أوكتافيوس إلى مجلس الشيوخ الروماني، أظهر مقبض سيفه[4]، فإنهم يجدون المطالب قد صارت أوامر، وهم أنفسهم تحوّلوا إلى موكب لسلطة الحاكم لا مخزناً لها.

يمكن تطبيق أفكار هذا الجزء، بشكل غير متساوٍ، على أمم ذات مقادير مختلفة. فالمجتمعات الصغيرة، مهما كانت فاسدة، ليست قابلةً لحكم الاستبداد. فأعدادها، والمجمعون معاً، والقريبون من مقاعد السلطة لا ينسون أبداً علاقتهم بالشعب. فهم يتفحصون بمألوفية وبحرّية مطالب الذين سيحكمون، وحيث تخفق محبة المساواة، وحسّ العدالة، يتصرفون بدوافع التحزّب، والمنافسة والحسد. فـ تاركينيوس المنفي كان أتباعه في روما، لكننا نقول، إنه إن تمكَّن من طريقهم أن يستعيد مركزه، فمن المحتمل وهو يمارس حكمه الملكي، أن يدخل في نزاعٍ مع الحزب ذاته الذي أعاده للسلطة.

وبالتناسب مع توسّع المكان، تفقد أجزاؤه أهميتها النسبية للكلّ. ويتوقف سكانها عن إدراك رابطتهم بالدولة، ونادراً ما يشتركون في تنفيذ أي خطط أو تصاميم قومية أو حزبية، وإن البعد عن مقاعد الإدارة واللامبالاة بالأشخاص الذين يتنازعون على

---

(4) Sueton.

الترقية، علّما أفراد الأكثرية أن يعتبروا أنفسهم رعايا الحاكم، لا أعضاء في مجتمع سياسي. واللافت أيضاً هو أن توسيع الرقعة الأرضية مما أضعف من أثر الفرد في الشعب، وقلَّل من تدخّله برأيه، وقد مال إلى الإنقاص من الشؤون القومية وجعلها في نطاق ضيّق، كما أنقص الأعداد التي تُستشار في التشريع، أو شؤون الحكم الأخرى.

تتطلَّب ظواهر الفوضى، التي تتعرَّض لها الإمبراطورية العظيمة منعاً سريعاً وحذراً، وتنفيذاً عاجلاً. ويجب إبقاء المناطق النائية خاضعةً لقوة عسكرية، والسلطات الدكتاتورية التي تنشأ في الدول الحرّة أحياناً لقمع ظواهر العصيان المسلَّح أو للتصدّي لظواهر شريرة طارئة أخرى تبدو في ظلّ مقدار معيّن من السيطرة في جميع الأوقات ضرورية لوقف انحلال الجسم، الذي تجمَّعت أجزاؤه ويجب أن تظلّ متماسكة عبر تدابير قوية حاسمة وسرّية. لذلك نقول، إنه من بين الظروف التي تؤدي إلى قيام الحكم الدكتاتوري في زمن الازدهار القومي ونتيجة للفنون التجارية لا يوجد شيء أوصل إلى هذه النهاية بهدفٍ أكيد، مثل التوسيع الدائم لأرض الدولة. وفي كل دولة، تعتمد حرية أعضائها على توازن أجزائها الداخلية وتكيّيفها، ووجود مثل هذا النوع من الحرية بين البشر يعتمد على توازن الأمم. وفي استمرار الغزو والفتوحات، قيل إن الذين تمَّ إخضاعهم فقدوا حرياتهم. غير أننا نقول إنه انطلاقاً من تاريخ البشر بدا الغالب والمغلوب من الدول في نهاية المطاف سيّان.

الجزء السادس

التقدّم ونهاية الاستبداد

عندما يشرع أفراد البشر بالانحلال، ويميلون نحو الدَّمار، يكونون مثلهم عندما يتحسنون، وعند تحقيق فوائد حقيقية، نعني أنهم يتابعون السير بخطى بطيئة وغافلة غير مبالية. وإذا حقّقوا خلال عصور النشاط والقوة ذلك المقدار من العظمة القومية العالي، الذي تعجز الحكمة القومية عن التنبؤ به، فإنهم يجلبون فعلياً على أنفسهم في عصور الارتخاء والضعف الكثير من الشرور التي لم توحِ بها مخاوفهم، والتي ظنوا أن تيّار النجاح والازدهار قد أزاحها، إلى حيث لا رجعة.

لقد سبق لنا أن لحظنا أنه حيث يكون الرجال مهملين وفاسدين، فإن قوة وطهارة قادتهم، أو النوايا الطيبة لحكامهم وقضاتهم لا تضمن لهم دائماً الحصول على الحرية. وإن الخضوع الضمني لأي ممارسة غير المراقبة لأي سلطة، حتى عندما يُصد بها العمل لخير البشر قد تنتهي في أغلب الأحيان إلى دمار المؤسسات القانونية. وهذه الثورة المميتة مهما كانت وسائل تحققها، تنتهي بحكم عسكري، وبالرغم من أن هذا هو أبسط أشكال الحكم، فإنه يصير

كاملاً، على درجات. ففي الفترة الأولى من حكمه الرجال الذين مارسوا كأعضاء في مجتمع حرّ، لا يكون قد فعل أكثر من إرساء الأساس، ولم يكمل بنية الخطة السياسية الدكتاتورية. فالمغتصب الذي استولى بجيشٍ على مركز إمبراطورية عظيمة، يرى حوله البقايا المتناثرة لجسم سابق. قد يسمع تمتمات خضوع كارهٍ وغير راغب، وقد يرى الخطر في مظهر كثيرين كان قد انتزع السيف من أيديهم، لكنه لم يخضع عقولهم، ولا استوعبهم في سلطتهم.

إن الشعور بالحقوق الشخصية، أو الزعم بالامتياز ودرجات الإجلال والشرف، التي ما زالت موجودة عند رجال من مراتب معيّنة، هي عوائق في طريق اغتصاب جديد. فإذا لم تتآكل مع مرور الزمن، وتزول مع تقدّم الفساد المتنامي، فلا بدَّ من أن تُحطَّم بالعنف، ولا بدَّ من أن يتلطّخ بالدم ظهور أي تعاظم جديد للسلطة. ويكون الأثر حتى في هذه الحالة بطيئاً ومتأخراً في أغلب الأحيان. ونحن نعرف أن الروح الرومانية لم تنطفئ كلّياً مع تعاقب الأسياد، ومع تكرار ممارسة سفك الدم والسمّ. فالأسرة النبيلة والمحترمة ظلّت تطمح إلى مراتبها السامية الأصلية. وتاريخ الجمهورية، وكتابات الأزمنة السابقة، والآثار الباقية المذكِّرة برجال بارزين، ودروس الفلسفة المملوءة بمفاهيم بطولية، لم تتوقف عن تغذية الروح في زمن التقاعد، وشكلت تلك الشخصيات البارزة، التي شكَّل سموّها، ومصيرها، أكثر مواضيع القصة الإنسانية تأثيراً. وبالرغم من عجزهم عن مقاومة الميل العام نحو العبودية صاروا استناداً إلى ميولهم الموجودة مواضيع عدم ثقة ونفور، واضطروا أن يدفعوا، من دمائهم، ثمن الشعور الذي عزَّزوه بصمت، والذي لم يتوهَّج إلّا في القلب.

والدكتاتورية مستمرة في تقدّمها، نرانا نسأل: بأي مبدأ عمل الحاكم السيّد عند اختياره للتدابير التي أسست حكمه؟ هل كان ذلك عبر فهم خاطئ لما هو لصالحه، وأحياناً لما هو صالح وخيّر لشعبه، وعبر الرغبة التي يشعر بها، في كل مناسبة من المناسبات، لإزاحة العوائق التي تمنع تنفيذ إرادته؟ فعندما اتخذ قراراً، كان كل من يفكّر به مناقشاً أو معترضاً عليه يعتبر عدواً. وعندما يكون معجباً بعقله وتيّاهاً، فإن كل من يدّعي عدواً ويفخر بنفسه هو منافس. فلا كرامة في الدولة ولا سموّ إلّا ما يكون معتمداً عليه، ولا سلطة فاعلة إلّا تلك التي عليها تعبير بهجته الموقتة[1].

وبإرشاد من إدراك لا يخطئ مثل الغريزة، لم يخفق في انتقاء المواضيع الملائمة لكراهيته أو لصالحه. فمظهر الاستقلال ينفّره، أما مظهر الاستعباد فيجتذبه. وميل إدارته يتمثّل في إسكات كل روح قلقة، واعتبار كل وظيفة من وظائف الحكم ملكه[2]. وعندما تكون السلطة أو القوة كافية حتى النهاية، فإنها تكون فاعلةً في أيدي الذين لا يدركون النهاية، مثلما تكون في أيدي آخرين يفهمونها على نحوٍ أفضل: تقويضات أي منهما يجب أن يكون موضع نزاع، عندما يكون عادلاً، وعندما يكون خاطئاً أو مخطئاً، فإنها تدعم بالقوة.

يجب أن تموت، ذلك كان جواب أوكتافيوس لكل واحد من الحاشية توسَّل رحمته. وهو الحكم الذي نطق به بعض من الذين

---

(1) Insurgere paulatim munia senatus, magistratuum, legum in se trahere.

(2) من السخرية أن نسمع رجالاً ذوي طموح لا يهدأ، ويودّون أن يكونوا الفاعلين الوحيدين في كل مشهد، يتشكّون من روح انحرافية في البشر، كما لو أن الميل ذاته الذي منه يرغبون في اغتصاب كل وظيفة ومركز، لا يجعل كل شخص آخر يفكّر لنفسه ويعمل لها.

أعقبوه ضد كل مواطنٍ بارز المولد أو الفضائل. غير أن السؤال هو: هل شرور الحكم الدكتاتوري محصورة بالطرق الوحشية والدموية، التي بها تُشاد أو تحفظ سيادة حديثة على شعبٍ منحرفٍ ومشاغب؟ وهل الموت هو أعظم كارثةٍ يمكن أن تصيب البشر، في ظلّ مؤسّسة جرّدتهم من جميع حقوقهم؟ والحق يُقال، إنهم، غالباً، ما عانوا من أجل أن يحيوا، لكن عدم الثقة والحسد، والشعور بالخساسة الشخصية، وظواهر القلق التي تنشأ من العناية بمصلحة بائسة، كل ذلك جعل لامتلاك النفس، وحُوِّل كل مواطن إلى عبد، وكل جمال ساحر أشرك فيه المجتمع أعضاءَه، واختفى. ولم تبق إلّا الطاعة كواجب وحيد، وهذا الواجب يُنتزع بالقوة. وفي ظلّ مثل هذه المؤسسة، إذا اقتضت الضرورة أن نشاهد ونشهد على وجود تحقير ورعب، محاذرين بأن تصلنا العدوى، فإن الموت يصير هو الخلاص. وسكب الدم الذي جعله ثراسيا يتدفق من شرايينه، لا بدَّ من اعتباره تضحية ملائمة لـ Jove the Deliverer[3].

ليس القمع والوحشية، هما، دائماً ضروريان للحكم الدكتاتوري، وعندما يكونان حتى عندئذٍ يؤلفان جزءاً من شروره، ليس إلّا. فهو مشاد على الفساد، وعلى القضاء على كل الفضائل المدنية والسياسية. فهو يتطلّب من جميع رعاياه أن يتصرّفوا انطلاقاً من دوافع الخوف. وهو يلطّف ويهدئ عواطف نفر قليل من الرجال على حساب البشر، ويقيم سلام المجتمع نفسه على دمار الحرية والثقة اللتين منهما وحدهما تنشأ متعة العقل الإنساني، وقوته، وسموّه.

---

(3) Porrectisque utriusque brachii venis, pstquam cruorem effudit, humum super spargens, proprius vocato Quaestore, Libemus, inquit, jovi liberatori. Specta juvenis; et omen quidem Dii prohibeant; ceterum in ea tempora natus, es quibus firmare animum deceat constantibus exemplis. Tacit Ann. Lib. 16.

وبوجود دستور حرّ، وعندما يكون كل فردٍ حائزاً رتبته وامتيازه الذي يستحق، ويكون مدركاً لحقوقه الشخصية، حالتئذٍ، نجد أن أعضاء كل مجتمع يقدّرون ويحترمون واحدهم للآخر، وتكون كل مسألة تقتضي التنفيذ في المجتمع المدني تتطلّب ممارسة مواهب، وحكمة، وإقناع ونشاط وقوة أيضاً. غير أننا نقول، إن أفضل تحسين لحكم دكتاتوري يتمثّل في الحكم بأوامر بسيطة، وإبعاد كل فنّ باستثناء الإجبار أو الإلزام. وبتأثير من هذه الخطة السياسية تُزال تدريجياً المناسبات والفرص التي وظّفت عقول الرجال وصقلتها بالثقافة، والتي أيقظت مشاعرهم وأشعلت مخيّلاتهم، والتقدّم الذي به حصل البشر على إجلال لطبيعتهم، عبر انخراطهم في المجتمع في العمل على أساس ليبرالي، لا يعود منسجماً، أو أقل تقطّعاً من الذي به انحطوا إلى تلك الحالة التعيسة.

عندما نسمع بالصمت الذي يخيِّم في سراي السلطان، نعتقد أن الكلام نفسه لم يعد لازماً، وأن إشارات الأخرس أو الأبكم تكفي لنقل أهم تفويضات الحكم. والواقع، هو أنه لا حاجة إلى مسيطر صاعد عندما يكون الرعب وحده هو الذي يقابل القوة، وحيث تكون سلطات الحاكم مفوَّضة كلها لكل موظِّف تابع، كذلك لا تستطيع أي وظيفة أن تمنح حرية العقل في مشهد صمت واكتئاب، وعندما يكون كل قلب مغموراً بالحسد والحذر، وعندما لا يبقى شيء سوى المتعة الحيوانية لموازنة آلام ومعاناة الحاكم نفسه، أو آلام ومعاناة رعاياه.

وفي دول أخرى، تتحسَّن مواهب الرجال بالتمارين التي تخص موقعاً بارزاً، لكن السيّد نفسه هنا قد يكون الحيوان الأكثر

بدائيةً والأقل ثقافةً في القطيع. فهو من دون العبد الذي رفعه من موقع العبودية إلى مواقع الثقة أو الكرامة الأولى في بلاطه. فالبساطة البدائية التي شكّلت روابط الألفة والمحبّة بين السيد الحاكم والمحافظين على قطعانه ورعاتهم[4] تبدو، في غياب كل عواطف المحبة أنها رُمِّمت أو زُيِّفت، في غمرة الجهالة والوحشية اللتين تميِّزان أنظمة الرجال، أو ساوت ما بين الرتب، وقضت على تمييز الأشخاص في البلاط الدكتاتوري.

النزوة والعاطفة هما قاعدتا حكم الأمير. وكل مفوَّض سلطة متروك له أن يعمل بنفس الاتجاه، ألا وهو: أن يضرب عندما يُثار، وأن يكافئ عندما يُسعد. وفي كل ما يتعلّق بالدخل، والتشريع والقضاء، أو الشرطة، يتصرَّف كل حاكمٍ لمقاطعة مثل قائد دولة للعدو، فهو يأتي مسلَّحاً بظواهر النار والسيف المرعبة، وعوضاً عن الضريبة، يفرض الجباية بالقوة التي تدمِّر أو لا تدمِّر لخدمة هدفه. وعندما يصل صخب المضطهدين، أو نبأ عن كنز تجمَّع على حساب منطقة، إلى مسمع الحاكم السيّد يُطلَب من المغتصب أو المبتزّ أن يشتري حصانةً للإفلات من العقوبة، عبر منحه حصةً أو يخسر كل ما سلب ونهب مصادرته. ولا يُعوَّض المتضرِّر. لأن جرائم الوزير تستخدم أول ما تستخدم لنهب الشعب، وبعد ذلك تُعاقب لملء صناديق الحاكم ذي السيادة.

في ذلك التوقّف الكلّي لكل فن يتعلّق بالحكم العادل والسياسة القومية، كان اللافت أن مهنة الجندي، حتى هذه، أُهملت. فعدم الثقة والغيرة عند الأمير ساعدا جهله وعجزه، وكل هذه تضافرت

(4) انظر: Odyssey.

على تدمير الأساس الذي قامت عليه السلطة. فكل حشد غير منظَّم من الرجال لمسلَّحين يتحوّل إلى جيش، بينما الشعب المشتَّت وغير المسلَّح يُضحّى به بالفوضى العسكرية، أو يتعرَّض للسلب والنهب على الحدود من قِبَل عدوٍّ، قد تكون رغبته في السلب والنهب والأمل بالغزو والفتح قد قرّباه من جِوارهم.

فالرومان وسَّعوا إمبراطوريتهم حتى إنهم لم يتركوا أمةً مصقولة مثقفةً لم يُخضعوها، ووجدوا حدوداً كانت، ومن كل مكان، محاطةً بقبائل متوحشة وبربرية، حتى إنهم توغَّلوا في صحاري قاحلة لكي يبعدوا إلى أبعد مسافة مضايقات وتحرّشات مثل أولئك الجيران المزعجين، ولكي يملكوا الطرق التي يخشون هجماتهم منها. غير أن هذه السياسة وضعت نهايتها في يد الفساد الداخلي للدولة. وإن عدداً قليلاً من الهدوء يكفي ليجعل الحكم ينسى خطره، ويقدِّم في المنطقة المصقولة المثقَّفة والمستعدة للعدوّ جائزةً مغرية ونصراً سهلاً.

وعندما يكون مقدار الإمبراطورية كاملاً، عبر غزو وإلحاق كل منطقة غنيّة ومصقولة مثقَّفة، فإن حزبين أو فريقين يكفيان لفهم البشر: حزب مسالم وثري يوجد في حالة شحوب الإمبراطورية، وحزب الفقراء النهّابين المعوّلين على السلب والحرب. فللأخير العلاقة ذاتها للذئب وللأسد بحظيرة الخراف، وهما بشكل طبيعي في حالة عطاء.

ولكي تستمر إمبراطورية الطغيان إلى الأبد، من دون مضايقة أو تحرّش من الخارج، وتبقي ذلك الفساد الذي قامت عليه، يقتضي وجود مبدأ حياة جديدة، يبدو أنها لا تملكه، كما لو أنها تقدِّم أملاً

باستعادة الحرية والقوة السياسية. وما بذره الرئيس لا يكون سريعاً، إلّا إذا مات(*)، فلا بدَّ من أن يضعف ويلفظ أنفاسه الأخيرة نتيجة فساده، قبل أن تظلّ الروح الإنسانية من جديد، وتحمل تلك الثمار التي تؤلِّف الشرف وسعادة الطبيعة الإنسانية. وفي أزمنة الحظ من قدر الأشياء، وفي أعظمها، يمكن الشعور بوجود اضطرابات سياسية وفتن، لكنها تختلف كثيراً عن احتياجات شعب حرّ، فهي إمّا آلام وكروب طبيعية يتعرض الناس لها، أو هي مجرَّد ظواهر شغب محصورة بنفرٍ قليل يحملون السلاح حول الأمير، والذين بمؤامراتهم، واغتيالاتهم، وجرائمهم لا يخدمون إلّا إغراق السكّان المسالمين أكثر فأكثر في الرعب أو اليأس. والشعب المتشتّت في المناطق والأعزل من السلاح، والذي لم يعرف ولم يألف مشاعر الوحدة والاتحاد، والمعتاد على اقتصاد بائس، ويحيا حياة متقلقة تعتمد على تلك الممتلكات التي تركها الحكم لهم بعد أن ابتزّ ما ابتزّ واغتصب ما اغتصب، مثل هذا الشعب لا يقدر، في ظلّ الظروف أن تكون له روح المجتمع، ولا يستطيع أن يؤلف مجموعة ليبرالية للدفاع عنه. فيمكن للمتضرّر أن يشكو ويتذمَّر، ولأنه لا يستطيع أن يحصل على رحمة الحكم، يمكنه أن يتوسَّل مؤاساة زميله المواطن. غير أن هذا الزميل المواطن مرتاح لأن يد الاضطهاد لم تمسّه، فهو ينظر في مصلحته، أو ينتزع متعته وفقاً لدرجة السلامة التي يمنحها له الغموض والتخفية.

فالفنون التجارية التي ليس لها أساس في عقول الرجال، وإنما علاقتهما بالمنفعة، ولا تشجيع لها، سوى الأمل في الربح

(*) Georg Wilhelm Fredrich Hegel, *Hegel's Logic: Being Part One of the Encyclopaedia of the Philosophical Sciences*, trans. By William Wallace (Oxford: Clarendom Press, 1975).

والكسب، والحيازة المأمونة على الملْكيّة، كل ذلك يجب أن يهلك ويزول في حالة ولاية منصب متقلقل من الاستعباد، وفي ظلّ إدراكٍ لخطرٍ ناشئ من سمعة الثروة. وعلى كل حال نقول، إن الفقر القومي وقمع التجارة هما الوسيلتان اللتان بهما يحقق نظام الطغيان دماره. فحيث لا يعود هناك أرباح لا رشوة بها، أو مخاوف لوقفها، فإن فتنة السيادة أو سحرها يتحطَّم، والعبد العاري يذهله أن يجد نفسه حرّاً، كما لو أنه استيقظ من حلم. فعندما يتحطَّم الحاجز تصير البرّية مفتوحةً، وتفلت القطعان. ولا يعود عشب حقل محروث مفضّلاً على حقل في الصحراء. والذي عانى يفرّ، بإرادته، إلى حيث لا تستطيع ابتزازات الحكم تصل إليه، وحيث الجبان والمستعبد، كلاهما أيضاً يتذكران أنهما من البشر، وحيث يمكن للطاغية أن يهدِّد، لكن حيث يكون معروفاً أنه ليس إلّا مخلوقاً مثل سواه، وحيث لا يستطيع أن ينتزع سوى الحياة، وحتى هذه الحياة ستجلعه يجازف بحياته.

وما يتفق مع هذا الوصف هو أن إزعاجات النظام الدكتاتوري في أنحاء كثيرة من الشرق تغلَّبت على الرغبة في إقامة المستعمرات. وسكان القرية تركوا مساكنهم وغزوا الطرق العامة: فالذين كانوا في الوديان صعدوا الجبال هاربين، أو بقبضتهم القوية عاشوا على السلب والنهب، ومن طريق الحروب التي خاضوها على أسيادهم السابقين.

ظواهر الفوضى هذه تضافرت مع ضرائب الدولة لجعل المستعمرات الباقية أقلّ أماناً. غير أنه على الرغم من أن التدمير والتخريب كانا في كل ناحيةٍ اضطر البشر من جديد، واستناداً لتلك

الاتحادات الكونفدرالية، أن يكتسبوا من جديد تلك الثقة الشخصية والقوة، وتلك الرابطة الاجتماعية، واستعمال السلاح، وكل ذلك الذي حوَّل، في أزمنة سابقة قبيلة صغيرة إلى أن تصير بذرةً لأمة عظيمة، يمكنها من جديد أن تقوّي العبد المعتّق ليبدأ حياة الفنون المدنية والتجارية. فعندما يبدو أن الطبيعة البشرية هي أسوأ حالة من حالات الفساد فإنها تكون فعلياً قد بدأت بالإصلاح.

وعلى ذلك النحو تحوَّلت مشاهد الحياة الإنسانية، ولمرّات. فالأمن والجراءة يُفقدان فوائد الازدهار، والانحلال والسلوك يسترجعان علل الضرّاء والحظّ العاثر. ولما كان البشر لا يملكون شيئاً يعتمدون عليه سوى الفضيلة، فهم مهيّؤون لكسب كل فائدة، وما فتئوا يثقون أكثر ما يثقون في حظّهم السعيد، فإنهم يُعرضون أنفسهم للشعور بعكسه. ونحن ميّالون لوضع تلك الملاحظات في قاعدة. وعندما لا نعود راغبين في العمل في بلادنا، فإننا نتوسَّل، كغدرٍ لضعفنا أو بلاهتنا، مصير شؤم للحياة الإنسانية.

إذا لم تُحسب مؤسسات البشر لتكون للحفظ على الفضيلة، فمن المحتمل أن يكون لها نهاية وبداية. غير أنها بقيت مفيدةً لذلك الهدف، ولها في جميع الأزمنة مبدأ حياة لا يتغيّر، لا يستطيع شيء أن يقمعه سوى القوة الخارجية. فكل أمة عانت من تآكل داخلي إلّا وكان ناشئاً من رذائل أعضائها. ونحن أحياناً نكون راغبين في الاعتراف بهذه الرذيلة الموجودة عند زملائنا المواطنين، ولكن من هو الراغب في الاعتراف بها في نفسه؟ وقد نظن أننا نعترف بها فعلياً وأكثر من مجرّد الاعتراف بها، عندما نتوقَّف عن مقاومة نتائجها، وعندما نتوسَّل موتاً، يعتمد في قلب كل فردٍ على الفرد

نفسه. فالرجال المتّصفون بالجَلد الحقيقي، والكرامة، والقدرة، مؤهلون في كل مشهد. فهم يحصدون في كل مناسبةٍ المتعَ الرئيسية لطبيعتهم. فهم أدوات القضاء والقدر السعيدة والموظّفة لخير البشر. وإذا كان لا بدَّ من تغيير هذه اللغة، نقول، إنهم يبيّنون، وهم يعيشون، أن الدول التي ألَّفوها هي أيضاً محكومة، بلغة المصائر بأن تبقى وتزدهر(*).

(*) وتجدر الإشارة إلى أن أول من وظَّف تعبير المجتمع المدني قبل هيغل كان فلاسفة العقد الاجتماعي: توماس هوبس، وجون لوك، وجان جاك روسّو، قبل نحو قرن من الزمان قبل هيغل، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكان ذلك عند وصفهم خروج البشر من حالة الطبيعة الى حالة المجتمع المدني الذي أسّس الدولة (المترجم).

ثبت المصطلحات

Cannibal	آكل لحم البشر
Commerce	اتصال جنسي (غير شرعي خاصة)
Unanimity	إجماع
Posterity	أجيال قادمة
Remonstration	احتجاج/ اعتراض
Contrivance	اختراع/ وسيلة
Condour	إخلاص/ لا تحيّز
Approbation	استحسان
Rectitude	استقامة
Legend	أسطورة
Redress	إصلاح/ إنصاف

Distemper	اضطراب/ اختلال
Tanperance	اعتدال/ ضبط النفس
Promulgation	إعلان/ إذاعة
Dejfection	اغتنام/ اكتئاب
Baits	إغراءات
Frugality	اقتصادي في الإنفاق
Fief	إقطاعة
Country	إقليم/ مقاطعة
Prerogative	امتياز/ حقّ مقصور على جهة
Tidings	أنباء
Arrogation	انتحال
Declension	انحطاط/ انحدار
Indignity	إهانة
Remissness	إهمال/ كسل
Cadence	إيقاع
Intrepid	باسل

Dexterity	براعة
Distich	بيتان من الشعر
Prodigality	تبذير/ إسراف
Traffic	تجارة/ مقايضة
Levy	تجنيد
Abviation	تحاشٍ/ تجنّب
Sedition	تحريض على الفتنة
Preferment	ترقية/ منصب رفيع
Embellishment	تزيين/ زخرفة
Supplication	تضرّع/ ابتهال
Accession	تعاظم/ نماء
Stipulation	تعاقد/ شرط
Transaction	تعامل/ صفقة
Lassitude	تعب/ تراخٍ
Torment	تعذيب
Charm	تعويذة/ رُقْية

Emolument	تعويض/ أجر
Ostentation	تفاخر/ تباهٍ
Disparity	تفاوت
Fickleness	تقلّب
Investiture	تقليد منصب أو رتبة
Redress	تقويم/ إصلاح
Accession	تكاثر/ تعاظم
Prognostication	تكهّن
Statuary	تماثيل
Solicitation	توسّل
Fortitude	ثبات/ جَلَد
Antiquary	جامع الآثار أو دارسها
Sententious	جامع مانع (شامل)
Pusillanimity	جبن
Stateliness	جلال/ فخامة
Repartee	جواب سريع بارع

Peremptory	حاسم
Retinue	الحاشية: بطانة الأمير أو الملك
Magistracy	حاكمية
Amicable	حبّي/ سلمي
Conjecture	حدس
Pursuit	حرفة
Sagacity	حصافة/ ذكاء
Impunity	حصانة/ إفلات من عقوبة
Title	حق
Primogeniture	حق البكورة: حق البكر في الإرث كله
Onimosity	حقد/ عداء
Arbiter	حَكَم/ وسيط
Sage	حكيم/ عاقل
Desolation	خراب/ دمار
Breach	خرق القانون
Adversary	خصم/ عدوّ

Harangue	خطاب رنّان
Declamation	خطبة
Hazard	خطر
Dissention	خلاف/ نزاع
Perfidy	خيانة/ غدر
Prop	دعامة
Hoard	ذخيرة/ مؤونة
Husbandry	زراعة
Prostration	سجود
Sorcery	سحر/ شعوذة
Seraglio	سراي السطان
Felicity	سعادة/ هناءة
Sanguinary	سفّاح/ متعطّش للدم
Depredation	سلب/ نهب
Elevation	سموّ/ نبل
Ensign	شارة/ رمز

Gard	شاعر
Satiety	شبع/ تخمة
Tumult	شغب/ فتنة
Cataract	شلّال/ طوفان
Palsy	شلل
Magnanimity	شهامة
Renown	شهرة
Voluptuary	شهواني/ حسّي
Salutary	صحيّ/ مفيد
Amity	صداقة/ تفاهم
Sceptre	صولجان/ سلطة ملكية
Tedium	ضجر/ ملل
Denomination	طائفة
Observances	طقوس/ عادات
Plebeian	عامي روماني
Clog	عائق

Helot	عبد
Divination	عرافة/ رجم بالغيب
Cabal	عصبة سرّية
Feat	عمل بطولي أو فذّ
Insolence	غطرسة
Inundation	غمر/ إغراق
Licentious	فاسق
Depravation	فساد الأخلاق
Vanilitgy	فساد/ قابلية للرشوة
Debauchery	فسوق
Maxim	قاعدة سلوك
Statute	قانون/ نظام أساسي
Centurion	قائد المئة عند الرومان
Barrenness	قحل
Settlement	قرية صغيرة/ مستعمرة
Trammel	قيد/ عائق

Calamity	كارثة/ بؤس
Antipathy	كراهية
Remissness	كسل/ إهمال
Penance	كفّارة/ عقوبة ذاتية
Cavern	كهف كبير
Courtier	لهجة/ رجال الحاشية الملكية
Pecuniary	مالي
Novice	مبتدئ
Inveterate	متأصِّل/ راسخ
Labyrinth	متاهة/ مشكلة
Effeminate	متخنِّث
Undertaker	متعهّد/ مقاول
Turbulent	متمرد/ مشاغب
Hazard	مخاطرة/ مجازفة
Tribune	مدافع عن حقوق العامة
Encomium	مديح

Lucrative	مربح
Pastrure	مرعى/ كلأ
Deminnering	مستبدّ
Gibbet	مشنقة
Molestation	مضايقة/ تحرّش
Tenent	معتقد
Enterprising	مغامر/ مِقدام
Enterprise	مغامرة
Casuist	المفتي في قضايا الضمير والسلوك
Aversion/ Repugnance	مقت/ كره
Equivocal	ملتبس المعنى
Potentate	ملك/ حاكم
Preposterous	منافٍ للطبيعة أو العقل
Calling	مهنة
Pageantry	موكب/ مهرجان
Commiseration	مؤاساة

Cabal	مؤامرة
Propensity	ميل/ نزوع
Anchoret	ناسكة/ زاهدة
Presage	نذير
Faction	نزاع حزبي
Dissention	نزاع/ شقاق
Caprice	نزوة
Alacrity	نشاط مبتهج
Palm	نصر
Versification	نظم الشعر
Censure	نقد/ تقريع
Depredation	نهب/ سلب
Paroxysm	نوبة
Satirist	هجّاء
Tranquility	هدوء/ سكون
Rout	هزيمة منكرة

Accommodation	وسائل الراحة والتسلية
Predilection	ولع/ نزوع
Languor	وهن/ تراخٍ
Expose	يتخلّى عن طفل
Espouse	يعتنق قضية أو يناصرها
Vigilance	يقظة/ احتراس
Shun	ينأى بنفسه/ يتجنّب

الفهرس

-أ-

إبامينونداس (قائد أغريقي): 48، 69، 98، 232

الإدراك: 18، 24، 54، 64، 126، 310، 327، 377

الأرستقراطية: 106، 107، 109، 111، 115، 197، 200، 205، 244، 246، 295، 355

أرستيدس (رجل دولة أثيني): 287، 341

إشباع الشهية: 75، 377

الإمبراطورية الرومانية: 116، 157، 201، 253، 312، 317، 398

الأمم الأوروبية: 45، 114، 138، 144، 165، 176، 182، 203، 298، 340، 344

الأمم البدائية: 42، 93، 97، 104، 143، 144، 146، 149، 155، 162، 166، 167، 192، 216، 257، 328، 362، 366

الأنظمة الملكية: 111، 163، 201، 204، 285، 286، 290، 298، 391، 392، 393

أوكتافيوس (إمبراطور روماني): 217، 218، 395، 402، 407

إيبكتيتس (فيلسوف الروماني): 68

-ب-

بروتوس (رجل سياسي روماني): 86، 207، 332، 394، 395

بريام (ملك طروادة): 66، 301

بلوتارخ (مؤرخ إغريقي): 101، 341

بومبيوس (قائد روماني): 116،

206، 279

بيركليس (سياسي يوناني أثيني): 279، 287، 326، 341

بيروس (جنرال إغريقي): 324، 342

-ت-

تاسيتوس (مؤرخ روماني): 77، 127، 140، 148، 155، 162، 391

التعاسة الإنسانية: 24، 72، 73، 166، 241، 293، 307، 356

-ث-

ثراسيا (منطقة في البلقان): 207، 394، 408

ثيميستوكليس (سياسي وقائد بري وبحري يوناني): 264، 287، 341

-ح-

حبّ النفس: 29، 31، 32

الحدس: 15، 16، 21، 123

الحرية المدنيّة: 231، 237، 248

الحكم الديمقراطي: 106، 107، 108، 235، 278، 332، 355، 368، 379

الحكم الشعبي: 108، 109، 115، 200، 243، 278، 279، 290، 319

حكم الطغيان: 173، 174، 391، 401، 411

الحياة الإنسانية: 17، 48، 59، 61، 66، 69، 73، 74، 75، 77، 83، 84، 86، 87، 185، 255، 291، 302، 324، 364، 414

-د-

دولة دكتاتورية: 105، 106، 107، 115، 116، 163، 197، 203، 358، 399، 400، 403، 406، 407، 408، 409، 413

الديمقراطية: 107، 108، 109، 110، 115، 116، 117، 159، 198، 235، 243، 245، 280، 355، 379

-ر-

الروح القومية: 8، 48، 225، 316، 328، 329، 334، 335، 345، 371، 381

-س-

السعادة الإنسانية: 89، 91، 150، 383

السعادة القومية: 223، 321، 334، 361، 400

السلوك الإنساني: 26، 33، 37، 55، 61، 66، 73، 80، 85، 92، 104، 108، 112، 163، 180، 205، 224، 264، 281، 291، 383، 400، 414

سولون (شاعر ورجل قانون أثيني): 98، 232

السيادة: 55، 104، 107، 109، 111، 113، 114، 158، 195، 201، 202، 217، 242، 244، 245، 246، 279، 312، 377، 378، 389، 390، 393، 410، 413

-ش-

شيشرون (كاتب وخطيب روماني): 25، 260، 395

-ص-

الصفات الأخلاقية: 17، 71، 76، 83، 106، 113، 140، 211، 224، 239، 261، 363، 364، 366، 367

-ط-

الطبيعة الإنسانية: 22، 26، 27، 31، 45، 71، 76، 81، 92، 145، 191، 207، 255، 309، 354، 361، 412

-ع-

العاطفة المحبّة: 16، 29، 31، 33، 37، 38، 39، 213، 277، 296، 300، 321، 334، 386، 397، 401، 410

العبودية: 44، 134، 148، 194، 279، 378، 390، 398، 401، 406، 410

العدالة الطبيعية: 41، 67

-ف-

الفضيلة: 31، 48، 69، 89، 91، 94، 96، 97، 98، 100، 108، 110، 115، 221، 238، 240، 241، 242، 263، 264، 310، 335، 354، 358، 366، 368، 379، 383، 385، 391، 393، 400، 401، 414

-ق-

القوة العسكرية: 161، 336، 337، 338، 341، 342، 343، 344

القوة القومية: 211، 225، 332،

335، 345

القوى العقليّة: 17، 58، 172، 275

-ك-

كسينوفون (مؤرخ يوناني وكاتب فلسفي): 92، 238، 241

-ل-

الليبرالية: 265، 278، 308، 333

ليكرغوس (مشرّع أسطوري إسبرطيّ): 98، 137، 149، 232، 319

-م-

المتعة: 59، 76، 87، 89، 91، 181، 186، 241، 282، 331، 368، 371، 387، 409

المجالس القومية: 113، 137، 197

المصلحة: 29، 30، 31، 33، 37، 46، 60، 61، 67، 69، 70، 98، 154، 162، 198، 213، 216، 220، 222، 226، 242، 245، 277، 290، 346، 360، 382

المؤسسات الإقطاعية: 202، 204، 294، 298، 302

الملذّات: 72، 73، 182، 341، 377

مونتسكيو (فيلسوف فرنسي): 36، 106، 107، 108، 110، 112، 135

الميول: 27، 28، 200، 217، 237، 239، 264، 309

-ن-

النزاعات الأهلية: 44، 158، 194، 233، 265، 317، 328، 336، 382

النوع الإنساني: 15، 19، 148، 160، 383

-هـ-

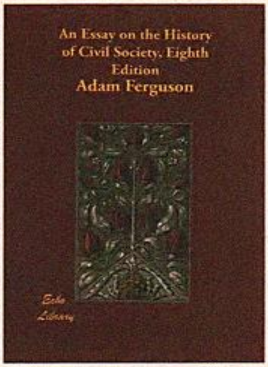
هنيبعل (قائد عسكري قرطاجي): 48، 213، 319، 342

هوميروس (شاعر ملحمي إغريقي): 66، 156، 238، 258، 291، 301

-و-

وسائل التسلية والراحة: 59، 74، 75، 85، 86، 94، 96، 178، 251، 256، 285، 286، 387

مقالة في تاريخ المجتمع المدني



- أصول المعرفة العلمية
- ثقافة علمية معاصرة
- فلسفة
- علوم إنسانية واجتماعية
- تقنيات وعلوم تطبيقية
- آداب وفنون
- لسانيات ومعاجم

المنظمة العربية للترجمة

يتناول هذا الكتاب تاريخ المجتمع المدني ويفترض أن فكرة المجتمع المدني بمعناها التقني مألوفة لدى القرّاء في الأقطار الأوروبية والأميركية عموماً، لا الأقطار العربية. فكلمات مثل الشعب والمجتمع (من دون تحديد) والجمهور هي أكثر شيوعاً. لذلك، فالكتاب يعرّف المجتمع المدني باستخدام مفاهيم الفيلسوف الألماني هيغل الذي كان أوّل من وظّف هذا التعبير بمعناه التقني الديالكتيكي المحدَّد.

لقد طبّق هيغل منطقه الديالكتيكي على المجتمع وتاريخه، فذكر أن هناك: أسرة ← مجتمعاً مدنياً ← دولة، وأن أهم خصائص الأسرة (أو الأسر) تتمثّل في أن أفرادها يعملون لمصلحة الأسر العامة. وعندما يكبر صغار الأسر ويغادرونها يدخلون في الساحة العامة للوطن أو للبيئة ليكوّنوا ما يسمى بالمجتمع المدني الذي يكوّن الدولة لفرض النظام والعمل للمصلحة العامة الشاملة.

• **آدم فيرغسون (1723-1816)**: فيلسوف اسكتلندي ومؤرّخ التنوير الاسكتلندي. وقد عُرف بـ «أبي علم الاجتماع الحديث». أما عمله الأكثر شهرةً فهو **مقالة في تاريخ المجتمع المدني**.

• **حيدر حاج اسماعيل**: أستاذ الفلسفة سابقاً في جامعة أوهايو في الولايات المتحدة الأميركية وفي جامعة بيروت العربية، وهو حالياً أستاذ الترجمة في الجامعة الأميركية للعلوم والتكنولوجيا.

ISBN 978-614-434-054-7

الثمـن: 26 دولاراً
أو ما يعادلها